مارك ليفي

اليوم الأول

مارك ليفي

اليوم الأول

ترجمة: جوزف كالوستيان

دار الخيال

للطباعة والنشر والتوزيع

La Premiere Jour

اليوم الأول

تأليف: مارك ليفي

ترجمة: جوزف كالوستيان

حقوق الطبعة الفرنسية محفوظة ©
Marc Levy / Susanna Lea 2010
©Associates
حقوق الطبعة العربية محفوظة للناشر ©

دار الخيال للطباعة والنشر والتوزيع
بناية يعقوبيان بلوك ب طابق 3 – شارع الكويت
المنارة – بيروت – 2036 6308
لبنان – تلفاكس: 009611-740110
E-mail: alkhayal@inco.com.lb

التنفيذ الفني دار الخيال للطباعة والنشر والتوزيع
الطبعة الأولى 2012

لا يجوز نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب في أي

شكل من الأشكال أو بأية وسيلة من الوسائل سواء
التصويرية أم الالكترونية أم الميكانيكية، بما في ذلك النسخ
الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو سواها وحفظ
المعلومات دون إذن خطي من الناشر.

إهداء

نحن جميعاً غبار النجوم

أندري براهيك

إلى بولين ولويس

توطئة

ــ أين يبدأ الفجر؟

كنت في تمام العاشرة من عمري، عندما طرحتُ هذا السؤال متصدياً لحيائي المَرَضي. التفت أستاذ العلوم منكسر النفس، هز كتفيه وواصل نسخ وظيفة النهار على اللوح الأسود، كما لو لم أكن موجوداً. حنيت رأسي فوق منضدتي متظاهراً بتجاهل نظرات رفاقي القاسية والساخرة، هؤلاء الرفاق الذين، مع ذلك لم يكونوا أكثر اطلاعاً مني على المسألة. أين يبدأ الفجر؟ وأين ينتهي؟ لماذا تضيء ملايين النجوم قبة السماء، من غير أن نتمكن من رؤية أو معرفة العوالم التي تنتسب إليها؟ كيف كانت بداية كل شيء؟

كنت، كل ليلة، إبان عهد الطفولة، ما أن يأوي والداي للنوم، حتى أنهض وأتوجه بخطى وئيدة إلى النافذة، فألصق وجهي بالشباك الخارجي وأرصد وجه السماء.

إسمي أدريانوس، لكنهم يدعونني منذ زمن بعيد أدريان، إلا في القرية التي أبصرت والدتي فيها النور. أنا عالم فيزياء فلكية، متخصص في النجوم الواقعة خارج

نطاق الشمس. يقوم مكتبي في كوور كورت، داخل حرم جامعة لندن، قسم الفلك، ولكن أكاد لا أتواجد هناك. الأرض مستديرة والفضاء منحنٍ، ولا بد لاكتشاف أسرار الكون أن يحب المرء السفر، ويضرب في الأرض دونما توقف، متوجهاً إلى البقاع الأكثر عزلة وانزواء، بحثاً عن أفضل نقطة للمراقبة، وعن الظلام الشامل، بمنأى عن المدن الكبرى. ويخيّل إلي أن ما كان يدفعني منذ سنين طوال إلى العزوف عن العيش على غرار السواد الأعظم من الناس، في بيت ما بصحبة زوجة وأولاد، هو الأمل في العثور على جواب للسؤال الذي ما انفك يراود أحلامي، وهو: أين يبدأ الفجر؟

وإذا أنا باشرت اليوم تحرير هذه اليوميات، فإن أملاً مغايراً يحدوني على أن يعثر أحدهم ذات يوم على هذه الصفحات، ويجد معها الشجاعة في سرد قصتها.

إن التواضع الأشد اقتراناً بالصدق بالنسبة إلى رجل علم هو أن يسلّم بأن لا شيء مستحيل. واليوم أدرك كم كنت بعيداً عن هذا التواضع، حتى مساء التقائي كيرا.

ما أتيح لي أن أعيشه خلال هذه الأشهر الأخيرة وسع حقل معارفي إلى حدود لا نهاية لها، وقلب رأساً على عقب كل ما كنت أعتقد أني أعرفه عن نشوء العالم.

الدفتر الأول

كانت الشمس تشرق من الطرف الشرقي لإفريقيا. ومن المحتمل أن الموقع الأثري في وادي «أومو» قد استنار بتباشير الفجر البرتقالية الأولى، غير أن هذا الصباح ما كان ليشبه أي صباح آخر. كانت كيرا تتفحص خط الأفق الذي ما زال يغشاه الظلام، وهي جالسة على حائط صغير من التراب الجاف، تشد على قدح القهوة المعدني، علّها تدفئ يديها. بضع قطرات من المطر تواثبت على الأرض المجدبة مثيرة هنا وهناك ذرات الغبار. فهرع فتى يافع باتجاهها وانضم إليها.

سألت كيرا وهي تدعك شعر الصبي: «هل استيقظت الآن من نومك؟».

هز هاري برأسه.

ــ كم مرة قلت لك ألا تركض عندما تدخل منطقة الحفريات؟ إذا تعثرت فسوف تُعرض للخطر بضعة أسابيع من العمل. وما يمكن أن تحطمه لا سبيل إلى التعويض عنه. هل ترى هذه الممرات التي تحدها جبال صغيرة؟ تصور، إذاً، أنها مخزن كبير من البورسلين في العراء.

أعرف أنها ليست ملعباً مثالياً لولد في مثل سنك، إلا أني لا أملك شيئاً أفضل أهبه لك.

ــ إنها ليست ملعبي، بل ملعبك أنت! ثم بخصوص مخزنك، يبدو أنه بالأحرى أشبه بمقبرة قديمة.

وأومأ هاري بإصبعه إلى جبهة الغيوم التي كانت تتقدم نحوهما.

فسأل الصبي: ما هذا؟

ــ لم أر قط سماء كهذه، لكن هذا لا يبشر بخير على الإطلاق.

ــ قد يكون رائعاً لو هطل المطر!

ــ تريد أن تقول قد تكون كارثة. هيا، ابحث عن قائد الفريق، أريد أن أجعل منطقة التنقيبات في مأمن من الخطر.

إندفع الفتى بسرعة قبل أن يتوقف على بعد خطوات من كيرا.

ــ هذه المرة لديك سبب وجيه للركض. هيا انطلق مسرعاً! أمرتْ ملوحة بيدها.

في البعيد، كانت السماء تشتد ظلاماً واكفهراراً، واقتلعت الزوبعة جانباً من القماش الذي كان يحمي رجمة من الحجارة.

غمغمت كيرا وهي تنزل من حائطها الصغير: لم يكن ينقصنا إلا هذا! ثم سلكت الطريق المؤدية إلى المخيم. والتقت في منتصفه قائد الفريق الذي تقدم لملاقاتها.

ــ إذا كان لا بد أن يهطل المطر، فينبغي تغطية أوسع ما يمكن من رقع الأرض. قوّي التربيعات، استنفر جميع رجالنا، واطلب العون من القرية، إذا دعت الحاجة.

أجاب قائد الفريق مستسلماً: لا يتعلق الأمر بالمطر، ونحن لا يسعنا أن نفعل شيئاً، والقرويون يلوذون الآن بالفرار.

كانت عاصفة من الغبار عملاقة، تجرها ريح الشمال، تتقدم نحوهما. في الأوقات العادية تسلك هذه الريح العاتية، التي تعبر صحراء العربية السعودية باتجاه الخليج، إلى ناحية الشرق، لكننا لم نعد في أوقات عادية. ومضى سباق الريح المدمرة ينعطف صوب الغرب، وتابع قائد الفريق شرحه إزاء نظرات كيرا القلقة.

ــ لقد سمعت لتوي إنذار الخطر الذي بثه المذياع،

سبق أن اكتسحت العاصفة إريتريا وتجاوزت الحدود منقضة علينا مباشرة. لا شيء قادر على مقاومتها، والشيء الوحيد الذي يمكن القيام به هو الهرب نحو القمم والاحتماء داخل الكهوف.

إعترضت كيرا، إذ لم يكن ممكناً هجر الموقع على هذا النحو.

ـ آنسة كيرا، هذه العظام التي يهمك أمرها كثيراً، بقيت مطمورة هنا طوال آلاف السنين، سنعاود التنقيب، أعدك بذلك، ولكن لا بد أن نكون أولاً على قيد الحياة لتحقيق ذلك. لا تضيعنّ الوقت، إذ لم يعد يتسع أمامنا الكثير منه.

ـ أين هاري؟

ـ لا علم لي به. أجاب قائد الفريق وهو يجيل النظر حواليه. لم أره هذا الصباح.

ـ ألم يحضر لإبلاغك؟

ـ كلا، كما قلت لك، سمعت الأنباء في المذياع، وأصدرت الأمر بالإخلاء، وجئت في الحال أبحث عنك.

السماء الآن مكفهرة، وعلى بعد بضعة كيلومترات،

غيمة من الرمل تتقدم كأنها موجة بين الأرض والسماء.

تركت كيرا قدحها المعدني يسقط من يدها ومضت راكضة. حادت عن الطريق لتهبط الرابية وصولاً إلى ضفة النهر، في أسفل المكان. بات من غير المستطاع أن تبقي عينيها مفتوحتين لأن الغبار الذي أثارته الريح كان يخدش وجهها، وما أن تصيح إسم هاري حتى تبتلع الرمل وتظن أنها على وشك الاختناق، لكنها لم تكف عن الصياح. واستطاعت، عبر الستار الرمادي الآخذ في التكاثف المستمر، تمييز الخيمة التي كان الصبي يأتي ويوقظها كل صباح، ليكتشفا بزوغ الشمس من أعالي الرابية.

ردت قطعة القماش، وإذا بخيمته فارغة. وقد اتخذ المخيم مظهر مدينة أشباح لا يسكنها بشر. وما زال من الممكن رؤية القرويين يتسلقون التلال لبلوغ الكهوف القريبة من القمم. تفحصت كيرا الخيام المجاورة، وهي تصيح بلا توقف إسم الصبي، إلا أن هدير العاصفة وحده استجاب لنداءاتها. عندها أمسك بها قائد الفريق وكاد يجرها بقوة، هي الشاخصة ببصرها إلى العلاء.

صاح عبر القماش الذي يغطي وجهه: لقد فات الأوان!

وشد كيرا إلى كتفه واتجه بها نحو ضفة النهر.

ــ هيا اركضي، تباً لك، اركضي!

ــ هاري!

ــ إنه، بكل تأكيد، وجد ملاذاً له في مكان ما، اسكتي وتمسكي بي.

مدّ عال من الغبار جدّ في إثرهما، وراح يتقدم بلا انقطاع. أما في الأسفل فكان النهر يغور بين جدارين صخريين عاليين، واكتشف قائد الفريق تجويفاً جذب إليه كيرا على عجل.

قال وهو يدفعها نحو القاع: هناك!

القضية متعلقة بلحظة، فالموجة العاتية تجاوزت علو ملجئهما المؤقت، جارفة معها الأتربة والحجارة وبقايا النباتات المقتلعة. في الداخل، تقوقعت كيرا وقائد فريقها على الأرض. وغرق الكهف في ظلام دامس. كان هدير العاصفة يصم الآذان. وأخذت الجدران تهتز فتساءلا ما إذا سينهار كل شيء ويطمرهما إلى الأبد.

ــ لعلهم سيجدون عظامنا بعد عشرة ملايين سنة، ومنها عظم عضدك مقابل عظم ساقي الأكبر، وترقوتك بجوار لوح كتفي. سوف يقرر علماء الإحاثة[1] زوجين من المزارعين، أو كنت أنت صياد النهر وأنا زوجتك، وقد

وورينا التراب هنا. وبالطبع إن غياب القرابين في لحدنا لن يسترعي الانتباه أبداً. سوف نصنف في فئة الهياكل العظمية العائدة لجماعات «شمكس»، وسنمضي بقية أيام الأبدية في قعر علبة كرتونية مصفوفة على رف متحف من المتاحف!

تذمر قائد الفريق: «الحقيقة، ليس الوقت وقت هزل وتنكيت، وليس الأمر مدعاة للتسلية، ثم من هم هؤلاء الـ «شمكس»؟

ـ أناس على شاكلتي يعملون دونما حساب للساعات لصنع أشياء لا يكترث لها في نهاية المطاف أحد، ويرون جهودهم تتلاشى في غضون ثوان، من دون أن يكون في وسعهم الإتيان بشيء.

ـ إذاً، من الأفضل أن يكون ثمة شخصان من الشموكس على قيد الحياة على أن يكونا في عداد الموتى.

ـ إنها وجهة نظر!

إستمر الهدير أيضاً دقائق طويلة الأَمد. وإن كانت أجزاء من التربة تنفصل من حين لآخر. فإن ملجأهما بدا صامداً.

تسلل الضوء مرة جديدة إلى الكهف فيما كانت العاصفة تبتعد. واستوى قائد الفريق على قدميه ومد يده إلى كيرا

كي يساعدها على النهوض، غير أنها رفضت هذه اليد.

وقالت: هل تتكرم بإغلاق الباب عند خروجك؟ أريد البقاء هنا، فأنا لست متيقنة من أنني راغبة في رؤية ما ينتظرنا.

نظر إليها قائد الفريق، مخيب الأمل.

وصاحت كيرا: هاري! واندفعت إلى الخارج.

كان كل شيء ينم عن الحزن والأسى. الأشجار التي تحيق بضفة النهر مقطعة الذوائب، والضفة، وهي في العادة «مغراء»، إتخذت لون التربة البنية التي غطتها من الآن فصاعداً. كان النهر يجرف أكداساً من الوحل باتجاه المصب على بعد كيلومترات من المكان، وما كانت حتى خيمة واحدة منتصبة داخل المخيم، كما لم تعد قرية الأكواخ صامدة أمام هجمات الريح. والمساكن المتزحزحة على مساحة عشرات الأمتار، قد تصدعت عقب ارتطامها بالصخور وجذوع الأشجار. كان القرويون في أعالي الرابية يغادرون ملاجئهم ليكتشفوا ما حل بقطيعهم ومزروعاتهم. امرأة في وادي «أومو» تبكي وهي تضم أولادها بين ذراعيها، وعلى مقربة منها احتشد أعضاء قبيلة أخرى. ولم يعثر على أي أثر لهاري.

أجالت كيرا نظرها في كل اتجاه، فلم تر سوى ثلاث جثث ممددة فوق ضفة النهر، فاستولى عليها القرف والاشمئزاز.

قال قائد الفريق وهو يرغمها على تحويل نظرها: لا بد أنه مختبئ في كهف من الكهوف، فلا تقلقي بالاً، إننا سنعثر عليه.

وتشبثت كيرا بذراعه، فارتقيا الرابية معاً. وكانت التربيعة على الهضبة حيث الحفريات قد اختفت بأكملها، وتغطت الأرض ببقايا ونفايات، إذ إن العاصفة أتت على كل شيء. وانحنت كيرا لتلتقط منظاراً لرصد الأرض. نفضت عنه الغبار بصورة آلية، غير أن زجاجتيي الآلة وجدتا معطوبتين، على نحو لا يمكن إصلاحه. وانطرح، في مكان غير بعيد، منصب مزواة (آلة لقياس الزوايا) قوائمه الثلاث عالية في الفضاء. وفجأة لاح وسط الدمار والخراب وجه الفتى هاري المذعور.

هرعت كيرا لملاقاته وضمته بين ذراعيها. لم يكن أمراً عادياً. وإذا هي عرفت من خلال كلمات أن تعّبر عن عطفها تجاه الذين تعودوا عليها، فإنها، من ناحية ثانية، لم تكن لتستسلم لأقل بادرة حنان. لكنها، هذه المرة، ضمت هاري بقوة شديدة، لدرجة أنه حاول الإفلات تقريباً

من عناقها.

وقالت، وهي تمسح التراب العالق بوجه الصبي: لقد أخفتني خوفاً لا مثيل له.

ــ أنا الذي أخفتك؟ بعد كل ما جرى، أنا الذي أخفتك؟ كرر هاري القول، وقد أخذ منه الاضطراب كل مأخذ.

لم تجب كيرا، إنما رفعت رأسها وتأملت ما بقي من عملها: لا شيء. حتى الحائط الصغير ذو التربة الجافة، الذي كانت كيرا لا تزال تجلس عليه هذا الصباح، إنهار بعدما اكتسحته ريح الشمال. في دقائق معدودة، مُنيت بخسارة كل شيء.

قال هاري: لقد أصيب مخزنك إصابة قاتلة.

تمتمت كيرا: ... مخزني من البورسلين.

دس هاري يده في يد كيرا، وانتظر أن تنسلّ منها. وكما هو شأنها دوماً قد تخطو خطوة إلى الأمام، متذرعة بأنها رأت شيئاً مهماً، ومهماً جداً، بحيث ينبغي التثبت من هويته في الحال. وفي ما بعد قد تلامس شعر الصبي، لتعتذر له أنها لم تعرف التحلي برقة القلب. إحتفظت يد كيرا، هذه المرة، باليد التي تقدمت إليها بمنأى عن الخبث فانطبقت أصابعها على راحة هاري.

قالت بصوت يكاد لا يسمع: إنه لأمر رديء.

ــ بإمكانك أن تعاودي الحفر، أليس كذلك؟

ــ لا، لم يعد ممكناً.

إعترض الصبي قائلاً: ما عليك إلا أن تذهبي في العمق.

ــ حتى لو ذهبت في العمق بات الوضع سيئاً أيضاً.

ــ ماذا سيحدث إذاً؟

تربعت كيرا على الأرض حزينة، فحذا هاري حذوها محترماً صمت المرأة الشابة.

ــ ستتركيني وترحلين، هذا كل ما في الأمر؟

ــ لم يعد لي عمل أزاوله.

ــ باستطاعتك أن تساعدي الناس على بناء القرية، كل شيء تحطم. والناس هنا أحسنوا مساعدتك.

ــ أجل، أتصور أن بمقدورنا أن ننجز ذلك خلال بضعة أيام، أو خلال بضعة أسابيع على أبعد تقدير، ثم أنت على حق، علينا أن نرحل.

ــ لماذا؟ إنك لسعيدة هنا. أليس كذلك؟

ــ أكثر من أي وقت مضى.

أكد الفتى: «إذاً عليك بالبقاء!».

عندئذ إنضم قائد الفريق إليهما، فنظرت كيرا إلى هاري وأفهمته أن عليه الآن أن يتركهما وحدهما. إبتعد هاري بضع خطوات.

قالت للفتى: لا تذهب إلى النهر.

ــ ولماذا هذا الاهتمام، ما دمت ترحلين؟

توسلت إليه كيرا: هاري!

غير أن الصبي كان قد انطلق في الاتجاه الذي منعته عنه تماماً.

سأل قائد الفريق مذهولاً: هل تتركين الورشة؟

ــ أفكر أنه لن يكون لنا، عما قريب، خيار آخر.

ــ لماذا خارت عزيمتك؟ يكفي أن تعاودي العمل، إذ ليست الإرادة الحسنة هي التي تفتقرين إليها.

ــ يا للأسف، ليست القضية مجرد مسألة إرادة، بل مسألة تمويل. فنحن لم يعد لدينا الآن مال لدفع أجور الرجال. كان أملي الوحيد تحقيق اكتشاف في وقت سريع

لكي يجددوا اعتماداتنا. إنني أخشى أن نعاني جميعاً من الآن فصاعداً من البطالة.

ــ والصغير؟ ماذا تنوين العمل به؟

أجابت كيرا منكسرة النفس: لست أدري.

ــ أنتِ صلة الوصل الوحيدة منذ أن توفيت أمه، لماذا لا تصطحبَينه معك؟

ــ لن يكون لدي التفويض، فقد يلقى القبض عليه عند الحدود، ويحتجز خلال أسابيع في مخيم قبل العودة به مجدداً إلى هنا.

ــ هذا، مع العلم أن الناس عندكم يعتقدون أننا متوحشون!

ــ أليس في مقدورك الاعتناء به؟

ــ أنا أجد الآن صعوبة في إعالة أسرتي، وأشك أن تقبل زوجتي فماً جديداً يتوجب إطعامه.

ثم إن هاري من قوم «المرسي» وينتمي إلى جماعات «أومو»، أما نحن فمن قوم «أحمرا». وكل هذا ينطوي على صعوبة شديدة. وأنت، يا كيرا، من غيرت اسمه، وعلمته لغتك خلال هذه الأعوام الثلاثة الأخيرة. أنتِ، إذا

جاز التعبير، تبنيته، لذا فأنت مسؤولة عنه. ولا يمكن التخلي عنه مرتين، إنه لن يتمكن من التماثل للشفاء.

ـ وماذا كنت تريدني أن أفعل؟ كان ينبغي طبعاً إعطاؤه إسماً، وهو لم يكن يتكلم عندما آويته في بيتي!

ـ عوضاً عن أن نتشاجر، فإن أول ما يجب القيام به هو البحث عنه، نظراً للهيئة التي بدا لنا فيها، وهو يغادرنا منذ قليل، وأشك أن يعاود ظهوره بمثل هذه السرعة.

كان زملاء كيرا يتجمعون حول منطقة الحفريات. الجو ثقيل، وكل منهم يلاحظ أهمية الأضرار. التفت الجميع صوب كيرا منتظرين تعليماتها.

استشاطت عالمة الآثار غضباً وقالت: لا تحدقوا فيّ بهذه الطريقة، فأنا لست أمكم.

إعترض أحد أعضاء الفريق: لقد خسرنا كل أدواتنا.

أجابت كيرا: في القرية موتى، وشاهدت ثلاث جثث في مياه النهر. أنا لا أبالي إطلاقاً بكيس منامتك.

واقترح آخر: علينا دفن الجثث في أسرع وقت، إذ لسنا بحاجة إلى وباء كوليرا ينضاف إلى مشكلاتنا.

سألت كيرا وقد ساورها الشك: هل من متطوعين؟ لم يرفع أحد يده.

عندئذٍ أعلنت كيرا: لنذهب إذاً جميعنا.

ــ من المستحسن أن ننتظر قدوم عائلاتهم للبحث عنهم، يجب أن نحترم التقاليد.

ألحت كيرا: لقد حاذرتْ ريح الشمال احترام شيء ما، لنعمل قبل أن تتلوث المياه.

وانطلق الموكب في السير.

إستغرق العمل المحزن بقية النهار؛ انتشلت الجثث من النهر، وحفرت القبور على مسافة بعيدة من الضفة، وأعيدت تغطيتها جميعاً بتلة صغيرة من الحجارة. كان كل واحد منهم يصلي على طريقته، ووفق عقيدته، مفكراً في أولئك الذين عاشرهم طوال الأعوام الثلاثة الأخيرة. وعند هبوط الظلامِ، تحلق علماء الآثار حول النار. كانت الليالي باردة قليلاً، ولم يبق ما يحتمي المرء به من البرد. كان أحدهم يتناوب على الحراسة فيما الآخرون ينامون قرب النار.

في الغد، أغاث الفريق القرويين؛ أعيد تجميع الأطفال، وتولت نساء القبيلة المسنات السهر عليهم، بينما كان

الشبان يجمعون كل ما من شأنه أن يساعد على إعادة بناء البيوت. هنا لم تكن مسألة التعاون المتبادل لتطرح لأنها كانت واضحة كل الوضوح. باشر جميعهم العمل، كل واحد منهم بالطبع على بينة مما يفعل. بعضهم يقطع الخشب، والبعض الآخر يجمع الأغصان لإعادة بناء الأكواخ، وآخرون يركضون في الحقول محاولين جمع الماعز والبقرات التي لم تقتلها العاصفة.

في الليلة الثانية، إستقبل القرويون فريق علماء الآثار وتقاسموا معهم وجبة طعامهم المتواضعة. وعلى الرغم من الحزن، والحداد الذي كادت ملامحه تظهر، رقصوا وغنوا لشكر الآلهة على صونها أولئك الذين ما زالوا ينعمون بالحياة.

كانت الأيام التالية متشابهة تماماً. وبعد أسبوعين، استعادت القرية تقريباً مظهرها الطبيعي، ولو أن الطبيعة ما انفكت تحمل آثار المأساة.

شكر زعيم القبيلة علماء الآثار، وطلبت كيرا منه أن يستقبلها على انفراد، حتى ولو كانت نظرات القرويين تنم عن عدم ارتياحهم إطلاقاً لأن تدخل امرأة غريبة كوخه، إلا أن الشيخ وافق على اللقاء اعترافاً بالجميل. وبعد أن استمع إلى طلب ضيفته، أقسم أن هاري لئن عاد إلى

الظهور، فأنه سيسهر عليه حتى عودة كيرا. وفي المقابل، كانت هذه قد قطعت وعداً بالعودة مجدداً. وهكذا أفهمها الزعيم أن المقابلة انتهت، وابتسم.

عبثاً حاول هاري الاختفاء، فهو ليس في مكان بعيد. وفي هذه الليالي الأخيرة، أتى حيوان غريب يختلس المواد الغذائية بينما كانت القرية غارقة في النوم، وآثار الحيوان الجوال شديدة الشبه بآثار أقدام فتى صغير.

بعد مضي تسعة أيام على العاصفة، جمعت كيرا فريقها معلنة أن الوقت قد حان لمغادرة إفريقيا. كان المذياع قد تعرض للتدمير، لذا لم يكن في وسعهم إلا الاعتماد على أنفسهم، فكان أمامهم خياران، إما السير باتجاه مدينة تورمي الصغيرة، وفيها سوف يجدون، بشيء من الحظ، عربة ستقودهم صوب الشمال، وحتى العاصمة. لكن الوصول إلى تورمي محفوف بالمخاطر، إذ لم يكن ثمة طريق بالمعنى الدقيق للكلمة، وعليهم اجتياز الجبال لتخطي بعض الممرات. أما الخيار الآخر فهو النزول في النهر نحو قعر الوادي؛ وفي أيام قليلة سيبلغون بحيرة توركانا، وبعبورها يصلون إلى لودوار في الجانب الكيني، حيث يوجد مطار صغير. وكانت طائرات مؤقتة تقوم عادة برحلات مكوكية لتموين المنطقة، وأخيراً قد يقبل أحد

الطيارين بركوبهم على متن طائرته.

صاح أحد المعاونين: بحيرة توركانا، إنها لفكرة رائعة!

وسألت كيرا وهي شديدة الانزعاج، وهل تفضل تسلق الجبال؟

ـ نحو أربعة عشر ألفاً عدد التماسيح التي تعج بها بحيرتك المنقذة. الحرارة في النهار ملهبة، والزوابع هنا هي الأشد عنفاً في القارة الإفريقية. وبالقليل من التجهيزات المتبقية لنا، والأحرى بنا أن ننتحر حالاً، ولكن سنكسب وقتاً ونتألم أقل!

لم يكن ثمة حل معجزة، فاقترحت عالمة الآثار إجراء تصويت برفع اليد. فتبنى كلهم بالإجماع إقتراح السير باتجاه البحيرة ما عدا صوتاً واحداً. وودّ قائد الفريق أن يواكبهم، لكن كان عليه أن يصعد نحو الشمال ويلتحق بأسرته. وشرعوا بمساعدة القرويين يجمعون بعض المؤن، وحدد برنامج الانطلاق في الغد مع ساعات النهار الأولى. لم تنم كيرا الليل كله، وتقلبت على فراش القش مئات المرات. فما أن كانت تطبق عينيها، حتى يتراءى لها وجه هاري. وكانت تعاود التفكير في يوم عادت أثناءه من رحلة تبعد عن المخيم عشرة كيلومترات، فالتقته. كان هاري وحيداً ومتروكاً أمام كوخ. لا أحد في الجوار، غير

أن هذا الطفل كان يحدق فيها وقد اعتصم بالصمت. ما العمل؟ أمواصلة الطريق كأن شيئاً لم يكن؟ جلست بجواره، إلا أنه لم ينبس بكلمة. ثم اكتشفت وهي تدخل رأسها في فتحة مسكن أمه المثير للشفقة، أنها فارقت الحياة منذ قليل. وسألت الصبي الصغير هل له عائلة، أو مكان تستطيع أن تقوده إليه، لكنه ظل لائذاً بالصمت، ما من أنة ندت عنه، وإنما هذه النظرة المتيقظة الثابتة. وبقيت كيرا ساعات طويلة إلى جانبه، دون أن تتفوه بكلمة، ثم قامت واستأنفت مسيرها. في الطريق، كانت متيقنة من إحساسها أنه يتبعها عن بعد، ويختبئ ما إن تلتفت إلى الوراء. ولكن عندما دنت من المخيم، لم تعثر على أي أثر له في الطريق من ورائها. وظنت في بداية الأمر أنه عاد أدراجه. وفي الغد، حين أبلغها قائد الفريق أن طعاماً سرق، شعرت كيرا بالارتياح.

إنقضت أسابيع طويلة قبل أن ينتهي الأمر بهما إلى الالتقاء مجدداً. كانت كيرا قد أصدرت الأمر بأن يتركوا دائماً في الليل، وبالقرب من خيمتها، وجبة طعام وماء للشرب. أما قائد الفريق فكان كل ليلة لا يكف عن الاعتراض؛ لقد اعتبرت هذه وسيلة ناجحة لاجتذاب النهابين. لكن الذي تريد كيرا أن تجعله أليفاً، لم يكن يملك شيئاً من سمات الحيوان المتوحش، بل هو مجرد طفل

متوحد ومذعور.

كلما مضى الوقت، بات تفكير كيرا منشغلاً بسلوك الطفل غير الاعتيادي. وفي المساء، كانت تترصد، وهي تحت خيمتها، ذاك الذي أسمته من قبل «هاري». لماذا هذا الإسم الشخصي؟ لم تكن تدري شيئاً، وإنما أتاها ذلك في أحلامها. وذات ليلة، جاءت كيرا بنفسها منتظرة أمام الصندوق، حيث وضع طعام الطفل. وكانت، هذه المرة، قد أعدت لوازم المائدة، وانتهى الأمر بأن اتخذ شكل مائدة عشاء، ليست منغرسة وسط أي مكان.

ظهر هاري في الدرب أعلى النهر. كتفاه ورأسه شامخة، ومشيته مهيبة. عندما وصل، صافحته كيرا، وشرع هو يأكل الطعام. تردد بداية، ثم جلس قبالتها. وهكذا تقاسما هذا العشاء الأول في العراء، وباشرت كيرا تعلم هاري كلماته الأولى. لم يردد الطفل أياً منها، لكنه سمّع في الغد، أثناء الطعام، جميع المفردات التي سمعها عشية البارحة، من دون أن يرتكب أي خطأ على الإطلاق.

لم يظهر هاري في وضح النهار إلا في وقت متأخر من الشهر. وفي يوم كانت كيرا تحفر الأرض بنعومة على أمل أن تكتشف أخيراً شيئاً ما، فدنا منها الصبي، وكانت

اللحظة التالية أشد اللحظات تفرداً وغرابة؛ أخذت كيرا تشرح لهاري كل حركة من حركاتها، من غير أن تكترث ما إذا فهم كلامها، ولماذا كان من الضروري لها أن تبحث بلا انقطاع عن هذه الأجزاء المتحجرة والصغيرة جداً، وكيف قد يدل كل جزء منها على الطريقة التي ظهر بها الإنسان على كوكبنا.

عاد هاري في اليوم التالي وفي الساعة نفسها، وأمضى العصر برمته بصحبة عالمة الآثار، وكرر الشيء ذاته في الأيام المقبلة، فكان يصل إلى موعده بدقة مذهلة في مراعاة الوقت، مع أن هاري لم تكن لديه ساعة. ثم مرت الأسابيع، والصبي لا يغادر المخيم أبداً، ولا أحد يحسب لذلك حساباً. وكان، قبل كل وجبة طعام، عند الظهيرة وفي المساء، يتحمل تأفف سخرة درس المفردات الذي تلقته إياه كيرا.

أرادت، هذه الليلة أيضاً، أن تسمع وقع خطواته، كما عندما كان يحوم حول خيمتها بانتظار أن تأذن له بالدخول. فهي سوف تحكي له أسطورة إفريقية من الأساطير الكثيرة التي تعرفها.

أنّى لها أن تسلك طريقها في الغد من غير أن تراه؟ الذهاب من دون التفوه بكلمة واحدة أسوأ من الهجر،

والصمت خيانة. أخذت كيرا في يدها الهدية التي قدمها هاري لها في أحد الأيام. وهي عبارة عن أداة غريبة مثبتة في طرف حزام صغير من جلد يتدلى ولا يفارق أبداً دائرة عنقها. كانت الهدية ثلاثية الشكل، ملساء وقاسية كـ «الأبنوس»، وكأنها اقتبست منه لونها. ولكن هل نحتت نحتاً في هذا الخشب؟ لم تكن كيرا على علم بذلك. فالأداة لا تشبه أي حلي من حلي القبيلة، وحتى زعيم القبيلة نفسه عجز عن تحديد منشئها. وعندما أرته إياها، هز العجوز برأسه، فهو يجهل ما يعني ذلك... ولعله لا ينبغي أن تحتفظ بها فوق جسدها. إلا أنها هدية من هاري... وحين سألته كيرا عن مصدرها، قال إنه وجدها يوماً على الجزيرة الصغيرة التي تتوسط بحيرة توركانا. إنه وجد هذا الكنز لدى هبوطه مع والده في فوهة بركان هامد منذ قرون، حيث يفيض بطمي ولا أخصب.

أعادت كيرا الحلي إلى صدرها وأطبقت عينيها، محاولة استعادة نومها الذي استعصى عليها.

وفي الصباح الباكر، جمعت حزمة متاعها وأيقظت زملاءها. رحلة طويلة كانت في انتظارهم. وبعد أن تناولوا فطوراً بسيطاً، إنطلق فريق علماء الآثار في مسيرتهم. كان الصيادون عرضوا عليهم قاربين خفيفين، يسع كل

منهما أربعة أشخاص. وقد اضطروا، في أماكن مختلفة إلى بلوغ اليابسة، وحمل القاربين لتفادي الشلالات.

كان القرويون محتشدين فوق ضفة النهر. وحده، رجل صغير تخلف عن التفقد. ضم قائد الفريق كيرا بين ذراعيه، ووجد صعوبة في كتم انفعاله. ثم صعدا على متن القاربين، فيما نزل الأطفال في الماء، ليساعدوهم على الإبتعاد عن الضفة، وتكفل التيار بإجراء الباقي ومضى يجرهم بهدوء.

شوهدت خلال الأميال الأولى التي قطعوها، أيد تلوّح من الحقول القريبة. لزمت كيرا الصمت، ترصد ذاك الذي كانت لا تزال تأمل رؤيته. ولكن حينما تفرع النهر قبل أن يتوارى بين جدارين عاليين من الصخور، تلاشت آخر آمالها . كانت قد ابتعدت كثيراً جداً.

وهمس ميشال، وهو زميل فرنسي لكيرا، على أتم التفاهم معها: لعل ذلك خير.

وودت الإجابة، إلا أنها كانت متشنجة الحلق.

أردف ميشال قائلاً: سوف يعود إلى حياته السابقة، لا تقلقي. وأنت لا داعي لأسفك. لولاك كان هاري مات من الجوع على الأرجح، ثم إن زعيم القرية قطع عليك وعداً

بالاعتناء به.

بينما كان النهر يغور أكثر قليلاً، ظهرت فجأة سيماء هاري فوق شاطئ رملي ضيق. نهضت كيرا بشكل مباغت، فأوشك القارب أن ينقلب، ولكن ميشال عاود التوازن إلى القارب. فيما كان زميلاه الآخران يتذمران. لم تلقِ كيرا بالاً للومهما، إذ لم تكن ترى إلا الصبي الصغير الذي يجلس القرفصاء وينظر إليها من بعيد.

ثم صاحت: سوف أعود ثانية، يا هاري، أقسم لك بالله!

لم يحر الطفل جواباً. ولكن هل اكتفى بسماع صوتها؟

وزعقت بأقوى ما استطاعت: لقد فتشت عنك في كل مكان. ولم أكن راغبة في السفر دون أن أراك. سأظل أشتاق إليك، يا ولدي الصغير، قالت وهي تنشج. إني سأشتاق إليك كثيراً. أقسم لك بأنني سأرجع، يجب أن تصدقني، هل تسمعني؟ أتوسل إليك، هاري، هيا قم لي بحركة، بإشارة صغيرة وبسيطة لتقول لي إنك تسمعني.

بيد أن الصبي لم تبدر عنه أية حركة، ولا أدنى إشارة. وما لبث أن توارت سيماؤه في منعطف النهر، ولم تر عالمة الآثار الشابة قط يد الصبي الصغير الذي كان يزف إليها وداعاً سريع الزوال.

* * *

هضبة أطاكاما، التشيلي

من المحال إغماض العين طوال الليل، فكلما أعتقد أخيراً أن النعاس سيغلبني، أستوي بقفزة فوق فراشي، يراودني إحساس رهيب بالاختناق لا يفارقني. لقد رفض أروان، وهو زميل أسترالي معتاد على الارتفاعات العالية، أن ينام منذ يوم وصوله. إنه يمارس اليوغا ويخلص بالكاد نفسه من المشكلة أما أنا حتى لو تلهيت، في الفترة التي كنت أعاشر فيها راقصة معاشرة مبهمة، بالذهاب مرتين في الأسبوع إلى قاعة متخصصة في جادة سلوان، فإن اتقاني هذه المادة التعليمية غير كاف تماماً لكي يسمح لجسمي بالتعويض عن آثار مثل هذا العلو. على ارتفاع خمسة آلاف متر فوق سطح البحر، ينخفض ضغط الأوكسجين بنسبة أربعين في المائة، وفي نهاية أيام عدة، يشعر المرء بداء الجبال إذ يتخثر الدم ويبلد الرأس ويفقد العقل منطقه وتغدو الكتابة خرقاء ويحرق أقل جهد جسدي طاقتك بصورة غير متكافئة. ولذلك أقدم العمال الذين اشتغلوا هنا ينصحوننا بتناول أكبر قدر ممكن من الغلوكوز. ومن الممكن أن يتحول هذا المكان إلى جنة حقيقية لمحبي الحلويات، فلا خطر إطلاقاً من زيادة وزن الإنسان، فالسكر ما أن يدخل المعدة حتى يتحول في

الجسم. هنا فقط، وعلى ارتفاع خمسة آلاف متر، يفقد المرء كل شهية للطعام. وأنا أكاد أتغذى بألواح الشوكولا دون سواه.

هضبة أطاكاما مكان خارج الزمان. إنها سهل واسع ومجدب، محاط بالجبال، ولو لم يكن صعباً التنفس فيه، لظن المرء أنه وسط صحراء من الحجارة. أما هنا فنحن على أحد سطوح العالم، إلا أنه لا يكاد يوجد أي شيء من العالم حولنا؛ لا نبات ولا حياة حيوانية، فقط حصى وغبار ترقى أعمارها إلى عشرين مليون سنة. والهواء الذي نتنشقه بصعوبة هو أشد أنواع الهواء جفافاً على الأرض، إنه خمسين مرة أكثر جفافاً مما هو عليه في «وادي الموت». والقمم التي تحدق بنا، عبثاً تحاول تجاوز الستة آلاف متر، إنها عارية من الثلوج. لهذا السبب بالضبط، نحن نشتغل هنا. وبما أنه لا وجود لأي أثر من الرطوبة، أعتبر هذا الموقع خير مكان لتلقي أوسع مشروع من مشاريع الفلك، شاهدت الأرضٍ ولادته على الإطلاق. إنه برهان يوشك أن يبدو مستحيلاً؛ إقامة أربعة وستين هوائياً مقرابياً، كل واحد منها بحجم مبنى من عشرة طوابق، وكلها مرتبطة في ما بينها. وما أن يتم إنشاؤها، حتى توصل بحاسبة الكترونية قادرة على إجراء ستة عشر مليار عملية في الثانية الواحدة. لماذا؟ وذلك للخروج من

الظلمة، وتصوير أكثر المجرات بعداً، واكتشاف تلك الفضاءات التي ما زالت إلى اليوم غير مرئية لنا، وربما التقاط صور عن اللحظات الأولى للكون.

قبل ثلاثة أعوام، التحقت بالمؤسسة الأوروبية للأبحاث الفلكية، وسافرت للعيش في التشيلي.

يقوم مركز عملي، عادة، على بعد مائة كيلومتر من هذا المكان، في مرصد سيلا، ويقع على أحد صدوع الكرة الأرضية الزلزالية، حيث تلتقي قارتان. إنهما كتلتان تنعمان بقدرة جبارة، أدتا قديماً من خلال تدافع الواحدة مع الأخرى، إلى نشوء سلسلة جبال الأند. وفي غضون ليلة حديثة العهد، تزلزلت الأرض من دون أن يقع جرحى، لكن ناكو وسنفوني ــ كل مرصد من مراصدنا يحمل إسماً ــ ينبغي أن يخضعا لأعمال الصيانة.

انتهز مدير المركز تعطل العمل القسري، فكلفنا أنا وأروان مهمة مراقبة تشغيل الهوائي الجبار الثالث في موقع أطاكاما. هوذا السبب الذي يجعلني أتنفس بصورة سيئة في هذه اللحظة، وذلك نتيجة زلزال سخيف قادني إلى هنا، على ارتفاع خمسة آلاف متر.

كان الفلكيون، لخمسة عشر عاماً، ما زالوا يناقشون وجود كواكب خارج نظامنا الشمسي. وقد قلت، التواضع

بالنسبة إلى العالم هو أن لا شيء مستحيل. وفي العقد الأخير، تم اكتشاف مائة وسبعين كوكباً سياراً، وكلها مختلفة جداً وضخمة جداً وقريبة جداً أو بعيدة جداً عن شموسها لتصلح مقارنتها بالأرض. وأعطانا الأمل في أن شكلاً من أشكال الحياة أتيح لها التطور... إلى الاكتشاف الذي حققه زملائي بعيد وصولي إلى التشيلي.

بفضل مرصد دانمركي أقيم في موقع سيلا، شاهدوا «أرضاً» أخرى، تقع على بعد خمسة وعشرين ألف سنة ضوئية من أرضنا.

إنها تقوم بدورة كاملة حول شمسها كل عشر سنوات من زمننا، مع أنها لا تكاد تكبر أرضنا خمسة أضعاف. ولكن من باستطاعته أن يؤكد أن الزمن على هذا الكوكب، القريب والبعيد في آن معاً، يجري ليشكل دقائق وساعات شبيهة بما يتوافر منها لدينا؟ وحتى لو كان هذا الكوكب بعيداً ثلاثة أضعاف أكثر عن شمسه، وحتى لو كانت درجة الحرارة فيه أشد برودة، فإنه يخيل إلينا أنه يستوفي الشروط الضرورية لولادة الحياة.

لم يكن هذا الاكتشاف ذا تأثير كاف ظاهرياً ليصبح موضوع إجماع الصحف، لذا أوشك أن يمر من غير أن يلفت الانتباه.

تأخر عملنا، خلال هذه الأشهر الأخيرة، جراء أعطال ونكبات، وتراءى لي أن رأس السنة بات يبدو صعباً علي. وفي غياب نتائج مقنعة، أصبحت أيامي في التشيلي معدودة. مع ذلك، ما كانت لي رغبة في الالتحاق بلندن، على الرغم من الصعوبات التي عانيتها للتأقلم مع الحياة في المرتفعات العالية، ولا كنت لأقايض مقابل كل ثروات الدنيا، الفضاءات التشيلية الكبرى والواح الشوكولا التي أتلذذ بها مقابل النافذة الصغيرة في مكتبي الضيق وطبق الفاصوليا البيضاء مع لحم البقر الذي يقدمه المطعم القائم في زاوية كووير كورت.

ها قد انقضت ثلاثة أسابيع على صعودنا إلى موقع أطاكاما، وجسمي لا يتكيف أبداً مع نقص الأوكسجين. وعندما يصبح المركز عملانياً، ستغدو الأبنية مكيفة الضغط، ولكن في انتظار أن يتم ذلك، لا بد أن نعيش في ظروف صعبة. يرى أروان أن لي وجهاً مخيفاً، ويرى أيضاً أن التحق مجدداً بمخيم القاعدة. منذ يومين، وهو يردد على مسامعي: «في الحقيقة، سينتهي الأمر بك إلى أن تصاب بمرض. وإذا أصبت بحادث وعائي دماغي، فسيفوتك الوقت كثيراً، عندها لا ينفع الندم».

ليست وجهة نظره عارية تماماً عن الصحة، لكن

رفضي الآن سيعني المجازفة بكل حظوظي للمشاركة في المغامرة الأسطورية التي يجري الإعداد لها هنا. فالتمكن من امتلاك معدات بمثل هذه القوة والموافقة على الانتساب إلى هذا الفريق هو حلم من أحلام اليقظة.

عند هبوط الليل، غادرنا بيتنا الخشبي، ومشينا نصف ساعة لبلوغ مكان الهوائي المرصدي الثالث للموقع. أروان يُعنى بضبط الاتجاهات، أما أنا فأؤمّن الكشف عن الموجات التي نلتقطها. هذه الموجات التي عبرت الفضاء تصل من أكوان جد بعيدة، بحيث أننا كنا عاجزين، لعشر سنوات خلت، عن تصور مجرد وجودها. كما أنا عاجز اليوم عن تصور اتساع الاكتشافات التي سنحققها، حين يتم وصل القطوع المكافئة الستين بين بعضها البعض وربطها بالحاسوب الإلكتروني المركزي.

سألني أروان: هل تحصل على شيء ما، وأنت جاثم على الجسر المعدني الذي يحاذي الطابق الثاني للهوائي؟

إني على يقين أنني أجبته، غير أن زميلي يكرر سؤاله. لعلي لم أتكلم بما يكفي من القوة؟ الهواء جاف والصوت ينتقل بشكل رديء.

ـــ أدريان، تباً لك، هل تستقبل إشارة ما؟

لا أريد أن أبقى على توازني خلال ساعات، فإني أتألم ألماً شديداً في النطق بوضوح. والبرد قارس جداً، يشق عليّ أن أتحسس أطراف أصابعي، وشفتاي مخدرتان.

ـ أدريان، أتسمعني؟

ـ بكل تأكيد أنا أسمعك، يا أروان، ولكن لماذا هو لا يسمعني؟

أسمع كذلك وقع خطاه، إنه ينزل مجدداً من محطّه العالي.

ـ ولكن ماذا تفعل في النهاية؟ تأفف وهو يقترب مني. بدا لي في هيئة مضحكة، وفجأة ترك أدواته وهرع في اتجاهي. دنا مني فرأيت وجهه يتشنج وملامحه تشي بالقلق.

ـ أدريان، أنفك! أنت تنزف دماً!

رفعني قليلاً وساعدني على النهوض، لم أكن أدرك أنني جالس على الأرض. فك أروان آلته «التوكي ـ ووكي» مستنجداً. حاولت منعه، إذ ليس ثمة أي مبرر لإزعاج الآخرين، إنها مجرد إصابة بالتعب، لكن يدي لم تعودا تطاوعاني، فأنا عاجز عن تنسيق أدنى حركة.

إبتسم، فعبارة «ماي داي» لا تستعمل إلا في الطيرانِ، ولكن ليس الحين حين لعب بإعطاء دروس، وبخاصة أن ضحكة سخيفة مجنونة تملكًتني.

كلما ضحكت ازداد أروان قلقاً، هو الذي يعاتبني دوماً لأنني لا أواجه الأمور باستخفاف بما فيه الكفاية. لقد بلغ السيل الزبى.

سمعت في آلته التوكي ــ ووكي صوتاً أليفاً يطقطق، إلا أنني لم أستطع أن أجمع بينه وبين أي إسم. ووضّح أروان أنني منحرف المزاج، هذا ليس صحيحاً، لم أشعر قط بمثل هذه السعادة. كل شيء هنا جميل، حتى أروان الذي تجعّد وجهه مع ذلك بالتغضنات. لست أدري، إن كان ذلك، نتيجة ضوء القمر الخاص هذا المساء ولكن أراه مهيب الطلعة. ثم لا أجد شيئاً غريباً على الإطلاق، وصوته الهامد في البداية لم يعد يصل إلى أذني، كما لو أنه يلعب تلك اللعبة التي يمارسها أولاد الأزقة بنطق كلمات من دون التلفظ بها. أصبح وجهه ضبابياً، وبتّ أنا على وشك الإغماء.

مكث أروان بجانبي كأنه أخ لي. لم يتوقف عن هزي، وأفلح أيضاً في إيقاظي. أضمرت له الحقد بعض الشيء فوراً، منذ ذلك الوقت الذي استعصى علي النوم، ولم يكن ذلك ينم عن كرم أخلاقه. بعد عشر دقائق على الاستغاثة،

وصلت سيارة جيب. كان الزملاء قد سارعوا إلى ارتداء ملابسهم وعادوا بي إلى المخيم. فأمر الطبيب بإخلائي على الفور. وهكذا كانت نهاية مشاريعي في أطاكاما. ثم قامت مروحية بإعادتي إلى مستشفى سان بيدرو، الرابض في الوادي. ولم يخرجوني إلا بعد ثلاثة أيام قضيتها تحت منشّقة أوكسجين. وجاء أروان يعودني برفقة مدير مركز الأبحاث، وقد تملكه الأسف لأنه توجب عليه أن يدع «عالماً من وزني» يغادرنا. تقبلت هذا الإطراء على أنه جائزة ترضية، وهو عبارة عن بضع كلمات مطمئنة ينبغي وضعها بين أمتعتي قبل العثور ثانية على مكتبي في الجامعة، وفوق نافذتي المطلة على الشارع وعلى المطعم القائم في زاوية كوور كورت وطبقه المهول المكون من فاصوليا بيضاء باللحم. هنالك، سيتوجب علي أن أتجاهل نظرات زملائي اللندنيين الساخرة، إذ يتعذر على المرء أن يتخلص كلياً من ذكريات طفولته. إنها تطاردك كأنها أشباح، وتتسلط على حياتك وأنت شخص راشد.

وسواء ارتديت بذلة وربطة عنق، أو ميدعة عالم، أو ثوب مهرج، فإن الطفل الذي كنته يظل إلى الأبد في قرارة ذاتك.

ليس وارداً أن أسلك الطريق البوليفية، فمتعرجاتها

تتسلق حتى ارتفاع أربعة آلاف متر. أقلتني طائرة من سان بيدرو حتى الأرجنتين. ومن هنالك أقلعت بي الطائرة ثانية باتجاه لندن وبينما كنت أشاهد عبر الكوة سلسلة جبال الآند تتباعد، كرهت هذا السفر، وأنا حانق على ما يجري لي، لو عرفت ما كان ينتظرني، لكانت حالتي النفسية على الأرجح مختلفة.

لندن

إن رذاذ المطر الذي يتساقط على المدينة يذكرني بمكاني. سيارة التاكسي تسلك الأوتوستراد، ويكفي أن أغمض عيني حتى تعاودني رائحة السقوف والجدران الخشبية التي تزين بهو الجامعة، ورائحة الأرضية المصقولة بالشمع وحتى قماطر زملائي الجلدية ومعاطفهم المطرية المبللة.

من المستحيل العودة إلى منزلي، لأنني ما استطعت العثور على مفتاح شقتي حين حزمت حقائبي في التشيلي. إنني أتذكر أن في حوزتي مفتاحاً ثانياً موجوداً في درج مكتبي. وسأنتظر السهرة لملاقاة الغبار الذي راح يغزو منزلي منذ رحيلي.

كان الوقت قد تجاوز الظهيرة، لما وصلت أمام مباني الأكاديمية الإدارية. ندت عني تنهيدة أخيرة ودخلت المبنى الذي سأستعيد فيه عما قريب وظيفتي.

ــ أدريان! يا للمفاجأة أن نراك هنا!

إنه والتر كلنكورس، المسؤول عن الهيئة التعليمية. لا شك أنه ترقب وصولي من نافذته وأتصوره كعادته يهبط

السلم، متباطئاً في مشيته، متوقفاً أمام مرآة الطابق الأول الكبيرة كيما يطوي الشعرات الشقر القليلة التي ما انفكت تكسو صلعته.

ــ عزيزي والتر! إن المفاجأة متبادلة أيضاً.

ــ لهذا السبب تقريباً، أنا لم أذهب، يا صديقي، إلى البيرو، ومن المألوف أن تجدني في كنف جدراننا على أن ألتقيك هنا.

ــ كنت في التشيلي، والتر.

ــ التشيلي طبعاً، وبكل تأكيد، بماذا كنت أفكر؟ وقصة الارتفاع هذه... لقد سمعت بالحادث المؤسف الذي تعرضت له. يا للخسارة، أليس كذلك؟

ينتمي والتر إلى فئة أولئك الأشخاص القادرين على إبداء شعور صادق بالوداعة فيما هم في قرارة أنفسهم يخفون قزماً قبيح الشكل يتلوى من الضحك على حسابك. إنه أحد الأفراد النادرين في مملكتنا، الذي يمكن من مجرد رؤيته أن يقتنع بالتأكيد عنزات إنكلترا وبقراتها بالزهد في مراعيها الخصبة والتحول إلى آكلات لحوم.

ــ لقد خصصت لك فطوري، فأنت ضيفي، قال واضعاً يديه على خصره.

كان ينبغي، لكي ينفق والتر من تلقاء نفسه بضع استرلينيات، أن يكون مفوضاً من قبل الأكاديمية، أو أن يكون لديه شيء مهم جداً يسألنيه.

ما أن وضعت حقيبتي في حجرة الملابس ــ إذ لم يكن بي حاجة إلى التسلق حتى مكتبي لأكتشف سقط المتاع الذي ينتظرني ــ حتى خرجت مجدداً إلى الشارع. هذه المرة برفقة والتر الذي يعجز عنه الوصف.

ما إن جلسنا حول طاولة في المطعم، حتى طلب تلقائياً وجبتَي طعام يوميتين، وكأسي شراب أحمر رديء ــ إذاً الأكاديمية هي التي أولمت ــ ومال إلي كما لو أنه يخاف أن يسمع جيراننا الحديث الذي سيدور بيننا.

ــ يا لحسن حظك أن تعيش مغامرة مماثلة، هذا أمر غير قابل للتصديق... وأتصور كم كان العمل ممتعاً في موقع أطاكاما!

عجباً! لم يخطئ والتر البلد هذه المرة وحسب، بل تذكر حتى المكان الذي كنت مقيماً فيه الأسبوع الفائت أيضاً. إن مجرد تذكر المكان نقلني إلى رحابة المشاهد الطبيعية التشيلية، وروعة طلوع القمر في وسط العصر تماماً، وصفاء الليالي وألق قبة السماء الذي لا يضاهيه شيء.

ـ أتسمعني، أدريان؟

إعترفت لمضيفي أني فقدت مؤقتاً سياق الحديث.

ـ أفهم كل ذلك وهو أمر طبيعي جداً؛ فبين إصابتك الأخيرة بالإرهاق وهذا السفر الطويل، لا أترك لك الوقت إطلاقاً لاستعادة وعيك، أرجوك أن تعذرني، أدريان.

ـ حسناً، والتر، لنكف عن هذه السلامات في ما بيننا! الواقع أنني دفعت ثمن وعكة خفيفة على ارتفاع خمسة آلاف متر، وبضعة أيام أمضيتها في المستشفى على سرير صممه درويش فاسد خصوصاً. وقضيت للتو خمساً وعشرين ساعة في الطائرة وركبتاي مضمومتان إلى ذقني. إذاً لنسع إلى هدفنا مباشرة. هل خفضت رتبتي في وظائفي؟ أممنوعة إقامتي في المختبر؟ ومطرود من الأكاديمية، هل هذا هو المقصود؟

ـ ولكن يا لها من أفكار، أدريان! كان من الممكن أن يقع الحادث لأي منا. إنما العكس هو الصحيح، فالجميع هنا معجبون بالعمل الذي أنجزته في أطاكاما.

ـ توقف عن ترداد هذا الإسم في سياق كل جملتين، من فضلك، وقل لي ما الذي يسوّغ لك أن تقدم لي هذا الطبق اليومي المهول؟

ــ لنا خدمة صغيرة نطلبها منك.

ــ نحن؟

تابع والتر للحال: نعم، أخيراً الأكاديمية التي أنت عضو فيها، أدريان.

ــ أي نوع من الخدمة؟

ــ من النوع الذي يسمح لك بالذهاب ثانية إلى التشيلي خلال بضعة أشهر، هذه المرة، كان والتر نجح في لفت انتباهي.

تمتم والتر: إنه لموضوع دقيق، أدريان، لأن الأمر يتعلق بمشكلة مالية.

ــ أي مال؟

ــ المال الذي تحتاج إليه الأكاديمية لاستئناف نشاطاتها، ودفع أجور باحثيها، وبدل إيجارها، ناهيك بترميم السقف الذي أخذ يزداد قليلاً تفتتاً كل يوم. وإذا استمر هطول المطر على هذا النحو، فسيتوجب علي عما قريب انتعال جزمة من الكاوتشوك لأحرر تقارير العمل.

ــ إنه لخطر تتعرض له بإقامتك في الطابق الأخير، الطابق الوحيد الذي ينعم بقليل من النور. وأنا لست وريث

ثروة ضخمة ولا مرمّم بناء، يا والتر. في أي شيء إذاً قد تخدم مؤهلاتي الأكاديمية؟

ــ بالضبط، لست بصفتك عضواً في الأكاديمية تقدر أن تقدم لنا خدمة، وإنما بصفتك عالم فيزياء فلكية ممتاز.

ــ وهو يعمل، مع ذلك، من أجل الأكاديمية؟

ــ بالطبع! ولكن ليس بالضرورة في إطار المهمة التي نريد أن نوكلها إليه.

ناديت الخادمة من بعيد، وأعدت إليها الفاصوليا البيضاء بلحم البقر المهولة وصحني الشستر؛ أما والتر فلزم الصمت.

ــ والتر، إشرح لي بدقة ما تتوقعه مني، وإلا فأنا، ما إن ألتهم الجبنة البيضاء، أنتقل إلى الحلوى البوربونية، وعلى حسابك طبعاً.

رضخ والتر لطلبي، وكانت حسابات الأكاديمية جافة في مثل جفاف الهواء فوق هضبة أطاكاما. ما من أمل في إضافة مرتقبة في الميزانية؛ مجرد الوقت الضروري لقبول دوائر الدولة الطلب، وفي هذه الحال، قد يتمكن والتر من اصطياد سمك التروتة في مكتبه.

ثم أردف يقول: من غير اللائق أن تلجأ مؤسستنا المدهشة إلى الهبات، فالصحافة سوف تعلم بذلك عاجلاً أو آجلاً، وتورد صدى الخبر الشائن.

في غضون شهرين، سوف تنظم مؤسسة تعرف بمؤسسة والش حفلة، وتخصص، كعادتها، كل عام، دخلاً لمن سيقدم أمام هيئة تحكيمها مشروع بحث يعتبر واعداً للغاية.

وسألت: ما قيمة هذه الهبة السخية؟

ــ مليونا ليرة استرلينية.

ــ إنها، في الواقع، سخية جداً! غير أني لا أرى أبداً شيئاً ما يمكنني أن أفيدكم به.

ــ أعمالك، أدريان! في وسعك أن تقدمها وتفوز بالجائزة... التي ستسلمها لنا بملء إرادتك. ومن الجلي أن الصحافة ستجد في ذلك بادرة من رجل رفيع التهذيب، متجرد، وعارف الجميل تجاه المؤسسة التي تدعم أبحاثه منذ زمن بعيد. وهكذا يخرج شرفك متنامياً، وشرف الأكاديمية سالماً، ويغدو الوضع المالي لدائرتنا متوازناً تقريباً.

ــ وفي ما يخص الأهمية المحتملة التي أعلقها على

المال، قلت وأنا أشير إلى الخادمة أن تملأ كأسي مجدداً، تكفي زيارة البيت المؤلف من غرفتين الذي أقطنه لتبديد كل شك بشأن هذا الموضوع؛ وفي المقابل، عندما تقولون «عارف الجميل تجاه المؤسسة التي تدعم أبحاثه»، أود أن أعرف إلى أي شيء تلمحون؟ أإلى المكتب الذي أشغله؟ أم إلى اللوازم والأشغال التي أقتنيها بدراهمي الخاصة، وقد تملكني العياء لأن طلباتي مصيرها دائماً الإخفاق؟

ــ ثمة رحلتك التشيلية، ونحن، على ما أعلم، دعمناك!

ــ دعمتموني؟ إنك تتحدث عن البعثة التي شاركت فيها في نطاق عطلة غير مدفوعة؟

ــ نحن دعمنا ترشيحك.

ــ والتر، لا تكن إنكليزياً بهذا القدر، من فضلك! أنتم لم تثقوا بأبحاثي قط!

ــ إكتشاف النجم الأصلي، أُم جميع المجرات، ستعترفون أنه، كمشروع، طموح ومحفوف قليلاً بالمخاطر.

ــ إنه بمثل خطر تقديم هذا المشروع أمام مؤسسة والش، أليس كذلك؟

كان القديس برنار يقول: الضرورات تبيح المحظورات.

ــ وهل يوافقك تماماً أن أعلق تحت عنقي برميلاً صغيراً، على ما أتصور؟

ــ حسناً، دعك من هذا الأمر، أدريان. كنتَ قد قلت لهم، إنك لن توافق على ذلك. إذ رفضت دوماً كل سلطة، والمسألة ليست حادثاً عرضياً ذا صلة بالنقص في الأوكسجين، بإمكانه أن يغيرك إلى هذا الحد.

ــ ألأنك لست الإنسان الوحيد الذي خطرت بباله هذه الفكرة الملتوية؟

ــ لا، لقد اجتمع مجلس الإدارة واكتفيت أنا باقتراح أسماء باحثين قد يواتيهم الحظ في ربح المليوني ليرة إسترلينية.

ــ من هم المرشحون الآخرون؟

ــ لم أجدهم...

طلب والتر ورقة الحساب.

ــ أنا الذي دعوتك، والتر. هذا لن يرمم سقف الأكاديمية، ولكنك تستطيع دائماً أن تشتري جزمة.

سددت الحساب وغادرنا المطعم. كان المطر قد توقف.

ــ هل تعلم، أدريان، أنني لا أكن لك أي عداء.

ــ ولا حتى أنا، والتر.

ــ إني على يقين أننا إذا وضعنا شيئاً من ذواتنا، نستطيع أن نتفاهم تماماً.

ــ إذا كنت أنت القائل.

أما بقية نزهتنا القصيرة انقضت في صمت. صعدنا مجدداً شارع كوير كورت. كانت خطانا منتظمة، الواحدة على إيقاع الأخرى. وأشار الحارس إلينا من محرسه. عندما دخلت المبنى الرئيسي، سلمت على والتر وتوجهت نحو الجناح حيث يوجد مكتبي. إلتفت والتر وهو على درجة السلم الكبير الأولى وشكرني على الفطور. بعد ساعة، كنت لا أزال أجدّ في دخول تلك الغرفة القذرة حيث كنت أعمل. كانت الرطوبة قد خلخلت إطار الباب وعبثاً حاولت السحب أو الدفع، كل جهودي ذهبت مع الريح. عندما شعرت بالعياء، انتهى الأمر بي إلى الرفض وعدت أدراجي. بعد كل ذلك، كان لا بد أن يكون هناك ما يكفي من الترتيب ينتظرني في البيت، ولن يكون لدي بعد الظهر متسع من الوقت للنجاح في إنجازه.

باريس

فتحت كيرا عينيها ونظرت صوب النافذة. كانت الأسطحة المبللة تتلألأ في ضوء انفراج الطقس. تمطت عالمة الآثار على امتداد طولها، وألقت عنها الغطاء وغادرت فراشها. كانت خزانات المطبخ الصغير فارغة، باستثناء كيس شاي صغير وجدته في علبة معدنية قديمة. وكانت ساعة الفرن الصغيرة تشير إلى الخامسة مساء، وساعة الحائط إلى الحادية عشرة إلا ربعاً. أما المنبه القديم الموضوع فوق منضدة السرير فتشير إلى الثانية والثلث نهاراً. تناولت الهاتف واتصلت بأختها.

ــ كم الساعة؟

ــ صباح الخير، كيرا.

ــ صباح النور، جان، كم الساعة؟

ــ الثانية ظهراً، عما قريب.

ــ متأخرة إلى هذا الحد؟

ــ جئت أبحث عنك في المطار قبل البارحة كيرا!

ــ لقد نمت ستاً وثلاثين ساعة.

ــ هذا يتعلق بالساعة التي نمت فيها.

ــ هل أنت منشغلة؟

ــ أنا في مكتبي داخل المتحف، أشتغل. وافيني إلى رصيف برانلي، سأصطحبك للغداء.

ــ جان؟

كانت أختها قد علقت سماعة الهاتف.

خرجت كيرا من غرفة الحمام، فتشت خزانة الثياب في الغرفة بحثاً عن ملابس نظيفة. لم يبق شيء من حوائج السفر العائدة إليها. لقد جرفت ريح الشمال كل شيء. عثرت على «جينز» مستعمل، «ولكن ما زال يفي بالغرض»، وقميص رياضي «ليس دميماً في النهاية»، وسترة قديمة جداً من جلد تضفي أثراً ضئيلاً على مشيتها. بعد ارتداء ثيابها، جففت شعرها، وطلت وجهها بالمساحيق بسرعة أمام مرآة المدخل، وأقفلت باب الاستوديو. وفور نزولها إلى الشارع، صعدت إلى حافلة وشقت طريقاً لها حتى الزجاج. لافتات المخازن، الأرصفة المكتظة بالمشاة وتعرقل السير... غليان العاصمة، كل ذلك كان مثيراً للنشوة بعد الأشهر الطويلة المنصرمة بعيداً عن كل شيء. غادرت كيرا الحافلة المثيرة للاختناق وفق ذوقها، ومشت

على امتداد الرصيف وتوقفت قليلاً لتنظر إلى النهر أثناء انسيابه. لم تكونا ضفتي أومو، بل جسور باريس، وهي مع ذلك بارعة الجمال.

لدى وصولها أمام متحف فنون وحضارات إفريقيا وآسيا وأوقيانيا والأمريكتين، أدهشتها الحديقة العمودية. كان المبنى قيد الإنشاء، وعندما غادرت باريس، والنباتات الماتعة التي تغطي واجهة المتحف تبدو وكأنها مأثرة حقيقية من مآثر التكنولوجيا.

سألت جان: فتانة، أليس كذلك؟

إنتفضت كيرا.

ــ لم أرك وأنت تأتين.

ــ أنا، بلى، أجابت أختها مشيرة إلى نافذة المكتب. كنت أراقبك. مفرطة هي هذه النباتات، أليس كذلك؟

ــ هنالك حيث عشت، كنت أشعر بصعوبة إنبات الخضار بالشكل الأفقي، لذا كانت على طول الجدران... ماذا تريدين أن أقول لك..؟

ــ لا تبدئي بلعب دور السيئة الطبع، هيا اتبعيني.

رافقت جان كيرا إلى داخل المتحف. في أعلى الدرابزين

الذي يرتفع بشكل حلزوني كأنه شريط طويل، كان الزائر يكتشف لوحة شاسعة تومئ إلى الفضاءات الجغرافية الكبرى التي ترد منها الأدوات المعروضة وعددها ثلاثة آلاف وخمس مائة أداة. كان هذا المتحف، وهو ملتقى الحضارات والمعتقدات وأساليب الحياة وأنماط التفكير المختلفة، يسمح، بخطوات قليلة، بالانتقال من أوقيانيا إلى آسيا، ومن الأميركيتين إلى إفريقيا. توقفت كيرا أمام مجموعة من الأقمشة الإفريقية.

ـ إذا كنت تحبين هذا المكان فستجدين متسعاً من الوقت للعودة مجدداً ورؤية أختك، وذلك بعدد المرات التي تتمنينها، سأجعلك تخطين خطوة. والآن إنسَ بلادك أثيوبيا خلال ثانيتين وتعالي، ألحت جان وهي تشد كيرا من ساعدها.

وعند جلوسها إلى مائدة المطعم البانورامي، طلبت جان كأسي شاي بالنعناع وحلويات شرقية.

سألتها جان: ما هي مشاريعك؟ هل ستمكثين بعض الوقت في باريس؟

ـ مهمتي الأولى هي فشل في كل بهائه وروعته. لقد خسرنا جميع معداتنا، وكان الفريق الذي أقوده على شفير الإعياء، وليست مروعة «النتيجة الجيدة» كما يقول

أصدقاؤنا الإنكليز. أشك كثيراً أن يتيحوا لي الفرصة للذهاب ثانية بهذه السرعة.

ــ على حد علمي إن ما حدث هنالك، ليس نتيجة غلطتك.

ــ أنا أمارس مهنة، حيث لا اعتبار إلا للنتائج. ثلاثة أعوام من العمل من دون العثور على شيء ما مقنع حقاً... لي من الثالبين أكثر ما لي من الأنصار. وهذا بصراحة مقرف، لأني كنت واثقة من أننا اقتربنا من الهدف. لو اتسع لدينا الوقت، لكنا توصلنا إلى العثور على شيء ما... لزمت كيرا الصمت؛ امرأة ذات أصل صومالي، فكرت وهي تنظر إلى عناصر زخرف وألوان الثوب الذي ترتديه، جلست إلى مائدة مجاورة. شاهد الصبي الصغير الذي كان ممسكاً أمه بيده أَن كيرا تراقبه فغمزته.

ــ كم من الوقت ستمضين كذلك في تقليب التراب والرمل؟ خمسة، عشرة أعوام، كل أيام حياتك؟

ــ حسناً، يا جان، لقد اشتقت إليك كثيراً، ولكن ليس بما فيه الكفاية لأتحمل دروسك بدرهمين من أختك الكبرى، أجابت كيرا من غير أن تتمكن من تحويل نظرها عن الصبي الصغير الذي يلتهم البوظة.

تابعت جان: ألا ترغبين يوماً في إنجاب أولاد؟

هتفت كيرا: أرجوك، لا تعاودي الكرة بنغمتك عن الساعة البيولوجية.

همست جان: لا تلقي علي درسك المألوف، إنه يسدي إلي خدمة، أنا أعمل هنا. أم أنك تعتقدين أن الأمر لا يعنيك، وأنك تستطيعين تحدي الزمن؟

ـ لا أبالي أبداً بدقات ساعتك الشيطانية، يا جان. أنا لا يسعني إنجاب ولد.

أعادت أخت كيرا وضع كأس الشاي فوق المائدة.

تمتمت: أنا آسفة. لماذا لم تقولي لي ذلك؟ ماذا بك؟

ـ إطمئني، لا شيء وراثياً.

ألحت جان: لماذا لا تقدرين على إنجاب ولد؟

ـ لأني لم أعرف رجلاً طيلة حياتي! وهذا سبب وجيه، أليس كذلك؟ حسناً، لا أظن أن حديثك ممل، بالرغم من أن... لكن ينبغي أن أتسوق. ثلاجتي فارغة تماماً لدرجة أنه يمكن سماع الصدى في داخلها.

أكدت جان: مستحيل، هذا المساء، فأنت تتعشين

وتنامين في البيت.

ــ إكراماً لمن؟

ــ لأني أنا كذلك لا رجل لي في حياتي، ولي رغبة في رؤيتك.

أمضيا ما تبقى من العصر معاً. وهيأت جان لأختها فرصة زيارة للمتحف بإشراف مرشد. ولما كانت مطلعة على الحب الذي تكنه كيرا للقارة الإفريقية، ألحت على أن تقدمها لأحد أصدقائها، الذي يعمل في جمعية الإفريقيين العلمية. يبدو إيفوري في سن السبعين، لكن عمره، في الحقيقة، يتجاوز ذلك بسنوات، والأرجح يتجاوز الثمانين. أما هو فكان يحرص على سرية عمره، كما لو كان كنزاً ثميناً، وذلك على الأرجح خشية أن يضطروه إلى طلب إحالته على التقاعد، وهو ما لم يكن يريد سماع الكلام عنه.

استقبل العالم بعلم الأجناس زائرتيه في المكتب الصغير الذي يشغله في آخر الممشى، وسأل كيرا عن الأشهر الأخيرة التي قضتها في أثيوبيا. وفجأة، اجتذب الحلي الذي تحمله حول عنقها نظر العجوز.

سأل: أين اشتريت هذه الجوهرة الجميلة؟

ـــ لم اشترها، إنها هدية.

ـــ وهل أفادوك بمنشئها؟

ـــ كلا، إنها مجرد شيء تافه، عثر عليها صبي صغير في التراب وقدمها لي هدية، لماذا؟

ـــ هل تسمحين بأن أنظر إلى هذه الهدية من قريب، إذ لم تعد حدة بصري كما كانت من قبل؟

أمرّت كيرا الشريط فوق رأسها، ومدت العقد للعالم.

ـــ يا لغرابتها، لم أشاهد يوماً شيئاً من هذا القبيل. سأكون عاجزاً تماماً عن ذكر أي قبيلة تمكنت من إعطائها هذا المظهر، فالعمل يبدو في منتهى الكمال.

ـــ أعلم ذلك، لقد تساءلت أنا أيضاً عنها. ولكي أقول لك الحقيقة كاملة، أعتقد أن الأمر يتعلق ببساطة بقطعة خشب صقلتها الرياح ومياه النهر.

تمتم الرجل، الذي بدا مع ذلك عرضة للشك: ممكن، وماذا لو حاولنا أن نعرف عنها أكثر قليلاً؟

أجابت كيرا مترددة: نعم، إذا أردت، ولست متيقنة من أن النتيجة ستكون ذات شأن كبير.

قال العجوز: ربما، وربما لا. عودي لرؤيتي في الغد، أردف قائلاً وهو يعيد العقد إلى صاحبته. سنحاول معاً الإجابة عن هذا السؤال على الأقل. أنا سعيد بالتعرف إليك. بوسعي أخيراً أن أضفي وجهاً على الأخت التي طالما حدثتني عنها جان. إلى اللقاء في الغد إذاً؟ أضاف وهو يوصلها إلى باب مكتبه.

لندن

أقطن في لندن داخل زقاق، تم تحويل مرائب قديمة فيه لعربات الخيل والاصطبلات إلى بيوت صغيرة. إن لم يكن من السهل دائماً السير دونما تعثر على البلاط القديم، فإن المكان ما زال يحتفظ بسحر الزمن الماضي الذي حط رحاله في الدرب. والبيت الريفي الصغير المحاذي لبيتي كانت تملكه أغاثا كريستي، ولم أتذكر أن المفاتيح ليست معي، إلا عندما وصلت أمام بابي. أظلمت السماء وبدأ مطر مدرار ينهمر ويبلّلك في صميم العظام. كانت جارتي تغلق نوافذها، فلمحتني وسلمت علي. إنتهزت المناسبة لأسألها ما إذا ستجيز لي مرة أخرى ـ لم تكن للأسف! المرة الأولى ـ المرور عبر بستانها. فتحت لي بمنتهى اللطف، فبلغت، وأنا أقفز فوق السياج، مؤخرة بيتي. وإذ لم يكن الباب الخلفي قد جرى إصلاحه، ولم أكن أرى بأي أعجوبة سيتم ذلك، كانت ضربة خفيفة خاطفة على مسكة الباب كافية للدخول أخيراً إلى البيت.

كنت مرهقاً، ولم يكن غضبي قد سكن بعد لوجودي في إنكلترا، ولكن فكرة العثور ثانية على بيتي، وعلى أدواتي النادرة الموشاة في أسواق البراغيث بالعاصمة وقضاء

سهرة هادئة، كان كل ذلك يغمرني بنوع من الفرح.

كان هذا الهدوء قصير الأمد. قُرِع الباب، ولما كنت عاجزاً عن فتحه، حتى من الداخل، تسلقت الطابق الأول لأكتشف منِ الطارق، فإذا بوالتر في أسفل الزقاق، متصبباً مطراً وثملاً قليلاً بشكل محسوس.

ــ لا يحق لك أن تدعني أسقط، أدريان!

لكني لم أحملك قط، على ما أعلم، يا والتر!

صاح بملء حنجرته: ليس هذا وقت التلاعب بالألفاظ الغامضة، كل مصيري المهني رهن يديك.

فتحت جارتي نافذتها مجدداً واقترحت أيضاً أن تُدخل ضيفي عبر بستانها. هذه المساهمة الطيبة أثلجت صدرها، وأضافت إذا ما كان ممكناً على هذا النحو تفادي إيقاظ الجيران كافة.

قال وهو يحطّ فجأة في قاعة استقبالي: يؤسفني أن أفرض نفسي بهذه الطريقة، ولكن لا خيار لي. لا بأس، مع ذلك، لبيت مؤلف من غرفتين!

ــ غرفة في الطابق الأرضي، وثانية في الطابق الأعلى!

ـــ أجل، أخيراً ليست هذه هي الفكرة التي كونتها عن بيت متواضع ذي غرفتين. وهل تمكنت براتبك أن تمنح نفسك هذا البيت الريفي الصغير؟

ـــ أنت لم تأت، والتر، في هذه الساعة لكي تخمن ميراثي؟

ـــ لا، أنا آسف. في الحقيقة، عليك، أدريان أن تساعدني.

ـــ إن جئت أيضاً لتحدثني عن هذا المشروع غير المعقول مع مؤسسة والش، فإنك تضيع وقتك.

ـــ أو تريد أن تعرف لماذا لم يدعم أحد قط أعمالك في الأكاديمية؟ لأنك شخص متوحد ومخيف، إنك لا تعمل إلا لنفسك، ولا تندمج في أي فريق.

ـــ حسناً، أنا مسرور لأنك أحطتني بمثل هذه الدقة. يا لها من صورة شخصية مغرية! هل لك أن تكف عن فتح خزاناتي؟ فهناك بجوار المدخنة بعض المشروبات إن كان ذلك ما تبحث عنه.

لم يصرف والتر وقتاً طويلاً في الكشف عن الزجاجة. تناول كأسين من على الرف وتمدد على الأريكة.

ــ إنه لأمر غريب عندك!

ــ ألكوني زرتك، ربما؟

ــ لا تتهكم، أدريان، أوتعتقد أني سآتي لأتذلل هكذا أمامك لو كان عندي حل آخر؟

ــ لا أرى ما العيب في شرب كأسين معتقين، خمسة عشر عاماً!

تابع ضيفي ــ الذي لم أكن مع ذلك دعوته ــ وجثا على ركبتيه: أدريان أنت أملي الوحيد. هل ينبغي أن أتوسل إليك؟

ــ أرجوك، والتر، ليس هذا ــ في جميع الأحوال ــ لا حظ لي إطلاقاً في الفوز بهذه الجائزة. لماذا تحمّل نفسك إذاً كل هذا الألم؟

ــ أنت، بكل تأكيد، تملك الحظوظ، ومشروعك هو الأشد إثارة للاهتمام والأكثر طموحاً مما أتيحت لي قراءته منذ دخولي الأكاديمية.

ــ إذا كنت تعتقد أن تستميلني بالإطراءات المثيرة للمشاعر، تستطيع الاحتفاظ بالزجاجة والانتهاء منها في بيتك. فلي رغبة أكيدة في النوم، يا والتر.

ــ أنا لا أتملقك، لقد قرأت حقاً أطروحتك، أدريان. إنها موثقة... كل التوثيق.

كان زميلي في حالة يرثى لها. ما كنت رأيته على هذه الشاكلة، هو الذي عادة كثير التحفظ، أو شبه متعال. والأدهى من كل ذلك أنه بدا لي صادقاً. كنت قد كرست الأعوام العشرة الأخيرة للبحث بين مجرات بعيدة عن كوكب شبيه بكوكبنا، ولم يكن ثمة خلق كثير ليدعم أعمالي في الأكاديمية. هذا التحول، ولو كان انتهازياً، يسليني مع ذلك.

ــ لنفترض أنني فزت بالدخل المالي...

فور تفوهي بهذا الكلام، ضم والتر يديه كما لو أنه يستعد لتلاوة صلاة.

ــ طمأنتني، والتر، هل أنت سكران؟

ــ تماماً، أدريان، ولكن استمّر في كلامك، أتوسل إليك.

ــ هلاّ ما زلت واعياً بما فيه الكفاية للإجابة عن بعض الأسئلة البسيطة؟

ــ بكل تأكيد، إن لم تتأخر كثيراً في طرحها علي.

ــ لنفترض أن لي حظاً ضئيلاً في الفوز بهذه الجائزة

وأنني حولتها للحال، بصفتي رجلاً رفيع التهذيب إلى الأكاديمية، أي قسم من هذا المبلغ سيكون مجلسنا مستعداً لتخصيصه لأبحاثي؟

تنحنح والتر.

ــ هل يعتبر ربع المبلغ، في رأيك، عرضاً معقولاً؟ وبالطبع سوف نضع مكتباً صغيراً جديداً تحت تصرفك، وفتاة مساعدة ذات دوام كامل، وإذا كنت تتمنى يمكن إعفاء بعض الزملاء من أشغالهم وإلحاقهم بأعمالك.

ــ لا، ليس هذا بالأخص!

ــ إذاً ما من زميل واحد... وماذا بشأن الفتاة المساعدة؟

أعدت خدمة كأس والتر. كان المطر يشتد عنفاً، ولم يكن من الإنسانية في شيء أن أتركه يذهب في مثل هذا الطقس ولا سيما في الهيئة التي هو فيها.

ــ رديء برديء، سآتي لك بغطاء وستنام على الأريكة.

ــ لا أريد أن أفرض نفسي...

ــ لقد تم كل شيء.

ـ وماذا من أجل المؤسسة؟

ـ متى سيجري هذا الاحتفال؟

ـ في غضون شهرين.

ـ والمهلة المحددة لتقديم الترشيحات؟

ـ ثلاثة أسابيع.

ـ أما الفتاة المساعدة فسأفكر في شأنها، ولكن باشروا بفتح باب مكتبي ثانية.

ـ باكراً، وأضع مكتبي تحت تصرفك التام.

ـ إنك على وشك توريطي في قصة غريبة، والتر.

ـ لا تصدق ذلك. إن مؤسسة والش طالما منحت تعويضاً للمشاريع الأشد إبداعاً، وأعضاء لجنتها تقدر كل ما هو، كما يقال، جد طليعي.

ساورني الشك في أن هذه العبارة الأخيرة، وقد خرجت من فم والتر، أن تكون مشفوعة بالعطف بقدر ما يمكن أن يتراءى لي. غير أن الرجل كان محرجاً والوقت لا يساعد على اللوم والتعنيف. كان ينبغي أن أتخذ قراراً في أقرب وقت ممكن. وبالطبع، يبدو احتمال فوزي بالجائزة ضئيلاً

جداً جداً، ولكنني كنت مستعداً للقيام بأي شيء من أجل العودة ثانية إلى أطاكاما، إذاً ما الذي كنت سأخسره؟

ــ أنا موافق، والتر. إني أجازف بنفسي كي أجعلها أضحوكة للناس جهاراً، ولكن بشرط واحد: إذا ربحنا تعدني بوضعي في طائرة متوجهة إلى سنتياغو خلال الأيام الثلاثين التالية.

ــ سأرافقك شخصياً إلى المطار، إني أعدك بذلك، أدريان.

ــ إذاً، في هذه الحال، الصفقة معقودة بيننا!

إنتفض والتر من فوق أريكته، ترنح وعاود الجلوس على الفور.

ــ يكفي ما شربنا هذا المساء. خذ هذا الغطاء من الصوف، سيدفئك طوال الليل.

ــ أدريان، هل لي أن أسألك ما الذي كان «سيئاً بسيء»؟

ــ سهرتي، يا والتر!

باريس

كانت كيرا قد غفت في سرير أختها. زجاجة نبيذ مقبول، ووجبة طعام وكلمات طليقة على مدى السهرة، ثم مشاهدة فيلم قديم بالأسود والأبيض تم عرضه على شبكة التلفزيون والطواف بالطقطقات التي استصحبتها «جين كلي» كان آخر ذكريات الليل. عندما أيقظها ضوء النهار، أخذ نبيذ العشية، الذي لم يكن ربما مقبولاً جداً، يقرع صدغيها.

سألت كيرا وهي تدخل المطبخ: ألعلنا أفرطنا في الشرب؟

أجابت جان، مقطبة وجهها: أجل! لقد أحضرت لك القهوة.

جلست جان إلى الطاولة وحدّقت في المرآة المعلقة على الحائط، حيث انعكس وجه أختها ووجهها هي أيضاً.

سألت كيرا: ما بالك تنظرين إلي هكذا؟

ــ لا شيء.

ــ أنت تمعنين النظر فيّ من خلال المرآة، بينما أنا جالسة قبالتك، وتقولين لا شيء؟

ــ إنه لشبيه قليلاً عندما تكونين في المقلب الآخر من

العالم. لقد فقدتُ عادة أن تكوني بقربي. هناك صور لك في كل مكان تقريباً في هذه الشقة. ولدي حتى واحدة تُركت في درج مكتبي بالمتحف، ويتفق لي أن أقول لك كل يومٍ مساء الخير أو صباح الخير؛ وفي الأوقات العصيبة قليلاً، أجري معك محادثات طويلة، إلى أن يتبين لي أنها ليست محادثات وإنما أحاديث منفردة (مونولوجات). لماذا لا تتصلين بي أبداً؟ لو كلفت نفسك عناء ذلك، ربما كنتُ شعرت أنك أقل بعداً عني. سَحقاً لك، أنا أختك يا كيرا!

ــ حسناً، جان، توقفي عن الكلام حالاً. إن إحدى حسنات العزوبية النادرة هي عدم التعرض للألم جراء مشاحنة زوجية، إذاً، من فضلك، لا مشاحنة بيننا! ليس هنالك غرف للهاتف في وادي أومو، ولا شبكة خليوية، إنما قمر اتصالات فحسب يعمل عندما يحلو له. كل مرة ذهبت إلى جيما، اتصلت بك.

ــ كل شهرين؟ ويا لِها من أوقات متواطئة! «هل أنت بخير؟.. الخط ليس مهولاً... متى تعودين؟.. لا أعلم شيئاً. في أبعد وقت ممكن، هنا الحفريات متواصلة أبداً، وأنت والمتحف وعشيقك؟.. عشيقي يدعى جيروم، منذ ثلاثة أعوام، بوسعك أن تتذكريه!..» لقد انفصلت عنه، ولكن لم يكن لدي الوقت ولا الرغبة في قول هذا الأمر لك، ثم ما

الجدوى من ذلك، كلمتان أو ثلاث أكثر وكنت تعلقين سماعة الهاتف.

ـ إن أختك، يا جان، سيئة التهذيب، تتمتع بكل صفات فتاة أنانية قذرة، أليس كذلك؟ إلا أنك مسؤولة جزئياً، لأنك أنت الفتاة البكر وطالما كنت قدوتي.

ـ دعك من هذا، كيرا.

ـ سأتخلى عن ذلك بكل تأكيد، ولن أشارك في لعبتك!

ـ أي لعبة؟

ـ أي منا كلتينا ستنجح في تجريم الأخرى! أنا قبالتك، وليس في الصورة ولا في المرآة، أنظري إذاً فيّ وكلميني.

نهضت جان، لكن كيرا أمسكت بها من معصمها، مرغمة إياها على الجلوس.

ـ أنت تؤلميني، يا غبية.

ـ أنا عالمة إحاثة (البقايا المتحجرة للكائنات الحية)، أنا لا أعمل في متحف، ولم يتسع لي الوقت للتعرف إلى بطرس ما، أو أنطوان، أو جيروم منذ سنتين، لا ولد لي، وقد واتاني الحظ في مزاولة مهنة صعبة أحبها، والعيش حباً لا غبار عليه. ولئن كنت أنت ضجرة من حياتك، فلا

تقذفي بحسراتك في وجهي، وإذا اشتقت إلي، فابحثي عن طريقة أشد لطفاً للبوح بهذا الاشتياق

تمتمت جان وهي تغادر المطبخ: أنا مشتاقة إليك، كيرا.

تأملت كيرا إنعكاس ظلها في المرآة.

وهمست: أنا حقاً ملكة الحمقاوات.

إبتسمت جان من غرفة الحمام الملاصقة، والمفصولة بحاجز رقيق، وهي تنظف أسنانها بالفرشاة.

في بداية العصر، إجتازت كيرا رصيف برانلي للالتحاق بأختها في المتحف، وقررت، قبل أن تجدها في مكتبها، أن تمنح نفسها زيارة إلى المعرض الدائم. كانت تنظر بإعجاب إلى قناع، يحدوها الأمل بالكشف عن منشئه، وإذا بصوت يهمس في أذنها:

إنه قناع مالنكي، مصدره مالي. وهو ليس قطعة قديمة بشكل خاص، غير أنه جميل جداً.

إنتفضت كيرا قبل أن تتعرف إلى إيفوري الذي استقبلها البارحة.

ــ أخشى أن تكون أختك لا تزال في الاجتماع. حاولت الالتحاق بها قبل لحظات، ولكن بلغني أنها ستكون منشغلة

أيضاً خلال ساعة أخرى.

ـ بلغك ذلك؟

ـ المتاحف عوالم صغيرة، ذات نظام تراتبي بين دوائرها، وأقسامها، ومجال صلاحياتها. والإنسان حيوان غريب، بحاجة لأن يعيش في مجتمع، ولا يمكنه الامتناع عن تقطيعه. وهذا على الأرجح ما بقي لنا من غريزة التجمع، واستحداث فسحات جماعية للاطمئنان إلى مخاوفنا. ولكني أزعجك بثرثراتي. وعليك أن تعلمي كل هذا خيراً مني، أليس كذلك؟

ردت كيرا: أنت رجل طيب غريب الأطوار.

أجاب إيفوري، ضاحكاً بطيبة خاطر: على الأرجح. وماذا لو ناقشنا كل هذه الأمور حول شراب مرطب في البستان؟ الهواء لطيف، والأَولى بنا أن نغتنم هذه الفرصة.

ـ النقاش حول ماذا؟

ـ حسناً، حول ما يكونه رجل طيب غريب الأطوار؟ كنت سأطرح عليك هذا السؤال.

جذب إيفوري كيرا نحو المقهى القائم في ساحة المتحف. كانت الطاولات، وسط العصر، شاغرة كلها

تقريباً. إجتازت كيرا أكثرها بعداً عن تمثال «مؤاي».

تابع إيفوري: هل اكتشفت شيئاً ذا شأن على امتداد ضفاف نهر أومو؟

ـ وجدت صبياً صغيراً في العاشرة من عمره كان قد فقد والديه. أما من وجهة نظر علم الآثار فالأمر محدود جداً.

ـ أما من وجهة نظر الطفل، فأتصور أنه أهم بكثير من بضعة عظام مطمورة في التراب. وأعتقد أن الأحوال الجوية الرديئة دمرت أعمالك وطردتك من موقع حفرياتك.

ـ عاصفة قوية حقاً لكي تعود بي إلى هنا!

ـ وهي غير مألوفة بالنسبة إلى المنطقة. ما كانت ريح الشمال لتنعطف إطلاقاً باتجاه الغرب.

ـ كيف أنت على علم بكل هذا؟ أتصور أن ذلك لم يكن حديث كل الصحف؟

ـ لا، وأنا متفق عليه، إنما أختك هي التي حدثتني عن أحداثك المؤسفة. وأنا بطبيعتي فضولي، وأحياناً أكثر من اللزوم، وقد اكتفيت بالنقر على ملامس حاسوبي.

ـ ماذا يمكنني أن أخبرك أكثر من ذلك لأشبع فضولك؟

ــ عمَّ كنت تبحثين فعلاً في وادي أومو؟

ــ سيد إيفوري، لو قلت لك ذلك، لازداد حظي إحصائياً بأنك تسخر مني أكثر مما تهتم بأعمالي.

ــ آنسة كيرا، لو كانت الإحصائيات تحكمت بحياتي لكنت درست الرياضيات وليس علم الأناسة (الإنتروبولوجيا). جرّبي إذاً حظك.

تفرست كيرا في وجه محدثها، فتبين لها أن لهذا الرجل نظرة آسرة.

ــ كنت أبحث عن أجداد توماي. وأتصور أحياناً أنني اكتشفت حتى أبوي جد الجد.

ــ لا أقل من ذلك؟ إنك تريدين العثور على أقدم هيكل عظمي يمكن أن يمت بصلة إلى الجنس البشري؟ الإنسان الصفر!

ــ أليس ذلك ما نبحث عنه جميعاً، فلماذا أمنع نفسي من هذا الحلم؟

ــ ولماذا في وادي أومو؟

ــ لعلها الغريزة الأنثوية!

ــ عند صيادة الآثار المتحجرة؟ بكل جدية!

أجابت كيرا: لقد أصبت الهدف. في نهاية القرن العشرين، كنا واثقين من أن لوسي[2]، وهي امرأة ماتت قبل أكثر من ثلاثة ملايين سنة بقليل، هي أم الجنس البشري. وفي غضون العقد الأخير، اكتشف علماء الإحاثة، وهو ما أريد أن أعلمك إياه، عظاماً لأشباه إنسان يعود تاريخها إلى ثمانية ملايين سنة. وما زالت جماعة العلماء تناقش مختلف السلالات التي ينبغي، أو لا، ربطها بالجنس البشري. أن يكون أسلافنا من ذوي قدمين أو من ذوي أربع قوائم، ليس هذا ما يعنيني. ولا أعتقد أن هذا هو السجال الحقيقي الدائر حول أصل الإنسان. جميعهم لا يفكرون إلا في آلية الهيكل العظمي، وفي نمط العيش والتغذية.

إقتربت خادمة المقهى فصرفها إيفوري بحركة من يده.

ــ هوذا ما يدعو إلى الزهو والغرور، ما الذي يحدد أصل الإنسان في رأيك؟

ــ الفكر، المشاعر، العقل! ليس كوننا نباتيين أو آكلي لحوم ولا درجة الخفة التي اكتسبناها في طريقة مشيتنا هي التي تجعلنا نختلف عن سائر الأجناس. نحن نريد أن نعرف من أين أتينا بغض النظر عما نحن عليه اليوم:

غزاة يتميزون بمنتهى التعقيد وبتنوع غير قابل للتصديق، وهم قادرون على الحب، والقتل، والبناء وتدمير الذات، والصمود إزاء غريزة البقاء التي تتحكم بسلوك كل الأجناس الحيوانية الأخرى.

نحن مزودون بذكاء خارق ومعرفة دائمة التطور، ومع ذلك نحن أحياناً جد جهلة. ولكن علينا أن نطلب مشروبنا، وهذه هي المرة الثانية التي تحاول خادمتنا أن تجرب حظها.

طلب إيفوري فنجان شاي ومال نحو كيرا.

ـ إنك لم تقولي لي لماذا وادي أومو، ولا ما كنت، من ناحية ثانية، تبحثين عنه فعلاً.

ـ نحن، سواء أكنا أوروبيين، آسيويين أو أفارقة، وأياً كان لون بشرتنا، نحمل جميعاً جيناً مماثلاً تمام المماثلة وعددنا بالمليارات، وكل منا مختلف عن الآخر، ومع ذلك، ننحدر جميعنا من كائن واحد. كيف ظهر على الأرض ولماذا؟ هذا هو ما أبحث عنه، الإنسان الأول! وأنا مستعدة للاعتقاد أن له من العمر أكثر من عشرة أو عشرين مليون سنة.

ـ في عز الباليوجين (النصف الأول من العصر

الجيولوجي الثالث)؟ إنك فقدتِ رأسك.

ــ أترى، كنت محقة بشأن الإحصائيات، والآن أنا التي أزعجك بحكاياتي.

ــ قلت إنك فقدت الرأس، وليس العقل!

ــ إنه لشعور مرهف من جانبك. وأنتَ، إيفوري، أية أبحاث تقوم بها؟

لقد بلغت من العمر مرحلة يكتفي فيها المرء بالتظاهر، ويتظاهر جميع الناس حواليك بأنهم لا يحسبون حساباً لذلك. لم أعد أبحث عن شيء، لقد ولجت في العمر الذي يفضل فيه المرء ترتيب ملفاته على أن يفتح ملفات جديدة. لا تجربي حتى أن تسأليني، فهو سر سأحمله معي إلى القبر.

ومالت كيرا بدورها نحو إيفوري، كاشفة عن العقد الذي تحمله حول عنقها.

ــ أنت لا تصنع مثله!

ــ إنه للطف منك أن تقولي لي هذا الكلام، ولكن أعرفه! أترغبين في معرفة المزيد عن هذه الأداة الغريبة؟

ــ لقد قلت لكَ ذلك، إنه مجرد هدية قدمها لي صبي

صغير.

ـ غير أنك قلت لي أيضاً، البارحة، إنه تستهويك معرفة منشئه الأصلي.

ـ في الواقع، لمَ لا؟

ـ في وسعنا أن نبدأ بمحاولة تحديد تاريخٍ له؟ فإذا كان بالفعل قطعة خشبية لا، يغير فإن تحليلاً بسيطاً للكربون قادر على إفادتنا به.

ـ بشرط ألا يرقى تاريخه إلى أكثر من خمسين ألف سنة.

ـ هل تتصورين أنه قديم إلى هذا الحد؟

ـ مذ تعرفت إليكَ، إيفوري، بت أرتاب في مسائل العمر...

أجاب المعلم العجوز، ناهضاً: أفضل أن آخذ هذا الكلام على مأخذ المديح. هيا اتبعيني.

ـ لا تقل لي إن ثمة مسرّعاً للجسيمات مخبأ في الطبقات تحت الأرضية للمتحف؟

أجاب إيفوري ضاحكاً: لا، لن أقول لك ذلك.

ـ وأنتَ، أليس لك أيضاً صديق قديم في ساكلاي، سيقلب برنامج الأبحاث في مفوضية الطاقة الذرية رأساً على عقب، ليدرس فقط عقدي؟

ـ ليس كذلك، وأنا آسف تماماً، أؤكد لك ذلك.

ـ إذاً، أين نحن ذاهبان؟

ـ إلى مكتبي، وأين تريدين أن نذهب؟

تبعت كيرا إيفوري حتى المصاعد، وكانت تهمّ بسؤاله، لكنّ هذا الأخير لم يدع لها الوقت.

قال قبل أن تنبس حتى بكلمة: إذا كنت تتوقعين أن نكون جالسين بارتياح، أعدك بأنك ستوفرين على نفسك الكثير من الأسئلة الفارغة.

وارتفعت قمرة المصعد باتجاه الطابق الثالث.

جلس إيفوري وراء مكتبه ودعا كيرا إلى الجلوس على متّكأ. وما لبثت أن قامت لترى عن كثب ما كان يمكن فعلاً أن ينقر على ملامس حاسوبه.

ـ إنه الانترنت! وأنا مذ اكتشفت هذه الحيلة، صرت أبله. لو تعرفين عدد الساعات التي أقضيها هنا! لحسن الحظ أني أرمل، وإلاّ اعتقدت أن هذه الهواية كانت قتلت زوجتي،

أو أنها هي التي قتلتني. أتعلمين أن على «الاسطوانة» ــ هذه كلمة متطورة للغاية علمني إياها طلابي، باختصار على الأسطوانة والشاشة ــ يمكن قول هذا أيضاً ــ لم نفتش عن معلومة، وإنما «نغوغلها» (google)! أليس هذا مضحكاً؟ إني لأعشق هذه المفردات الجديدة، والأغرب أنه عندما يفوتني لفظ، أنقره على الانترنت، وفي الحال أحصل على معناه، أقول لك إننا نجد كل شيء تقريباً، حتى مختبرات خاصة تمارس تحاليل الكربون 14، رائع، أليس كذلك؟

ــ كم عمرك في الحقيقة، إيفوري؟

ــ أنا أعيد ابتكاره كل يوم، كيرا، المهم ألا تستسلمي للإهمال.

طبع إيفوري قائمة عناوين وحركها بفخر أمام ناظري ضيفته.

ثم ختم كلامه: لم يعد أمامنا إلا توجيه بعض النداءات لنجد أولئك الذين يقبلون معالجة سؤالنا بسعر مناسب، وفي مدد معقولة.

نظرت كيرا إلى ساعتها. صاح إيفوري تعجباً: أختك! أعتقد أنها استعادت حريتها وخرجت من الاجتماع منذ وقت لا بأس به الآن. هيا التحقي بها، وأنا أتدبر كل

شيء.

قالت كيرا متضايقة: لا، أبقى هنا، لا أقدر أن أتركك تقوم بهذا العمل بمفردك.

ــ لكن بلى، أنا الح، بعد كل ما جرى، وأعتز بهذه اللعبة قدر اعتزازك بها، وربما أكثر من ذلك. هيا التحقي بجان وعودي لرؤيتي غداً. سوف نعرف المزيد عن ذلك.

شكرت كيرا الأستاذ.

ــ هل توافقين على تسليمي عقدك للسهرة؟ سوق أقتطع منه كسرة صغيرة جداً تصلح لتحليله. أعدك بأنني سأتصرف ببراعة جرّاح، بحيث لن يظهر شيء.

ــ بكل تأكيد، ولكن سبق أن جربت مرات عدة ولم أنجح حتى في خدشه.

سأل إيفوري وهو يخرج من درجه أداة التقطيع متباهياً: هل كان لديك طرف محدّد من الماس كهذا؟

ــ إنك، في الحقيقة، واسع الحيلة، إيفوري. فك هذا الأخير بلباقة الشريط الجلدي الذي كان يطوق الأداة الثلاثية الشكل، وأعاد الشريط إلى صاحبته.

ــ إلى اللقاء غداً، كيرا، مرّي متى تشائين، سأكون

هناك.

ــ لا، لا، لا أدريان! كلامك ينـَـوم حتى جمهــور حفلة موسيقى الــ DC / AC

ــ ما دخل حفلة موسيقى الــ DC / AC في ذلك؟

ــ لا شيء إطلاقاً، لكنه فريق الهاردروك الذي أعرف إسمه. إنها ليست جائزة توزعها لجنة المؤسسة، بل رصاصة في رأس كل أولئك الذين سوف يسمعونك أيضاً... بغية تخفيف آلامهم!

ــ حسناً، أعتقد أني أحسنت الفهم، هذه المرة، والتر! إن كان نصي مملاً إلى هذا الحد، فتش إذاً عن خطيب آخر.

ــ من سيحلم كذلك بالعودة إلى التشيلي؟ آسف، ليس لدي الوقت.

قلبت صفحة دفتري وتنحنحت قبل مواصلة القراءة.

قلت لوالتر: سوف ترى التتمة أشد إثارة بكثير. لن يتسع لك الوقت للإحساس بالضجر. ولكن، عند لفظ الجملة الثالثة، قلّد والتر بسخرية شخير رجل.

هتف وهو يفتح عينه اليمنى: ممل! إنه مضجر تماماً! لعلك تريد القول بأني ممل؟!

ــ هكذا إذاً، ممل، هذا بالضبط. إن نجومك الرائعة ما هي إلا تركيب أرقام وحروف بسيطة من المحال الاحتفاظ بها. ماذا تريد، يا صديقي المسكين. أن يفعل أعضاء لجنة التحكيم بــ ئ؟123 X و بــ 254 ZL. لسنا في حدث من أحداث Star Trek! أما بخصوص مجراتك البعيدة فأنت تحدد لنا أبعادها بالسنوات الضوئية! أسألك من يعرف العد بسنوات ضوئية؟ جارتك الظريفة؟ طبيب أسنانك؟ لعلها أمك؟ إنه مثير للضحك. لا أحد يستطيع البقاء في الحياة جراء إصابته بعسر هضم الأرقام.

ــ ولكن سحقاً لك أخيراً، ماذا تريدني أن أفعل؟ أن أطلق على مجراتي أسماء بندورة، كراث وبطاطا لكي تفهم أمك أعمالي؟

ــ لن تصدقني طبعاً، لكنها قرأت لك.

ــ أمك قرأت أطروحتي؟

ــ حتماً!

ــ أنا سعيد جداً لذلك.

ـ إنها مصابة بالأرق بشكل فظيع. ما من دواء يؤثر فيها، فكرت أن أحضر لها نسخة مقصبة من مؤلفك، ينبغي أن تعود إلى الكتابة، فعما قريب ستشعر هي بنقص!

ـ لكن ماذا تنتظر مني في النهاية؟!

ـ أن تحدثنا عن أبحاثك بعبارات يسهل فهمها على أشخاص عاديين. ذلك أن مثل هذا الهوس في استخدام مصطلحات علمية، مزعج في نهاية المطاف. أنظر في الطب مثلاً. لماذا مثل هذه الرصانة؟ ألا يكفي أن يكون المرء مريضاً؟ هل نحن بحاجة إلى سماع أننا مصابون بالـ «ديسبلازيا» في الورك، ألا يناسب استعمال كلمة تشوه؟

ـ يؤسفني، عزيزي والتر، أن أعلم أن عظامك تؤلمك.

ـ نعم، حماك الله منه ، لم أكن أتكلم عن نفسي. إنه كلبي الذي يعاني الـ «ديسبلازيا».

ـ هل عندك كلب؟

ـ أجل، كلب لطيف من فصيلة «جاك راسل». هو عند أمي. وإذا أقرأته الصفحات الأخيرة من أطروحتك، لا بد أن يناما كلاهما نوماً عميقاً.

كانت لدي الرغبة في خنق والتر، غير أني اكتفيت بنذالة أن أتفرس في وجهه. كان صبره يحيرني، وإرادته كذلك، دون أن أعرف حقاً السبب، إنفكت عقدة لساني، وسمعت الناس، للمرة الأولى منذ طفولتي، يقولون بصوت عال:

«أين يبدأ الفجر؟».

في الصباح الباكر، لم يكن والتر قد نام بعد.

باريس

ما كانت كيرا وجدت إلى النوم سبيلاً. فغادرت الغرفة لتستقر فوق أريكة قاعة الاستقبال، مخافة أن توقظ أختها. كم مرة أنحت باللعنة على قساوة سريرها في المخيم؟ مع ذلك، شعرت بالشوق إليه! ثم نهضت ودنت من النافذة. هنا، ليس من ليل مرصع بالنجوم، إنما فقط صف من مصابيح تشع في الشارع المقفر. الساعة تشير إلى الخامسة، وعلى بعد خمسة آلاف وثمانمائة كيلومتر من هنالك، كان النهار قد ارتفع في وادي أومو، وكانت كيرا تحاول أن تحزر ما يمكن أن يفعله هاري فعلاً. عادت إلى الأريكة، ورقدت أخيراً وهي غائصة في أفكارها.

وسط الصباح، نداء موّجه من الأستاذ إيفوري إنتشلها من أحلامها.

ــ لدي خبران أعلنهما لك.

ــ أجابت كيرا وهي تتمطى: إبدأ بالسيىء!

ــ لقد كنت على حق، حتى بهذا الماس الذي أتباهى به لم أفلح في اقتطاع أدنى كسرة من حليك.

ــ سبق أن قلته لك. والخبر السار؟

ــ يمكن لمختبر في ألمانيا أن يعالج سؤالنا في أثناء الأسبوع.

ــ هل سيكلف ذلك غالياً؟

ــ لا تهتمي به الآن، سيكون هناك إسهام ضئيل من قبلي أنا.

ــ إن الأمر خارج عن الموضوع، إيفوري، ثم ما من سبب يبرر ذلك.

ــ يا إلهي، تنهد العجوز، لِمَ ينبغي البحث عن سبب لكل شيء؟ ألا تكفي لذة الاكتشاف؟ ترغبين في ذريعة؟ إليك إذاً واحدة، إن أداتك الغامضة جعلتني متيقظاً طوال الليل تقريباً، صدقيني! رجل عجوز يتثاءب ضجراً طوال النهار، يستحق أكثر بكثير من المبلغ الزهيد الذي طالب به المختبر.

ــ مناصفة إذاً، هذا أو لا شيء!

ــ إذاً مناصفة! أفهم إنك توافقين أن أرسل إليهم أداتك الثمينة، ينبغي أن تنفصلي عنها لبعض الوقت.

ما كانت كيرا فكرت في ذلك، أغاظتها فكرة أن لا تحمل حليها بعد، أما الأستاذ فبدا متحمساً جداً، وسعيداً جداً أن

يقبل تحدياً جديداً لم تجد كيرا الشجاعة في الفرار.

ـ أظن أنه بإمكاني أن أعيده إليك يوم الأربعاء على أبعد تقدير. سأرسله بالبريد السريع. وفي انتظار ذلك، سأغوص مجدداً في كتبي القديمة علني أرى ما إذا كانت تتوافر هنالك أي صور دينية تكشف عن أداة مشابهة.

سألت كيرا: هل أنت متيقن من أن كل هذا الجهد الذي تبذله يستحق ما تتحمله من عناء؟

ـ عن أي جهد تتحدثين أخيراً؟ أنا لا أرى هناك إلا الخير! أتركك هذه المرة، لأن عملاً حقيقياً بانتظاري بفضلك أنت!

قالت كيرا وهي تعلق سماعة الهاتف: شكراً، إيفوري.

مر الأسبوع، وعاودت كيرا الاتصال بزملائها وأصدقائها الذين لم ترهم منذ زمن بعيد جداً. وكانت كل سهرة مناسبة لوجبة بين أفرقاء في مطعم صغير بالعاصمة، أو في شقة أختها. وكانت الأحاديث غالباً ما تدور حول الموضوعات ذاتها، وهي في معظم الأحيان غريبة بالنسبة إليها، لذا كان يتملكها الضجر. وقد عاتبتها جان حتى على ذلك، بينما كانتا تخرجان من عشاء تخلله شيء من الثرثرة أكثر مما جرى في العشاءات السابقة.

عنفتها أختها: لا تأتي أبداً إن كانت هذه السهرات تزعجك إلى هذا الحد.

ــ لكنني لم أشعر بانزعاج!

ــ حسناً، يوم تضجرين حقاً، اعلميني بالأمر حتى أستعد للمشهد. بدوتِ حول المائدة أشبه بفيل بحر جَنَحَ فوق طافية جليدية.

ــ لكن تباً لك، يا جان، كيف لك أن تتحملي هذا النوع من الأحاديث؟!

ــ هذا ما يدعى أن تكون للمرء حياة اجتماعية.

ــ هذا، حياة اجتماعية؟ وانفجرت كيرا ضاحكة وهي تدعو من بعيد سيارة تاكسي. أهذا هو الشخص الذي يستعيد كل التفاهات التي يقرأها في الصحف ليفرض علينا خطاباً لا آخر له حول الأزمة؟ وجاره الذي يتغذى بالنتائج الرياضية مثلما تتلذذ القرود بالتهام الموز؟ وعالمة النفس الناشئة بأفكارها المبتذلة عن الخيانة الزوجية؟ والمحامي ودقائقه العشرون المخصصة لتفاقم الجرائم في الوسط المديني لأنهم سرقوا له دراجته النارية؟ ثلاث ساعات من الوقاحة المطلقة! نظريات ونظريات مضادة تروّج لليأس البشري، إنه لأمر مثير للشفقة!

قالت جان، بينما كان التاكسي يوصلها إلى أسفل بيتهما: أنتِ لا تحبين أحداً، يا كيرا؟

وانتهى الجدال بينهما بعد قليل في الليل. ومع ذلك، رافقت كيرا أختها، في الغد، إلى سهرة أخرى. ربما لأن الوحدة التي عاشتها خلال هذه الأزمنة الأخيرة أكثر عمقاً مما تريد التسليم به.

وفيما كانت تعبر حديقة «التويلري»، أثناء نهاية الأسبوع التالية، التقت ماكس في وقت كانت فيه زخة مطر تهم بالهطول. كانا كلاهما يركضان في الممشى المركزي، محاولين بلوغ حاجز مدخل «كستليون» المشبك، قبل أن تنفجر المطرة. توقف ماكس أمام السلم لاهثاً، في أسفل قاعدة تمثال حيث ينقض أسدان من البرونز على فرس نهر، وفي الجهة المقابلة، كانت كيرا تستند إلى قاعدة تمثال آخر، حيث تنهش لبوتان خنزيراً برياً أشرف على الموت إرباً إرباً.

ـ ماكس؟ هذا أنت؟

ماكس رجل وسيم، لكنه لم يكن مع ذلك قوي البصر. فكل شيء خلف نظارته المغشاة بالبخار، ما كان إلا ضباباً، لكن كان بإمكانه التعرف إلى صوت كيرا بين مئات الأصوات الأخرى.

سأل مذهولاً وهو يمسح زجاجتي نظارته: أنتِ في باريس؟

ــ نعم، كما ترى.

قال وهو يعيد وضع نظارته فوق أنفه: الآن، أرى ذلك! هل أنت هنا منذ وقت طويل؟

أجابت كيرا مرتبكة: في المنتزه؟ منذ أقل من نصف ساعة.

تأملها ماكس بانتباه.

ــ أنا في باريس منذ بضعة أيام، انتهى بها الأمر إلى التسليم بذلك.

دوي في السماء أقنعهما بالبحث عن ملاذ لهما تحت قناطر شارع ريفولي. وأخذ مطر، أشبه بطوفان ينهمر.

سأل ماكس: أما كنت تتوقعين مناداتي؟

ــ أجل بكل تأكيد.

ــ لماذا لم تحاولي إذاً؟ أعذريني إن كنت أمطرك بوابل من الأسئلة البلهاء، لو كنت راغبة في أن نتقابل لاتصلتِ بي هاتفياً.

ـ في الحقيقة، لم أكن أعرف كيف أتصرف.

ـ إذاً، كنت على حق، وكان يكفي أن تنتظري العناية الإلهية كي تضعنا على السكة نفسها...

قاطعت كيرا: أنا سعيدة لرؤيتك.

إقترح عليها ماكس تناول كأس في مقصف فندق موريس.

ـ كم من الوقت أنت هنا؟ ها أنذا عدتُ إلى أسئلتي!

أجابت كيرا: ليس في الأمر خطورة كبيرة. وقد ارتبطت بست سهرات، كان الناس لا يتحدثون فيها إلا عن السياسة والإضرابات والأعمال والقيل والقال. لا يبدو أن أحداً يهتم بأحد، وخلصتُ إلى التفكير بأنني بت متخفية؛ وكنت شنقت نفسي بفوطة المائدة كيما يسألني أحدهم عن حالي ويتمهل لسماع الجواب.

ـ كيف حالك؟

ـ كأسد في قفص.

ـ منذ كم من الوقت أنت في هذا القفص، على الأقل منذ حوالي الأسبوع؟

ـ أكثر بقليل.

ـ أباقية إنتِ أم راجعة؟

حدّثت كيرا ماكس عن ظروفها الطارئة في أثيوبيا وعن عودتها القسرية. وكان الأمل في العثور على وسيلة تمويل بعثة جديدة، ضئيلاً جداً. في الثامنة مساء، توارت عن الأنظار لتهاتف جان وتعلمها مسبقاً أنها ستعود متأخرة.

تعشت هي وماكس في فندق موريس، وروى كل منهما للآخر ما فعل بحياته خلال الشهور السادسة والثلاثين الأخيرة، التي لم يتسنَّ لهما أثناءها أن يتقابلا. وبعد رحيل كيرا وانفصالهما انتهى الأمر بماكس إلى أن يتخلى عن منصبه كأستاذ في علم الآثار بالسربون، ليستأنف العمل في مطبعة والده المتوفى العام الماضي جراء السرطان.

ـ أنت صاحب مطبعة الآن؟

ردّ ماكس مبتسماً: الجملة الصحيحية كانت: «أنا آسفة لوالدك».

ـ لكن أنت تعرفني، عزيزي ماكس، إنني لا أقول الجملة التي يجب قولها. أنا آسفة لوالدك... كنت أذكر أنكما ما كنتما على وفاق تام.

ـ كنا قد تصالحنا أخيراً... في مستشفى «فيل جويف».

ـ لِمَ تخليت عن منصبك، أنت الذي كنت تعشق مهنتك؟

ـ كنت أعشق خصوصاً الأعذار التي توفرها لي.

ـ أية أعذار؟ لقد كنت أستاذاً ناجحاً.

ـ لم أكن أتمتع قط بهذا الجنون الذي يحفزك ويجرك إلى ميدان العمل.

ـ والمطبعة، هل هي أفضل حالاً؟

ـ على الأقل، أنظر إلى الحقيقة وجهاً لوجه، ولا أزعم أبداً أني بانتظار المهمة التي قد تكون سمحت لي بتحقيق اكتشاف العصر. ضقت ذرعاً بالأخبار الكاذبة. لقد كنت عالم آثار مدرَج بارع في إغواء الطالبات.

قالت كيرا ساخرة: وكنت أنا بدوري عضواً في النادي.

ـ كنت أكثر من هذا، وأنت تعلمين ذلك تمام العلم. أما أنا فمغامرَ في ضواحي باريس. الآن، أنا على الأقل صافي الذهن. وأنتِ هل وجدت ما كنت تبحثين عنه هنالك؟

ــ إن كنت تقصد التنقيبات، فلا، فقط مواد مترسبة تحدوني على الاقتناع بأنني كنت في الطريق القويم، وبأنني لست على خطأ. ولكن ما اكتشفته هو نمط الحياة الذي يلائمني.

ــ إذاً، ستعودين...

ــ في الحقيقة، أنا راغبة في قضاء الليل معك، ماكس. ولمَ لا ليلة غد. إلا أني أرغب يوم الإثنين أن أبقى وحدي، وكَذلك الأيام المقبلة. وإذا كان في وسعي العودة، سأقوم بذلك في أقرب وقت ممكن. متى؟ لا أدري. من الآن حتى ذلك الحين، علي أن أجد عملاً.

ــ قبل أن تقترحي علي أن أنام معك، تستطيعين على الأقل أن تسأليني ما إذا كان ثمة شخص ما في حياتي.

ــ لو كان الأمر كذلك، لكنت ناديتها، فقد تجاوزت الساعة منتصف الليل.

ــ لو كان الأمر كذلك، لما كنت تعشيت معك. هل لديك آثار تقتفينها للعثور على عمل؟

ــ كلا، ليس لدي الآن أي أثر، لأنه ليس لي أصدقاء كثيرون في المهنة.

ــ باستطاعتي أن أخربش على غطاء المائدة، وفي دقيقتين، تتشكل قائمة بالباحثين الذين يغبطهم استقبال شخص في مثل صفاتك وسط فريقهم.

ــ لا أريد الإسهام في اكتشاف شخص آخر. لقد سبق أن مارست سنوات التدرج، أريد أن أنجز مشروعي الشخصي.

ــ هل ترغبين، في انتظار ذلك، أن تعملي معي في المطبعة؟

أجابت كيرا مبتسمة: إني أحتفظ بذكريات سعيدة عن سنواتي التي أمضيتها إلى جانبك في السربون، لكن في الثانية والعشرين من عمري. ليست الطابعات في الحقيقة ضمن مجال مهاراتي الخاصة. ثم لا أعتقد أنها ستكون فكرة ملائمة. مع ذلك، شكراً على اقتراحك.

في الصباح الباكر، وجدت جان أريكة قاعة الاستقبال فارغة. نظرت إلى هاتفها المحمول، لترى إذا ما كانت أختها قد تركت لها أية رسالة.

***   *   ***

لندن

كان الموعد المشهود الذي ينبغي أن يتم خلاله تسليم ملفات الترشيحات إلى مؤسسة والش يقترب. وسيجري الإمتحان الشفهي الكبير في غضون أقل من شهرين تقريباً. قضيت أوقات الصباح في منزلي، متصلاً بزملائي المنتشرين في أصقاع الكرة الأرضية الأربعة، مجيباً على رسائلي، وفي البداية على الرسائل التي كنت أستلمها من حين لآخر من زملائي في أطاكاما. وكان والتر يأتي لزيارتي عند الظهيرة، فكنا نذهب إلى حانة، حيث الخص له عرض ملفي. ثم تتوالى، في أوقات العصر وداخل مكتبة الأكاديمية الكبرى، مراجعة مؤلفات كنت، مع ذلك، قرأتها من قبل مرات عدة، فيما كان والتر يتصفح ملاحظاتي. وفي المساء، كان يتفق أن أبحث عن التسلية فأتسكع في ناحية بريم روزهيل، وأهرب نهاية الأسبوع، وأنا أجوب ممرات سوق البراغيث في كامدت لوك. وكنت، كل يوم، أستسيغ حياتي اللندنية، في أحياء مدينتي، مبرماً مع والتر نوعاً من التواطؤ.

باريس

إستلم إيفوري الأربعاء نتائج المختبر القائم بجوار دورتموند، في المانيا، وسجّل تقرير التحاليل الذي أملاه عليه محدثه. وسأل هذا الأخير أن يتفضل بإرسال الأداة التي سلمها له إلى مختبر آخر في ضواحي لوس أنجلوس. وبعد أن علق سماعة هاتفه، تردد فترة طويلة ووجه نداء آخر من هاتفه المحمول هذه المرة، واضطر للانتظار طويلاً قبل تأمين الاتصال له.

ـ لقد مضى وقت طويل جداً.

قال إيفوري: لم يكن لنا، في الحقيقة، سبب لمعاودة الحديث. أرسلت لك تواً رسالة الكترونية، خذ علماً بذلك حالما يسمح لك الوقت، ولدي أسباب وجيهة للاعتقاد بأنك لن تتأخر في اللحاق بي.

علق إيفوري السماعة ونظر إلى ساعته. كان الاتصال استغرق أقل من أربعين ثانية. غادر مكتبه، أغلق الباب بالمفتاح ونزل إلى الطابق الأرضي، واغتنم فرصة اقتحام فريق من الطلبة بهو المتحف ليتسلل بحذر إلى خارج المدرسة.

إجتاز نهر السين، مرتقياً رصيف برانلي. شغّل هاتفه المحمول، نزع عنه القرص ورماه في النهر. ثم توجه إلى مشرب جعة «ألما»، استخدم درجات السلم المؤدية إلى الطابق تحت الأرضي، ودخل مقصورة الهاتف منتظراً رنين الجرس.

ــ كيف وصلت هذه الأداة بين يديك؟

ــ غالباً ما تكون الاكتشافات الكبرى ثمرة المصادفة، بعضهم يدعون هذا القدر، وآخرون الحظ.

ــ من سلمك إياها؟

ــ لا أهمية لذلك وأفضل ان أحتفظ بذلك سراً.

ــ إيفوري، أراك تفتح مجدداً ملفاً مطوياً منذ زمن بعيد جداً، والتقرير الذي أبلغتني إياه لا يثبت الشيء الكثير.

ــ لا شيء كان يرغمك على مناداتي بمثل هذه السرعة.

ــ ماذا تريد؟

ــ لقد بعثت الأداة إلى كاليفورنيا لإجراء سلسلة من التجارب الإضافية، لكن ينبغي أن تفوتر قيمة التحاليل

مباشرة. لم يعد ذلك ضمن إمكاناتي.

ــ وهل صاحب هذه الأداة على علم بالمسألة؟

ــ كلا، فهو ليس لديه أدنى فكرة عن القضية، وبالطبع أنا لا أرغب في قول المزيد.

ــ متى تأمل معرفة المزيد؟

ــ علي أن أتسلم النتائج الأولى في غضون بضعة أيام.

ــ عاود الاتصال بنا، إذا دعت الحاجة وأرسل لي الفاتورة. نحن سنسددها. إلى اللقاء إيفوري.

أعاد الأستاذ علاقة الهاتف، وبقي لحظات في المقصورة، وهو يتساءل ما إذا كان اتخذ القرار الصائب. دفع قيمة مشروبه على منضدة الشرب وانطلق باتجاه المتحف.

* * *

عندها قرعت كيرا باب المكتب. ولما بقيت دون جواب، نزلت ثانية تستعلم عند مكتب الاستقبال. أكدت لها المضيفة أنها رأت الأستاذ. لعلها قد تجده في المقهى؟ أجالت كيرا بصرها في الحديقة. كانت أختها تتغدى مع

زميل لها، فتركت مائدتها لملاقاتها.

ــ كان في وسعك أن تناديني.

ــ أجل كان في وسعي. هل رأيتِ إيفوري؟ لا يمكنني العثور عليه.

ــ لقد حادثته هذا الصباح، غير أني لا أنفق وقتي في مراقبته، ثم إن المتحف لكبير. أين اختفيتِ خلال هذين اليومين الأخيرين؟

ــ جان، إنك تطيلين انتظار الشخص الذي يشاركك الغداء، قد يكون من الممكن تأجيل تحقيقك ربما إلى ما بعد.

ــ لقد انشغل بالي، هذا كل ما في الأمر.

ــ إنك ترين أنني في صحة تامة، وما من سبب بدفعك إلى القلق.

ــ هل تتعشين معي هذا المساء؟

ــ لست أدري، فالوقت ما زال ظهراً.

ــ لماذا أنت على عجلة من أمرك هكذا؟

ــ ترك لي إيفوري رسالة، طلب مني أن آتي لرؤيته

وهو ليس موجوداً هنا.

ـ هو إذاً في مكان آخر، وقد قلت لك ذلك، المتحف كبير، ينبغي أن يكون في ركن من أركان أحد الطوابق. هل الأمر في غاية الاستعجال؟

ـ أظن أن رفيقك على وشك أن يأكل حلواك.

ألقت جان نظرة على زميلها الذي كان ينتظر بفارغ الصبر وهو يتصفح مجلة، عندما حانت منها التفاتة، كانت أختها قد اختفت.

إجتازت كيرا الطابق الأول، فالثاني، وعادت أدراجها نحو مكتب إيفوري وقد ساورها الشك. كان الباب، هذه المرة، مفتوحاً، والأستاذ جالس إلى متكئه. رفع رأسه.

ـ أه، هذه أنت. إنه للطف منك أن تأتيني.

ـ مررت قبل قليل، وفتشت عنك في كل مكان، فلم أجدك.

ـ آمل أنك لم تجربي حمامات الرجال.

ـ كلا، أجابت كيرا مرتبكة.

ـ إذاً، هذا يشرح ذاك. إجلسي، لدي معلومات أنقلها

إليك. إن تحليل الكربون 14 لم يعطِ أي نتيجة: إما أن هدية هاري يتجاوز عمرها الخمسينَ ألف سنة، وإما أن الأداة ليست عضوية فهي إذاً ليست من الأبنوس.

سألت كيرا: متى سنستعيدها؟

ـ سيعاود المختبر إرسالها إلينا منذ الغد، من الآن إلى يومين على الأكثر سيصبح بمقدورك أن تعلقيها مجدداً حول عنقك.

ـ أريد أن تقول لي بما أنا مدينة لك، أي حصتي من الحساب، إنك تذكر أننا أبرمنا اتفاقاً في ما بيننا.

ـ لما كانت النتائج غير مقنعة لم يطلب منا المختبر دفع شيء ما. أما مصاريف الإرسال فتبلغ حوالي مائة أورو.

وضعت كيرا نصف المبلغ على مكتب الأستاذ.

وتابعت قائلة: إن السر يظل كاملاً. على كل حال، قد يتعلق الأمر بحجرة بركانية بسيطة؟

ـ بمثل هذا التمليس والصقل؟ أشك في ذلك، ثم إن الحممة المتحجرة تظل سريعة التفتت.

ـ لنقل إذاً إنها مجرد قلادة.

ـ أعتقد أنه قرار حكيم، وسأعاود الاتصال بك ما أن أتسلمها ثانية.

فارقت كيرا إيفوري وقررت البحث عن أختها ثانية.

سألت جان كيرا فور دخولها إلى مكتبها: لماذا لم تقولي لي أنك اجتمعت بماكس؟

ـ لأنه سبق أن عرفت الخبر. فلماذا أقوله لك؟

ـ هل ستصلحين ذات البين؟

ـ لقد أمضينا كلانا سهرة وعدت للنوم في منزلي، إذا كان هذا ما تودين معرفته.

ـ وهل بقيت يوم الأحد وحدك في الاستوديو؟

ـ إلتقيته مصادفة. فذهبنا نتنزه. كيف عرفت أننا تلاقينا؟ هل خابرك؟

ـ ماكس خابرني؟ أنت تمازحين، إنه لمزهّو جداً للقيام بذلك. بعد رحيلك، لم يطلع أحداً على أخباره إطلاقاً، وأعتقد أنه ألزم نفسه حتى تجنب السهرات التي قد يلتقيني فيها. إننا لم نتحادث منذ حلول القطيعة بينكما.

ـ إذاً، كيف عرفت؟

ـ صديقة لي رأتكما في فندق موريس، يبدو أنكما كنتما تتناغيان كعاشقين غير شرعيين.

ـ حقاً إن باريس لقرية صغيرة! ولكن لا، نحن لسنا بعاشقين، بل مجرد صديقين قديمين تلاقيا خلال فترة نقاش. لا أعرف من هي تلك الصديقة الثرثارة إلى هذا الحد، لكني أمقتها.

ـ بنت عم ماكس، كذلك هي لم تعد تحبك، هل يمكنني أن أسألك ما الذي تعملينه مع إيفوري؟

ـ أحب كثيراً صحبة الأساتذة، ويجب أن تعرفي هذا أيضاً، أليس كذلك؟

ـ لا أذكر أن إيفوري زاول التعليم.

ـ أنت تثيرين ضجري بأسئلتك، جان.

ـ إذاً، حتى لا أزعجك أبداً، لن أقول لك إننا تسلمنا عنك هذا الصباح أزهاراً في المنزل. البطاقة التي رافقت الباقة هي في حقيبتي، إذا كان الأمر يهمك.

تلقفت كيرا الغلاف الصغير، فضته وضغطت بخفة على الورق الصقيل المقوى. إبتسمت ووضعت الكلمة في جيبها.

ـ لن أتعشى معك هذا المساء، بل سأتركك مع صديقاتك ذوات النيات الحسنة.

ـ كيرا، إنتبهي إلى ماكس، لقد استغرق الأمر أشهراً لطي الصفحة، لا تعاودي نكء الجراح، إن كنت عازمة على الرحيل في ما بعد، لأنك سترحلين، أليس كذلك؟

ـ الأمر في منتهى الجدية، فالمسألة التي تقتل مخبأة في قلب درس الأخلاق. علي أن أقول هنا إنك تبرعين في دور الأخت الكبرى. يكبرني ماكس بخمسة عشر عاماً، أو تعتقدين أن باستطاعته أن يتحكم بحياته وانفعالاته بمفرده، أم أنك تريدين أن أعرض عليه خدماتك؟ فأخت المرأة الشريرة في دور مرافقته، لا يستطيع المرء أن يحلم بأحسن منها، أليس كذلك؟

ـ لماذا تحقدين علي على هذا النحو؟

ـ لأنك تدينين كل شيء، وكل الوقت.

أخرجي كيرا، وداري نفسك باللهو والتسلية، لدي عمل أنجزه وأنت على حق تماماً، ولست في سن تسمح لي بلعب دور الأخت الكبرى. على كل حال، كنت دائماً في غنى عن نصائحي. حاولي فقط ألا تتركيه مرة أخرى مهشماً إرباً إرباً، وإلا سيغدو الأمر سيئاً وغير مجد

لسمعتك.

ــ الآن لي سمعة؟

ــ عقب رحيلك، حُلّت عقدة الألسنة وما اتسمت باللطف إزاءك.

ــ لو كنت تعلمين مدى تهكمي بها. فأنا بعيدة جداً عن سماعها، سماَع السنتك الشريرة.

ــ ربما، لكن لست أنا، إنما كنت هنا للقيام بالدفاع عنك.

ــ لكن لمَ يتدخل كل هؤلاء الناس في حياتك الاجتماعية الضيقة، جان؟ من هم هؤلاء الأصدقاء الطيبون الذين يثرثرون ويتعاطون القيل والقال وينمّون على الآخرين؟

ــ هم أولئك الذين كانوا يعزون ماكس، على ما أتصور! آه، شيء أخير، في حال ساءلت نفسك مرة جديدة ما إذا كنت مزعجة جداً، فالجواب نعم!

غادرت كيرا مكتب أختها صافقة الباب. وبعد لحظات كانت تصعد رصيف برانلي باتجاه جسر ألما. عند عبورها النهر، إتكأت بمرفقيها على الحاجز ونظرت إلى نقّالة

مائية تجري صوب جسر «دبييه» الصغير. فتناولت هاتفها المحمول ونادت جان.

ـ لن نتجادل كلما تلاقينا. سآتي للبحث عنك غداً. سنذهب إلى الغداء، أنا وأنت وحسب وسأروي لك كل شيء عن مغامرتي الأثيوبية، بالرغم من أنه لم يبق الكثير من الكلام عليها؛ وأنت ستميطين اللثام عن كل شيء في حياتك خلال هذه السنوات الثلاث الأخيرة. وسأدعك تعيدين علي حتى سبب انفصالكما أنت وجيروم. كان فعلاً يدعى جيروم، هيه؟

لندن

لم يتفوه والتر بكلمة، لكن كان من الصعب ألا يرى المرء أنه يزداد يأساً يوماً إثر يوم. كان عملاً غير واقعي أن أشرح له أعمالي، كما لو أملت تعليمه اللغة الصينية في بضعة أيام. الفلك وعلم الكون يبحثان في الفضاءات المترامية الأطراف بحيث أن الوحدات المستخدمة لقياس الزمن والسرعة والأبعاد على الأرض عديمة الفعالية هنالك. لذا توّجب اختراع وحدات أخرى، مضاعف المضاعف، ومعادلات يتعذر حلها. فعملنا لا يقوم إلا على الاحتمالات ومبادئ الريبة، إذ أننا نتقدم بحذر عاجزين عن تصور الحدود الحقيقية لهذا الكون الذي نؤلف جزءاً منه.

منذ أسبوعين، تعذر علي صوغ جملة من دون أن ينزعج والتر من لفظة يجهل معناها، وتفكير منطقي يفوته مداه.

ـ والتر، للمرة الأخيرة، أمسطحة هي الأرض أم منحنية؟

ـ منحنية، على الأرجح. وأخيراً، إذا أحسنت فهم كلامك، فإن الكون قد يكون في حركة دائمة ويتوسع على

غرار نسيج نشده، جاذباً المجرات للتشبث بأليافه.

ــ إنه كلام مبسط، لكنها طريقة لتلخيص نظرية الكون التوسعي.

ترك والتر رأسه يهوي بين يديه. كانت قاعة المكتبة الكبرى، في تلك الساعة المتقدمة من السهرة، مقفرة. طاولتان فقط كانتا لا تزالان مضيئتين.

ــ أدريان، أنا لست سوى وكيل إداري بسيط، لكن، مع ذلك، ينقضي يومي داخل حرم أكاديمية العلوم. غير أني لا أفهم شيئاً مما تقوله لي.

ولاحظت فوق طاولة مجلة، كان أحد القراء قد نسي إعادة ترتيبها. مشهد جميل جداً لــ «ديفون» يظهر على غلافها الخارجي.

قلت لوالتر: أعتقد أن لدي فكرة لتوضيح أفكارك.

ــ كلي سمع لك.

ــ لقد سمعتني كفاية على هذا النحو ووجدت ما هو أفضل من الكلمات لألقنك بعض المبادئ المتينة المتصلة بالكون. ولقد آن الأوان للانتقال من النظرية إلى التطبيق العملي. إتبعني!

جذبت صاحبي من ذراعه واجتزنا معاً قاعة المكتبة بخطى ثابتة. وما إن خرجنا إلى الشارع، حتى ناديت من بعيد على سيارة أجرة وطلبت من سائقها أن ينزلنا بأسرع ما يمكن أمام منزلي. لدى وصولي، ما قدت والتر نحو باب بيتي، وإنما نحو مربط للخيل صغير وملاصق.

سألني والتر بنظرة ساخرة: أهذه قاعة للعب سرّية، قائمة وراء الستار الحديدي؟

أجبت رافعاً الباب الخلفي: آسف لتخييب أملك، إنه كاراج.

صدر عن والتر صفير، وعلى الرغم من أن سعر عربتي القديمة «جنرال موتورز» طراز 2691 هو أقل من سعر سيارة حديثة في المدينة، فإنها طالما أثارت مثل هذا النوع من ردود الفعل.

سأل والتر وقد تملكه الحماس: هل نحن ذاهبان في نزهة؟

قلت وأنا أدير مفتاح الإشعال: إن أرادت أن تقلع بصورة حسنة.

وبعد بضعة ضغوط على المسرّع، هدر المحرك في ربع دورة تقريباً.

ـ إصعد ولا تفتش عن حزام أمانك، فلا وجود له فيهذه السيارة!

سأل والتر محاولاً السيطرة على خصلة الشعر الوحيدة فوق جبينه التي لا يزال يملكها: أين نحن ذاهبان؟

ـ سنصل إلى شاطئ البحر في خلال ثلاث ساعات. وفيما كنا نسير بسرعة جيدة تحت سماء مرصعة بالنجوم، كنت أفكر في هضبة أطاكاما، التي لم أكف عن الحلم ببلوغها وكنت في الوقت نفسه مشتاقاً إلى إنكلترا حين كنت هنالك.

ـ كيف تصرفت لكي تحافظ على هذه التحفة الصغيرة على مثل هذا النحو، بعد أن هجرتها ثلاثة أعوام في كاراج؟

ـ لقد سلمتها، أثناء غيابي، إلى ميكانيكي، وقمت باستعادتها للتو.

أضاف والتر: إنه أحسن العناية بها. ألم يكن لديك مقص في علبة القفازات؟

ـ لا، لماذا؟

أجاب والتر وهو يمر بيده على صلعته: لا شيء!

عند منتصف الليل، تجاوزنا كمبردج ووصلنا إلى غايتنا بعد ساعتين. ركنت سيارتي على امتداد شاطئ شيرنغام وطلبت من والتر أن يقتفي أثري تماماً حتى الشط ويجلس فوق الرمل.

ثم سألني: هل اجتزنا كل هذا الطريق لصنع سنبوسك محشو بالسمك؟

ــ إذا كان قلبك يحدثك بذلك، فلا مانع لدي، لكن هذا ليس ضالتنا المنشودة.

ــ يا للخسارة!

ــ ماذا ترى، والتر؟

ــ رملاً.

ــ إرفع عينيك وقل لي ماذا ترى.

ــ البحر، وماذا تريدني أن أرى غير ذلك على شاطئ البحر؟

ــ وفي الأفق، ماذا ترى؟

ــ لا شيء إطلاقاً، فالليل دامس.

ــ ألا ترى ضوء المنارة عند مدخل «كريستيان

سان»د؟

ــ هل هنالك جزيرة في عرض البحر؟ لم أكن أذكرها.

ــ «كريستيان ساند» هي في النروج، والتر.

ــ إنك لغريب الأطوار، أدريان. أنا أتمتع برؤية سليمة، أما القول بأنك ترى، مع ذلك، الشواطئ النروجية! ولا تريد كذلك أن أفضّل لون شرابة «بيريه» قبعة حارس منارتك!

ــ تقع كريستيان ساند على مسافة مائة وثلاثين كيلومتراً. نحن في قلب الليل، وينتقل الضوء بسرعة : كيلومتراً في الثانية. وضوء تلك المنارة لا يستغرق سوى جزءين ونصف من ألف من الثانية ليصل إلينا.

ــ لقد أحسنت فعلاً بعدم نسيان النصف، كدتُ أفقد سياق تفكيرك!

ــ لكنك لا ترى ضوء المنارة في «كريستيان ساند»؟

سأل والتر قلقاً: وهل أنت تراه؟

ــ كلا، لا أحد يستطيع أن يراه. وبالرغم من ذلك فهو هنالك أمامنا بالضبط، مختبئ نتيجة انحناء الأرض، وكأني به وراء أكمة غير مرئية.

ـ هل أنت، أدريان، على وشك أن تشرح لي أننا سرنا خلال ثلاث مائة كيلومتر لنتأكد بالبرهان الحسي أنه لا يمكنني رؤية منارة «كريستيان ساند» النروجية من الساحل الشرقي لدولتنا العزيزة إنكلترا؟ لئن كان الأمر كذلك أعدك بأنني صدقتك بناء على كلامك، فيما لو كلفت نفسك عناء اقتراحه علي في المكتبة قبل قليل.

ـ أنت سألتني لماذا من الأهمية بمكان فهم أن الكون منحن، الجواب في متناولك، والتر. لو طافت على سطح هذا ًالبحر من ميل إلى ميل آلاف من الأجسام العاكسة، لرأيتها كلها مضاءة بالضوء المنبعث من منارة «كريستيان لاند»، من غير أن ترى مع ذلك هذه المنارة بالذات، لكنك ستكتشف بطول أناتك وبكثير من الحسابات، أنها موجودة وسوف ينتهي بك الأمر إلى العثور على موقعها الصحيح.

نظر إلي والتر كما لو أن مساً جنونياً إنتابني فجأة. فبقي فاغر الفم، ثم ارتد إلى الوراء ليتفحص القبة المرصعة بالنجوم.

ـ حسناً! خلص أخيراً إلى القول بعد حدث تأملي طويل. إن أحسنت الفهم فإن النجوم التي نراها فوق رؤوسنا ما زالت في الجانب الجيد من الرابية، وتلك التي

تبحث عنها في المقلب الآخر بطبيعة الحال.

ـ لا شيء يشير أنْ ليس هنالك إلا رابية واحدة، والتر.

ـ هل هذا تلميح منك إلى أن كونك لعدم رضاه عن أن يكون منحنياً يلعب لعبة الأكورديون؟

ـ أو أنه أشبه بمحيط تتلاطم فيه أمواج عاتية.

وضع والتر يديه خلف عنقه ولزم الصمت للحظات.

وسأل بصوت طفل مشدوه: ما عدد النجوم التي فوق رأسينا؟

ـ باستطاعتك في سماء كهذه أن ترى النجوم الخمسة آلاف الأقرب منا.

سأل والتر حالماً: وهل هي كثيرة إلى هذا الحد؟

ـ ما زال هنالك الكثير منها، لكن أعيننا عاجزة عن رؤية ما هو أبعد من ألف سنة ضوئية من هنا.

ـ لم أكن لأفكر أن لي رؤية حسنة بهذا القدر! صديقة حارس منارتك في النروج يهمها ألا تتمشى بلباسها الخفيف أمام نافذتها!

ــ ليست حدة بصرك هي المعرضة للخطر، والتر، سحابة غبار كوني تحجب عنا القسم الأكبر من مئات مليارات النجوم التي تضمها مجرتنا.

ــ هل فوقنا مئات مليارات النجوم؟

ــ إذا كنت تريد أن تصاب بالدوار، أستطيع أن أقول أن في الكون مئات مليارات من المجرات، ودرب تبانتنا ليس سوى واحدة منها، وكل منها يخفي مئات مليارات النجوم.

ــ من المحال تصور ذلك.

ــ إذاً، تصور أنه لو عددت كل ذرات الرمل على كوكب الأرض، لأوشكنا أن نتوصل إلى العدد المحتمل من النجوم الموجودة في الكون.

إنتصب والتر، أمسك بين يديه بحفنة رمل وترك ذراته تنهال عبر أصابعه. كنا نتأمل السماء في صمت لا يكدره إلا انكفاء الأمواج بعنف إلى عرض البحر، وكأننا صبيان فتنهما ذلك الاتساع غير المحدود.

وسأل بنبرة رصينة: أوتعتقد أن الحياة موجودة في مكان ما في تلك الأعالي؟

ـ مائة مليار مجرة، تضم كل واحدة منها مائة مليار نجمة والعدد نفسه تقريباً من الأنظمة الشمسية؟ فاحتمال أننا وحدنا يكاد يكون معدوماً. مع ذلك لا أعتقد وجود رجال صغار خضر. الحياة قائمة طبعاً، ولكن بأية أشكال؟ من البكتيريا البسيطة إلى الكائنات التي لعلها سبقتنا في عملية التطور الذي بلغناه. من يدري؟

ـ إنني لأغبطك، أدريان.

ـ أنت تغبطني؟ أ هذه السماء المزدانة بالنجوم هيٍ التي جعلتك على حين بغتة تحلم بهضبتي التشيلية، وكنتُ قد فلقت أذنيك بذكرها؟

ـ لا، إن أحلامك هي التي أحسدك عليها. فحياتي أنا ليست مكونة بغير الأرقام والأموال القليلة المدخرة والميزانيات المخفضة هنا وهنالك، وأنت تستعمل أرقاماً قد تسحق آلتي الحاسبة في المكتب، وهذه الأعداد اللامتناهية تواصل على بعث الروح في أحلامك الصبيانية. لهذا أنا أحسدك، وأنا سعيد حتى الآن. ليس مهماً أن نفوز بهذه الجائزة أو لا، فأنا ربحت الكثير هذا المساء. وماذا لو وجدتَ لنا مكاناً مؤنساً نمضي فيه نهاية الأسبوعِ، من أجل درس الفلك القادم؟

لقد مكثنا هنا مشبكي الأيدي وراء رأسينا، الأيدي

الممددة على رمل شاطئ شيرنغام هذا حتى طلوع النهار.

* * *

باريس

كانت كيرا وجان أصلحتا ما بينهما خلال الغداء الذي استمر فترة طويلة من العصر. قبلت جان أن تروي خبر انفصالها عن جيروم. فتحت عينيها عندما شاهدت رفيقها منهمكاً جداً بجوار جارته على المائدة. وتلفظت، في طريق العودة، بهذه الجملة المقتضبة التي توحي بالكثير عن حقيقة شعورها، وهي: «ينبغي أن نتحادث».

نكر جيروم جملة وتفصيلاً أنه أولى هذه المرأة أي اهتمام، حتى أنه نسي الآن إسمها. لم يكن هذا هو المقصود إنما كانت هي التي تريد أن يغريها في ذلك المساء، بيد أن جيروم لم يوجه إليها نظرة واحدة طيلة العشاء. لقد تجادلا طوال الليل وافترقا في الصباح الباكر. وبعد شهر، علمت جان أن جيروم استقر لدى تلك التي كانت ذات مساء جارته على المائدة. ومنذ ذلك الحين، مضت جان تتساءل ما إذا كان المرء يستبق قدره، أو على العكس يستفزه أحياناً أخرى.

كانت سألت كيرا عن نياتها بشأن ماكس، فأجابتها أختها بأن لا نية لها إطلاقاً في شأنه.

بعد ثلاثة أعوام قضتها في أثيوبيا، لم تكن فكرة أن تستسلم للحياة تقودها، بلا وازع ولا رادع، أن تسبب لها إزعاجاً. كانت عالمة الآثار الشابة مشغوفة بالحرية، لا تشعر أنها مستعدة للتغيير.

أثناء وجبة الطعام، رن هاتفها مرات عدة. لعل ماكس هو الذي يحاول بالضبط الالتحاق بها، حيال إلحاح النداءات، رفعت أخيراً السماعة.

ـ آمل ألا أكون عامل إزعاج لك.

أجابت كيرا إيفوري: لا، بكل تأكيد.

ـ لقد أخطأ المختبر الألماني العنوان، وها هو يعيد إلينا قلادتك. وأؤكد لك أن الطرد لم يَضع، لكنه أعيد إليهم. إنهم سيعاودون إرسالها دونما تأخير. أنا آسف، غير أني أخشى أنك لن تستعيدي أداتك الثمينة قبل الإثنين، آمل أنك لن تضمري لي الحقد.

ـ لكن لا، أنت لا علاقة لك بذلك، أنا الآسفة لكل هذا الوقت الذي أضعته عليك.

ـ لا تأسفي، لقد تسليت كثيراً، حتى لو لم تسفر أبحاثنا عن شيء ملموس. سأتسلمه الإثنين قبل الظهر، تعالي للبحث عنه، وسأصطحبك إلى الغداء علّك تغفرين

لي.

فور قطع المخابرة، طوى إيفوري تقرير التحاليل الذي وجهه إليه مختبر في ضواحي لوس أنجلوس بالبريد قبل ساعة من ذلك، ووضعه في جيب سترته.

نظر الأستاذ العجوز، وهو جالس على مقعد التاكسي الخلفي الذي أوصله إلى ساحة برج إيفل، إلى البقع الرمادية على يديه وتنهد.

ـ ما كان أغناكَ وأنتَ في مثل هذه السن عن التدخل في هذا النوع من الأمور، لن يتسع لك الوقت لمعرفة كلمة النهاية. هل ثمة فائدة من كل ذلك؟

سأل السائق ملقياً نظرة على راكبه من خلال المرآة العاكسة: عفواً، سيدي؟

ـ آسف، لا شيء، كنت أحادث نفسي.

ـ آه، لا تعتذر، هذا يحدث لي غالباً؛ كنا قديماً نتجاذب أطراف الحديث مع الركاب، فيفضل الزبائن أن يُتركوا وشأنهم. حينذاك ندير المذياع وهو يقوم بمرافقتنا.

ـ تستطيع أن تدير جهازك إن كنت راغباً في إدارته، ختم إيفوري الكلام موجهاً إبتسامة إلى سائقه.

لم يكن الصف، الذي يمتد على مقربة من المصعد، يضم سوى عشرين زائراً تقريباً.

دخل إيفوري المطعم في الطابق الأول. أجال ناظريه في القاعة، وأومأ إلى عاملة الاستقبال أَن ضيفه موجود الآن هناك. وذهب يجلس إلى الطاولة، حيث كان رجل يرتدي بدلة زرقاء غامقة في انتظاره.

ــ لماذا لم ترسل النتائج إلى شيكاغو مباشرة؟

ــ كي لا نستنفر الأميركيين.

ــ إذاً، لماذا تسنتفرنا نحن؟

ــ لأنكم، أنتم الفرنسيين، استطعتم، لثلاثين عاماً خلت، أن تصبحوا أكثر اعتدالاً. ثم أنا أعرفك منذ زمن بعيد، يا باريس، أنت رجل يتسم بالرصانة.

أردف الرجل ذو البدلة الزرقاء بلهجة أقل لطفاً: أنا أسمعك.

ــ بما أن التأريخ بواسطة الكربون 14 لم يسفر عن نتيجة، طلبت إجراء تحليل عبر المحاكاة البصرية، وإني لأوفر عليك سرد التفاصيل لأنها تفاصيل تقنية بشكل مريع، وأنت لن تفهم الكثير، لكن النتائج مدهشة إلى حد

كبير.

ـ علامَ حصلت؟

ـ لا شيء بالتحديد.

ـ لم تحصل على نتيجة ما وها أنت تدعو إلى إتمام هذا اللقاء؟ هل فقدت عقلك؟

ـ إني أفضل الاتصال المباشر على الهاتف، وقد يكون من الأولى أن تنصت إلى ما ينبغي أن أقوله لك. إن عدم تفاعل هذه الأداة مع طريقة التأريخ هذه، هو سرّ أول؛ وإن تدفعنا على افتراض أن لها من العمر أربعمائة ألف سنة على الأقل، فذلك يعتبر سراً أعظم أيضاً.

ـ هل يمكن مقارنتها بما نعرفه؟

ـ إن شكلها ليس متطابقاً كل التطابق، وأنا لا يسعني أن أثبت لك شيئاً يتعلق بتركيبها، لأننا لم نتمكن قط من تحديد تركيب الأداة التي في حوزتنا.

ـ ولكن هل تظن أنها تنتمي إلى الفصيلة نفسها؟

ـ إن الإثنين رقم ضعيف نوعاً ما للحديث عن فصيلة، ولكن يمكن أن تكونا قريبتين.

ــ كنا نفكر أن كل ما نملكه هو فريد من نوعه.

ــ لست أنا، لأنني لم أعتقده قط، لأجل هذا أنتم نحيتموني. تعرف الآن تمام المعرفة لماذا دعوت إلى لقائنا هذا.

ــ أليست ثمة طرق تحليل أخرى تسمح لنا بأن نعرف المزيد؟

ــ تحديد التاريخ بواسطة الأورانيوم، ولكن فات أوان إجرائه.

ــ إيفوري، هل تعتقد أن هاتين الأداتين مرتبطتان بشكل من الأشكال، أم أنك جادّ في مطاردة وهم شخصي؟ نحن نعلم جميعاً أن هذا الاكتشاف عزيز على قلبك وأن إلغاء الميزانية المخصصة لك لم تكن على صلة، يومئذ، بقرارك الداعي لمغادرتنا.

ــ لقد تجاوزت منذ وقت طويل سن اللعب بمثل هذا اللون من الألعاب، وأنت ما زلت بعيداً عن بلوغ السن التي تجيز لك توجيه مثل هذه التهم ضدي.

ــ لئن أحسنت فهم ما تقوله لي، فإن التشابه بين هاتين الأداتين يكمن في عدم تفاعلهما مع التجارب التي أخضعتا لها.

دفع إيفوري كرسيه، وتأهب لمغادرة الطاولة.

ــ لك أن تضع التقرير كما يحلو لك، لقد أتممت واجبي. فأنا ما إن أخذت علماً بوجود نموذج ثان، حتى نجحت في القيام بخدعة حقيقية بغية الحصول عليها، وأجريت التجارب التي اعتبرتها مجدية، وأخطرتك بها. لك، من الآن فصاعداً أن تقرر تتمة الأحداث، كما ذكرتني بها. فعلاً، فأنا قد أُحلت على التقاعد منذ زمن بعيد.

ــ أمكث جالساً، إيفوري، فنحن لم نستكمل بعد هذا الحديث. متى سنتمكن من استرداد الأداة؟

ــ ليس موضوع بحث أن تستردها أنت. فأنا سأردها منذ الإثنين إلى صاحبتها.

ــ كنت أعتقد أن رجلاً هو الذي ائتمنك عليها.

ــ لم أقل ذلك قط، وفي كل حال، لا قيمة لذلك.

ــ أشك أن ينظر مكتبنا إلى هذا الأمر بعين القبول والاستحسان. تحقق من قيمة هذه الأداة في ما لو ثبتت توقعاتك. إنه لمحض جنون أن تدعها تنتقل طليقة في الطبيعة.

ــ بكل تأكيد، إذ إن علم النفس هو دائماً قوة

مؤسستنا. في الوقت الراهن، لا تشك صاحبتها في أي شيء، وليس ثمة سبب يدعو إلى التغيير. إنها تحمل هذا الحجر الكريم حول عنقها، ومن الصعب العثور على مكان تكون فيه الأداة أشد غفلاً وأكثر أماناً. لا نريد لفت انتباه أحد، وبخاصة تجنب معركة جديدة بين مكاتبنا لمعرفة مَن من جنيف، مدريد، فرانكفورت، أنت أو شخص آخر أجهله سيسعى إلى وضع اليد على هذا النموذج الثاني. وفي انتظار معرفة ما إذا كان النموذج الثاني، فإن من السابق لأوانه قول ذلك، فستعود هذه الأداة بأسرع ما يمكن إلى صاحبتها الشابة.

ــ وماذا لو فقدتها؟

ــ أوتعتقد أنها ستكون أكثر أماناً عندنا؟

(Fair enough)، جيد جداً، كما قد يقول أصدقاؤنا الإنكليز. في وسعنا أن نعتبر محيط عنق هذه المرأة نوعاً من المنطقة المحايدة.

ــ أنا على يقين من أنها ستكون مزهوة بمعرفة ذلك! نظر الرجل ذو البدلة الزرقاء، والذي يدعو نفسه باريس، من النافذة. كانت سطوح باريس تمتد على مد النظر.

ــ إن استدلالك، يا أستاذ، لا يعتمد على أساس، إذ

كيف السبيل إلى الاستزادة، ما دامت هذه القلادة ليست في حوزتنا؟

ــ إني لأتساءل أحياناً، ما إذا أُحلت على التقاعد في وقت مبكر جداً. أنت لم تتعلم شيئاً مما كلفت نفسي عناء تعليمك. إن كانت الأداة في الحقيقة تمت بصلة قرابة إلى التي نملكها، فإن التجارب لن تطلعنا على شيء آخر.

ــ إلى ذلك، فإن التقنية تطورت تطوراً كبيراً في هذه الأعوام الأخيرة.

ــ الشيء الوحيد الذي حقق تطوراً هو معرفة السياق الذي يشغل بالنا.

ــ توقف عن بذل النصائح، فنحن نعرف بعضنا بعضاً منذ وقت طويل جداً! ما الذي يراود عقلك؟

ــ إن صاحبة الأداة عالمة آثار، عالمة آثار ماهرة جداً، إنها وحشية الطباع، مصممة وجريئة، تسخر من المراتب الإدارية، وهي متيقنة أنها تملك من المواهب أكثر من أندادها ولا تتصرف إلا وفق هواها، لماذا لا نجعلها تعمل لمصلحتنا؟

ــ إنك تصلح لأن تكون مدير موارد بشرية شديد الإقناع! هل تود، وهي المتمتعة بهذه الصفات، أن

تستخدمها في مؤسستنا؟

ــ هل قلت هذا الكلام؟ إنها أمضت مؤخراً ثلاثة أعوام في أثيوبيا تنقب الأرض في ظروف صعبة، وإني لأراهن لو أن عاصفة مدمرة لم تطردها من البلاد، لكانت ربما توصلت أخيراً إلى العثور على ما مضت تبحث عنه.

ــ وما الذي يدفعك إلى الاعتقاد أنها قد تكون حققت في نهاية المطاف غايتها المنشودة؟

ــ لديها سبب للنجاح أكيد.

ــ وما هو؟

ــ الحظ!

ــ هل ربحتْ في اللوتو؟

ــ أفضل من ذلك بكثير، فهي لم تبذل أدنى جهد، وأتتها هذه الأداة، لا بل أهداها إليها أحدهم.

ــ هذا لا يشهد على مؤهلاتها. ثم لا أرى كيف تصبح أقدر على إماطة اللثام عن سر، لم نكشف عنه بكل الوسائل التي نمتلكها.

ــ ليست المسألة مسألة وسائل، إنما مسألة شغف.

فلنمنحها ببساطة سبباً كافياً لتعنى بهذه الأداة التي تحملها حول عنقها.

ــ هل تقترح أن نوجه إليها عن بعد الكترونا طليقاً؟

ــ إذا وجهنا إليها عن بعد الكترونا، فلن يكون طليقاً إلا ظاهرياً.

ــ وهل أنت الذي تقبض على زمام الأمور؟

ــ كلا، فانت تعلم حق العلم أن اللجنة لن توافق على ذلك أبداً. لكني أستطيع أن أبدأ الآلية، وأثير الاهتمام لدى مرشحتنا، وتنمية ما يلزم من شهية عندها، أما في ما يتعلق بالبقية، فسوف تحل محلي.

ــ إنها مقاربة مهمة. أعرف أنها سوف تستثير بعض التحفظات، ولكن في وسعي أن أدافع عنها داخل لجنة مصغرة. وفي النهاية، لن تستنزف مواردنا فوق الحد المرسوم.

ــ إلا أني أفرض، في كل حال، قانوناً غير قابل للمساومة، وأبلغْ لجنتك المصغرة أنني سأسهر على ألا يخالف أحد القانون، وينبغي ألا يتعرض أمن هذه المرأة في أي لحظة للخطر، وأطالب بتوافق جميع مسؤولي المكاتب بالإجماع، وأشدد على لفظة «جميع».

ـ لو كنتَ شاهدت رأسك، إيفوري! كان أشبه برأس جاسوس قديم. إقرأ الصحف، لقد وضعت الحرب الباردة أوزارها منذ زمن بعيد. نحن الآن في عز ائتلاف ودي. بصراحة، من تحسبنا أنت؟ ثم لا يتعدى الأمر حجراً كريماً، ذا ماض دسّاس طبعاً، لكنه مع ذلك حجر.

ـ لو كنا على إقتناع بأنها ليست سوى حصاة بسيطة لما كنا هنا، نحن كلانا، نمثل دور متآمرين قديمين، على ما تقوله أنت؛ لا تحسبّني خرفاً أكثر مما أنا لستُهُ.

ـ واحدة بواحدة. لنفترض أنني بذلت قصارى جهدي لإقناعهم بأن هذه المقاربة هي المثلى، فكيف تجعلهم يدركون أن هذه المرأة التي في حمايتك قادرة على أن تعلمنا أكثر مما نعرف، في حين أن جهودنا ظلت من دون طائل، حتى الآن؟

أدرك إيفوري أنه ينبغي، لإقناع محدثه، أن يلقي له مزيداً من المعلومات التي لم يكن ليتمنى إلقاءها له.

ـ لقد اعتقدتم جميعاً أن الأداة التي في حوزتكم هي فريدة من نوعها، لكن أداة ثانية ما لبثت أن ظهرت. فلئن كانتا من «الفصيلة» ذاتها، كما كنت تقول من تلقاء نفسك قبل قليل، فلماذا التمادي إذاً في الاعتقاد ألا وجود إلا لاثنتين؟

ـ إنك تقترح أن...

ـ أن الفصيلة أكبر عدداً؟ طالما فكرت في ذلك. وأفكر أيضاً أننا كلما منحنا أنفسنا حظوظاً في اكتشاف نماذج أخرى، كلما كنا قادرين على إدراك ما يجري. ما تمتلكون في صناديقكم ليس إلا قطعة، إجمعوا الأجزاء الناقصة وسترون أن الواقع ما زال محملاً بالتبعات أكثر مما أردتم افتراضه.

ـ وتقترحون أن مثل هذه المسؤولية تقع على عاتق هذه المرأة الشابة، التي تصفونها أنتم بأنفسكم أنه لا يمكن مراقبتها؟

ـ دعنا، مع ذلك، من المبالغة. إنسَ طبعها، نحن بأمس الحاجة إلى معرفتها وموهبتها.

ـ لا أحب هذا، إيفوري، كان هذا الملف مطوياً منذ أعوامٍ، وكان يجب أن يظل كذلك. لقد سبق أن خصصنا أموالاً طائلة نظير لا شيء.

ـ خطأ! إننا كرسنا أموالاً طائلة لكي لا يعرف أحد شيئاً: ليس الأمر سيان.

ـ كم من الوقت تعتقدون أنه بإمكانكم كتمان سر هذه الاداة، إذا لم تعودوا الأفراد الوحيدين القادرين على إدراك

معناه؟

ـ بشرط أن يحدث شيء مماثل!

ـ وهل أنت مستعد للمجازفة بذلك من أجل ذلك؟

ـ لست أدري، سأضع تقريري، وهم سيقررون، وأنا سوف أعود إليك في الأيام المقبلة.

ـ لديك متسع من الوقت حتى الإثنين.

سلم إيفوري على مضيفه ونهض. وقبل أن يغادر المكان مال وهمس في أذن باريس: بلّغهم تحياتي، وقل لهم خصوصاً إن هذه هي الخدمة الأخيرة التي أسديها إليهم، لا بل بلّغ عداواتي الصادقة جميع الذين تعرفهم.

ـ لن أقصر في ذلك.

* * *

كَنْت

ــ أدريان، عندي سر أبوح به لك.

ــ والتر، لقد تأخر الوقت جداً، وأنت ثمل تماماً.

ــ بالضبط، الآن أو ليس أبداً.

ــ سبق أن حذرتك، ومهما هممتَ في كشفه لي، تمالك نفسك. أنت في حال يرثى لها، وأنا على يقين من أنك ستندم غداً.

ــ لكن لا، اسكت إذاً وأصغ إلي، سأحاول أن أقول ذلك دفعة واحدة. ها أنذا عاشق.

ــ إنه لخبر سار في حد ذاته، لماذا هذه اللهجة الرصينة إلى هذا الحد؟

ــ لأن صاحبة العلاقة الرئيسية تجهل ذلك.

ــ في الحقيقة، إن هذا يعقد الأمور. بمن يتعلق الأمر؟

ــ أفضل ألا أقوله.

ــ كما تشاء.

ـــ إنـها الآنسة جنكيز.

ـــ أهي عاملة الاستقبال في أكاديميتنا؟

ـــ هي بالذات، وها قد مضت أربعة أعوام وأنا أهبل عنيد.

ـــ وهي ألم تشتبه في شيء ما؟

ـــ أي أن النساء بتلك الغريزة الرهيبة التي يتحلين بها، ربما اشتبهت مرة أو مرتين. لكني أعتقد أني أتقن إبقاء لعبتي طي الكتمان، وهذا بشكل كاف، كي أتمكن من المرور كل صباح أمام مكتبها، من دون أن أخجل من وضعي المثير للسخرية.

ـــ أربعة أعوام، والتر؟

ـــ ثمانية وأربعون شهراً، الحساب الصحيح، وقد احتفلت بالذكرى السنوية قبل بضعة أيام من عودتك من التشيلي. لا تأسف أبداً، فأنا لم أحتفِ بالعيد.

ـــ لكن لماذا لم تقل لها شيئاً؟

تابع والتر وهو ضحية الفراق: لأني جبان، جبان مريع. وتريد أن أقول لك ما ينطوي عليه كل هذا من إثارة شديدة للعواطف؟

ــ لست متيقناً من ذلك، لا.

ــ منذ ذلك الحين، وأنا مخلص لها.

ــ فعلاً!

ــ لقد تحققت بنفسك من مثل هذه السخافة. رجال متزوجون واتاهم حظ العيش بقرب النسوة اللواتي أحبوهن، وجدوا وسيلة لخيانتهن، أما أنا فمخلص لإمرأة لا تدرِي حتى إني مغرم بها. من فضلك لا تُعِد علي لفظة «فعلاً!».

ــ لم أكن أنوي القيام بذلك. لكن لماذا لا تبوح لها بكل شيء، بعد كل هذا الوقت، أي مخاطرة تتعرض لها جراء فعلتك هذه؟

ــ ألكي يتوقف الطابع الرومانسي؟ أنت أبله. إن رفضت استقبالي فلن أتمكن من التفكير فيها على هذا النحو؛ وأن أراقبها سراً كما أفعل الآن فسيعتبر فظاظة لا تحتمل. لماذا تنظر إلي هكذا، أدريان؟

ــ بلا سبب، إنما كنت أتساءل فقط ما إذا كنتَ في الغد، عندما تصحو من سكرتك ونظراً لما جرعته هذا المساء، وهذا لن يحدث قبل انتصاف العصر، ستروي لي هذه الحكاية بالطريقة نفسها.

ــ أختلق شيئاً من عندي، أدريان. إني أقسم لك بذلك، فأنا مشغوف حتى الجنون بالآنسة جنكيز؛ غير أن المسافة بيني وبينها شبيهة بمسافات كونك، وما تضمه من تلال غريبة تحول دون رؤية المقلب الآخر. الآنسة جنكيز موجودة في منارة كريستيان لاند. صاح والتر مشيراً بإصبعه ناحية الشرق، وأنا جنحت مثل عنبر (حيوان بحري ضخم) إلى الساحل الإنكليزي! قال ضارباً بقبضته الرمل.

ــ والتر، إني أتصور بشكل مرئي كاف ما تصفه لي، لكن المسافة التي تفصل مكتبك عن مكتب الآنسة جنكيز تُعدّ بدرجات سلّم، لا بسنوات ضوئية.

ــ ونظرية النسبية، أوتعتقد أنها حكر على زميلك أينشتاين؟ في رأيي أن كل درجة من هذه الدرجات بعيدة بعد مجراتك!

ــ أعتقد أن الوقت حان، والتر، لمرافقتك إلى الفندق.

ــ لا، سنواصل هذه السهرة، وأنت أيضاً، وشروحك. لن أتذكر شيئاً منها على الأرجح في الغد، ولكن لا بأس. نحن نمضي وقتاً ممتعاً، وهذا كل ما يهمنا.

كان والتر، بهيئته الدمثة التي تبعث على الضحك يثير

في بالأحرى الشفقة. أنا الذي كنت أظنني عرفت الوحدة على هضبة أطاكاما... هل من الممكن تصور منفى أشد إيلاماً من المنفى القائم على تمضية المرء أيامه على ارتفاع ثلاثة طوابق تعلو المرأة التي يحبها، ومن غير أن يجد القوة للبوح بذلك؟

ــ والتر، هل تود أن أحاول تنظيم عشاء مع الآنسة جنكيز بحضورك؟

ــ كلا، أعتقد، بعد كل هذا الوقت، أنه لن تكون لي الشجاعة في الحديث إليها. وأخيراً هل تتكرم علي، مع ذلك، بأن تعيد طرح هذا الاقتراح علي غداً... في نهاية العصر؟

* * *

باريس

كانت كيرا متأخرة، ترتدي جينزاً، وكنزة صوف، إستطاعت بالكاد أن ترتب شعرها وراحت تحاول العثور على حزمة مفاتيحها. إنها لم تنم كثيراً نهاية الأسبوع، ولم ينجح ضوء النهار الحزين في انتشالها من نعاسها. العثور صباحاً على سيارة تاكسي في باريس يعدّ مأثرة. مشت حتى جادة سيبستوبول، ونزلت باتجاه السين وهي تنظر لدى كل مفترق طرق إلى معصمها، لكنها كانت قد نسيت ساعتها. إندفعت سيارة في ممر الحافلات وتوقفت محاذاتها. مال السائق لخفض زجاج النافذة ونادى كيرا باسمها:

ـ هل تريدين أن أوصلك إلى مكان ما؟

ـ لقد تغيرت كثيراً منذ البارحة.

ـ لا، لم أكن أتوقع أن أراك في هذا المكان.

ـ إطمئني بالاً، أنا لا ألاحقك، إنه حي ما زال فيه العديد من المطابع ومطبعتي تقوم في الشارع الذي وراءك بالضبط.

ـ إن كنت قريباً من مكتبك، فلا أريد إزعاجك.

ـ من قال لك إنني لم أكن لأخرج منه، من مكتبي؟ هيا اصعدي، أرى حافلة في مرآتي العاكسة وسأتركه يطلق بوقه لي.

ـ لم تتدلل كيرا في القبول، فتحت الباب وجلست بجوار ماكس.

ـ رصيف برانلي، إلى متحف الفنون والحضارات، وأسرع لأني تأخرت كثيراً.

ـ لي الحق، مع ذلك، في قبلة.

ولكن، كما توقع ماكس، دوي بوق جعلهما ينتفضان، وألصقتهما الحافلة بالدارئة. مرّ ماكس أولاً وتخلص من الممر بأسرع ما يمكن. كانت حركة السير كثيفة، وكيرا نفد صبرها، وهي تنظر دونما توقف إلى الساعة في لوحة القيادة.

ـ تبدين على عجلة من أمرك؟

ـ لدي موعد للغداء... منذ ربع ساعة.

ـ إني على يقين، إذا كان رجلاً، أنه ينتظرك

ـ أجل، هو رجل ولا تأخذنّك الغيرة، إنه يكبرك مرتين.

ـ لطالما قدّرت شأن النضوج.

ـ لو كان الأمر كذلك، لما خرجنا معاً.

ـ الـكرة في وسط الملعب، من يكون؟

ـ أستاذ.

ـ وماذا يدرّس؟

لاحظت كيرا: ويحك، إنه لأمر غريب، وأنا لم أسأله عن ذلك.

ـ بصرف الرغبة في أن أبدو فضولياً، أنت تجتازين باريس بأسرها وتحت المطر لمشاركة أستاذ َالغداء ولا تعرفين ماذا يدرّس؟

ـ في الواقع، ليس لذلك أهمية كبرى، إنه محال على التقاعد.

ـ ولماذا تتشاركان الغداء؟

ـ إنها حكاية طويلة، ركز انتباهك في الطريق واخرج بنا من زحمة السير هذه. إنه بخصوص عقدي، وهو عبارة عن حجر أهداني إياه هاري. لقد أطلت التساؤل عن منشئها، ويعتقد هذا الأستاذ أنه مغرق في القدم. وقد

سعينا أن نحدد مصدره، لكن مساعينا منيت بالفشل.

ـ هاري؟

ـ ماكس، أنت تضايقني بأسئلتك، هاري له من العمر ربع عمرك! يسكن في أثيوبيا.

ـ يعتبر حديث السن بالنسبة إلى منافس جاد. هذا الحجر العريق في القدم، هلا أريتنيه؟

ـ لم يعد في حوزتي، وأنا ذاهبة بالضبط لاسترداده.

ـ إن كنت تتمنين ذلك، لي صديق خبير كبير في الحجارة القديمة، في وسعي أن أطلب منه دراسته.

ـ لا أظن أن ذلك يستحق عناء إزعاج صديقك. أعتقد خصوصاً أن هذا الأستاذ يشعر بالملل وإن وجد عذراً ليلهو قليلاً.

ـ أما إذا غيرت رأيك فلا تترددي. ها هي أرصفة النهر سالكة، سنصلَ في خلال عشر دقائق. أين وجد الفتى هاري هذا الحجر؟

ـ فوق جزيرة صغيرة في وسط بحيرة طوركانا.

ـ لعله من خبث البراكين؟

ــ كلا، الأداة غير قابلة للكسر، وما تمكنت حتى من صنع ثقب فيها. وقد طوقتها بواسطة سير جلدي لأعلقها حولٍ عنقي، وينبغي القول إن طريقة صقلها تلفت الانتباه كاملاً.

ــ أنت تحيرينى. أعرض عليك ما يلي: لنتعشّ معاً نحن كلانا، وسألقي نظرة على عقدك العجيب. لقد توقفت منذ بضع سنوات، ولكن ما زالت لدي بقايا جميلة.

ــ محاولة موفقة، عزيزي ماكس، لِمَ لا؟ إلا أني سأبقى وجهاً لوجه مع أختي، ولدينا متسَع من الوقت للتعويض عما فاتنا نحن كلتينا، فمنذ عودتي لم أكف عن صب جام غضبي عليها. عندي فكرتان أو ثلاث في غير محلها أريد أن تغفرها لي، أو بالأحرى إثنتا عشر أو ثلاث عشرة، لا بل نيف وثلاثون.

ــ إن عَرضي ما زال سارياً لكل أماسي الأسبوع الأخرى. ها نحن أمام متحفك، ما عدت متأخرة تقريباً، فساعة سيارتي تسبّق ربع ساعة وأكثر... قبلت كيرا جبين ماكس وخرجت على عجل. كان يود أن يطلب منها أن تتصل به عصراً، بيد أنها أخذت في الركض على الرصيف.

إعتذرت كيرا لاهثة وهي تدفع الباب: أنا آسف لأني

جعلتك تنتظر إيفوري.

كانت الغرفة خالية، وانجذب نظر كيرا نحو ورقة تحت مصباح المكتب. أسطر الكتابة مشطوبة، لكن كيرا تمكنت من معرفة مجموعة أرقام، «بحيرة طوركانا» واسمها. وفي أسفل الورقة، رسم تخطيطي يمثل بشكل بارع عقدها. لم يكن على كيرا الانتقال إلى الجانب الآخر من طاولة العمل، ولا الجلوس على متكئ الأستاذ، كما لم يكن ينبغي لها، على الأرجح، فتح الدرج الموجود أمامها، لكنه لم يكن مقفلاً بالمفتاح، ولا يسع المرء أن يكون عالم آثار حتى يكون بطبعه فضولياً. لقد وجدت فيه دفتراً عتيقاً من جلد، غلافه متشقق، فوضعته على المكتب واكتشفت في الصفحة الأولى منه، رسماً آخر، أقدم عهداً، رسم أداة تشبه على نحو ما تلك التي تحملها حول عنقها. وقْع أقدام جعلها تنتفض. فرتبت مسرعة الفوضى التي سببتها واتسع لها بالضبط الوقت للاختباء تحت الطاولة، إذ همّ أحدهم بالدخول. وحاولت كيرا، منكمشة على نفسها على غرار طفلة فضولية، أن تتمالك أنفاسها. كان رجل يقف على بعد سنتيمترات منها، وقد مسّها قماش بنطاله مساً خفيفاً، ثم انطفأ النور، وعاد الخيال الظلي نحو الباب، وسمع صرير مفتاح في المغلاق، وخيم الصمت داخل مكتب الأستاذ العجوز.

لزم كيرا بضع دقائق لتستعيد هدوءها. فغادرت مخبأها، وتقدمت نحو الباب وأدارت مسكته، فلحسن الحظ، كان مقبض المغلاق يتحكم من الداخل بالمزلاج، وَثَبتْ في الممشى مستعيدة حريتها. نزلت الدرابزين المؤدي إلى الطابق الأرضي، انزلقت وانبطحت على طولها. سارعت يد شهمة لنجدتها. رفعت كيرا رأسها، ولما اكتشفت وجه إيفوري، أطلقت صرخة تردد صداها في البهو بأسره.

سألها الأستاذ جاثياً: هل آذيت نفسك كثيراً؟

ـ كلا، تملكني الخوف فقط. أما الزوار الذين توقفوا لرؤية المشهد فروّحوا عن أنفسهم. واختتم الحادث.

ـ بانزلاق كهذا، أفهم! كان من الممكن أن تهشمي عظامك. ما الذي حثك على الركض هكذا؟ لقد تأخرتِ قليلاً، ولكن لا داعي بسبب ذلك لأن تخاطري بقتل نفسك.

ـ أنا آسفة، إعتذرت كيرا محاولة النهوض على قدميها.

ـ أين كنت إذاً؟ لقد تركت تعليمات لدى مكتب الاستقبال لكي تلتحقي بي في الجنائن.

ـ صعدتُ مباشرة أبحث عنك في مكتبك، كان الباب مقفلاً بالمفتاح. وراودتني فكرة سيئة بالركض للالتحاق

بك إلى هنا.

ها هو نمط الحوادث المؤسفة التي تقع عندما يطول المرء انتظاره. إتبعيني، أموت من الجوع. في مثل سني، يتناول المرء وجباته في مواعيد معينة.

أحست كيرا، للمرة الثانية خلال اليوم، بأنها أشبه بفتاة صغيرة ارتكبت خطأ.

جلسا حول المائدة نفسها، كما في المرة السابقة. كان إيفوري سيىء المزاج ظاهرياً وغائصاُ في قائمة المأكولات.

ـ من الممكن أن يغيروا مأكولاتهم من حين لآخر، لكن الشيء نفسه يتكرر. أنا أنصح لك لحم الحمل، ما زال هو الأفضل. طلب إيفوري من الخادمة قطعتي لحم حمل.

بسط الأستاذ فوطته وأمعن النظر طويلاً إلى كيرا.

قال وهو يخرج العقد من جيب سترته: قبل أن أنسى أعيد إليك ما هو ملك لك.

تناولت كيرا الأداة في يدها وتأملته طويلاً. نزعت السير الجلدي من محيط دائرة عنقها ولفّت القلادة مشبكة الرباط مرتين من الأمام، ومرة من الخلف، تماماً كما

علّمها هاري.

هتف إيفوري، وقد ابتسم للمرة الأولى: علي أن أعترف إنه أغلى ثمناً هنا.

أجابت كيرا مرتبكة بعض الشيء: شكراً.

ــ آمل، مع ذلك، ألا أكون أنا الذي جعلك تحمرين؟ لماذا كنتِ إذاً متأخرة؟

ــ أنا مستحية، أستاذ، وفي وسعي أن أختلق كل أنواع الأعذار، لكن الحقيقة هي أني ما استطعت الاستيقاظ. إنه لعمل أحمق، لا محالة.

أجاب إيفوري وهو ينفجر ضاحكاً: كم أنا أحسدك، لم أوفق في نوم الضحى منذ عشرين عاماً على الأقل. ليس غريباً أن يشيخ المرء، وكما لو أن هذا لا يكفي، تطول الأيام. حسناً، لنعلن هدنة الثرثرات، فأنا لست هنا لأضايقك بمشاكل النوم عندي. إلا أني أحب هذا كثيراً، أي الناس الذين يقولون الحقيقة؛ هذه المرة أنت مسامحة، وسأمتنع عن اتخاذ هذا المظهر المتكدر الذي يضايقك!

ــ هل تعمدت فعله؟

ــ قطعاً!

سألت كيرا وهي تلهو بقلادتها: ألم تسفر النتائج عن شيء ما؟

ــ للأسف، لا.

ــ إذاً، ليس لديك أي فكرة عن عمر هذه الأداة؟

أجاب الأستاذ متحاشياً نظر كيرا: كلا.

ــ هل باستطاعتي أن أطرح عليك سؤالاً؟

ــ لقد طرحته تواً. إطرحي بالأحرى سؤالاً يهمك.

ــ كنت أستاذ أي مادة؟

ــ الديانات! ولكن ليس بالمعنى الذي تتصورينه. لقد كرست حياتي وأنا أحاول أن أدرك في أي مرحلة من مراحل تطوره، قرر الإنسان الإيمان بقوة علوية أطلق عليها اسم «الله». أوتعلمين أن رجالاً ينتمون إلى فصيلة الإنسان العاقل (Homo Sapiens) واروا الثرى، بالقرب من الناصرة، قبل حوالي مائة ألف عام، وللمرة الأولى في تاريخ البشرية، جثمان امرأة في العشرين من عمرها تقريباً؟ وكان يرقد أيضاً إلى جوارها جثمان طفل في السادسة؟ والذين اكتشفوا هذا القبر وجدوا كذلك حول الهيكلين العظميين كمية من المغرة الحمراء. وفي موقع

آخر ليس ببعيد عن المكان، أخرج من التراب فريق آخر من علماء الآثار حوالي ثلاثين قبراً متشابهاً. كانت جميع الجثامين مرتبة في وضعية خاصة بالجنين، وكلها مطلية بالمغرة، وكل قبر زود بأدوات طقسية. إنها ربما المؤشرات الأقدم عهداً على العاطفة الدينية. فإلى الحزن الذي كان يواكب خسارة قريب، إنضافت إليه ضرورة ملحة لتكريم الموت؟ فهل في هذه الفترة الدقيقة، ولد الاعتقاد بعالم آخر، حيث سيستمر الموتى في الوجود؟

ثمة العديد والعديد من النظريات بصدد هذا الموضوع، الذي لن نعرفه أبداً وبلا ريب هو في أي مرحلة من مراحل تطوره شرع الإنسان يعتقد حقاً في وجود إله. لقد بدأ، بدافع تأثير سحر محيطه وخوفه منه، يؤله قوة تتخطى قدراته. كان من الضروري فعلاً أن يعطي الإنسان معنى لسر الفجر والشفق، ولسر النجوم التي ترتفع فوق رأسه في السماء، ولسحر التبدلات الفصلية، والمشاهد المتحولة، كما يتبدل تماماً جسده على مر الزمان، إلى أن ينتهي به أخيراً إلى إرغامه على لفظ نَفَسه الأخير.

يا لروعة أن نلاحظ في مائة وستين بلداً تقريباً، حيث تم اكتشاف أعمال فنية على الصخور، إنها جميعاً تنطوي على مشابهات في ما بينها. فاستعمال اللون الأحمر الدائم

الحضور، كأنما هو رمز مطلق للإتصال بالعوالم الأخرى. لماذا تم رسم البشر الماثلين في الصور، أياً يكن مكان العالم الذي يعيشون فيه، في وضعية المصلي، سواعدهم مرتفعة إلى السماء، وهم متجمدون في الحركات عينها؟

أترين، كيرا، إن أعمالي لم تكن بعيدة جداً عن أعمالك. أنا أشاطرك وجهة نظرك، أحب الزاوية التي تقومين في إطارها بأبحاثك. هل الرجل الأول هو الذي انتصب حقاً ليمشي واقفاً؟ هل هو الذي قرر قطع الحطب والحجر ليصنع منهما أدواته؟ الأول الذي ذرف الدمع لموت قريب له، مدركاً أن نهايته كشخص أمر محتوم؟ الأول الذي آمن بقوة تتجاوزه، أو الأول ربما الذي عبّر عن أحاسيسه؟ بأية ألفاظ، بأية حركات، بأية قرابين، قال الإنسان الأول إنه يحب؟ وإلى من كان يتوجه، هل إلى والديه، أو إلى زوجته، إلى أولاده، أو إلى إله؟

تركت أصابع كيرا القلادة ووضعت يديها فوق الطاولة، ممعنة النظر إلى الأستاذ.

ــ لن نعرف على الأرجح الجواب أبداً.

ــ وما أدراك بذلك؟ ليس كل شيء سوى مسألة صبر، وتصميم وانفتاحَ عقل. يكفي أحياناً النظر إلى ما هو الأقرب لنرى البعيد الذي يفوتنا حضوره.

ـ لماذا تقول لي هذا الكلام؟

ـ لقد أمضيتِ ثلاثة أعوام من حياتك في التنقيب في الأرض بحثاً عنَ بضعة عظام متحجرة، قد تسمح لك باختراق سر أصل البشرية. لعله كان من الأَولى أن نتلاقى، وأثير فضولك لكي تبدئي فقط بالنظر في انتباه إلى هذه الأداة غير العادية التي تحملينها حول عنقك.

ـ يا لغرابة المشابهة! فليس ثمة أي صلة بين الحجر و...

ـ إنه ليس صخراً وليس خشباً، ونحن عاجزون عن قول مما هو مصنوع. غير أن كماله يحملنا على الشك في أن الطبيعة قد صاغته على هذه الشاكلة! أتجدين دائماً تشبيهي غريباً إلى هذا الحد؟

سألت كيرا وهي تضم عقدها بين أصابعها: ما الذي أنت على وشك قوله لي؟

ـ وإذا كان ما تبحثين عنه منذ كل هذه السنين هو معلق بكل بساطة بعنقك؟ فمنذ عودتك إلى فرنسا، وأنت تحلمين في كل ثانية بالعودة إلى وادي أومو، أليس كذلك؟

ـ هل هذا أكثر ظهوراً للعيان؟

ـ إن وادي أومو قائم في صدرك، أيتها الشابة، ولعله، على الأقل، أحد أكبر الأسرار الذي يخفيه.

ترددت كيرا لحظة ومضت تنفجر مقهقهة.

ـ إيفوري، كدتَ، في الحقيقة تغلبني! فقد كنتَ مقتنعاً للغاية، لدرجة أحسست معها بقشعريرة. أعرف أنني في نظرك لست إلا عالمة آثار شابة تصل إلى مواعيدها متأخرة، ولكن مع ذلك! لا يتوافر لدينا أي عنصر يسمح بأن نعتقد أن لهذه الأداة قيمة علمية حقيقية.

إني أطرح عليك سؤالي مجدداً، هذه الأداة هي أقدم بكثير من كل شيء تصورناه، ولم تنجح أية تقنية بانتزاع أدنى جزء منه، كما لم تنجح أيضاً في تحديد تاريخه بصورة جازمة. كيف تشرحين أنه صقل بشكل باهر إلى هذا الحد؟

أسرّت كيرا: أعترف أنه دسّاس.

ـ إنني لسعيد أن تطرحي على نفسك هذا السؤال، عزيزتي كيرا، مثلما كنت سعيداً بالتعرف عليك. إنك ترين أن الأمل في تحقيق اكتشاف أخير، من خلال مكتبي الصغير في الطابق العلوي، كان ضعيفاً، كما قد توافقين على كلامي. وبالرغم من ذلك، لقد كذّبت أنا أيضاً،

وبفضلك أنت، الإحصائيات.

قالت كيرا: إذاً، أنا مغتبطة لذلك.

ــ ما كنت أتحدث عن هذه الأداة، فالتحقق منه أمر يعود إليك.

ــ لكن على أي اكتشاف كنت تتكلم إذاً؟

ــ في الحقيقة، على التقائي امرأة طيبة وفذة!

نهض إيفوري مغادراً المائدة. نظرت إليه كيرا وهو يبتعد، التفت للمرة الأخيرة ووجه إيماءة صغيرة من يده إلى صديقته الجديدة.

* * *

لم يكن قد بقي لنا أكثر من أسبوع لتسليم ملف ترشيحنا. هذا المشروع إستأثر أخيراً بكل وقتي، وكنا قد تعودنا أن نلتقي أنا ووالتر عند المساء، في مكتبة الأكاديمية، حيث كنت أقدم له حصيلة أعمال النهار. وبعد أن أعيد عليه نصي ــ وكنا نتناقش في الغالب ــ نتوجه للعشاء في مطعم هندي صغير في الحي. كانت الخادمة ترتدي فستاناً مكشوف العنق محتشماً، ولم نكن لا أنا ولا والتر فاقدي الشعور. بعد تلك العشاءات، التي لم تكن الخادمة موضوع حديثنا لتوجه إلينا أي نظرة، كنا نواصل أحاديثنا ونحن نتمشى ونهر التايمز. وحتى حين كان المطر على موعد معنا، لم نتخلَّ عن هذه النزهة الليلية.

لكنني كنت، هذا المساء، أعددت لصاحبي مفاجأة. ولما كانت سيارتي الــ (أ.ج) «M.GA»، منذ نهاية الأسبوع الفائت، تتصرف معي بنزوة أشبه بنزوة سيدة عجوز، أوصلنا تاكسي إلى محطة أستن، القريبة من محطة كينغ كروس. كنا متأخرين، وبدلاً من أن أجيب عن سؤال والتر العشرين: «إلى أين نحن ذاهبان؟» حملته على الجري في سباق جنوني باتجاه الرصيف الذي ينطلق منه قطارنا. كان

الموكب على أهبة التحرك، فدفعت والتر نحو العربة الأخيرة المسطحة والمكشوفة، ووجدت الوقت تماماً للصعود بدوري. كانت القضبان قد بدأت تئز تحت الأرض المستنقعية.

تخلت ضاحية لندن عن مكانها للريف الإنكليزي، الذي احتجب أمام ضاحية مانشستر.

سأل والتر: مانشستر؟ ما الذي جاء بنا إلى مانشستر في الساعة العاشرة مساء؟

ــ من قال لك إننا وصلنا إلى غايتنا؟

ــ الحقيقة أن يعلن المراقب: «نهاية الخط، على الجميع أن ينزلوا»، للتو.

ــ والرسائل المتبادلة، عزيزي والتر؟ هيا تناول كيسك وتعال، فنحن لا يكاد يتوافر لنا سوى عشر دقائق.

سباق جديد عبر أنفاق الممرات تحت الأرضية، وإذا بنا قد ركبنا قطار أمنيبوس الذي انطلق شطر الجنوب.

لم تستقبل محطة هولمز تشابل ذلك المساء غيرنا. وسارع رئيس المحطة بصفرة منه إلى إخلاء الموكب، حيث نزلنا لتونا. وأخذت سُربة العربات تختفي. نظرت الى

ساعتي مترقباً السيارة التي ستقدم للبحث عنا. بكل تأكيد، إن السيارة التي انتظرها كانت متأخرة.

ــ حسناً، الساعة الآن العاشرة والنصف، وأنا التهمت كعشاء هذه الشطيرة المحشوة بالخيار ولحم ديك الحبش، الذي سخا كرم أخلاقك بتقديمه لي، ونحن في العراء، والكلمة هنا تتخذ كامل معناها. هل تقول لي أم لا ما الذي نفعله في هذا الركن الضائع؟

ــ لا!

كاد والتر أن يفجر غضباً، وينبغي أن أعترف أنني كنت أشعر ببعض المتعة وأنا أراه يغضب. أخيراً على الطريق الضيق المحاذي للمحطة، سيارة هيلمن قديمة طراز 19 عرفتها للحال؛ لم يكن مارتن إذاً قد نسي الموعد الذي حددته له عشية البارحة هاتفياً.

قال: آسف، وهو يترجل من الباب الخلفي، أنا في منتهى التأخر، ولكن كنا جملعاً مركزين أفكارنا على ما يحدوك على المجيء هذا المساء، وما استطعت أن أتفرغ قبل الآن. إصعدا سريعاً إن كنتما لا ترغبان في تفويت الحدث! أنا مضطر أن أجعلكما تمران من هناك. أضاف زميلي وصديقي القديم مشيراً الى الباب الخلفي. أبواب هذه السيارة اللعينة لم تعد تنفتح مذ بقيت مسكاتها في

يدي، كما لم يعد ثمة الكثير من القطع المستعملة قيد التداول.

ما عادت السيارة إلا كومة من صفائح معدنية صدئة، فالواجهة كانت مشقوقة على امتدادها. سأل والتر بصوت محموم ما إذا كنا نذهب بعيداً. وبعد تقديم مختصر معهود، كان مارتن أول المندفعين داخل حجرة السيارة، وهو يقفز فوق المقعد الخلفي. وما إن جلس وراء مقوده، طلب من والتر أن يتلطف بسحب الباب الخلفي بكل قواه ليعيد إغلاقه، مع ذلك ليس أكثر مما يلزم. غادرنا المحطة الصغيرة وانطلقنا في الطريق المرجرجة في كونتية ماكسفيلد.

إضطر والتر أن يرفض التمسك بالعلاّقة، فالسمار الأخير أخذ في الارتخاء من مكانه، ورأيته يتردد لحظة ويضعه في جيبه.

قال: أعتقد أن كل شيء على ما يرام، بينما الشرح يمتد في انحناءة طويلة، ولحم ديك الحبش والخيار يتآلفان إلى نهاية الأزمنة.

ـ أعذراني لقيادتي المسرعة، ولكن لا ينبغي تفويت الفرصة أياً كانت الحجة، تمسكا جيداً، فسنصل عما قريب إلى غايتنا المنشودة.

صاح والتر وهو يلوّح بالعلاقة: وبمَ تريد أن أتمسك؟ ثم إلى أين نحن ذاهبون أخيراً؟

نظر مارتن إلي مذهولاً، لكني أومأت إليه ألا ينبس بكلمة. وكان والتر يصعقني بنظراته لدى الخروج من كل انعطافة طريق. وكف عن التذمر عندما لاح أمامنا فجأة الهوائي المقرابي الضخم في مرصد جودرال.

ـ البقرة! صفّر والتر، لم أكن قد شاهدت قط بقرة من مسافة قريبة جداً.

كان مرصد جوردال يتبع دائرة الفلك في جامعة مانشستر. كنت قضيت فيه بعض الأشهر أثناء سنوات دراستي، وهكذا ارتبطت بصداقة مع مارتن الذي واصل هنا حياته المهنية، متزوجاً خلال أعوامه الدراسية في الكلية بامرأة تدعى اليونور أتوبل، وريثة معامل الألبان المحلية التي تحمل الاسم ذاته. إنفصلت إليونور عن مارتن بعد خمسة أعوام من حياة زوجية متسمة بحب بريء، ثم انتقلت للسكن في لندن مع أفضل أصدقاء مارتن. هو بدوره وريث ثروة متأتية عن دنيا المال، كانت لا تزال تبدو، في تلك الأزمنة، أنها أشد متانة من عالم الألبان. وبالطبع، لم نكن أنا، ومارتن لنتطرق أبداً إلى هذا الموضوع الحساس. كان مرصد جودرال فريداً من نوعه،

إذ كان قَطْع مكافئ قطره سبعة وسبعون متراً يؤلف العنصر الرئيسي. كان مغروزاً فوق سرير معدني يبلغ ارتفاعه عن الأرض سبعة وسبعين متراً، وكان المقراب اللاسلكي ثالث أضخم مقراب لاسلكي من نوعه في العالم. وكانت ثلاثة مراصد أخرى أصغر حجماً منها تكمّل الموقع، وتتبع جودرال لشبكة من الهوائيات المعقدة المنصوبة على الأراضي البريطانية، وجميعها مترابطة في ما بينها لتستقبل العدد الهائل من المعلومات الواردة من الفضاء. وقد سميت الشبكة «مرلين»، وذلك، للأسف، ليس إكراماً للساحر الفنّان، بل لأنها الحروف الأولى لمجموعة أسماء علمية تشكل الإسم الرمزي. وكانت مهمة الفلكيين الرئيسية في جودرال تقوم على ملاحقة النيازك والكواكب ذات المظهر النجمي، والنجوم النابضة والعدسات الجاذبة حتى حدود المجرات، وأكثر من ذلك، اكتشاف الثقوب السوداء التي تكونت عند ولادة الكون.

ـ هتف والتر وقد فاض فجأة حمية وحماساً: هل سنرى ثقباً أسود؟

إبتسم مارتن، ممتنعاً عن الإجابة عن سؤاله.

وبينما كان والتر يسعى بجد وكد للخروج من السيارة، بادرني مارتن بالسؤال: كيف كانت الحال في أطاكاما؟

أجبت بحنين، استشعره في الحال زميلي القديم: في منتهى الإمتاع، فريق فذ.

لماذا لا تأتي للانضمام إلينا، وسائلنا لا تتمتع بأهمية كبرى، ولكن، كما تعلم، الفريق هنا طافح بالمواهب.

ـ لا ريب في ذلك، مارتن، وأنا لن أسمح لنفسي أبداً بأن أجعلك تفهم أن زملائي في أطاكاما يتفوقون في أمر من الأمور على زملائك العاملين في جودرال. إني مشتاق إلى جو التشيلي، وعزلة الهضاب العالية وصفاء الليالي. أما الآن فنحن هنا ولك مني الشكر.

ـ عندها تذمر والتر الذي كان ينتظر على المرجة، هل سنرى هذا الثقب الأسود، نعم أو لا؟ قلت وأنا أدلف من الباب الخارجي، بينما لم يتمالك مارتن كبح جماح قهقهة مدوية: على نحو ما.

إستقبلنا زملاء مارتن وانصرفوا إلى العمل مجدداً مسرعين. كان والتر يأمل أن يدس عينه في عدسة نظارة عملاقة، غير أن أمله خاب، حين قلت له إن عليه الاكتفاء بمشاهدة الصور على شاشات حواسيب القاعة، حيث كنا نتواجد. كان الهياج المحدق بنا جلياً محسوساً. جميع رجال العلم المجتمعين أعينهم مثبتة على مناضدهم. ومن الممكن، من حين لآخر، سماع صرير الهوائي الآتي من

بعيد، وهو يدور مليمترات قليلة حول محاوره المعدنية العملاقة. وكلما عاد الصمت يخيم ثانية، تنصّت كل عالم منهم على طريقته إلى تلك الإشارات القادمة إلينا منذ بداية الأزمنة.

لتخليص زملاء مارتن، جذبت والتر، الذي كان ينهال عليهم بالأسئلة، إلى خارج المبنى. وشوش قائلاً: لماذا هم منفعلون إلى هذه الدرجة؟

ــ هنا يسعك أن تكلمهم بصورة طبيعية من دون أن تخاف إزعاجهم. إنهم يأملون هذا المساء أن يشاهدوا جميعهم ولادة ثقب أسود. إنه لحدث نادر في حياة عالم فلك إشعاعي.

ــ هل ستتكلم على الثقوب السوداء أمام أعضاء اللجنة؟

ــ بكل تأكيد.

ــ هيا إذاً، إني لسامعك.

ــ يمثل الثقب الأسود المجهول الأخير بالنسبة إلى عالم فلكي، حتى الضوء لا يتسرب منه.

ــ كيف تعرف إذاً أنها موجودة؟

ـ إنها تتكون عند الانفجار الأخير لنجمة عظيمة الكتلة، هي أكبر من شمسنا. إن جثمان هذه النجمة ثقيل إلى درجة أن أي شكل طبيعي قادر على الحؤول دون انهياره تحت وطأة وزنه الخاص. حين تقترب مادة من ثقب أسود، تتجاوب معها وترن كأنها جرس. هذا الصوت الذي يتناهى إلينا هو من مقام السي بيمول (Si bemol) خمسة وسبعون جواباً (octave) تحت الدو (do) الصوت المتوسط. هل كنت تتصور أنه يمكن سماع موسيقى تتردد في عمق أعماق الكون؟

همس والتر: قد يبدو ذلك معقولاً.

ـ ثمة ما هو غير قابل للتصديق أيضاً. إن الزمن والفضاء يتشوهان حول الثقب الأسود، ويبطئ مجرى الزمن. فلو سافر رجل حتى محيط ثقب أسود من دون أن يتعرض للابتلاع سوف يعود إلى الأرض ثانية أكثر شباباً من أولئك الذين تركهم خلفه عند لحظة رحيله.

عندما رجعنا إلى القاعة التي كان زملائي يترقبون بروز الظاهرة المنتظرة بكل هذا القدر من الشوق، لم يعد والتر تماماً هو ذاته. كان يحدق ببصره في الشاشات التي تنطبع عليها نقاط بالغة الصغر شاهدة على عصور بعيدة لم يكن فيها للإنسان وجود بعد. في الساعة الثالثة وسبع

دقائق صباحاً، اهتزت الحجرة التي كنا فيها بفعل هتاف فرح وانتصار عظيم، هز الجدران هزاً. وثب مارتن، وهو في العادة بارد المزاج، وثبة كاد يقع إلى الوراء. البرهان الذي تجلى على الشاشات تعذر تفنيده؛ وفي الغد سوف تبتهج جماعة الفلكيين في العالم أجمع لاكتشاف زملائي الأنكليز، كذلك فكرت بأصدقائي المقيمين فوق هضبة أطاكاما الذين ربما أحاطوني بمودتهم.

كان والتر مفتوناً بما لقنته حول تشوه الزمن. وفي الغد، بينما كان مارتن يقودنا باتجاه محطة هولمز تشابل الصغيرة، شرح لوالتر أن حلمه المطلق هو أن يحدد ذات يوم ثقب ديدان. وما إن عاد من اكتشاف وجود ثقوب سوداء حتى ظن بداية أنه مزاح، قبل أن يتوسل إلى مارتن أن يزوده بمزيد من المعلومات. كان مارتن يجد صعوبة كبيرة في حفظ سيارته القديمة على سمت مستقيم، وقد حللتُ محله وشرحت لوالتر أن ثقوب الديدان هي طرق مختصرة في الفضاء ـ الزمن، وهي أشبه ببابين بين نقطتين من نقاط الكون، إن نحن نجحنا يوماً في إثبات الدليل على وجودها، فسنخطو إذ ذاك الخطوات الأولى في السفر عبر الفضاء بوتيرة أسرع من الضوء.

على رصيف المحطة، ضم والتر مارتن بين ذراعيه

مؤكداً له، بشيء من الانفعال، أنه يزاول مهنة مدهشة. ثم أخرج العلاّقة من جيبه وردها بأبهة إلى صاحبها.

في القطار المتوجه إلى لندن، أسرّ لي والتر أن أعضاء مؤسسة والش إن لم يقع خيارهم على مشروعنا، فسوف يعد ذلك في رأية ظلماً فظيعاً.

* * *

أمضت كيرا كل سهرات الأسبوع، كما أقسمت لماكس، في مشاطرة أختها أوقاتاً متواطئة.

ـ أتفكرين غالباً في الوالد؟

أمرّت كيرا رأسها عبر باب المطبخ، فيما راحت جان تتأمل فنجاناً من البورسلين.

قالت جان وهي تسكب منقوع الزهورات في الفنجان، قبل تقديمه إلى كيرا: كان يشرب قهوته فيه كل صباح، إنه لعمل أبله. كل مرة أرى الفنجان في هذه الخزانة ينتابني الحزن.

كانت كيرا تتأمل أختها في صمت.

ـ وفي كل مرة أستعمله، يخيل إلي أنه هنا، قبالتي يبتسم لي. إنه لأمر غريب، أليس كذلك؟

ـ كلا، سر مقابل سر، لقد احتفظت بأحد قمصانه؛ أرتديه من حين لآخر، وأشعر مثلك بالإحساس ذاته، فما أن ألبسه يخالجني شعور بأنه يقضي النهار في صحبتي.

ـ أوتعتقدين أنه فخور بنا؟

ـ فتاتان عزباوان لا أطفال لهما تتقاسمان الشقة نفسها في نيف وثلاثين من عمرهما. أظن لو كانت الجنة موجودة، لكانت مزلقة تؤدي إلى الجحيم، ما أن يلقي نظره هنا ليرى المصير الذي انتهينا إليه.

ـ أنا مشتاقة إلى أبي، كيرا، وأنت لا تعرفين إلى أي حد، وإلى أمي كذلك.

ـ هل تودين أن تغيّري موضوع الحديث، جان؟

ـ هل سترجعين ثانية إلى أثيوبيا؟

ـ لا أعلم، حتى إني لا أعلم ما سأفعله الأسبوع القادم. ينبغي أن أتدبر أمري لأجد عملاً بأقصى سرعة، وإلا سيتوجب عليك عما قريب أن تعيليني.

ـ ما سأقوله لك قد يبدو أنانياً، لكنني أود كثيراً أن تبقي معي. نحن مشتاقتان إلى والدينا، لكن ما جرى كان وفقاً للقانون، ثم أريد أن أعتقد أنهما متحدان؛ أما نحن فإننا على قيد الحياة، ولئن كنتِ بعيدة إلى هذه الدرجة فإنه من قبيل الوقت الضائع.

ـ أعلم، يا جان، لكنك عاجلاً أو آجلاً ستلتقينِ جيروم آخر، جيروم الطيب هذه المرة، وسترزقين أطفالاً، وتأتي الخالة كيرا لزيارتهم عقب عودتها من مهمتها، وستأتي

بالعديد من الحكايات الجميلة لتقصها عليهم. ثم أنت أختي، وحتى لو كنت بعيدة، أفكر فيك. وأعدك أنني لو سافرت مجدداً، سأتصل بك أحياناً كثيرة، ليس لتبادل التفاهات وحسب.

ـ أنت على حق، لنبدّل الحديث، أنا لم يكن لي الحق في قول هذا الكلام. أريد أن تعيشي حيث أنت حياة تنطوي على أكبر قدر من السعادة. حسناً، لنكن برغماتيتين ولنضع جانباً حالاتنا النفسية. ما الذي يلزمك حتى تعودي إلى وادي أومو؟

ـ فريق عمل ومعدات، أي ما يتيح لي دفع أجور الفريق، والحصول على المعدات، والأحرى أن نقول على شيء زهيد القيمة!

ـ كم من المال؟

ـ أكثر من خطتك للتوفير المنزلي، يا أختي الكبرى.

ـ لماذا لا تحاولين أن تتموني من القطاع الخاص؟

ـ لأن علماء الآثار نادراً ما يظهرون أمام عدسات التلفزيون بقمصانهم التي تشيد بعلامات تجارية لمساحيق الغسيل، وللمشروبات الغازية أو لأي مصرف من المصارف. ولهذا فإن أنصار العلم يقل عددهم، لكي لا

نقول إنهم معدومون. ملاحظة، وهي فكرة، يمكن محاولة تنظيم سباق رالي. نوع من السباق بكيس من البطاطا وفي كل يد «مالج». والأول الذي يُفلح في نبش عظمة يربح إشتراكاً سنوياً في مجلة للكلاب.

ــ لا تحولي كل شيء إلى مادة ساخرة، إذ ليس من البلاهة في شيء ما أقوله لك. إنه عمل مرهق، فما أن يدلي المرء بفكرة، حتى يأتي الجواب الأول دائماً «غير ممكن!» لو عرضت أعمالك على بعض المؤسسات، هل تتسنى لك الفرص رَبما؟ ماذا تعرفين عن ذلك؟

ــ جميعهم يسخرون من أعمالي، جان. من سيكون مستعداً للمراهنة بأقل أورو علي؟

ــ أعتقد أنك لا تثقين ثقة كافية بنفسك. لقد أمضيت ثلاثة أعوام على أرض التنقيبات، وحررت صفحات وصفحات من التقارير. وأنا قرأت أطروحتك، ولو كنت ميسورة الحال لموّلت في الحال بعثتك القادمة.

ــ لكنك أنت أختي! وإنه للطف منك جان. غير أن فرضيتك قليلة الترجيح. أشكرك مع ذلك، فقد جعلتني أحلم خلال ثلاثين ثانية.

ــ عوضاً من أن تبدّدي وقتك طيلة النهار، من

المستحسن أن تحصي على الإنترنت المنظمات التي في وسعها أن تهتم، في فرنسا كما في أوروبا، بما تعملين.

ـ أنا لا أبدد وقتي!

ـ ماذا كنت تفعلين مع إيفوري في المتحف هذه الأيام الأخيرة؟

ـ إنه إنسان غريب الأطوار، أليس كذلك؟ لقد أولع بقلادتي وعلي أن أعترف بأنه نجح في إثارة فضولي. حاولنا تحديد تاريخ لها، ولكن دون جدوى. مع ذلك، هو مقتنع أن هذه الحصاة قديمة جداً، ولا شيء يثبت له أنه على حق أو على ضلال.

ـ غريزته؟

ـ مع كل الاحترام الذي أكنه له، هذا لا يكفي.

ـ صحيح أن هذه الأداة فريدة كفاية، ولي صديق متخصص في الأحجار الكريمة، هل تريدين أن أطلب منه إلقاء نظرة عليها؟

ـ إنها ليست حجراً، ولا حتى خشباً متحجراً.

ـ إذاً، ما هي؟

ـ هذا ما نجهله تماماً.

طلبت جان على الفور مهتاجة: أرينيها.

نزعت كيرا العقد وقدمته لأختها.

ـ وماذا لو كان جزءاً صغيراً ملساً من مذنّب كبشرة طفل صغير؟

ـ يعجزني القول إني خبيرة في هذا المجال، لكن أتصور أننا بعيدون عن اكتشاف كل ما يصلنا من الفضاء.

أجابت كيرا وقد استعادت ردود فعلها كعاملة آثار: هذه فرضية. أذكر أَني قرأت في مكان ما أنه يسقط منها على الأرض ما يقارب الخمسين ألفاً في السنة.

ـ إسألي إختصاصياً.

ـ إختصاصياً من أي نوع؟

ـ قصاب الزاوية، يا بلهاء، بل شخص يعنى بهذه الأمور، فلكي أو عالم فيزياء فلكية، لا أعرف، أنا.

ـ طبعاً، عزيزتي جان، سأذهب للبحث عن مفكرتي والنظر في صفحة «أصدقاء فلكيون». وإني أتساءل من منهم أستطيع الاتصال به أولاً!

لما كانت جان مصممة على تفادي الجدال، فإنها لم ترد على قوارص كلام أختها. بل توجهت نحو المكتب الصغير عند مدخل شقتها وجلست على الحاسوب.

ـ سألتها كيرا: ماذا تفعلين؟

ـ إني أعمل لك! أبدأ منذ هذا المساء، وعليك ألا تتحركي غداً من هذا المكان، ستظلين مسمرة إلى هذه الشاشة. ولدى عودتي، أريد أن أجد قائمة بجميع المؤسسات التي تدعم إجراء الأبحاث في علم الآثار، وعلم الإحاثة وعلم طبقات الأرض، بما فيها المؤسسات التي تسعى لتطوير إفريقيا المستدام، إنه لأمر!

***   *   ***

زوريخ

مكتب واحد لا غير كان لا يزال مشغولاً في الطابق الأخير من مبنى الاعتماد الوطني السويسري. رجل أنيق أكمل قراءة البريد الإلكتروني الذي تم تسلمه في غيابه. كان قد وصل في الصباح ذاته من ميلانو، ولم يدع له نهاره فترة راحة على الإطلاق. فتوالت الاجتماعات وقراءة الملفات. إستطلع ساعته، بمقدوره أن يعود إلى منزله، إذا لم يضطر إلى التأخر، ويغتنم نهاية السهرة. أدار محور متكئه، ضغط على زر من أزرار الهاتف وانتظر سائقه أن يلبي النداء.

ــ هيئ السيارة، سأكون في أسفل البناية خلال خمس دقائق.

ثم شد على عقدة ربطة عنقه، رتب طاولة عمله، وإذا به يلاحظ على شاشة حاسوبه صورة ملونة يؤكد له أن مذكرة فاته الإنتباه إليها. فقرأها وألغاها حالاً. وتناول دفتراً صغيراً أسود من جيب سترته الداخلي، تصفحه، سوّى نظارته ليقرأ الرقم الذي بحث عنه ورفع سماعة هاتفه.

ـ قرأت للتو رسالتك، من بالإضافة إلينا على علم بالخبر؟

ـ باريس، نيويورك وأنت، سيدي.

ـ ومتى تم هذا اللقاء؟

ـ قبل البارحة.

ـ لاقني خلال نصف ساعة في ساحة مدرسة البوليتكنيك.

ـ قد يكون صعباً علي، فأنا أدخل إلى «الأوبرا».

ـ ما المسرحية التي يقومون بتمثيلها، هذا المساء؟

ـ بوتشيني، «مدام باترفلاي».

ـ حسناً، عليها الإنتظار، إلى اللقاء عما قليل.

نادى الرجل سائقه مجدداً لإلغاء الأمر الذي أعطاه لتوه وأعفاه بقية الليلة. أخيراً كان لديه من العمل أكثر مما اعتقد، فهو سيبقى في مكتبه حتى وقت متأخر. ولا جدوى من البحث عنه غداً في منزله، لأنه سينام على الأرجح في المدينة. وفور انتهاء الاتصال، توجه نحو النافذة ونحى صفائح الستار ليلقي نظرة على الشارع في الأسفل. عندما

رأى سيارته تخرج من الموقف وتعبر «باراد بلاس»، غادر مركز مراقبته، تناول معطفه من المشجب وخرج بعد إغلاق الباب بالمفتاح.

في هذه الساعة المتأخرة، مصعد واحد يسمح بمغادرة البناية. في القاعة، سلم عليه الحارس وحرّر المزلاج الذي يقفل الباب ذا الشكل الأسطواني المركزي.

شق الرجل، فور خروجه طريقاً له بين الجموع الكثيفة التي تجتاح ساحة زوريخ الرئيسية. توجه إلى «باهنوف ستراس» متسلقاً أول حافلة كهربائية كانت مارة من هنالك. جلس في مؤخرة العربة، لكنه تخلى عن مكانه، في المحطة التالية، لامرأة عجوز لم تجد لها مقعداً.

حين غادرت الحافلة الكهربائية الشبكة التجارية الكبرى وتشعبت لعبور الجسر القائم فوق النهر، سُمع صرير لاقطات التيار المنزلقة على امتداد السلاسل. وما أن بلغ الرجل الضفة المقابلة، حتى نزل من سربة العربة وطفق يمشي في اتجاه محطة القطار السلكي.

«البوليبان» آلة غريبة ذات لون أحمر زاه، وهي إذ ترتفع كمثل السحر في وسط واجهة مبنى صغِير، تتسلق على امتداد منحدر صعب المرتقى، وتجتاز أوراق أشجار الكستناء لتظهر ثانية فوق أعالي الرابية. لم يتوقف الرجل

إطلاقاً عند المشهد الذي تعرضه شرفة مدرسة البوليتكنيك المطلة على المدينة؛ بل عبر البلاط الكبير بخطى منتظمة دوماً، دار حول قبة «معهد العلوم»، وهبط الدرج المؤدي إلى صفوف الأعمدة. كان موعده في انتظاره في ذلك الحين.

ــ آسف لأنني عرّضت سهرتك للضرر، لكن هذا لم يكن لينتظر الغد.

أجاب محدثه: أفهمك، سيدي.

ــ لنمشِ فالهواء سيعود علي بالنفع العميم، وأنا قضيت النهارَ بأسره حبيساً في مكتبي. لماذا تبلغت باريس قبل أن نتبلغ نحن؟

ــ لقد اتصل بها إيفوري.

ــ وهل عقد لقاء حقاً؟

وافق الرجل بإيماءة من رأسه، وضّح أن اللقاء تم في الطابق الأول من برج إيفل.

ــ هل لديك صورة؟

سأل الرجل مشدوهاً: عن الغداء؟

ـ لا طبعاً، وإنما عن الأداة.

ـ لم يطلعنا إيفوري على أي منها، والقطعة التي تعنينا كانت قد غادرت مختبر لوس أنجلوس قبل أن نتمكن من التدخل.

ـ أويعتقد إيفوري أن هذه الأداة هي من نوع تلك التي نملكها بالذات؟

ـ لطالما كان على يقين من وجود نماذج عدة منها، ولكن كما تعلم، سيدي، هو الشخص الوحيد الذي يعتقد ذلك.

ـ أو الوحيد الذي لديه الوقاحة لقول ذلك بصوت عال، إيفوري معتوه قديم، لكنه ذكي وخبيث بوجه خاص. بإمكانه أن يتعقب أثر نزوة أو أن يلعب علينا حيلة كي يسخر منا.

ـ وما مصلحته في ذلك؟

ـ الأخذ بالثأر يترقبه منذ زمن بعيد... إنه ذو طبع كريه.

ـ وفي الافتراض المعاكس؟

ـ في هذه الحال، لا غنى عن اتخاذ بعض التدابير.

علينا أن نسترد هذه الأداة أياً كان الثمن.

ــ بحسب باريس، يبدو أن إيفوري قد أعادها إلى صاحبتها.

ــ هل تعلم من هي تلك المرأة؟

ــ لا، ليس بعد، لم يشأ أن يكشف لنا شيئاً.

ــ إنه لأشدّ بلهاً مما كنت أتصوره، إلا أن هذا يثبت لي بالأحرى أنه يتحلى بالجد. سترى أنه، خلال بضعة أيام، سيتدبر أمره لكي نكشف هويتها، كلنا في وقت واحد.

ــ لماذا تفكر في ذلك؟

ــ لأنه، بفعلته هذه وعلى هذا النحو، يضطرنا إلى إيقاظ الخلية وإلى جمع شملنا. هكذا ضيعت عليك وقتاً طويلاً، عد إلى حفلتك، وسأهتم أنا بالنهاية التي سأحددها لهذه القضية المزعجة.

ــ لا يبدأ الفصل الثاني إلا بعد نصف ساعة، قل لي ماذا تنوي أن تفعل؟

ــ سأنطلق منذ هذا المساء لألتقيه مع ساعات الصباح الأولى، لإقناعه بوضع حد لمكائده.

ـ وهل ستعبر الحدود في قلب الليل؟ يخشى ألا يمر تنقلك من غير أن يلفت الأنظار.

ـ لأيفوري بعض السبق علينا. لن أدعه يباشر العمل على هواه. ينبغي أن أرده إلى الصواب.

ـ أبإمكانك أن تقود السيارة طوال سبع ساعات؟

أجاب الرجل: لا، على الأرجح، وهو يمرر يده على وجهه المتعب.

ـ سيارتي مركونة على بعد شارعين من هنا، دعني أرافقك، سنتناوب على القيادة.

ـ أشكرك، إنه لكرم منك، جواز سفر دبلوماسي يعرضك لخطر إثارة الانتباه على الحدود. وثانياً سيكون بمثابة اللعب بالنار دون طائل. وبالمقابل، لو وافقت على تسليمي مفاتيح السيارة، لأتحت لي أن أكسب وقتاً ثميناً. أنا صرفت سائقي خلال السهرة.

إن سيارة زميله «الكوبيه» الرياضية لم تكن بالفعل بعيدة جداً. جلس يورك كرلستين وراء المقود، أبعد المقعد ليكيف وضعه بحسب طول ساقيه وأدار مفتاح الإشعال.

وفيما كان منحنياً على الباب، دعاه محدثه إلى فتح

علبة القفازات.

ـ في حال اشتدت وطأة التعب عليك، ستجد بعض الأقراص المدمجة. إنها تخص ابنتي، وهي في السادسة عشرة، وأعدك بأن الموسيقى التي ستستمع إليها توقظ الميت من قبره.

في الساعة التاسعة وعشر دقائق، ولج في شارع الجامعة، متجهاً صوب الشمال.

كان الأوتوستراد سالكاً، وعلى يورك كرلستين أن ينحرف عن الطريق الرئيسي ليتخذ الرتل الأيسر كي يتحول إلى الخط المتوجه إلى «ملهوس»، أما هو ففضل أن يتابع الطريق باتجاه الشمال.

سوف يستغرق السفر وقتاً أطول، في ما لو عبر حدود ألمانيا، لكن كرلستين في وسعه الدخول إلى فرنسا من دون تقديم أوراقه. وهكذا لن تعلم باريس شيئاً عن الزيارة.

وصل، في منتصف الليل، إلى ضاحية كارلسروه، ثم بعد نصف ساعة سلك مخرج بادن بادن. ولئن تكن حساباته دقيقة، فسوف يبلغ في الساعة الثانية وثلاثين دقيقة صباحاً إلى تيونفيل ويصل إلى جزيرة سان لوي

حوالي الساعة السادسة.

كان المصباحان يضيئان الطريق المتعرج، ويدندن المحرك بوتيرة محببة، مستجيباً لأدنى مناشدة منبعثة من المسرّع. في الواحدة والأربعين دقيقة انحرفت السيارة انحرافة سريعة ومفاجئة نحو اليمين. أعاد كرلستين السيطرة على السيارة مسرعاً وفتح الزجاج كاملاً. مال ليفتح علبة القفازات وبحث متلمساً أقراص إبنة زميله، تلك الأقراص التي من شأنها أن تجعله متيقظاً حتى بلوغه المكان المنشود. لم يتلذذ قط بسماع المقطوعة الأولى، لأن الإطار الأمامي الأيمن لسع الجانب السفلي من قارعة الطريق قبل أن يغوص في حفرة، فانزلقت السيارة «الكوبيه» من الخلف ودارت على نفسها كأنها بلبل لعب دورات متسارعة. ثم بعد لحظة، وثبت فوق صخرة وختمت جريها متحطمة على صنوبرة معمرة. دفع تناقص السرعة، تناقصاً عنيفاً من 75 إلى 0 كيلومتر في الساعة وخلال أقل من ثانية، دماغ كرلستين فصدم الجمجمة تحت تأثير دفعة توازي ثلاثة أطنان. وتعرض قلبه، في داخل قفصه الصدري للمصير عينه، وتمزقت للحال شرايينه وأوردته.

أنذر أحد سائقي السيارات بالخطر الذي لاحظ

بمصباحيه هيكل السيارة المحطمة، عند الخامسة صباحاً. وعثر رجال الدرك على جثة كرلستين مضرجة في بركة من الدم. ولم يشعر قائد الدرك بالحاجة إلى انتظار رأي الطبيب الشرعي ليعلن وفاة السائق، إذ لم يترك الشحوب والبرودة أي مجال للشك.

وفي الساعة العاشرة صباحاً، أعلن بيان صادر عن وكالة الصحافة الفرنسية وفاة ديبلوماسي سويسري، مدير الاعتماد الوطني السويسري، ضحية حادث سير في وسط الليل على طرق شرق فرنسا. لم تكشف التحاليل عن أي أثر للكحول في دمه وعزيت أسباب المأساة على الأرجح إلى النعاس أثناء القيادة. ونقلت مراكز الأنباء الدائمة الخبر بصورة مقتضبة. وعلم إيفوري به قرابة الظهر على شاشة حاسوبه، بينما كان يستعد للغداء. رفض، وقد هاج كالمسعور، تناول غدائه، ونقل محتوى أدراجه في محفظته وغادر مكتبه ساهياً عن ترك بابه مفتوحاً. وبارح كذلك المتحف متوجهاً إلى إحدى غرف الهاتف التي كان المرء لا يزال يراها على الضفة اليمنى لنهر السين.

من هنالك، إتصل مباشرة بكيرا وطلب منها، إذا كان ممكناً، أن يلتقيا الساعة.

ــ صوتك غريب، إيفوري.

ـ لقد فقدت للتو صديقاً عزيزاً جداً علي.

ـ أنا آسفة كل الأسف، ولكن ما علاقة ذلك بي أنا؟

ـ أؤكد لك ما من علاقة على الإطلاق. أريد السفر في إجازة، فموت هذا الصديق يذكرني كم أن الحياة زائلة، لم أحتمل التعفن في المتحف هذه الأيام الأخيرة. سيؤول بي الأمر إلى أن أصير جزءاً من مجموعاتهم. لقد حان الآوان بالنسبة إلي لأن أقوم بهذه الرحلة الصغيرة التي أحلم بها منذ سنين طويلة.

ـ وإلى أين تذهب؟

ـ ما رأيك لو ناقشنا بالضبط كل هذه الأمور حول كأس شوكولا ساخن ولذيذ؟ في «أنجيلينا»، شارع ريفولي، متى تستطيعين ملاقاتي هنالك؟

كانت كيرا في طريقها إلى فندق موريس حيث ضربت موعداً لماكس على غداء متأخر. نظرت إلى ساعتها وأكدت للأستاذ أنها ستلحق به خلال ربع ساعة.

أما جان فكانت تغتنم فترة استراحة لتنفيذ فكرة كانت تشغل بالها، مذ شربت، عشية البارحة، فنجان قهوة مع إيفوري. وكانت كيرا، وهي طفلة، تقول لها مذ ذاك: «سوف أصبح في ما بعد منقّبة كنوز» وكانت أختها

الصغيرة، خلافاً لها، تعلم على الدوام ما تريد أن تصنعه في الحياة. وحتى لو كانت جان لا تطيق المسافة التي تفرضها مهنة كيرا، إلا أنها ستفعل ما في وسعها لمساعدتها على العودة إلى أثيوبيا.

كان إيفوري جالساً إلى طاولة في مؤخرة القاعة. أومأ إلى كيرا بيده فالتحقت به.

ـ أذنتُ لنفسي بطلب قطعتي حلوى بالكستناء. إنها ممتازة هنا، وآمل أنك تحبين الكستناء.

ـ نعم، أجابت كيرا، لكنني لم أتغدَّ بعد وهناك من ينتظرني.

مط إيفوري شفتيه كأنه ولد خاب ظنه.

ـ أنت لم تطلب مني أن ألقاك هنا كي تجعلني أتذوق الحلوى؟

ـ لا، في الحقيقة، كنت أرغب أن أراك قبل سفري.

ـ لماذا كل هذا التسرع؟

ـ موت ذلك الصديق، وقد حدثتك عنه، أليس كذلك؟

ـ كيف حصل..؟

ـ حادث سيارة. يقال إنه نعس أثناء القيادة، والأسوأ أنه راودني الإحساس بأنه كان في طريقه لزيارتي.

ـ من غير أن يبلغك؟

ـ تلك هي العادة إجمالاً عندما يود المرء أن يُعدّ مفاجأة لصديقه.

ـ هل كنتما مقربين إلى هذه الدرجة؟

ـ كنت أقدره، إلا أني لم أكن أحبه كثيراً، لأنه كان شخصاً شديد الاعتداد بنفسه، وفي بعض الأحيان مزدرياً أيضاً.

ـ لست أفهم، إيفوري. قلت لي إن الأمر يتعلق بصديق.

ـ أنا لم أغتبط يوماً لوفاة أي إنسان، صديقاً كان أو عدواً، من يمكنه أن يقسم بذلك في أيامنا هذه؟ إنه لمن أصعب الأمور في الحياة أن يتعرف أحدهم إلى أصدقائه.

سألت كيرا وهي تنظر إلى ساعتها: ماذ تريد مني بالضبط؟

ـ إلغي أو أخّري على الأقل غداءك، ينبغي حقاً أن أكلمك!

ــ ولكن عمّ تحدثني في النهاية؟

ــ لدي كل الحق في أن أفكر أن هذا الرجل الذي قتل هذه الليلة كان في طريقه إلي من أجل قلادتك، بإمكانك أن تختاري نسيان كل ما سأقوله لك. ولك ملء الحرية في أن تفكري أني عجوز معتوه يعاني الملل ويزخرف حياته بحبْك أساطير غريبة، ولكن علي أن أبوح لك الآن بأنني ما قلت لك كل شيء في شأن قلادتك.

ــ ما الذي لم تقله لي؟

وضعت الخادمة على الطاولة قطعتين رائعتين من الحلوى مزدانتين في سخاء بخيوط دقيقة من الكريما. إنتظر إيفوري أن تبتعد قبل أن يواصل حديثه.

ــ هناك آخر.

ــ آخر ماذا؟

ــ قطعة أخرى كاملة التشذيب والصقل على شاكلة قطعتك. وحتى لوكان شكلها يتمايز قليلاً، لم يسمح أي فحص، أي تحليل من تحديد تاريخ لها، هي الأخرى.

ــ هل رأيتها؟

ــ لقد أمسكت بها حتى بين يدي، قبل زمن بعيد جداً.

كنت في مثل سنك، أؤكد لك ذلك.

ــ وأين يوجد هذا التوأم؟

لم يحر إيفوري جواباً وغمس ملعقته في الحلوى. تابعت كيرا: لماذا تولي هذا الحجر كل هذه الأهمية؟

ــ سبق أن قلت لك ذلك، لا يتعلق الأمر بحجر، بل على الأرجح بمزيج معادن. لا بأس، ليست المشكلة هنا. هل تعرفين أسطورة تيكن أولامو؟

ــ كلا، ما سمعتُ الناس يتحدثون عنها قط.

ــ إنها ليست أسطورة بالمعنى الدقيق للكلمة، بل قصة مستلة من الكتاب المقدس وواردة في العهد القديم. والأهم بالنسبة إلى الأسفار المقدسة ليس دائماً ما تقوله، فتأويلاتها ذاتية ومشوهة غالباً من قبل الناس عبر العصور، لا، إن ما يثير الاهتمام بشكل ممتع للغاية هو معرفة السبب الذي من أجله كتبت، وتحت تأثير أي حدث.

ــ وفي صدد تيكن أولامو؟

ــ تفيدنا هذه الكتابة أن العالم قبل زماننا بوقت طويل تفكك إلى أجزاء عدة، وأن من واجب كل إنسان أن يعثر على القطع المختلفة ليعيد جمعها. ولن يصبح العالم الذي

يعيش فيه الإنسان كاملاً إلا إذا أنجز هذه المهمة.

ــ ما العلاقة القائمة بين هذه الأسطورة وعقدي؟

ــ كل شيء يتعلق بالمعنى الذي نحمّله لكلمة «عالم». ولكن تصوري لحظة أن تكون قلادتك أحد أجزاء هذا العالم؟

حدقت كيرا بالأستاذ.

ــ كان هذا الصديق المتوفى أثناء هذه الليلة، قد أمرني بألا أكشف لك شيئاً، كما كان يبحث عن وسيلة لاختلاس قلادتك.

ــ هل توحي بأنه أغتيل؟

ــ كيرا، أتوسل إليك، سواء قررتِ أم لا إيلاء هذه الأداة أهمية، أن تسهري عليها بانتباهَ شديد. فليس من المحال أن يسعوا إلى انتزاعها منك.

ــ من هم هؤلاء؟

ــ لا أهمية لذلك. ركزي على ما أنا على وشك قوله لك.

ــ لكنني لا أفهم شيئاً مما تقوله، إيفوري. هذا الحجر،

أو هذه القلادة في حوزتي منذ عامين، ولا أحد أبدى أدنى اهتمام بها. لماذا الآن إذاً؟

ــ لأني ارتكبت عملاً أخرق، خطيئة كبرياء.. لأبرهن لهم أنني على حق.

ــ على حق في صدد ماذا؟

ــ لقد بحت لك أن ثمة قطعة تكاد تكون مشابهة لقطعتك، وأنا على اقتناع بأنها ليست الوحيدة. لم يشأ أحد قط أن يصدقني وظهور قلادتك كان بالنسبة إلى العجوز الذي أكونه، مناسبة رائعة لإثبات أني على حق.

ــ ليكن، ولنفترض أن ثمة أدوات عدة على شاكلة أداتي، وأن بينها وبين أسطورتك التي لا يمكن تصديقها علاقة ما، فماذا يضيرك ذلك؟

ــ لك أنت أن تقرري، لك أن تبحثي. فأنت شابة، وقد يتسع الوَقت أمامك لتجدي.

ــ أجد ماذا، إيفوري؟

ــ في رأيك، ماذا يمكن فعلاً أن يكون عالم كامل؟

ــ لست أدري، أهو عالم حر؟

ــ إنه لجواب ممتاز، عزيزتي كيرا. إبحثي عما يمنع الرجال من بلوغ الحرية، إبحثي عما هو أصل جميع الحروب، عندها ربما سينتهي بك الأمر إلى الفهم.

نهض الأستاذ العجوز، تاركاً بضعة أوراق نقدية على الطاولة.

ــ في انتظارك غداء، وأنا قلت لك كل ما أعرفه. يجب أن أهيئ حقيبتي، طائرتي تقلع هذا المساء. لقد سررت بمعرفتك. أنت تملكينٍ من المواهب أكثر مما تفترضين. أتمنى لك سفراً طويلاً وسعيداً. وأخيراً، أليست السعادة ما نسعى إليه كلنا من غير أن نكون قادرين حقاً على التعرف إليها.

غادر الأستاذ العجوز القاعة ووجه إيماءة أخيرة من يده إلى كيرا.

قبضت الخادمة الحساب الذي سدده إيفوري.

قالت المرأة الشابة وهي تمد إلى كيرا كلمة قصيرة كانت تحت بوتقة صغيرة: أظن أن هذا لك.

إنتفضت كيرا وبسطت قطعة الورق:

«أعلم أنك لن ترفضي. وددت أن أرافقك في هذه

المغامرة، وسيكون باستطاعتي على مر الزمان أن أبرهن لك أنني صديق. سأكون دوماً إلى جانبك. صديقك المخلص، إيفوري».

لم تُولِ كيرا، وهي خارجة من شارع ريفولي، أي انتباه للعربة الَضخمة المركونة أمام سياج حديقة التويلري، قبالة صالون الشاي تماماً. كما لم تنتبه لسائق الدراجة النارية الذي كان يستهدفها من خلال عدستيه، وذلك لأنها كانت بعيدة جداً عن أن تسمع آلة التصوير التي صورتها مرات ومرات. فيما كان إيفوري، على بعد خمسين متراً من المكان يبتسم جالساً في مؤخرة التاكسي. قال للسائق بإمكانه أن ينطلق بسيارته.

* * *

لندن

كنا أرسلنا ملفنا إلى أعضاء لجنة والش. وكنت أنا ألصقت المغلّف، في حين كان والتر، الذي خشي على الارجح أن أرفض في اللحظة الأخيرة، قد انتزعه من يدي، وهو يؤكد لي أنه يفضل أن يودعه في البريد بنفسه.

لو وقع الخيار على ترشيحنا ـ وكنا ننتظر الجواب كل يوم ـ لجرى امتحاننا الشفهي الكبير في غضون شهر.

لم يكن والتر، منذ إيداعه المغلف في صندوق البريد قبالة مدخل الأكاديمية، يفارق نافذته.

ـ لن تقتفي، مع ذلك، أثر ساعي البريد؟

أجابني عصبي المزاج: ولِمَ لا؟

ـ أُذكرّك، والتر، بأني أنا الذي يجب أن يتكلم أمام الملأ. فلا تكن أنانياً إلى هذه الدرجة واترك لي على الأقل حق الاستفادة من الإرهاق النفسي.

ـ أنت؟ مرهق؟ إني أتمنى لو أرى ذلك!

لما قضي الأمر، أخذت السهرات مع والتر تتباعد. وعادت حياة كل منا إلى مجراها الطبيعي، وأعترف بأني

شعرت بالشوق إلى صحبته. كنت أقضي أوقات العصر في الأكاديمية، عاكفاً على بعض الأعمال لملء وقتي، وآملاً أن يتكرموا بأن يعهدوا إلي بصف من الصفوف اعتباراً من العام الدراسي القادم. وكنت في نهاية يوم تخلله الملل، ولم يتوقف فيه المطر عن الهطول، قد جررتُ والتر إلى الحي الفرنسي. ومضيت أفتش عن كتاب لأحد زملائي الفرنسيين اللامعين، هو جان بيار لومنيه الذائع الصيت، وما كان هذا الكتاب متوافراً إلا في مكتبة شائقة بشارع «بيوت ستريت».

عندما غادر والتر المكتبة الفرنسية، ألح جاهداً أن نتوجه إلى حانة للجعة، كانت، في رأيه، تقدم أفضل أنواع المحار في لندن. لم أحاول الجدال معه، وجلسنا إلى طاولة ليست بعيدة عن سيدتين شابتين جذابتين، لم يكن والتر يعيرهما أي اهتمام.

ــ لا تكن مبتذلاً إلى هذا الحد، أدريان!

ــ عفواً؟

ــ أتعتقد أني لا أراك؟ أنت حذر لدرجة أن مستخدمي الحانة قاموا برهانهم الآن.

ــ رهانهم على ماذا؟

ـ على احتمال أن تتعرض لتقريع هاتين السيدتين الشابتين، أيها الأرعن.

ـ ليست لدي أية فكرة عما تكلمني عنه، والتر.

ـ وعلاوة على ذلك، منافق! هل سبق أن وقعت في الحب، والتر؟

ـ إنها مسألة حميمة على الأرجح.

ـ لقد بحت لك ببعض الأسرار، دورك الآن.

ـ لا تُبنى الصداقة من دون أدلة على الثقة، والأسرار متوافرة؛ كنت اعترفت لوالتر أنني مغرم بامرأة شابة غازلتها ذات صيف. حدث ذلك منذ زمن بعيد، فور فراغي من دراستي.

ـ ما الذي فرقكما عن بعضكما؟

ـ هي!

ـ لماذا؟

ـ لكن، والتر، ما الذي يعنيك في ذلك؟

ـ تحدوني رغبة على التعرف إليك بشكل أفضل. أعترف أننا على وشك بناء صداقة جميلة، ومن الضروري

أن ألمّ بهذا النوع من الأمور. لن نتحدث إلى الأبد عن الفيزياء الفلكية ولا بالأحرى عن المناخ السائد. أنت من توسل إلي بألا أكون إنكليزياً على هذا النحو، أليس كذلك ؟

ــ ماذا تريد أن تعرف؟

ــ إسمها بداية.

ــ ثم ماذا؟

ــ لماذا تركتك؟

ــ أتصور أننا كنا في مطلع عهد الشباب.

ــ شيء تافه! كان علي أن أراهن على أنك ستتقدم بعذر حزين أيضاً.

ــ لكن ماذا تعرف عن ذلك، وأنت لم تكن هناك، على حد علمي؟

ــ تلك المرأة الشابة؟

ــ إسم جميل.

ــ فتاة جميلة.

ــ إذاً؟

ــ إذاً، ماذا والتر؟ رددتُ عليه بلهجة لم تكن لتحاول كظم غيظي.

ــ الواقع كل شيء! كيف تلاقيتما، كيف تركتما بعضكما وماذا جرى خلال هاتين الفترتين؟

ــ كان والدها إنكليزياً، وأمها فرنسية. وقد أقامت على الدوام في باريس حيث كان والداها يقيمان عند ولادة أختها البكر. ثم حل الطلاق بينهما، وقفل والدها راجعاً إلى إنكلترا. وكانت قد أتت لزيارته مغتنمة فرصة برنامج تبادل جامعي جعلها تمضي فصلاً دراسياً في أكاديمية لندن الملكية. كنت في ذلك الحين أزاول عمل مراقب إضافياً لأحسّن وضعي أواخر الشهر وتمويل أطروحتي.

ــ ناظر يجر معه طالبة... لا أهنئك على ذلك.

ــ إذاً أتوقف عن سرد القصة!

ــ لكن لا، كنت أمزح، أنا أعشق هذه القصة، تابع!

ــ تقابلنا للمرة الأولى في المدرّج حيث كانت تخوض امتحاناً، على غرار مئات الطلبة الآخرين. كانت جالسة عند أطراف الممشى الذي كنت أذرعه جيئة وذهاباً، متولياً مهمة المراقبة، إذا بي شاهدتها تبسط مذكرة مساعدة.

ـ هل كانت تغش؟

ـ لست أدري، ما استطعت قط أن أقرأ ما كتب على هذه القطعة من الورقة.

ـ ألم تصادرها منها؟

ـ لم يكن لدي الوقت!

ـ كيف ذلك؟

ـ رأتني أنني فاجأتها، فحدقتني ببصرها، ومن غير أن تستعجل، دسّت الورقة في فمها، مضغتها وابتلعتها.

ـ لا أصدقك!

ـ أنت على خطأ. لا أعرف ما الذي دهاني، كان علي أن أسحب ورقتها وأخرجها من القاعة، إلا أنني بدأت أضحك، فاضطررت أنا إلى مغادرة المدرج، إنه تجاوز للحد، أليس كذلك؟

ـ ثم ماذا؟

ـ ثم حين كانت تلتقيني في المكتبة أو في أحد الممرات، تتفرس في وجهي وتهزأ بي علانية. وذات يوم، أمسكت بها من ذراعها وانتحيت بها جانباً في معزل عن

أصدقائها.

ـ لا تقل لي أنك تفاوضت في موضوع صمتك؟

ـ من تحسبني أني هو؟ هي التي فاوضت!

ـ عفواً؟

ـ لقد قالت لي بالحرف الواحد، بينما كنت أطرح السؤال عليها، أنني إذا لم أدعها إلى الغداء، فلن تقول لي أبداً لماذا كانت تضحك كلما رأتني، لذا فأنا دعوتها إلى الغداء.

ـ وما الذي دار بينكما؟

ـ أعقبت الغداء نزهة، وفي آخر العصر تركتني بغتة. وانقطعت أخبارها عني، ولكن بعد أسبوع، وفيما كنت عاكفاً على أطروحتي في المكتبة، جلست امرأة شابة قبالتي. لم أعرها أي انتباه، إلى أن انتهى بي ضجيج مضغها العلكة إلى إزعاجي فعلاً؛ فرفعت رأسي لأسألها أن تكون أكثر رصانة بعلكتها، كانت على وشك ابتلاع ورقة ثالثة. أعربت لها عن مفاجأتي. وفكرت ألا أراها ثانية أبداً! أجابتني أنني إذا لم أدرك أنها هنا من أجلي، فالأحرى بها أن ترحل على الفور، وبشكل نهائي هذه المرة.

ـ إني أعشق هذه المرأة الشابة! ثم ماذا جرى؟

ـ أمضينا السهرة معاً وشطراً كبيراً من الصيف أيضاً. صيف جميل جداً، ينبغي أن أقول.

ـ وماذا عن القطيعة؟

ـ ماذا لو احتفظنا بهذه الواقعة لمساء آخر، والتر.

ـ هل هي قصة حبك الوحيدة؟

ـ طبعاً لا، فهناك تارا الهولندية، وكانت تعد أطروحة في الفيزياء الفلكية، عشت معها ما يقارب العام. كنا على وفاق تام، لكنها تكاد تتكلم الإنكليزية، وقد عانينا الكثير من المشقة في التواصل في ما بيننا، لأن لغتي الهولندية تشكو من تقصير فادح. ثم كان دور «جين»، طبيبة جذابة، واسكتلندية عريقة، تسلطت عليها فكرة إعطاء صفة رسمية لعلاقتنا. يوم قدمتني إلى والديها، لم يكن لي خيار آخر إلا أن أضع حداً لمغامرتنا. أما سارة آبلتن، فكانت تعمل في مخبز، لها صدر أجدر بحلم، وخاصرتان أحق بالرسام بوتيشلي، ولكن مواقيت عملها مستحيلة. كانت تستفيق من نومها عندما كنت أنام أنا والعكس بالعكس. ثم تزوجتُ، بعد عامين، زميلة لي في العمل، هي إليزابيت أتكينز، لكن هذا الزواج لم يلقَ النجاح أيضاً.

ـ هل كنت متزوجاً؟

ـ أجل، خلال ستة عشر يوماً! أنا وزوجتي السابقة افترقنا عقب عودتنا من رحلة الزواج.

ـ وهل استغرق وقتاً أن تتنبه أن واحدكما ليس ملائماً للآخر؟!

لو سافر المحبون في رحلة زواج قبل حفلة العرس، أؤكد لك أن المحاكم كانت ستوفر الكثير من الأوراق العديمة الجدوى.

جعلتُ والتر، هذه المرة، يذوب غماً وجردته من كل رغبة في معرفة المزيد عن ماضيَّ العاطفي. ومن ناحية ثانية، لم يعد ثمة الكثير مما تتوجب معرفته، سوى أن حياتي المهنية أمست لها الأولوية على سائر أحوالي، وأنني جبت العالم خلال هذه الأعوام الخمسة عشر الأخيرة، من غير أن أهتم حقاً بالاستقرار في مكان ما، ولا بالأحرى أن أجري لقاء حقيقياً. أن أعيش قصة حب لم يكن يحتل مركز اهتماماتي.

ـ وأنتما، ألم تتقابلا؟

ـ بلى، التقيت إليزابيت أثناء حفلتي كوكتيل أو ثلاث نظمتها أكاديمية العلوم. كانت زوجتي السابقة بصحبة

زوجها الجديد. وكما قلت كان زوجها الجديد أفضل صديق قديم لي أيضاً.

ـ كلا، هذا لم تقله لي. لم أكن أتحدث عنها، بل عن طالبتك الشابة، الفتاة الأولى على هذه القائمة الجديرة بـ «كازانوفا».

ـ لماذا هي؟

ـ هكذا.

ـ لم نتلاق قط.

ـ أدريان، إذا بحت لي لماذا تركتك، سيكون الحساب علي أنا!

طلبت من الخادم، الذي كان يمر بجوار طاولتنا، إثني عشر محاراً إضافياً.

ـ في نهاية فصلها الدراسي للتبادل الجامعي، عادت لتنهي دراستها في فرنسا. وينتهي الأمر بالمسافات أن تذهب في الغالب برونق العلاقات الأجمل. وبعد شهر من رحيلها رجعت مجدداً تزور والدها؛ وفي أعقاب سفرها بالحافلة والزورق وبالقطار أخيراً، كانت الرحلة التي استغرقت عشر ساعات قد أنهكتها. لم يكن يوم الأحد

الأخير الذي قضيناه معاً ينعم بحب غزلي رقيق. وفي المساء، عندما اصطحبتها ثانية إلى المحطة، أسرّت إلي أنه من الأحق التوقف هنا، وهكذا لن نحتفظ بغير الذكريات الجميلة. وقرأت في نظرتها أنه من العبث مواصلة الصراع، فالشعلة كانت قد لفظت أنفاسها الأخيرة. لهذا ابتعدت عني، وليس من الناحية الجغرافية فحسب. ها أنت ذا، والتر، على علم بكل شيء الآن، ولا أرى في الحقيقة لماذا كنت تبتسم بغباوة.

أجاب صاحبي: ليس لسبب ما.

ــ أروي لك كيف تعرضت للهجر وأنت دونما سبب تتلوى من الضحك؟

ــ غير صحيح، لقد رويت لي قصة جذابة، ولو أني لم ألح عليك، لكنت أقسمتَ لي بأغلظ الأيمان أن كل ذلك هو جزء من الماضي، أليس كذلك؟

ــ بكل تأكيد! حتى أني لا أعلم إن كانت لدي القدرة على التعرف إليها. فقد حدث ذلك لخمسة عشر عاماً خلت، ولم تدم القصة مدار حديثنا سوى شهرين! كيف يكون الأمر بخلاف ذلك؟

ــ طبعاً، أدريان، كيف؟ ولكن أجب إذاً عن هذا السؤال

البسيط: كيف استطعت أن تروي لي هذه المغامرة التافهة والمنسية منذ خمسة عشر عاماً، من دون أن تحاول مرة واحدة لفظ إسم هذه المرأة الشابة؟ مذ كشفت لك عن قلبي في شأن الآنسة جنكيز، شعرت، كيف يمكنني القول، بأنني على شيء من السخف. أما الآن فما عدت كذلك على الإطلاق!

غادرت جارتانا طاولتهما من غير أن ننتبه لهما. وأذكر أنني أنا ووالتر مكثنا، ذلك المساء حتى إغلاق مشرب الجعة، وأننا شربنا ما يكفي لأن أرفض دعوته وأتقاسم الحساب معه. وفي اليوم التالي، علمنا من طريق البريد، لدى وصولنا معاً إلى الأكاديمية بذهن غشيته البلادة والعياء، أن ترشيحنا قد قُبل.

كان والتر مريضاً إلى حد أنه لم يتمكن حتى من إطلاق صيحة فرح جدير بهذا الإسم.

* * *

باريس

أدارت كيرا المفتاح في المغلاق بكل ما بوسعها من بطء. وفي الدورة الأخيرة، تعالت من المزلاج قلقلة مهيبة. أعادت غلق باب الشقة بحذر شديد واجتازت الممر بخطوات متسارعة. كان ضوء الفجر قد أخذ ينير مكتب أختها الصغير. وفي انتظارها فوق بوتقة صغيرة، رسالة موجهة إليها، مدموغة في إنكلترا. فضتها كيرا منشغلة البال ووجدت رسالة تبلغها أنها، بالرغم من إيداعها المتأخر لملف ترشيحها، إستأثرت بانتباه أعضاء لجنة الانتخاب. وكانت كيرا يُتوقع قدومها إلى لندن في 23 من الشهر، كي تقدم أعمالها أمام لجنة تحكيم مؤسسة والش.

ــ ما هذه اللعبة الماهرة؟ تمتمت كيرا وهي تعيد الرسالة إلى داخل الغلاف.

بدت جان في قميص نومها، مشعثة الشعر، ثم تمطت متثائبة.

ــ كيف حال ماكس؟

ــ عليك أن تأوي إلى فراشك، جان، فالوقت ما زال باكراً!

ـ أو متقدماً، حسب. هل كانت السهرة موفقة؟

ـ كلا، ليس بالتأكيد.

ـ لماذا أمضيت الليل إذاً بصحبته؟

ـ لأنني كنت أحس بالبرد.

ـ يا له من شتاء قارس!

ـ حسناً. يكفي جان، سآوي إلى مضجعي.

ـ لدي هدية لك.

مدت جان غلافاً إلى أختها.

ـ ما هي؟

ـ إفتحي سترين.

وجدت كيرا بطاقة اوروستار وقسيمة فندق أيضاً، مدفوعة سلفاً وصالحة للمبيت في «ريجنسي إن» لقضاء ليلتين.

ـ ليس فندقاً ذا أربعة نجوم، لكن جيروم قد اصطحبني إليه، إنه مكان فتان.

ـ وهل لهذه الهدية صلة بالرسالة التي وجدتها في

المدخل؟

ـ أجل، إلى حدٍ ما، إلا أنني مددت إقامتك لكي تتمكني من الاستفادة قليلاً من لندن. ينبغي ألا تفوّتي عليك زيارة متحف التاريخ الطبيعي، أياً كانت الأعذار، وغاليري «تايت» الجديد يفتن الألباب، كما عليك أن تذهبي، لا محالة، لتناول الفطور عند «أمول» الواقعة في شارع فورموزا. آه، لكم أحببت ذلك المكان، إنه في غاية الظرف، حلوياته، أنواع سلطته، والفروج المحضر بالليمون الحامض...

ـ جان، الساعة تشير إلى السادسة صباحاً، الفروج المحضر بالحامض هناك، الآن، لست متأكدة جداً...

ـ ستعبرّين عن شكرك لي في وقت ما وإلا جعلتك تبتلعين بطاقة القطار هذه؟

ـ وأنت أتشرحين لي مضمون هذه الرسالة وما تدبرين لي في الخفاء، أو أكون أنا التي سأجبرك على مضغ بطاقتك!

ـ حضري لي شاياً وشطيرة خبز مطلية بالعسل، وأراك ثانية في المطبخ في غضون خمس دقائق، هذا أمر صادر عن أختك البكر التي ستنظف أسنانها، هيا بسرعة!

كانت كيرا قد استعادت دعوة مؤسسة والش إلى الاجتماع ووضعتها بشكل واضح تماماً أمام الفنجان الباخر وشطيرة الخبز المحمصة.

دمدمت جان وهي تدخل إلى المطبخ: ينبغي لواحدة من كلينا أن تؤمن بك! لقد قمتُ بما كان عليك أن تفعليه لو أنك منحت نفسك مزيداً من الفضل. لقد حشرتُ أنفي على الإنترنت وهيأت قائمة بجميع المؤسسات التي من شأنها أن تمول أعمالك الخاصة بعلم الآثار. أعطيك إياها، ليس عددها بكثير. حتى في بروكسيل، ليس لديهم ما يفعلونة بها. إلا إذا كنت أخيراً راغبة في تكريس سنتين لملء كيلومترات من الاستثمارات.

ـ هل كتبت إلى البرلمان الأوروبي من أجل أختك الصغرى؟

ـ كتبت لجميع الناس! ثم وصلتك البارحة هذه الرسالة، لا أدري إن كانت إجابتهم بالإيجاب أو النفي، ولكن، على الأقل، كلفوا أنفسهم عناء الإجابة.

ـ جان؟

ـ موافقة، فضضتُ الغلاف وعاودت غلقه بعد ذلك تماماً. ولكن بالجهد الذي بذلته، أعتبر أن ذلك يخصني

بعض الشيء.

ـ وانطلاقاً من أية وثائق قبلت هذه المؤسسة ترشيحي؟

ـ كما عهدتك من قبل، ستصابين بالهستيريا، لكن لا أبالي بذلك إطلاقاً. إنها أطروحتك التي بعثت بها في كل مرة. كنت أحتفظ بها في حاسوبي، لماذا أحرم النفس منها؟ في كل الأحوال، أنتِ التي نشرتها، أليس كذلك؟

ـ إذا أحسنت الفهم، فأنت جعلت نفسك بديلة مني، وأرسلت عملي إلى مجموعة من المؤسسات المجهولة و...

ـ هكذا أغرس فيك الأمل بالعودة يوماً إلى واديك الشنيع وادي أومو! علاوة على ذلك، ألن تتذمري؟

نهضت كيرا وضمت جان بين ذراعيها.

ـ إني أهيم حباً بك، أنت ملكة المزعجات، أنت أشد عناداً من الحمار، لكنك الأخت التي لن أستبدلها بأية امرأة أخرى في العالم.

سألت جان وهي تنظر إليها عن كثب: هل أنت متأكدة من أنك على ما يرام؟

ـ ليس للمرء أن يكون أحسن حالاً!

جلست كيرا إلى طاولة المطبخ وقامت بقراءة الدعوة للمرة الثالثة.

ـ ينبغي أن أقدم أعمالي في الامتحان الشفهي! ولكن ما الذي سأتمكن من عرضه عليهم؟

ـ الواقع أن لديك القليل من الوقت لتحرير مشروعك وحفظه عن ظهر قلب. يتعين عليك أن تتوجهي إلى أعضاء لجنة التحكيم وأنت تحدّقين النظر إلى عيونهم؛ أما إذا قرأت نصك فستفتقرين إلى الثقة. ستكونين لامعة، أعلم ذلك.

نهضت كيرا واثبة ومضت تذرع المطبخ جيئة وذهاباً.

ـ لا تدعي الهلع يسيطر عليك. إن شئت فسأقوم، لدى عودتي مساء، بدور لجنة التحكيم وأنت تراجعين كلامك أمامي.

ـ رافقيني إلى لندن، فأنا بمفردي لن أصل إليها أبداً.

ـ مستحيل، لدي عمل كثير.

ـ أتوسل إليك، جان، تعالي.

ـ كيرا، لست أملك الوسائل لذلك، بين بطاقة القطار والفندق، جففتُ معين حسابي في المصرف.

ـ ما من داع لأن تدفعي لي ثمن هذه السفرة، سأجد وسيلة ما.

ـ كيرا، أنت أختي الصغرى، وهذا كاف لكي أيسّر لك النجاح. لا تجادلي وتكرّمي علي تماماً بأن أفوز بهذه الجائزة.

ـ ما قيمتها؟

ـ مليونا ليرة إسترلينية.

سألت كيرا جاحظة العينين: ما تمثل بالأورو؟

ما يساعد على تمويل رواتب فريق دولي بكامل أعضائه، وأسفار كل عضو، وشراء واستئجار المعدات التي تحلمين بها لتقلبي كل أرض وادي أومو رأساً على عقب.

ـ لن أربح أبداً! إنه لمستحيل.

ـ نامي بضع ساعات، وخذي، عند استيقاظك، حماماً منعشاً، وباشري في الحال بالعمل. وفكري أيضاً أن تقولي لصاحبك ماكس أنك لا تستطيعين لقاءه لزمن طويل. لا

تنظري إلي هكذا، لم أرتب كل شيء لإبعادك عنه. أنا، على عكس ما تفكرين، لست مكيافللياً إلى هذا المستوى.

ـ لم تكن الفكرة قد خطرت حتى ببالي.

ـ أوه، بلى! إنصرفي الآن.

ظلت كيرا، خلال الأيام التالية، منعزلة في شقة أختها، تمضي معظم أوقات صحوها أمام الحاسوب، معدة بعناية بالغة نظرياتها، وموثقة إياها بمقالات نشرها زملاؤها علماء الآثار في العالم أجمع.

كانت جان، كما وعدتها، تكب كل مساء لدى عودتها من المتحف، على أن تراجع لها أختها أمثولتها. ولئن كان خطابها يفتقر إلى الإقناع، وتتلعثم أو تخاطر في شروح تقنية جداً في رأي جان، كانت هذه الأخيرة تجعلها تعيد عرضها منذ البداية. وتخللت السهرات الأولى جدالات بين الأختين.

أجادت كيرا في أقرب وقت نصها، ولم يبق إلا أن تضع فيه النبرة الصحيحة لأسر جمهورها.

كانت كيرا، فور مغادرة جان شقتها في الصباح، تعكف علي التسميع، ذارعة صالة الاستقبال جيئة وذهاباً. وقد استُعين بحارسة المبنى، التي سلمت ذات نهاية صباح كتاباً

أرسلت كيرا في طلبه.

إستمعت السيدة هيريرا، وهي جالسة على الأريكة بارتياح، وفي يدها فنجان شاي، إلى الملخّص الكامل لتاريخ كوكبنا الأرضي، منذ العصر ما قبل الكمبري إلى العصر الكريتاسي الذي شهد نشوء النباتات الأولى ذات الأزهار، وجيل كامل من الحشرات، وأجناس جديدة من الأسماك، وصدفات الأمونيت، كما شهد نشوء الإسفنج، والعديد من أنواع الدينوصورات التي قررت أن تتطور، منذ ذلك الحين، على اليابسة. وسُرّت السيدة هيريرا أن تعلم أن أسماك القرش الأولى قد ظهرت في المحيطات وهي تشبه تلك التي نراها اليوم. مع ذلك، لم يكن أكثر الأمور فتنة هنا، بل كان ظهور أوائل الثدييات التي نمّت صغارها في جيوب مشيمية، كما سوف تفعل الكائنات البشرية فيما بعد تماماً. غفت السيدة هيريرا في عز العصر الجيولوجي الثالث، ما بين الباليوسين والأيوسين. حين عاودت فتح عينيها، سألت مرتبكة إلى حد ما، ما إذا إستسلمت للنوم طويلاً. طمأنتها كيرا، إذ لم تدم نومتها الخفيفة سوى ثلاثين مليون سنة! وفي المساء، تجنبت الحديث إلى جان عن الزيارة التي استضافتها أثناء النهار، ولا حتى عن ردات الفعل لجمهورها الأولي.

إعتذرت جان، يوم الأربعاء التالي، إلى أختها لأنها مدعوة إلى عشاء، ولا تستطيع التخلص منه. أما كيرا فكانت تعاني الإرهاق وتغريها فكرة التهرب من الجلسة. فتوسلت إلى جان ألا تقلق، ووعدتها بمراجعة نصها، كما لو كانت هذه الأخيرة حاضرة تماماً. وما أن رأت كيرا أختها تصعد في سيارتها، حتى أعدت لها صحن جبن، ووثبت على أريكة قاعة الإستقبال مديرةً التلفزيون. كانت عاصفة تقترب، وتحولت سماء باريس إلى سواد. لفّت كيرا حراماً من الصوف حول كتفيها.

كان دوي الرعد الأول من العنف بحيث جعلها تنتفض. وعقب القصف الثاني، حدث إنقطاع عام للتيار الكهربائي. فتشت كيرا في شبه العتمة عن قداحة، ولكن دون طائل. فنهضت ودنت من النافذة. ضربت الصاعقة واقية الصواعق في أحد الأبنية على بعد مجموعة من المنازل. واكتسبت عالمة الآثار خبرة على أرض الواقع ساعدتها على معرفة كل شيء يتعلق بالعواصف وأخطارها، لكن هذه الأخيرة كانت ذات قوة نادرة المثيل. كان عليها أن تبتعد عن الزجاج فتراجعت خطوة تماماً واستقرت يدها بصورة آلية على عقدها. لو كانت القلادة مصنوعة من مزيج من المعادن، على ما فكر إيفوري، لكانت من غير المجدي تجربة الشيطان بإبقائها عليها. وبينما كانت تهم

بنزعها، نهش السماء برق، وأشعت الصاعقة الغرفة حيث كانت كيرا. وفجأة ارتسمت على الجدار ملايين النقاط الصغيرة المضيئة المنبثقة من القلادة التي تمسك بها بأطراف أصابعها. وظلت الصورة المذهلة منطبعة لبضع ثوان قبل أن تمحى نهائياً. جثت كيرا مرتعشة لاسترداد عقدها الذي تركته يسقط منها. فأمسكت بالحزام الجلدي وعاودت النهوض لتنظر من النافذة، كان زجاجها مشقوقاً. وتوالى الرعد مرات، إلى أن ابتعدت العاصفة أخيراً. وكان في وسع المرء أن يرى أيضاً السماء تضيء وتلتمع في البعيد، وطفق المطر ينهمر مدراراً.

وجدت كيرا، وهي منكمشة على نفسها، صعوبة في استعادة هدوئها. كانت يدها لا تزال ترتعش، وعبثاً حاولت أن تسكّن روعها، وتقول إنها وقعت ضحية خدعة بصرية، إذ ما من شيء كان يحثها على حسن التصرف، وراح شيء من الأشياء يتولاها. وحين أعيد التيار، نظرت كيرا بانتباه إلى القلادة، داعبت سطحها فوجدته دافئاً. ثم قربتها من المصباح، فلم يكن فيها أي ثقب، مهما كان صغيراً، يظهر للعين المجردة.

إنكمشت على نفسها تحت حرام الصوف وحاولت أن تفهم الظاهرة الغريبة التي حدثت للتو. بعد ساعة، سمعت

قفل باب المدخل يدور. لقد عادت جان.

ــ ألا تنامين؟ أرأيت هذه العاصفة، يا له من جنون! رجلاي مبللتان. سأعد لي كأس زهورات، هل تريدين أنت كذلك؟ لماذا لا تجيبين؟ هل أنت بخير؟

أجابت كيرا: أجل، أعتقد ذلك.

ــ لا تقولي لي إنك أنت، عالمة الآثار الكبيرة، خفت من العاصفة؟

ــ طبعاً لم أخف.

ــ لماذا أنت إذاً شاحبة اللون؟

ــ أنا متعبة تماماً، كنت أنتظرك لأنام.

عانقت كيرا جان، وهرعت متوجهة إلى الغرفة، لكن أختها نادتها من جديد.

ــ لا أعلم إن كان من واجبي أن أقوله لك... شارك ماكس في هذا العشاء.

ــ لا، ما كان ينبغي أن تقوليه لي؛ إلى اللقاء، غداً، جان.

إقتربت كيرا من النافذة، وكانت وحدها في الغرفة. وإذا

كان التيار قد أعيد إلى المنازل، فالشوارع ما زالت غارقة في الظلام. لقد اختفت الغيوم وبدت قبة السماء أشد بريقاً ولمعاناً من قبل. فتشت كيرا عن الدب الأكبر. كان والدها، وهي طفلة، يلهو معها حتى تكتشف في السماء هذه النجمة أو تلك الكوكبة من النجوم: كسّيوبه، قلب العقرب، سيفه المفضلة لديها. ميّزت كيرا شكل «التم» والقيثارة وهرقل، وفيما كانت تمد بصرها إلى الإكليل الشمالي بحثاً عن راعي البقر، جحظت عيناها للمرة الثانية خلال السهرة.

وشوشت ووجهها ملتصق بزجاج النافذة: مستحيل.

فتحت النافذة على عجل، تقدمت في الشرفة متطاولة بعنقها، كما لو أن هذه السنتمترات القليلة قادرة على تقريبها من النجوم.

ــ لكن لا، لا يمكن أن يكون هذا، إنه لجنون حقاً! أو أنا التي أوشكت أن تصبح مجنونة إذاً.

ــ في كل حال، إذا بدأت الحديث بمفردك، فأنت على الطريق القديم.

إنتفضت كيرا. كانت جان بجوارها تماماً؛ إتكأت على مرفقها فوق الدرابزين وأشعلت سيكارة.

ـ أتدخنين الآن؟

ـ يتفق لي ذلك. أنا آسفة لما حصل قبل قليل، كان ينبغي أن ألزم الصمت. لكن ما هيج أعصابي هو أن أراه يتبختر. هل تسمعيني؟

أجابت كيرا بصوت غافل: أجل، أجل.

أصحيحة إذاً هذه القصة أن رجال نياندرتال كانوا ذوي جنس مزدوج؟

أجابت كيرا شاخصة إلى النجوم: ممكن.

ـ وأنهم كانوا يتغذون خصوصاً بحليب الديناصور، ولكن كان ينبغي أن يتعلموا أولاً كيف يقومون بحلبها.

ـ من المحتمل.

ـ كيرا!

إنتفضت كيرا.

ـ ماذا؟

ـ لا تنصتين إلى كلمة واحدة مما أقوله لك. ما الذي يضايقك؟

أجابت عالمة الآثار عائدة أدراجها إلى الغرفة: لا

شيء، اؤكد لك، لنعد فالطقس بارد.

نامت الأختان في سرير جان الكبير.

سألت جان: لم تكوني جادة في كلامك على النياندرتاليين؟

ــ ما بالهم النياندرتاليون؟

أجابت جان وهي تتقلب: لا شيء، إنسِ الموضوع. ولنحاول النوم.

ــ إذاً كفي عن الحراك على الدوام.

سادت لحظة صمت قصيرة، وتقلبت كيرا في السرير.

ــ جان؟

ــ ماذا بعد؟

ــ شكراً على كل ما تفعلين من أجلي.

ــ هل تقولين هذا كي أشعر بالذنب أكثر من مرتين بخصوص ماكس؟

ــ قليلاً.

غداة اليوم التالي، ما أن بارحت جان الشقة حتى

هرعت كيرا أمام الحاسوب، إلا أن أبحاثها هذا الصباح أبعدتها عن أعمالها الاعتيادية. فمضت تنقب عن خرائط للسماء سهل الوصول إليها في الإنترنت. كان كل حرف تنقره على «الماوس» أثناء قيامها بالعمل، ينطبع على شاشة حاسوب موجود على بعد مئات الكيلومترات من هذا المكان، وكانت كل معلومة ترجع إليها، وكل موقع تزوره يتم تسجيله. وفي نهاية الأسبوع، كان عام على آلة جالساً وراء مكتبه في أمستردام طبع ملفاً عن العمل الذي أنجزته. عاود قراءة الورقة الأخيرة الخارجة من آلته الطابعة وطلب رقم هاتف.

ــ أعتقد، سيدي، أنك تود مراجعة التقرير الذي انتهيت من إعداده لتوي.

ــ في صدد أي موضوع؟

ــ في صدد عالمة الآثار الفرنسية.

ــ أعلن الصوت في سماعة الهاتف قبل أن يعلقها: وافيني على الفور إلى مكتبي.

لندن

ـ كيف حالك؟

ـ أحسن منك، والتر.

كنا عشية اليوم المنتظر منذ وقت بعيد. كان الامتحان الشفهي الكبير في الضاحية الشرقية من المدينة، ووالتر قد قرر عدم وضع ثقته بالمواصلات المشتركة ولا حتى في سيارتي القديمة. أما في ما يتعلق بالأمر الأول، فكنت أفهم مخاوفه. إذ كان من المألوف أن تظل القطارات الكهربائية ثابتة على قضبانها والقطارات الأخرى متوقفة في محطاتها النهائية، دون ذكر أي شرح آخر، باستثناء النغمة ذاتها حول قدم المعدات التي كانت تؤدي إلى أعطال متكررة. لذا كنا، بناء على قرار حاسم وغير قابل للجدل لوالتر، سنحل في فندق من فنادق «دوك لاندس». وكان يكفينا أن نعبر الطريق من هناك لنمثل أمام أعضاء المؤسسة. وكان الاحتفال يجري في قاعة للمحاضرات بأعلى برج، في «كابوت سكوير».

كنا، ويا لسخرية القدر، نتواجد على مقربة من بلدية غرينتش ومرصدها الشهير. أما من حيث نهر التايمز، فلم

يكن الحي الذي امتد على حساب مياه النهر إلا دليلاً على الحداثة، حيث تتنافس العمائر المشيدة بالحديد والزجاج في ما بينها ارتفاعاً، والباطون قد صُبّ بالأطنان. في نهاية العصر، كان التوفيق حليفي في امتناع صديقي بأن يذهب بنا في نزهة إلى جزيرة الكلاب، ومن هناك دخلنا تحت القبة الزجاجية التي تطل على مدخل نفق غرينتش. هكذا اجتزنا، على عمق خمسة عشر متراً، التايمز سيراً على الأقدام، لنظهر ثانية قبالة خيال «كتي صارك» المحترق. فالسفينة الشراعية القديمة، وهي من أواخر الناجيات من أسطول القرن التاسع عشر التجاري، كانت تجري جرياناً حزيناً مذ أتى عليها حريق قبل أشهر عدة. يمتد أمامنا منتزه متحف البحرية، البناء الفخم لمنزل الملكة، وفي أعلى الرابية، المرصد القديم حيث كنت أصطحب والتر.

قال والتر:كان أول مبنى في إنكلترا مخصصاً لإيواء الآلات العلمية دون سواها.

كنت أرى أنه شارد الذهن تماماً في عالم آخر، فهو قلق وجهودي الرامية إلى الترفيه عنه تبدو عديمة الجدوى، لكن الوقت لم يحن بعد لكي أتخلى عن محاولاتي. دخلنا تحت القبة واكتشفت مجدداً، وأنا مذهول، الآلات الفلكية القديمة، التي وضع «فلامستيد» مستعيناً بها قوائمه

الشهيرة عن النجوم إبان القرن التاسع عشر.

كنت أعلم أن والتر متحمس لكل ما يمت إلى الزمن بصلة، كما لم أقصر في أن أدله على الخط الفولاذي الكبير الذي يحزّ الأرض أمامه.

ــ ها هي نقطة انطلاق خطوط الطول، كما تم تحديده في عام 1851، وتبنّيه أثناء مؤتمر دولي عام 1884 ولئن إنتظرنا هبوط الليل، فسنرى في السماء إرتفاع ليزر أخضر قوي. هذه هي لمسة الحداثة الوحيدة التي جيء بها إلى هنا منذ نحو قرنين.

سأل والتر الذي خيل إلي أخيراً أنه مهتم بحديثي: هذا الحزام الذي أراه كل مساء يعلو المدينة، هو إذاً هذا؟

ــ بالضبط. إنه يرمز إلى خط الزوال الأساس، حتى لو أن العلماء غيروا، منذ ذلك الحين، موقع هذا الأخير حوالي مائة متر. ولكن يتموضع هناك أيضاً التوقيت العالمي، ظهيرة غرينتش التي اعتبرت خلال فترة طويلة نقطة المرجع لحساب الساعة في بقاع الكوكب الأرضي كافة. ونحن كلما انتقلنا باتجاه الغرب خمس عشرة درجة، أخرنا ساعة واحدة، وإذا قمنا بالشيء ذاته متنقلين باتجاه الشرق قدمنا ساعة واحدة. من هنا بالذات تنطلق المناطق الزمنية.

توسل إليه والتر: أدريان، كل هذه الأمور مثيرة للاهتمام، ولكن أرجوك، ألا تخرج مساء الغد، عن موضوعك.

أعياني التعب، فتوقفت عن الاسترسال في الشرح وملتُ بصديقي صوب المنتزه العام. كانت الحرارة معتدلة والهواء الطلق سيعود عليه بالخير العميم. قضينا أنا ووالتر نهاية سهرتنا في حانة قريبة. منعني والتر من تعاطي المشروبات الروحية جميعها، وانتابني إحساس بأنني رجعت ثانية إلى عهد المراهقة. وفي الساعة العاشرة، قفلنا عائدين إلى غرفتينا الخاصتين بنا، وتوافرت عند والتر حتى الجرأة في الإتصال بي هاتفياً لينهاني عن السهر إلى وقت متأخر أمام التلفزيون.

باريس

كانت كيرا أقفلت حقيبتها الصغيرة التي ستحملها معها، ورافقتها جان إلى محطة الشمال، وقد أخذت للمناسبة إجازة نصف نهار. غادرت الأختان الشقة وصعدتا على متن الحافلة.

ــ أتعدينني بأن تتصلي بي لتقولي لي أنك وصلت بالسلامة؟

ــ لكن جان، أنا أعبر المانش وحسب، ولم أتصل بك قط من أي مكان لأقول لك إني وصلت بالسلامة!

ــ حسناً، هذه المرة أطلب منك ذلك. ستخبرينني بسفرك، إن كان الفندق مريحاً، إن كنت راضية عن غرفتك، كيف تجدين المدينة...

ــ أوترغبين كذلك أن أخبرك عن الساعتين والأربعين دقيقة في القطار؟ أنت تتوهّلين أكثر مني بألف مرة، أليس كذلك؟ إعترفي بذلك، فأنت يرهبك ما سأعيشه هذا المساء!

ــ لدي إنطباع بأني أنا التي تتقدم إلى هذا الامتحان الشفهي الكبير. لم أغمض عيني طوال الليل.

ـ لعلك تعلمين أننا لا نملك على الأرجح أي حظ للفوز بهذه الجائزة؟

ـ لا تلجئي مجدداً إلى التسلح بالسلبية، يجب أن تؤمني بالنجاح!

ـ هذا ما تقولينه، وعليه ينبغي أن أبقى يوماً آخر في إنكلترا وأتوجه إلى زيارة أبي.

ـ الكورنواي، مكان بعيد قليلاً، ثم سنذهب يوماً معاً.

ـ إذا ربحت الجائرة، سأعرّج عليه وأقول له إنك لم تتمكني من الحضور لأنك مشغولة جداً.

ردّت جان وهي تنكز أختها بمرفقها: إنك حقاً لشخص شديد الإزعاج!

خففت الحافلة السرعة وبدأت تعطف بلصق الرصيف. تناولت كيرا متاعها وعانقت جان.

ـ وعد الحر دين، سوف أخابرك قبل ظهوري على منصة الامتحان.

نزلت كيرا إلى الرصيف وانتظرت ابتعاد الحافلة، فيما ألصقت جان وجهها بالزجاج.

لم يكن في محطة الشمال، في ذلك الصباح، خلق كثير. كانت ساعة الازدحام مضت منذ زمن بعيد، ولم يكن على الرصيف سوى القليل من القطارات. أما المسافرون المتوجهون إلى إنكلترا فكانوا يستخدمون سلماً صعّاداً يؤدي إلى المركز الحدودي. إجتازت كيرا نقطة الجمارك والأمن العام، وما أن جلست في قاعة الانتظار الكبرى، حتى انفتحت أبواب الركاب.

لقد نامت طيلة مدة المسافة تقريباً. عندما استيقظت، كان أحدهم قد أعلن في مكبرات الصوت وصول القطار الوشيك إلى محطة سانت بنكراس.

ثم أوصلتها سيارة سوداء عبر لندن إلى فندقها. هي بدورها، عندما أخذت المدينة بمجامع قلبها، ألصقت وجهها بزجاج السيارة.

كانت غرفتها كما وصفتها لها جان تماماً، صغيرة ومليئة بالبهجة والروعة. تركت حقيبتها بقرب السرير، ونظرت، لمعرفة الوقت، إلى الساعة الصغيرة الموضوعة فوق منضدة السرير، وقررت أن الوقت ما زال يتسع للقيام بنزهة في الحي.

عاودت مشياً على قدميها صعود «برومتن رود»، وولجت «بيوت ستريت»، فلم تصبر على نداء واجهة

المكتبة الفرنسية في الحي.

تسكعت هنالك خلال وقت طويل، وانتهى بها الأمر إلى شراء كتاب عن أثيوبيا، عجبت لاكتشافه على رف المكتبة، وجلست في شرفة حانوت إيطالي صغير للسمانة، قائم على الرصيف المقابل. وقررت العودة إلى فندقها بعدما انتعشت نتيجة ارتشافها فنجان قهوة طيبة. كان الإمتحان الشفهي الكبير يبدأ في الساعة السادسة تماماً، وسائق التاكسي الذي أوصلها من المحطة نبهها أنه لا بد من ساعة كاملة بالسيارة لبلوغ «دوك لاندس».

وصلت أمام «كابوت سكوير» قبل الموعد بنصف ساعة. كان العديد من الأشخاص يدخلون قاعة البرج. ويحمل لباسهم وهو في منتهى الأناقة على الاعتقاد أنهم يتوجهون جميعاً إلى المكان ذاته. فارقت كيرا اللامبالاة المتغطرسة التي أظهرتها حتى ذلك الحين وأحست بانقباض معدتها. كان رجلان في حلة داكنة يتقدمان على الرحبة. قطبت كيرا حاجبيها، كان أحدهما ذا وجه مألوف.

لقد شرد ذهنها جراء رنين هاتفها المحمول. ففتشت عنه في أعماق جيوبها، وتعرّفت إلى رقم جان الذي ظهر على الشاشة.

ــ أقسم لك بأنني كنت سأخابرك، وأنا على وشك

تركيب رقمك.

ـ كذابة.

ـ أنا أمام المبنى، ولإطلاعك على الحقيقة كاملة، ليست لدي إلا رغبة واحدة، وهي الرحيل من هنا. إن الامتحانات الانتقالية لم تكن يوماً لعبتي المفضلة.

ـ عليكِ، بعد كل الوقت الذي كرسناه للامتحان، أن تمضي حتىَ نهاية هذه المغامرة. ستكونين لامعة، وفي أسوأ الحالات، ما الذي يصيبك إذا لم تفوزي بهذه الجائزة؟ إنها لن تكون نهاية العالم.

ـ أنت، على حق، جان، لكني خائفة، ولا أعرف السبب، لمَ أتعرض لمثل هذا منذ...

ـ لا تحاولي، أنت ما شعرت بالخوف أثناء حياتك كلها!

ـ إن لكِ صوتاً غريباً.

ـ ينبغي ألا أحادثك عنه، أخيراً، ليس الآن، لكني تعرضت للسطو.

سألت كيرا مرعوبة: متى؟

ــ هذا الصباح، حين رافقتك إلى المحطة. إطمئني، لم تتم سرقة أي شيء، أخيراً، لا أعتقد؛ وحدها الشقة باتت رأساً على عقب، والسيدة هيريرا ما زالت أشد اضطراباً.

ــ لا تبقي وحدك هذا المساء، تعالي التحقي بي، واقفزي في أحد القطارات!

ــ لكن لا، فأنا في انتظار صانع الأقفال، ثم لماذا سيخاطرون في العودة ثانية، ما داموا لم يسرقوا شيئاً؟

ــ ألعلهم لأنهم تعرضوا للإزعاج؟

ــ صدقيني، إنهم، بالنظر إلى حال صالة الاستقبال والغرفة، قد لهوا كثيراً، ولن يتسع لي الوقت ليلاً لإعادة ترتيب الشقة.

قالت كيرا وهي تنظر إلى ساعتها: جان، أنا آسفة، ولكن ينبغي أن أتركك الآن. سوف أعاود الإتصال بك ما أن...

ــ أقفلي الهاتف فوراً واذهبي، وإلا ستتأخرين. هل أقفلت؟

ــ كلا!

ــ ماذا تنتظرين؟ أقول لك إذهبي بسرعة.

أقفلت كيرا هاتفها ودخلت إلى بهو المبنى. دعاها أحد الحراس إلى استعمال أحد المصاعد. كانت مؤسسة والش مجتمعة في الطابق الأخير. الساعة تشير إلى السادسة مساء. إنفتح بابا المصعد وقادت مضيفة كيرا عبر ممر طويل. كانت القاعة، المكتظة الآن، أكبر بكثير مما تصورته.

كانت حوالي مائة كرسي تشكل مدرجاً نصف دائري حول منصة كبيرة. في الصف الأول، أعضاء هيئة التحكيم، وقد جلس كل منهم أمام طاولة، يستمع بانتباه إلى من كان يقدم أعماله متوجهاً إلى المجلس بواسطة مكبر للصوت. تسارع قلب كيرا بلا وازع، ووجدت الكرسي الوحيد الذي ما زال شاغراً في الصف الرابع. شقت طريقها لتتمكن من الجلوس. كان الرجل الذي استهل الحديث أول المتكلمين، يدافع عن مشروع بحث في علم الوراثة الحيوية. لقد استغرق عرضه الخمس عشرة دقيقة القانونية واستقبل بعاصفة من التصفيق.

أما المرشح الثاني فعرض نموذجاً أولياً يسمح بتحقيق استبارات محتوية على ماء بأقل كلفة كما عرض آلية لتنقية مياه مرة تعمل بالطاقة الشمسية. فالماء سيغدو الذهب الأزرق في القرن الواحد والعشرين، الرهان الأثمن

عند الإنسان، وسيتوقف عليه بقاؤه حياً في الكثير من بقاع الأرض. إن النقص في ماء الشفة سيكون في أصل الحروب القادمة وتنقلات الشعوب الكبرى. وانتهى العرض إلى كونه عرضاً سياسياً أكثر منه تقنياً.

أما المتدخل الثالث فكان حديثه لامعاً عن الطاقات البديلة. ولعل أكثر بقليل في رأي رئيسة المؤسسة، التي تبادلت بعض الكلمات مع جارها أثناء حديث الخطيب.

* * *

همس لي والتر قائلاً: عما قريب، سيكون ذلك من نصيبنا، وسيكون شيئاً رائعاً.

ــ لا حظ لنا إطلاقاً.

ــ إذا نلت إعجاب أعضاء لجنة التحكيم بمثل ما تنالي إعجاب هذه المرأة الشابة، فالفوز مضمون لك.

ــ أية امرأة شابة؟

ــ تلك التي تحدق إليك منذ دخولها القاعة. هناك، أصرّ وهو يحرك رأسه بهدوء، في الصف الرابع إلى يسارنا. لكن لا تلتفت خصوصاً وراءك، أنت الأخرق!

بطبيعة الحال، التفتُ ولم أر أية امرأة شابة تنظر إلي.

ـ أنت تهلوس، يا والتر المسكين.

ـ كانت تلتهمك بعينيها. ولكن، بفضل رصانتك الأسطورية، إنطوت على نفسها على غرار صدفة القنبريات.

ألقيت نظرة جديدة. الشيء الوحيد الذي يلفت النظر في الصف الرابع هو كرسي شاغر.

هاج والتر وماج: أنت تتعمد فعله! وهذا، لئن بلغ هذا الحد، يدل على حالة يائسة.

ـ لكن، والتر، أصبحت أخيراً مخبولاً تماماً!

نادوا عليّ لأن دوري قد حان.

ـ كنت أحاول أن ألهيك وحسب، وأن أنتزع الإرهاق منك، كي لا تفقد قدراتك، وأرى أنني تمكنت على الأرجح من بلوغ هدفي. هيا، كن الآن كاملاً، هذا كل ما أطلبه منك.

جمعت ملاحظاتي ونهضت. مال والتر إلى أذني.

لقد استنتج وهو يربّت ربتة فرحة على كتفي: أما بالنسبة إلى المرأة الشابة فأنا لم ألفّق شيئاً، يا صديقي.

ستبقى هذه اللحظة كأسوأ ذكريات حياتي. توقف مكبرٍ الصوت عن العمل، فتسلّق أحد التقنيين المنصة محاولاً إصلاحه، ولكن سدى. واتفق الرأي على تركيب مكبر صوت آخر، إلا أنه كان ينبغي العثور على مفتاح مركز تقني. كنت أريد أن أنتهي في أسرع ما يمكن فقررت الاستغناء عنه. كان أعضاء لجنة التحكيم جالسين في الصف الأمامي، وصوتي ينتقل إلى مدى بعيد حتى يسمعوني. أحس والتر بنفاد صبري فأومأ إلي بإشارات واضحة ليفهمني أن ذلك ليس فكرة حسنة. غير أني تجاهلت إيماءاته واندفعت في الكلام.

كان عرضي شاقاً. حاولت أن أشرح لسامعيَّ أن مستقبل البشرية ليست منوطة فقط بالمعرفة التي نمتلكها عن كوكبنا ومحيطاته، وإنما عما سنعرفه عن الفضاء أيضاً. وعلى غرار البحارة الأوائل الذين قاموا بجولة حول الأرض، في وقت كانوا لا يزالون يعتقدون أن الأرض مسطّحة، كان ينبغي أن ننطلق لاكتشاف المجرات البعيدة. إذ كيف لنا أن نتطلع إلى مستقبلنا من دون معرفة كيف بدأ كل شيء في يوم ما ـ سؤالان يضعان الإنسان في مواجهة حدود ذكائه. سؤالان يعجز حتى الأكبر احتواء للعلم بيننا عن الإجابة عنهما: ما هو المتناهي في الصغر والمتناهي في الكبر، وما هي اللحظة الصفر التي بدأ فيها

كل شيء ــ كل امرئ يستجيب للعبة هذين السؤالين عاجز عن تصوّر أدنى فرضية.

لما كان الإنسان يعتقد أن الارض مسطحة، لم يكن يستطيع تصور أي شيء من عالمه، يتجاوز خط الأفق الذي يراه. كان يخاف عرض البحر خشية أن يفنى في العدم. لكنه، عندما قرر التقدم نحو الأفق، تراجع عندئذ الأفق، وكلما تقدم الإنسان أدرك مدى امتداد العالم الذي ينتمي إليه.

والآن ينبغي بدورنا استكشاف الكون، وتفسير العديد من المعلومات المتعلقة بما وراء المجرات التي كنا على علم بها، والتي تصلنا من فضاءات وأزمنة سحيقة. في غضون أشهر، سوف يطلق الأميركيون المرصد الفضائي الأقوى الذي وجد على الإطلاق. لعله يسمح برؤية وسماع ومعرفة كيف تشكل الكون، وما إذا ظهرت حيوات أخرى على كواكب شبيهة بكوكبنا. كان يجب القيام بالمغامرة.

أعتقد أن والتر كان على صواب، إذ كانت إمرأة شابة تنظر إلي بشكل غريب وهي في الصف الرابع. يحكي لي وجهها شيئاً ما. كان ثمة على الاقل شخص في القاعة قد التقط حديثي. لكن الوقت لم يكن للإغراء، وبعد هذا التردد القصير، ختمت عرضي.

ضوء اليوم الأول يسافر من أعماق الكون، ويتجه صوبنا. هل نعرف التقاطه وتفسيره، هل ندرك أخيراً كيف بدأ كل شيء؟

صمت مدقع ساد في القاعة كسكون المقابر، لم يتحرك أحد. كان عذاب الشخص المصنوع بالثلج الذي يذوب ببطء تحت الشمس هو عذابي. كنت ذلك الشخص الثلجي إلى أن صفق والتر. كنت أجمع أوراقي وإذا برئيسة هيئة التحكيم قد نهضت وصفقت بدورها، فانضم إليها أعضاء اللجنة واستمرت القاعة في التصفيق؛ شكرت الجميع وغادرت المنصة.

إستقبلني والتر بعناق طويل.

ـ كنت...

ـ حزينة أو مريعة، أترك لك الخيار. كنتُ أبلغتك مسبقاً أننا لا نملك بصيصاً من الحظ.

ـ أو تريد أن تسكت؟ لو لم تقاطعني لقلت لك إنك كنت مثيراً للاهتمام. لم يتذمر الحضور ولا سمعت نوبة سعال في القاعة!

ـ طبيعي، لأنهم جميعاً كانوا أمواتاً في خلال خمس دقائق!

عندما عاودت الجلوس رأيت المرأة الشابة في الصف الرابع تنهض وتتسلق المنصة. هذا هو سبب تحديقها إليّ. كنا نتنافس وقد لاحظتْ كل ما ينبغي أن تتحاشه.

كان الميكروفون لا يزال عاطلاً عن العمل، لكن صوتها الصافي يصل إلى عمق القاعة. رفعت رأسها عالياً موجهة نظرها إلى مكان آخر، كأنها شاخصة إلى بلد بعيد. حدثتنا عن إفريقيا، عن أرض مغراء لم تتوقف عن التنقيب فيها. وبينت أن المرء لن يكون حراً أبداً ما دام لم يعرف من أين جاء. كان مشروعها على نحو ما، أشد المشاريع طموحاً، إذ لم يكن الأمر يتعلق بالعلم ولا بالتقنيات الرفيعة، وإنما بتحقيق حلم، هو حلمها.

كانت أولى كلماتها:من هم آباؤناء؟ مع أني كنت أحلم بمعرفة أين يبدأ الفجر!

منذ بداية عرضها، أسرت جمهور السامعين. عرْض ليس الكلمة الصحيحة، ما ترويه لنا هو قصة. كان والتر مغلوباً على أمره، وكذلك الأمر بالنسبة إلى أعضاء هيئة التحكيم وإلى كل منا في القاعة. لقد تحدثت عن وادي أومو، أما أنا فكنت عاجزاً عن وصف جبال أطاكاما بشكل جميل مثلما رسمتْ أمام أعيننا ضفاف النهر الأثيوبي. خيّل إلي، أحياناً، أنني أكاد أسمع طبطبة المياه وأحس بهبّة

الريح التي تحمل معها الغبار، ولذعة الشمس. كان بإمكاني، خلال مدة السرد، التخلي عن مهنتي لأختار مهنتها، وأنتسب إلى فريقها، وأحفر الأرض القاحلة إلى جوارها. وأخرجت من جيبها أداة غريبة وضعتها برقة في باطن راحتها قبل أن تمد ذراعها باتجاه جمهور المستمعين كيما يراها كل واحد منهم.

ـ إنها قطعة من عظم جمجمة. عثرت عليها على عمق خمسة عشر متراً تحت الأرض، في قاع كهف. يُرقى عمرها إلى خمسة عشر مليون سنة. إنها كسرة صغيرة من البشرية. لو وسعني أن أحفر إلى مسافة أعمق، ووقت أطول، لربما تمكنت من العودة مجدداً أمامكم، والقول لكم من كان، في نهاية المطاف، الإنسان الأول.

لم تكن القاعة بحاجة إلى تشجيع والتر لتحيّي بحماس المرأة الشابة عند نهاية عرضها.

كان لا يزال هنالك عشرة مرشحين، ولم أرغب في أن أكون من بين أولئك الذين سيتقدمون بعدها.

في الساعة التاسعة والنصف، إنسحبت هيئة التحكيم للتداول واتخاذ القرار، فيما كانت القاعة تفرغ، ووالتر يزيدني إرباكاً. كنت أرتاب أنه تخلى عن كل أمل يتعلق بنا.

قال لي وهو يمسك بي من ذراعي: أعتقد أننا استحققنا، هذه المرة، كأس جعة طيبة.

كانت معدتي متشنجة لذلك؛ فانتهى الأمر بي إلى الوقوع في الفخ، ورحت أنتظر أن تنقضي الدقائق، وأنا عاجز عن الاسترخاء.

ــ أدريان، دروسك الشيقة عن نسبية الزمن، ماذا أنت فاعل بها؟ الساعة القادمة سوف تبدو لنا طويلة بصورة لا تطاق، تعال نتنزه ونشغل بالنا!

كان بعض المرشحين القلقين أمثالنا يدخنون سكائر في الساحة القارسة البرد، ويتدفأون وهم ينطنطون في أماكنهم. لم يظهر أي أثر للمرأة الشابة الجالسة في الصف الرابع، لقد تبخرت. وكان والتر على حق، فالزمن توقف وبدا لي الانتظار وكأنه يدوم إلى الأبد. كنت، وأنا جالس حول طاولة في ملهى ماريوت، أستطلع ساعتي دون توقف. أخيراً حان أوان العودة إلى القاعة الكبرى حيث ستعلن هيئة التحكيم قرارها.

كانت المرأة المجهولة في الصف الرابع قد استعادت مكانها، من غير أن توجه إليّ أي نظرة. دخلت رئيسة المؤسسة، يتبعها أعضاء من هيئة التحكيم. صعدت المنصة وهنأت جميع المرشحين لجودة ملفاتهم. وأكدت

أن عملية المداولة كانت صعبة واستدعت دورات عدة من التصويت. ومُنح المرشح الذي قدم مشروعاً لتنقية المياه تقديراً خاصاً، لكن المكافأة كانت من نصيب الخطيب الأول، وستسهم في تمويل أبحاثه في علم الوراثة الحيوية. تلقى والتر الضربة من دون اعتراض. وربت على كتفي وأكد لي بكثير من العطف أنه ليس من مسوغ للوم أنفسنا، لأننا أنجزنا العمل على خير ما يرام. وقاطعت رئيسة هيئة التحكيم عاصفة التصفيق.

وكما أعلنت، فإن هيئة التحكيم واجهت صعوبات شتى في حسم الخلاف في الآراء. ولكن هذا العام، سيتم، بصورة استثنائية، تقاسم الأموال المرصودة بين مرشحين، وبعبارة أدق بين مرشح ومرشحة.

كانت المرأة المجهولة في الصف الرابع الوحيدة التي مثلت أمام أعضاء المؤسسة. فنهضت مترنحة، بينما كانت الرئيسة تبتسم لها، ولم أتمكن، في غمرة موجة التصفيق، أن أسمع إسمها.

وشاهد الحضور بعض العناقات على المسرح، وشرع المشاركون وجمهورهم كذلك يغادرون المكان.

سألني والتر: ستهديني، مع ذلك، زوجي الجزمة لأخوض بهما في مكتبي؟

ـ الوعد وعد، وإني لآسفة لأنني خيبت أملك.

ـ كان لملفنا الفضل في أن يقع عليه الخيار... وأنت لا تستحق وحسّب هذه الجائزة، بل كنتُ فخوراً جداً لمرافقتك في هذه المغامرة على مدى الأسابيع الأخيرة.

قاطعتنا رئيسة هيئة التحكيم التي مدت يدها إليّ.

ـ جوليا والش. أنا مغتبطة بالتعرف إليك.

كان يقف بجانبها شاب طويل القامة، قوي البنية، عريض المنكبين. لم تكن لهجته لتدع الشك يحوم حول أصوله الألمانية.

تابعت وريثة مؤسسة والش: مشروعك مثير للاهتمام، إنه المفضل لدي. لم يكن القرار في مصلحتك جراء صوت واحد تقريباً. تقدم ثانية في العام القادم، إذ إن تركيب هيئة التحكيم سيكون مختلفاً، وإني لواثقة أن الحظ بكامله سيقف إلى جانبك. سوف ينتظرك ضوء النهار سنة إضافية، أليس كذلك؟

حيتني بظرف وانصرفت حالاً يرافقها صديقها، المدعو توماس.

عندها صاح والتر قائلاً: حسناً، أترى، في الحقيقة ليس

لنا أن نندم على شيء.

لم أجب على كلام والتر، لكنه ضرب بقبضته على يده ضرباً عنيفاً.

ثم تمتم، لماذا أتت تقول لنا هذا الكلام؟ «بصوت واحد تقريباً»، إنه أمر لا يطاق. فضلت ألف مرة أن تعلن لنا أننا خارج السباق كلياً، ولكن بصوت واحد تقريباً! هلا لاحظت ظلم الموقف؟ سأقضي الأعوام المقبلة من حياتي عاملاً في بِركة، بصوت واحد تقريباً! أود أن أعرف حقاً من قَلَبَ مِيزان التصويت لألوي عنقه.

كان والتر غاضباً، ولم أكن أعرف كيف أهدئ روعه. إحمرّ وجهه وأخذت أنفاسه تلهث.

ــ والتر، عليك أن تتمالك نفسك، وإلا ستسبب لنا الضيق.

وزعق: كيف يمكن القول لأحدهم أن مصيره كان متعلقاً بصوت واحد تقريباً؟ أهو مجرد لهو بالنسبة إليهم؟ كيف يمكن التجرؤ على قول هذا الكلام؟

ــ أعتقد أنها كانت تريد ببساطة أن تشجعنا وتحثنا على محاولة تجريب حظنا مرة جديدة.

ـ في سنة؟ يا له من عمل جميل! أدريان أريد العودة إلى البيت، سامحني إذا تركتك على هذا النحو، لكني أخاطر بنفسي في عدم مخالطة الناس هذا المساء. سنتلاقى غداً في الأكاديمية، إذا زال السكر عني حتى ذلك الحين.

إستدار والتر وانصرف بخطى متسارعة. ألفيت نفسي وحيداً في تلك القاعة، ولم يبق لي إلا أن أتوجه نحو المخرج.

سمعت رنة جرس المصعد في آخر الممشى، فحثثت الخطى لأدخل الغرفة قبل أن ينغلق الباب مرة جديدة. وفي داخلها، وجهتْ إلي الفائزة بالجائزة أجمل نظراتها.

كانت تتأبط ملفها، وقد توقُّعت أن أقرأ على محيّاها أمارات السعادة التي يوفرها لها انتصارها على المتسابقين. إكتفت بالنظر إلي، وافترت شفتاها عن ابتسامة خفيفة. كنت أسمع في رأسي يتردد صوت والتر الذي، لو كان هنا، لقال لي على الأرجح، أياً تكن طريقتي في التعريف بنفسي «يا لك من إنسان أخرق!».

تمتمت بتواضع: تقبلي كل تهانّي.

لم تحر المرأة الشابة جواباً.

وأخيراً خلصتْ إلى القول: هل تغيرتُ إلى هذا الحد؟

لما لم أجد أي جواب ملائم، فتحتْ ملفها، انتزعت منه ورقة، وضعتْها في فمها ومضت تمضغها بهدوء من دون أن تقلع عن هذا المظهر الساخر بعض الشيء.

وفجأة، انتعشت ذكرى قاعدة الامتحانات، ومعها آلاف الذكريات العائدة إلى فصل صيف لا يمكن تصوره، لخمسة عشر عاماً مضت.

لفظت المرأة الشابة قطعة الورقة الصغيرة في يدها وتنهدت.

ــ قضي الأمر، أخيراً «أنت تعرفني؟».

إنفتح باب المصعد على القاعة الكبرى، بقيتُ متجمداً وذراعاي متدليتان؛ وعادت المقصورة مجدداً إلى الطابق الأخير.

ــ ربما كان يلزمك بعض الوقت، وكنتُ آمل أن أراقبك أكثر، أو أني طعنت حقاً في السن...

ــ لا، طبعاً لا، لكن لون شعرك...

كنت في العشرين، وطالما غيرته في ذلك الحين، إن هي إلا نزوة عابرة. أما أنت فلم تتغير باستثناء بعض

التغضنات ربما، لكنك تتميز دائماً بهذه النظرة الغارقة في اللاشيء.

ـ لقد كان من غير المتوقع على الإطلاق أن أجدك ثانية هنا... بعد كل هذه السنين.

ـ أعترف أنه ليس مألوفاً أن نتلاقى في مصعد. ما رأيك في أن نعاود استعمال المصعد ذهاباً وإياباً عبر الطوابق، أو أنك تصطحبني إلى العشاء؟

ومن دون أن تنتظركيرا الجواب، أوقعت ملفها، غاصت بين ذراعي وقبلتني. كان لهذه القبلة طعم الورق الممضوغ؛ هذه تماماً قبلة ورقية صحيحة حيث كنت بالأمس البعيد أحلم بأن أكتب المشاعر التي أكنها لها. ثمة قبلات أولى تبدل حياتك، وحتى لو رفض المرء البوح بها، فإن الواقع لا يتبدل. القبلات الأولى تأخذك معها دون سابق تحذير. وقد يحدث ذلك في القبلة الثانية، حتى لو لم تتحقق إلا بعد خمسة عشر عاماً من القبلة الأولى.

كلما كان الباب ينفتح على البهو، كان أحدنا يضغط على الزر ويوثق عناقه. في الرحلة السادسة، كان حارس البرج في انتظارنا مكتوف اليدين. لم يكن مصعده غرفة فندق، وإلا لما كانت بداخله آلة تصوير؛ فقد طلب منا مبارحة المكان. جذبت كيرا من يدها، وألفينا أنفسنا في

الساحة المقفرة، وكل منا في غاية الإرباك.

ــ أنا آسفة، لم أفكر... إنها نشوة هذا النصر.

وأنا أجبت: وبالنسبة إلي نشوة هزيمتي.

ــ أنا آسفة، أدريان، لأنني خرقاء إلى هذا الحد.

ــ حسناً. لو كان والتر هنا لوجد فينا نقطة مشتركة. أوتريدين أن تجربي مرة أخرى؟

ــ ماذا إذاً؟

ــ خرقي، نصرك وهزيمتي، وأترك لك الخيار.

لامست كيرا شفتي بقبلة، ثم توسلت إلي أن نغادر المكان المشؤوم الذي نحن فيه.

قلت لها: تعالي لنتمشَّ قليلاً، هناك في الضفة الأخرى من التايمز منتزه عام رائع...

ــ هل في زريبتك ثيران؟

ــ لا أعتقد، لماذا؟

ــ باستطاعتي أن آكل بشراهة واحداً منها، لأنني جائعة جداً. لم أبتلع شيئاً هذا الصباح، إصطحبني إلى حانة حيث ما زالوا يقدمون شيئاً للعشاء.

تذكرت مطعماً طالما كنا نرتاده في ذلك الحين؛ وكنت أجهل ما إذا كان قائماً إلى اليوم. لكنني ناولت سائق التاكسي العنوان.

بينما كنا نسير والتايمز، أخذت كيرا بيدي. ما كنت قد أحسست بالحنان منذ زمن بعيد. نسيت، في هذه اللحظة، كل ما يمت إلى خيبتي بصلة، إلى المسافة التي ترسخت هذا المساء بثبات بين لندن التي سأعيش فيها من الآن فصاعداً، وهضبة أطاكاما حيث بقيت أحلامي.

أمستردام

كان الرجل الذي ترجل من سربة القطار ليصعد سيراً على قدميه قناة «سنكل»، كانت مشيته المجهولة شبيهة بمشية أي شخص يعود من مكتبه. ما عدا الساعة المتأخرة، وما عدا السلسلة الصغيرة التي تصل قبضة حقيبته بمعصمه بالذات، وما عدا المسدس المعلق على قرابه تحت سترته. لدى وصوله إلى ساحة فاغنا، توقف أمام الضوء الأحمر ليتأكد أن أحداً لا يتعقبه. وما أن انتقلت الإشارة إلى الأخضر، حتى اندفع الرجل وسط الطريق، إستخف بأبواق السيارات مندساً بين حافلة وشاحنة صغيرة، وأرغم عربتين معلقتين على الفرملة بخشونة. بالكاد تفادى سائق دراجة نارية انهال عليه بشتائم سخية. واغذّ السير على الرصيف المقابل، حتى بلغ ميدان «دام»، إجتاز الساحة وتسلل من الباب الجانبي إلى داخل «الكنيسة الجديدة». كان البناء الفخم يحمل إسماً غريباً بالنسبة إلى عمارة يعود تاريخها إلى القرن الخامس عشر. لم يكن لدى الرجل الوقت لتأمل صحن الكنيسة الباذخ، فواصل طريقه حتى الجناح المصالب، تجاوز ضريح الأميرال رويتر، ومال جانباً أمام ضريح الكومودور جان فان كالن، متوجهاً إلى صدر الكنيسة الصغير. ثم

أخرج من جيبه مفتاحاً وأدار مزلاج باب صغير قائم في مؤخرة المعبد وهبط السلم الخفي الذي وراءه.

دخل، بعد هبوط خمسين درجاً إلى الأسفل، إلى الممشى الطويل الممتد أمامه. إن النفق المحفور تحت الساحة الكبرى يتيح لمن يعرف وسيلة للوصول إليه أن ينتقل من الكنيسة الجديدة إلى «قصر دام». أسرع الرجل وأحس أن النفق الضيق يضايقه كل مرة يسلك فيه، وصدى خطواته لا يني يضاعف إنزعاجه. وكلما تقدم شحب الضوء، وحدهما طرفا الممشى كان يتوافر لهما بعض الإضاءة. شعر الرجل أن حذاءه الموكاسان يتشرب الماء المر الراكد على الأرض. وفي وسط الممر، وجد نفسه من جديد غارقاً في ظلام حالك. كان وهو في هذا المكان، يعرف أن عليه أن يسير خمسين خطوة في خط مستقيم، فتقعُّر مسرب الماء المركزي سيقوم بوظيفة دليل له في جوف الظلام.

أخيراً، تقلصت المسافة، وبرز أمامه سلم آخر. كانت الدرجات زلقة، وتوجب عليه أن يتعلق بحبل القنب الدقيق الممتد على طول الجدار. وفي أعلى سطح الدرج، ألفى الرجل نفسه قبالة باب أول مجهز بقضبان حديدية ثقيلة ومشغولة. وثمة مسكتان تعلو الواحدة الأخرى، ولا بد لتحرير غال القفل من معرفة تشغيل آلية قديمة عمرها

ثلاثة قرون. أدار الرجل المسكة العالية تسعين درجة إلى اليمين، وأدار الواطئة تسعين درجة إلى اليسار وشدهما كليتهما إلى ناحيته. سمع في الحال صوت مفصال، لقد إنحل لسان القفل. وانتهى أخيراً إلى غرفة انتظار في الطابق الأرضي من قصر دام. إن العمارة التي كانت وليدة خيال جاكوب فان كامبن، شيدت في أواسط القرن السابع عشر، وكانت حينذاك تقوم مقام دار للبلدية، وكان سكان أمستردام لا يترددون في اعتبارها رائعة الدنيا الثامنة. وكان تمثال لأطلس يتوسط قاعة القصر الكبرى، وعلى الأرض ثلاث خرائط عملاقة من الرخام، تمثل إحداها نصف الكرة الغربي، والأخرى النصف الشرقي، والثالثة خارطة للنجوم.

سيحتفل يان فاكيرز بعيد ميلاده السادس والسبعين، في حين يظهر أنه أصغر بعشر سنوات. دخل قاعة بوركرزال، وطئ مجرة درب التبانة، مشى فوق أوقيانيا، واجتاز المحيط الأطلسي بخطوة وواصل سيره باتجاه غرفة الانتظار، حيث كان ينتظره موعده.

سأل وهو يدخل: ما هي الأخبار؟

ــ مذهلة، سيدي، إن مواطنتنا الفرنسية تتمتع بجنسية مزدوجة. كان والدها إنكليزياً، عالم نبات أمضى الجزء

الأكبر من حياته في فرنسا. عندما عاد إلى مسقط رأسه في كورنواي، بعد طلاقه بالضبط، مات جراء نوبة قلبية في 1997 ويضم الملف صك الوفاة والإذن بالدفن.

ــ والأم؟

ــ توفيت هي أيضاً. كانت مدرسة العلوم الإنسانية بكلية «أكس آن بروفانس». قُتلت في حزيران 2002، في حادث سير. والسائق الذي صدمها كان دمه يحوي 1.2 غرام من الكحول.

سأل يان فاكيرز: أرحني من التفاصيل القذرة!

ــ أخت لها، تكبرها بسنتين، تعمل في متحف باريسي.

ــ موظفة لدى الحكومة الفرنسية؟

ــ إلى حد ما.

ــ ينبغي أخذ هذا الأمر في عين الاعتبار. لنعد، من فضلك، إلى عالمة الآثار الشابة هذه.

ــ إنها قدمت إلى لندن لتتقدم من هيئة التحكيم في مؤسسة والش.

ــ وفازت، كما كنا نتمنى، بالمال المرصود، أليس

كذلك؟

ـ ليس على وجه الدقة، سيدي. إن عضو هيئة التحكيم الذي يعمل لمصلحتنا، بذل كل ما في وسعه. غير أن الرئيسة لم تكن قابلة للتأثر. ومرشحتك المدعومة تشاطر مرشحاً آخر جائزتها.

ـ سيكون هذا كافياً لتعود ثانية إلى أثيوبيا؟

ـ مليون ليرة استرلينية، مبلغ ينبغي أن يكفيها بوفرة لمواصلة أبحاثها.

ـ عظيم، هل لديك أشياء أخرى تطلعني عليها؟

ـ لقد تعرفتْ عالمة الآثار الشابة التي تخصك إلى رجل أثناء الحفل. وقد تابعا سهرتهما في مطعم صغير، وفي الوقت الحاضر، كلاهما...

قاطع فاكيرز: أظن أن هذا لا يعنينا، إلا إذا أخبرتني غداً أنها ألغت مشاريعها بالسفر لأنهما وقعا بالحب من أول نظرة. أما ما تفعله بلياليها فهو ملك لها وحدها.

ـ ذلك أننا، سيدي، حصلنا حالاً على معلوماتنا؛ والرجل المعني بالكلام هو عالم فيزياء فلكية ينتمي إلى أكاديمية العلوم البريطانية.

إقترب فاكيرز حتى النافذة ليتأمل الساحة في الأسفل. فرآها أجمل بكثير في الليل منها أثناء النهار. أمستردام مدينته وهو يحبها أكثر من غيرها. ويعرف كل زقاق، كل قناة وكل عمارة.

وأضاف: لا أحب كثيراً هذا النوع من الأحداث الطارئة. إنه عالم فيزياء فلكية، تقول؟

ــ لا شيء يثبت أنها تحادثه في ما يشغل بالنا.

ــ لا، ولكنه احتمال لا يسعنا استبعاده. أتصور أنه من الأفضل الاهتمام أيضاً بهذا العالم.

ــ سيكون من الصعب مراقبته دون لفت انتباه أصدقائنا الإنكليز، كما قلت لك، إنه عضو في أكاديمية العلوم لصاحبة الجلالة.

ــ أبذل ما في وسعك، ولكن إياك أن تعرض نفسك للخطر. إننا لا نريد بشكل خاص لفت الانتباه هناك. هل من معلومات أخرى تنقلها لي؟

ــ كل شيء وارد في الملف الذي طلبته مني.

فتح الرجل حقيبته وسلّم محدثه مغلفاً عريضاً من الورق اللدن.

فضّه فاكيرز. صور لكيرا ملتقطة في باريس أمام مبنى جان، وفي حديقة التويلري، وصور أخرى مختلسة أثناء تسوقها في شارع ليونز- القديس بولس، وأخيراً مجموعة التقطت فور وصولها إلى سانت بنكراس، في شرفة سمانة إيطالية تطل على بيوت ستريت، ومن خلال واجهة مطعم في بريم روزهيل، حيث تشاهد وهي تتعشى بصحبة أدريان.

ـ إنها الصور الأخيرة التي وافتنا قبل أن أغادر مركزي.

تصفح فاكيرز بسرعة أسطر التقرير الأولى وأطبق الملف.

ـ شكراً، بإمكانك الانصراف، سنتقابل غداً.

حيا الرجل فاكيرز وغادر غرفة الانتظار في القصر. فور ذهابه، انفتح باب، ودخل الغرفة رجل آخر يبتسم لفاكيرز.

قال مقترباً منه: لعل هذه المقابلة غير المتوقعة مع عالم الفيزياء الفلكية هي لمصلحتنا.

ـ كنت أعتقد أنك حريص على بقاء كل ذلك طي الكتمان ما أمكن، ثمة فارسان لا يخضعان لمراقبتنا، وهذا

كثير على رقعة شطرنج واحدة!

ما أحرص عليه أشد الحرص هو أن تبدأ بالبحث، من غير أن ترتاب أننا نمد إليها يد العون قليلاً.

ـ إيفوري، أنت تعي لو أن أحداً راح يشك في ما نفعله، لكانت النتائج بالنسبة إلى كلينا...

ـ حرجة. أهذه هي الكلمة التي تبحث عنها؟

ـ لا، كنت سأقول على الأرجح وخيمة.

ـ يان، نحن كلانا نصدق الشيء ذاته، وذلك منذ سنين. تصور النتائج، لو كنا نمتلك الحقيقة.

ـ أعرف ذلك، إيفوري، أعرف ذلك، ولهذا السبب أخاطر بنفسي إلى هذا الحد في مثل عمري.

ـ أعترفْ أن هذا مصدر تسلية لك بعض الشيء؛ ثم لم نكن لنأمل قط بأننا سنعاود النشاط، وفكرة إدارة قوانين اللعبة من وراء الستار تنال إعجابك. كم تروقني في كل الأحوال.

تنهد فاكيرز وهو يجلس وراء المكتب الكبير المصنوع من الأكاجو، وقال: لنفترض ذلك، ما هو التحرك القادم الذي تتطلع إليه؟

ـ لندع الأمور تأخذ مجراها، وإذا نجحتْ في إثارة إهتمام عالم الفيزياء الفلكية هذا، عندئذ سأعتبرها أشد مكراً مما كنت أتصورها.

ـ كم من الوقت تمهلنا قبل أن تطلع لندن، مدريد، برلين أو بكين على اللعبة التي توشك أن تبدأ؟

ـ أوه، إنهم سيدركون بسرعة كبيرة اللعبة التي أُعلن عنها. لقد شرع الأميركيون بالظهور. وتم هذا الصباح تفتيش منزل أخت عالمة الآثار.

ـ يا لهم من حمقى!

ـ إنها طريقتهم في توجيه رسالة.

ـ لتنبيهنا؟

ـ لتنبيهي أنا. إنهم هائجون لأنني تركت الأداة تفلت من أيدينا، وإنهم لأشد غضباً لأنني كنتُ وقحاً حين طلبت تحليلها في منطقتهم بالذات.

ـ إنها لوقاحة من قبلك، ولكن أرجوك إيفوري، ليس وقت وقت تحريض. نحن لا نعرف إلى أين ذاهبون. لا تدع حقدك على أولئك الذين عملوا على تنحيتك أن يؤثر في حكمك على الأمور. أنا أواكبك في هذه المغامرة

المجنونة، ولكن لا تجعلنا نتعرض لمخاطر نحن في غنى عنها.

ـ قارب الوقت منتصف الليل، وأعتقد أن الآوان قد حان لنقول ليلة سعيدة، يان، سنتلاقى هنا في غضون ثلاثة أيام، وفي الوقت عينه، سوف نرى كيف تطورت الأمور، ونتبين الوضع.

إفترق الصديقان. كان فاكيرز أول من غادر غرفة الإنتظار. إجتاز القاعة الكبرى وهبط إلى الطوابق تحت الأرضية للمبنى.

إن أعماق قصر دام متاهة حقيقية. ثلاثة عشر ألف وستمائة وتسع وخمسون ركيزة تسند المبنى. تسلل فاكيرز عبر هذه الغابة الغريبة بين الألواح الثخينة، ليظهر مجدداً بعد عشر دقائق من خلال باب صغير يطل على باحة بيت برجوازي على بعد ثلاثمائة متر من ذلك المكان. أما إيفوري الذي مضى بعد خمس دقائق من انصرافه، فقد سلك طريقاً آخر.

***   *   ***

لندن

لم يعد للمطعم وجود في ذاكرتي، لكني وجدْت مكاناً مليئاً بالسحر يشبهه، وأقسمت كيرا أنها تعرفت إلى المكان الذي كنت أصطحبها إليه في ما مضى. وحاولتْ أثناء العشاء أن تروي لي ما جرى لحياتها بعد انفصالنا. ولكن كيف السبيل إلى سرد خمسة عشر عاماً من الوجود في بضع ساعات؟ الذاكرة كسلى بقدر ما هي متأففة، إنها لا تحتفظ إلا بأحسن الذكريات وأبشعها، بالأوقات القوية، لكنها لا تحتفظ أبداً بقياس العمل اليومي، بل تمحوه. كنت كلما أستمع إلى كيرا تحادثني، أجد في صوتها من جديد ذلك الصفاء الذي استهواني، وأرى النظرة المتوقدة التي يتفق لي أن أغوص فيها في بعض الأمسيات، وتلك الابتسامة التي كادت تجعلني أتخلى عن مشاريعي؛ ومع ذلك، كنت أجد صعوبة وأنا أنصت إليها في تذكر الزمن الذي رحلت فيه ثانية لتعيش في فرنسا.

كانت كيرا تعرف دائماً ما تريد أن تفعله. فتوجهت بداية، فور الفراغ من دروسها إلى الصومال، بصفة متدبرة بسيطة. ثم أمضت سنين في فينزويلا تعمل تحت إمرة قطب من أقطاب علم الآثار، الذي كانت تصرفاته

التسلطية تلامس الاستبداد. وعقب تقريع تعرضت له، صارحته بأخطائه وقدمت استقالتها. وأدت خلال عامين أعمالاً خفيفة في حفريات بفرنسا، حيث كان إنشاء خط حديدي للقطار السريع جداً أسفر عن اكتشاف موقع مهم خاص بعلم الإحاثة. فحُوّل تخطيط وجهة القطار السريع جداً، وانضمت كيرا إلى فريق العمل في هذه الورشة، متحملة، على مر الشهور، مسؤوليات جسيمة أكثر فأكثر. ونالت، بعد لفت الأنظار إلى نوعية عملها، منحة دراسية فالتحقت بوادي أومو في أثيوبيا. بداية عملت هنا كمساعدة مدير الأبحاث؛ ثم أصاب المرض هذا الأخير، فأصبحت هي رئيسة العمليات وغيرت الموقع خمسين كيلومتراً.

كنت أشعر، عندما تحادثني عن إقامتها في إفريقيا كم أحست بالسعادة هنالك. وبدرت مني حماقة أن أسألها لماذا عادت أدراجها. فامتقع وجهها وروت لي حادث عاصفة محزن أتى على جهودها كافة، ودمر كل عملها، ولكن لولا ذلك لما كنت على الأرجح قد رأيتها على الإطلاق، ولم أجد في نفسي شجاعة البوح لها كم باركتُ تلك الفاجعة المتصلة بالأحوال الجوية.

لما سألتني كيرا عما فعلته بحياتي، ألفيت نفسي عاجزاً

تماماً عن قول ذلك. فوصفت لها قدر المستطاع المناظر التشيلية محاولاً إشاعة قليل من هذا الجمال الذي أضاء عرضها أمام أعضاء هيئة التحكيم التابعة لمؤسسة والش. وحدثتها عن أولئك الذين شاطرتهم العمل سنين طوالاً، وعن أخوّتهم، وكشفت لها دون مواربة، كي أجنبها طرح سؤال حول سبب عودتي إلى لندن، وحول الحادث السخيف الذي وقعتُ ضحيته جراء رغبتي في تسلق أعالي الجبال.

قالت لي: ترى، ليس لدينا ما نندم عليه. أنا أحفر الأرض، وأنت ترصد النجوم، نحن في الحقيقة لا يصلح الواحد منا للآخرى.

تمتمتُ: أو العكس. في كل حال، نسعى أنا وأنت وراء الشيء نفسه.

كنت قد أفلحت في إثارة دهشتها.

ــ أنت تحاولين تحديد تاريخ البشرية، وأنا أتقصى عمق أعماَق المجرات لأعرف كيف وُلد الكون، وهذا ما أتاح ظهور الحياة وما إذا توجد حياة في مكان آخر، وتحت أشكال غير تلك التي نعهدها؛ إن مساعينا كما نياتنا ليست متباعدة كثيراً. ومن يدري ما إذا كانت الإجابات عن أسئلتنا ليست متكاملة؟

ــ إنها طريقة في رؤية الأشياء، ربما سأتسلق يوماً، بفضلك أنت، متن مكوك فضائي، وأهبط على كوكب مجهول وأمضي في البحث عن هياكل عظمية لأوائل الرجال الخضر الصغار!

ــ منذ اليوم الأول الذي تلاقينا فيه، ولا يزال حتى الآن، تُسرّين سروراً ماكراً بالتهكم بي.

إعتذرتْ: ما تقوله فيه شيء من الصحة، ولكن هذه طريقتي في الوجود. لم أكن أريد التقليل من أهمية عملك. إن رغبتك في إقامة تشابهات بين مهنتينا، أياً كان الثمن، أجدها شيقة، لا تلمني إذاً.

ــ قد تنتابك الدهشة وتخففين من مكرك فيما لو أبلغتك أن النجوم كانت ذات فائدة لبعض زملائك من أجل تحديد زمن مواقع أثرية. ولئن كنت تجهلين ما هو التاريخ الفلكي، فسأعد لك مذكرة شبيهة بتلك التي يستعين بها الطالب أثناء الإمتحان بطريق الاحتيال!

نظرتْ كيرا إلي مستغربة ورأيت بالفعل في عينيها أنها تهيئ لي ضربة قاسية.

ــ من قال لك إني كنت أغش؟

ــ عفواً.

ـــ في اليوم الذي تلاقينا فيه على هذا المدرج، كانت الورقة التي ابتلعتها ربما صفحة بيضاء. ألم يخطر ببالك أني دبرت هذه المكيدة لألفت انتباهك؟

ـــ أكنت خاطرت بطردك من القاعة لكي تلفتي انتباهي وحسب؟ وتريدين أَن أصدقك؟

ـــ لم أكن أتعرض لأي خطر، لأنني خضت امتحاناتي عشية ذلك اليوم.

ـــ كذابة!

ـــ كنت اكتشفتك في ممرات الكلية، إنك لتروقني. كنت، في ذلك اليوم، أرافق صديقة لي تقدم في الحقيقة امتحاناتها الفرعية. وكان ينتابها هلع جنوني، وبينما أنا أسرّي عنها أمام أبواب المدرج، شاهدتك بوجهك الشبيه بوجه ناظر مدرسة لا يقاوم وبسترتك البالغة الكبر عليك. ومضيت أجلس في مكان شاغر في الصف الذي كنت تراقبه، وتعرف التتمة...

ـــ أكنت ستفعلين هذا كله لتقابليني فحسب؟

هتفت كيرا في وجهي وهي تلامس برجلها رجلي تحت الطاولة: قد يكون هذا ممالئاً لذاتك، أليس كذلك؟

أتذكر أيضاً أنني خجلت مثل طفل فوجئ جاثماً فوق مقعد أمام خزانة للمربيات. كنت بالأحرى متضايقة ولكن كان خارج الموضوع أن أبين له ذلك.

ـ سألتها: هل عمدت إلى الغش، نعم أو لا؟

ـ لن أقول لك ذلك أبداً. السيناريوان ممكنان، وأترك لك الخيار. سواء شككت في استقامتي وجعلت مني امرأة مثيرة، أم آثرت رواية المذكرة المساعدة، وهذا يجعل مني غشاشة رهيبة. أترك لك بقية السهرة لتتخذ قرارك، أما الآن فحدثني عن تعيين تواريخك الفلكية.

لقد نجح السيد نورمن لوكيار، من خلال دراسته تحركات موقع الشمس على مر الزمن، أن يعين تاريخ موقع ستون هانغ وأنصابها المكتنفة بالأسرار.

إن موقع الشمس يختلف في سمت الرأس من ألف سنة إلى ألف أخرى. عند الظهيرة، تكون الشمس على بعد بضع درجات إلى الشرق من الموقع الذي كانت تحتله في أزمنة ما قبل التاريخ.

في ستون هانغ، كان سمت الرأس موسوماً برواق متوسط، والأنصاب الصخرية العمودية (منهير) متموضعة على أبعاد منتظمة على طول هذا المحور. أما الاستدلال

الباقي فيتعلق بحساب رياضي متطور. كنت أفكر في فقْد كيرا قبل الانتهاء من شروحي، إلا أنها كانت تبدو مهتمة اهتماماً صادقاً بما أخبرها.

ـ ما زلت على وشك الاستهزاء بي، كل هذا لا أهمية له بالنسبة إليك، أليس كذلك؟

أكدت لي: بلى، بل بالعكس. إذا ذهبت يوماً إلى ستون هانغ، فلن أرى الأمور أبداً بالطريقة ذاتها. كان المطعم يقفل أبوابه، ونحن آخر زبونين، وقد أفهمنا الخادم، بإطفائه الأضواء في عمق القاعة، أن الوقت حان لمغادرة المكان. فمشينا حوالي الساعة في شوارع بريم روزهيل، ونحن نواصل استعادة أفضل الأوقات المقضية في غضون صيف بعيد. إقترحت على كيرا أن أصطحبها إلى فندقها، ولكن عندما ركبنا التاكسي، فضلتْ أن توصلني إلى منزلي، وأضافتْ: «لكل مقام مقال».

في الطريق، راحت تلهو لتكتشف تكويني في دخيلة نفسي.

قالت وهي تزور الطابق الأرضي: ذكوري جداً، وأكثر من ذكوري، لا أقول إن هذا لا يخلو من الفتنة، لكنه يشي بالفتاة المتصبينة.

ــ بمَ تعيبين منزلي؟

ــ أين هي الغرفة لاصطياد الفتيات في فخك هذا؟

ــ في الطابق الأول.

تابعت كيرا وهي تصعد السلم: هذا بالضبط ما كنت أقوله.

لما دخلتُ الغرفة، كانت في انتظاري على السرير.

لم نمارس الحب هذا المساء. كل شيء كان ظاهرياً يتلاءم مع ذلك، ولكن، في بعض أمسيات حياتك، شيء ما يفرض نفسه وهو أقوى بكثير من الرغبة. إنه الخوف من عمل أخرق، الخوف من المباغتة في مشاريعك، الخوف من الغد ومن الأيام الآتية.

تحادثنا الليل بطوله، وجهاً لوجه، يداً بيد، كأننا طالبان لم يبدُ عليهما الكبر، وانتهى الأمر بكيرا أن نامت بجانبي.

لم يكن الفجر قد لاح بعد. سمعت وقع خطوات، تكاد تكون ناعمة كأنها خطوات حيوان. فتحت عيني إلا أن صوت كيرا توسل إلي بإعادة إغماضهما. كانت، على عتبة الباب، تنظر إلي فأدركت أنها راحلة.

ــ لن تتصلي بي، أليس كذلك؟

تمتمتْ: لم نتبادل رقمينا، ذكريات لا غير، لعل من الأفضل هكذا.

ــ لماذا؟

ــ سأسافر ثانية إلى أثيوبيا، فيما أنت تحلم بجبالك التشيلية، وبينهما مسافة شاسعة، ألا تجد ذلك؟

ــ قبل خمسة عشر عاماً، كان من الأجدر لو صدقتك بدلاً من أن أبدي الكراهية لك، لقد كنت على صواب، ولَم يبقَ لنا إلا الذكريات.

ــ حاول إذاً هذه المرة ألا تحقد علي.

ــ أعدكِ بأن أبذل ما في وسعي. وإذا...

ــ لا، لا تقل شيئاً آخر، كانت سهرة جميلة، أدريان، ولست أعلم أن الشيء الأجمل الذي حدث لي أمس كان الفوز بهذه الجائزة أو رؤيتك مرة أخرى، لا أريد خصوصاً أن أحاول معرفة ذلك؛ لقد تركت لك كلمة على منضدة السرير، ستقرأها عندما تنهض من نومك. عد إلى النوم ثانية، ولا تسمع صرير الباب حين أعاود غلقه.

ــ إنك لفتانة في هذا الضوء.

ــ ينبغي أن تدعني أنصرف، أدريان.

ــ هل باستطاعتك أن تعديني بشيء ما؟

ــ كل ما تريده.

ــ عديني، إذا تقاطعت دروبنا، ألا تقبّليني.

قالت: أعدك بذلك.

ــ أتمنى لكِ سفراً سعيداً، سوف أكون كاذباً لو قلت لك إنني لن أشتاقَ إليك.

ــ إذاً لا تقله، أنت كذلك، ليكن سفرك سعيداً.

سمعتُ، عندما هبطتْ السلم، طقطقة كل درجة من الدرجات، وصرير المفصلات حين أغلقت بابٍ منزلي، ووقع خطاها عبر نافذة غرفتي المفتوحة قليلاً بينما كانت تبتعد في الزقاق. وعلمت، بعد وقت طويل جداً، أنها توقفت على بعد أمتار لتجلس فوق جدار صغير؛ وأنها ترقبت طلوع النهار وكادت مرات عدة أن تدور إلى الخلف وتعود أدراجها إلى هذه الغرفة، حيث كنت أحاول عبثاً أن أخلد إلى النوم من جديد، وإذا بتاكسي يمر.

*** * ***

ــ أمن الممكن حقاً أن تنفتح ثانية ندبة عمرها خمسة عشر عاماً وبوتيرة سريعة كأنها خياطة يتم نزعها؟ ألا

تمحي إذاً آثار الحب الذابل أبداً؟

ــ أنت تطرح السؤال على إنسان مخبول يعشق امرأة بجنون، من دون أن يكون قادراً على إيجاد الشجاعة في البوح بحبه لها. يستدعي ذلك مني فكرتين سأعجل في إطلاعك عليهما. الأولى، وأنا لست متأكداً، إستناداً إلى ما سبق أن قلته لك، أنني الشخص الأكثر كفاءة في الرد عليك. والثانية هي أنني، مع الأخذ في الحسبان ما تقدم قوله، أجد نفسي مسيئاً إذا ما لمتك على عدم عثورك على الكلمات الصحيحة لإقناعها بالبقاء. آه، إنتظر، فقد راودتني فكرة ثالثة. عندما تقرر أن تضيع فرصة نهاية الأسبوع، فأقل ما يتسنى لي قوله هو أنك لا تتصرف بحزم. بين هذه الجائزة التي أفلتت منا واكتشافاتك الطارئة، بذلت قصارى جهدك!

ــ شكراً، والتر.

ما استطعت أن أخلد إلى النوم ثانية، ومع ذلك حاولت البقاء في سريري أطول مدة ممكنة، دون أن أفتح عيني، ومن غير أن أسمع الضجيج من حولي، فاختلقت لذلك قصة. قصة نزول كيرا إلى المطبخ لإعداد فنجان شاي. وقد تقاسمنا الفطور ونحن نناقش بقية ما سيحمله إلينا النهار. كأن لندن باتت ملكاً لنا، فارتديت لباس سائح،

ولهوت في معاودة اكتشاف مدينتي، مذهولاً حيال ألوان المنازل الزاهية التي تتناقض تناقضاً صارخاً مع لون السماء الرمادي.

كنت سأزور معها مجدداً كل الأمكنة التي نعرفها، كما لو كانت الزيارة الأولى، وأيدينا لا تفترق. وماذا يهم إذا كانت كيرا في هذه القصة ستغادر في نهاية الأسبوع؟ كل لحظة نحياها تستحق منا العناء.

كانت رائحة بشرتها ملتصقة بشراشفي، وما زالت الأريكة في غرفة الاستقبال تحمل أثر اللحظة التي جلست عليها. موت خفيف تسرب إلى دمي وطفق يتنزه الآن في البيت الخاوي.

لم تكذب كيرا، فقد وجدتُ فوق منضدة سريري كلمة صغيرة، واحدة، هي «شكراً».

وفي الظهيرة، دعوت والتر ليسارع إلى نجدتي وكان، وهو الذي أصبح صديقاً لي، قد دق جرس الباب بعد نصف ساعة.

ــ أود أن أزف إليك خبراً ساراً علّك تغير أفكارك. لكن ليس عندي منها شيء، إلى ذلك جرى الإعلان عن المطر. وبما أن هذه هي الحالة العامة، لذا ينبغي أن تفكر في

ارتداء ثيابك، ولا أعتقد أن بقاءك منغرساً هنا في هذه البيجاما المقرفة سيعود عليك بنفع عميم، كما أن رؤية بطّتي ساقيك من غير المحتمل أن تضفي رونقاً على نهاري.

بينما كنت أعد فنجان قهوة، صعد والتر إلى الطابق الأول. قال وهو يتسلق السلم «لتهوئة الغرفة». وبعد لحظات نزل ووجهه يفيض بهجة.

ــ أخيراً، عندي لك مع ذلك خبر سار وسيكشف الزمان إن كان ساراً إلى هذه الدرجة.

ولوّح متباهياً بالعقد الذي كانت كيرا تحمله البارحة.

وأردف: آه، لا تقل على الأخص شيئاً. وإذا كنت لا تعرف وأنت في مثل سنك ما يعنيه عمل ناقص، فإن وضعك إذاً لأشد إثارة لليأس من وضعي أنا. وإن امرأة تترك عند رجل لؤلؤة لا يمكن أن يكون لها سوى نيتين. الأولى أن تقوم امرأة أخرى بذلك الاكتشاف وتعمل على زخرفته بمشاحنة زوجية؛ ولكن بما إنك أخرق، كان عليك أن تردد على الأقل عشر مرات أن لا وجود لأية إنسانة في حياتك.

وسألت: والثانية؟

ــ أن تنوي العودة إلى مكان الجريمة!

قلت وأنا أنتزع العقد من بين يديه: إن فكرة أن تكون شاردة الذهن وتنساه ببساطة، ألا يبدو لك أشد بساطة؟

ــ آه، لا، فقرْط ما زال مقبولاً، وخاتم، لنفترض، أما عقد مرصع بحجر كريم بهذا الحجم... أم أنك أخفيت عني إذاً أن صاحبتك قصيرة البصر مثل الخلد، وهذا يبين، إلى حد ما، كيف تمكنت من إغرائها.

بحركة سريعة، انتزع والتر مني القلادة ورجّحها في كفه.

ــ لا تقل لي إنها لم تلاحظ نقصان رطل حول عنقها. هذا الشيء ثقيل بما فيه الكفاية كي لا يتم التخلي عنه ببراءة.

أعرف أن في الأمر بلاهة، وأن سنّي لم تعد تمكنني من أن أتصرف كأول شاب مغرم بامرأة تعبر ليلاً، إلا أن ما سبق أن تفوه به والتر أفادني فائدة عظيمة.

ــ لقد تغير لونك، أدريان، أنت الذي عشت على الأرجح حياة سعيدة خلال هذه الأعوام الخمسة عشر الأخيرة. ولن تقول لي إن سهرة صغيرة جداًوتافهة تركتك منكسر النفس لوقت أطول من نهاية أسبوع؟ إني

أشكو من جوع كافر، وأعرف في حيك مكاناً يشتهر بتقديم فطور. إرتدِ ملابسك، تباً لك، فقد قلت لك إني أموت جوعاً!

*   *   *

سانت مويس، كورنووايل

إنطلق الموكب على طريق الخط الحديدي الوحيد، كان الركاب النادرون الذين ترجلوا من القطار غادروا محطة فالماوس. إجتازت كيرا منطقة الفرز، حيث كانت قاطرتان قديمتان لنقل البضائع تصدآن على بعد بضعة أعشار الميل من البحر. واصلت طريقها وتوغلت في منطقة المرفأ وسارت حتى الرصيف الذي تنطلق منه السفينة. إنها غادرت لندن منذ الساعة الخامسة، وها هي العاصمة تبدو الآن بعيدة جداً. طرف ضباب حثها على تسريع خطاها، فيما كان بحار يدير مدوّرة يدوية على الرصيف، والجسر الصغير آخذ في الارتفاع.لوحت كيرا بيديها وصرخت حتى ينتظروها، ودارت المدوّرة في الاتجاه المعاكس فتعلقت كيرا بذراع النوتي الصغير الذي رفعها على متن السفينة. وما أن حاولت بلوغ مقدمها، حتى كانت السفينة تجاوزت الرافعة الكبرى وغاصت قليلاً لتسير عكس التيار. كان مصب نهر مويس أجمل بكثير مما علق بذكرياتها. كان يمكن الآن مشاهدة الحصن بشكله الخاص الشبيه بورقة النَفَل؛ وعلى مسافة منه، تتشابك البيوت الصغيرة البيضاء والزرقاء وكل منها يتزاحم على حجز مكان له على الرابية. داعبت كيرا الدرابزين الذي أفناه عباب البحر،

وتنفست ملء رئتيها. كانت رائحة الملح تمتزج بعبير العشب الأخضر المجزوز حديثاً، والذي تحمله الريح من اليابسة. أعطى القائد الإشارة نافخاً في البوق، فلوّح حارس المنارة بيده. هنا يعرف الناس بعضهم بعضاً ويؤدون التحية لبعضهم البعض حين يتقابلون. تباطأ سير السفينة، فألقيت الحبال، واحتكت ميمنة السفينة بحجر الرصيف.

سلكت كيرا الطريق المحاذي للشط حتى مدخل القرية. ثم صعّدت في الدرب الشديد الانحدار متوجهة إلى الكنيسة، رافعة رأسها لتتأمل الأفاريز، حيث تنتشر الأزهار بوفرة أمام شبابيك كل بيت. دفعت باب «الفكتوري». كانت صالة الحانة خاوية، فجلست إلى طاولة الشرب وطلبت رقاقة «كريب».

سأل صاحب النزل كيرا وهو يقدم لها زجاجة جعة: يندر وجود السياح في هذا الفصل، الستِ أنت من الجوار؟

ــ أنا لست من هنا، لكنني لست أيضاً غريبة كلياً، إذ أن والدي قد دفن خلف الكنيسة.

ــ من كان والدك؟

ــ كان رجلاً رائعاً، يدعى وليم بركينز.

أجابها صاحب النزل آسفاً: لا أذكره. ماذا كان يعمل في حياته؟

ــ كان عالم نبات.

ــ وهل ما زال لك أقرباء من العائلة في القرية؟

ــ لا، قبر أبي فحسب.

ــ ومن أين تأتين إلينا بهذه اللهجة الناعمة؟

ــ من لندن وفرنسا.

ــ هل قمت بهذه الرحلة الطويلة من أجل زيارته؟

ــ أجل، إذا صح القول.

قال صاحب النزل واضعاً صحناً أمام كيرا: إذاً الحساب علي، إكراماً لذكرى وليم بركينز، عالم النبات والرجل الطيب.

أضافت، وهي ترفع كأسها: لذكرى والدي.

ما أن تناولت كيرا فطورها، حتى شكرت صاحب النزل وتابعت طريقها نحو قمة الرابية. أخيراً وصلت أمام الكنيسة، دارت حولها وفتحت البوابة المصنوعة من الحديد المشغول.

لم يكن هنالك أكثر من مائة نفس يرقدون في مقبرة سانت مويس الصغيرة. كان ضريح وليم بركينز يقوم في نهاية فسحة، مسندة إلى جدار السور. وثمة نبتة «وستارية» خبازية اللون تتسلق على امتداد الحجارة القديمة، وتجود ببعض الظل تحت أوراقها. جلست كيرا على البلاط ولمست بأصبعها الأحرف المحفورة لمساً خفيفاً. كاد الطلاء الذهبي يختفي بكامله، ونبتَ على النصب التذكاري طحلب أخضر ناعم.

ـ أعلم، ما أتيت إلى هنا منذ وقت طويل، وطويل جداً، إلا أني لست بحاجة لأن أكون هنا حتى أفكر فيك. قلتَ لي في حينه أن غم الغياب يمّحي حيال تذكر الذكريات السعيدة. متى أكف عن الاشتياق إليك إلى هذه الدرجة؟

«أود لو نستأنف أحاديثنا، وأواصل طرح ألف سؤال عليك، وأسمع ألف إجابة تعطينيها، حتى عندما تختلقها. وأود كذلك لو أحس بيدك في يدي، وأمشي إلى جانبك كما لما كنا نذهب لمشاهدة المد وهو ينحسر إلى عرض البحر».

«لقد تشاجرتُ هذا الصباح مع جان. وكنتُ على جاري العادة أنا المذنبة. كانت هائجة لأنني ما دعوتها لأعلن على مسامعها الخبر السار. مساء أمس، كنتَ ستكون فخوراً

بي، يا أبتاه، فخوراً بابنتك. فقد قدمتُ أعمالي أمام مؤسسة، وفزت بالجائزة الأولى مناصفة، لكنك كنت ستكون فخوراً في كل حال، أنت الذي كنت تستسيغ القسمة على الدوام. أود لو تعود ثانية، تضمني بين ذراعيك وننطلق في السير معاً حتى المرفأ الصغير، أو لو أسمع رنة صوتك، وأستعيد طمأنينتي في نظرتك كما في سالف الأيام».

سكتت كيرا لحظة لأنها كانت تبكي.

ــ آه، لو تعرف كم أنا حاقدة على نفسي لعدم القيام بزيارتك في الغالب عندما كنتَ على قيد الحياة، آه لو تعلم كم أنا متأسفة. لكني لم أقم بذلك وأسمعك تقول لي إنه ينبغي بالأحرى أن أعيش حياتي، غير أنك كنت جزءاً من حياتي، أبتاه.

«لم أكن أريد أن تشعر بالكدر والغم، لذا تصالحت مع جان. لقد طبقتُ وصاياك بحذافيرها، وذكّرتها بها مرتين علها تسامحني. ثم تشاجرت مجدداً معها حين قلت لها إنني آتية لمشاهدتك، حتى لو أنني لا أراك. كانت تود لو تكون هنا. إننا كلتينا مشتاقتان إليك».

«تعلم، أني بهذه الجائزة التي فزت بها، سأتمكن من العودة ثانية إلى أثيوبيا. جئت اليوم لأقول لك هذا، لأنك إذا

رغبت في زيارتي فسأكون في وادي أومو. ولا حاجة لأدلك على الطريق. أنا متأكدة أنك ستجد مكاني من هناك حيث أنت. تعال مع الريح، لا تنفخ بقوة شديدة، ولكن تعال، أرجوك».

«إني أمارس مهنة أُحبها، تلك المهنة التي كنتَ من أجلها تحثني على الدرس والنجاح. لكني الآن وحيدة ومشتاقة. هل تصالحتما أنت وأمي هنالك في الأعالي؟».

وانحنت كيرا لتقبل الحجر، ثم نهضت وغادرت المقبرة وكتفاها ثقيلتان. نادت، لدى هبوطها نحو مرفأ سانت مويس الصغير، أختها جان، ولما انفجرت باكية، واستها أختها طويلاً.

* * *

إحتفلت الأختان، لدى عودتهما إلى باريس، بنجاح كيرا. وتوالت سهرتا عيد بين فتيات؛ وانتهت السهرة الثانية عند الخامسة صباحاً، فيما كان فريقٍ سامو الإجتماعي ينصح جان بالتعقل. كانت تريد بصورةٍ قاطعة، وقد ثملت إلى حد ما، أن تخطب المدعو جول، وهو متشرد إختار أحد أروقة «شانزليزيه» التجارية ملاذاً له. كان أطول ذكرى احتفظتْ بها كيرا من هاتين السهرتين من الاحتفالات هي ذكرى ثمان وأربعين ساعة من الصداع

الذي لم يفارقها.

* * *

ثمة نهارات مضاءة قوامها أشياء صغيرة، لا بل تافهة تجعلك تسعد بشكل لا يصدّق؛ بعد ظهر مخصص للتوشية بالألوان، لعبة تنبثق من عهد الطفولة على رف تاجر سلع مستعملة، يد تتعلق بيدك، نداء لم نكن نتوقعه، كلمة طيبة، ولدك الذي يضمك بذراعيه من غير أن يطلب شيئاً سوى لحظة حب. ثمة نهارات مضاءة قوامها لحظات من النعمة، أريج يحمل إلى نفسك الفرح، شعاع شمس يتسلل عبر النافذة، ضجة زخة المطر في وقت لا تزال فيه في الفراش، الأرصفة المجللة بالثلج أو قدوم الربيع وبراعمه الأولى.

كانت حارسة بناية جان حملت، هذا السبت، ثلاث رسائل إلى كيرا. فعلم الآثار مهنة أكاديمية يساهم كل واحد بمعلوماته في الاكتشاف المأمول إلى حد بعيد. والنجاح الذي يتحقق على الأرض منوط بكفاءة الجميع، إنه ثمرة عمل فريقي. عندما علمت كيرا أن الزملاء الثلاثة الذين استحثتهم يبتهجون لسفرهم معها إلى أثيوبيا، وثبت وثبات فرح في الشقة.

هذا الصباح، بينما كانت تتسكع في أروقة السوق، قال

بائع خضار وفاكهة على عربة لجان أنه يجدها خلابة المظهر، وعادت جان هذا الصباح إلى منزلها وفي يدها سلة مليئة جداً ووجهها يشع نوراً.

عند الظهيرة، كان يان فاكيرز وإيفوري يتغديان في مطعم صغير بأمستردام. كان سمك «الصول» الذي طلبه إيفوري مشوياً شياً في غاية الكمال، ويان يتلذذ برؤية شراهة صديقه مقضية إلى هذا الحد. كانت السفن النقالة تتلاقى على طول القناة، والشرفة التي جلس فيها الصديقان المرحان مغمورة بالشمس. تذكرا ذكريات جميلة واستسلما لبعض نوبات الضحك.

في الساعة الواحدة ظهراً، كان والتر يتنزه في هايد بارك. وكان الكلب البرني مقعياً تحت سنديانة قديمة يحدق إلى سنجاب يقفز من غصن إلى غصن. إقترب والتر من الكلب وداعب رأسه. عندما نادت الكلبَ صاحبته، تملك العجب والتر. كانت الآنسة جنكيز مدهوشة مثله أشد الدهشة لهذا اللقاء المباغت وبدأت الحديث أولاً. كانت تجهل أنه يحب الكلاب؛ قال والتر إنه هو أيضاً كان لديه كلب، حتى لو أن هذا الأخير يمضي معظم الوقت عند أمه. خطوا معاً جيئة وذهاباً قبل أن يسلّم أحدهما على االآخر بتأدب أمام سياج المنتزه. قضى والتر ما تبقى من العصر

جالساً على كرسي، يتأمل أزهار وردة برية.

عدتُ، في الثانية بعد الظهر، من نزهة. وكنت قد عثرت في سوق البراغيث في «كمدان» على صندوقة آلة تصوير قديمة، سُررت لفكرة تمضية سهرتي وأنا أفككها وأنظفها. وجدت، تحت بابي، بطاقة بريدية كان ساعي البريد قد أزلقها. كانت الصورة تمثل مرفأ الصيد الصغير في هيدرا، الجزيرة التي تعيش فيها أمي. كانت قد أودعتها في البريد قبل ستة أيام. تشمئز أمي من الهاتف، لا تكتب في الغالب، وعندما تمسك بالريشة لا تسهب في الكتابة. كان النص بسيطاً إلى درجة الإرباك: «متى تأتي لزيارتي؟» وبعد ساعتين، كنت خارجاً من وكالة للسفريات كائنة على بعد شارعين من منزلي، وفي جيبي بطاقة طيران لآخر الشهر.

مساء هذا السبت، ألغت كيرا، المنهمكة جداً في الاستعداد للرحلة، عشاءها مع ماكس. بعد أن نظرت جان طويلاً في مرآة الحمام، قررت رمي رسائل جيروم الأخيرة التي تحتفظ بها في درج مكتبها.

فيما كان والتر، الذي توجه لزيارة صاحب مكتبته، يقرأ في موسوعة عن الكلاب، حافظاً عن ظهر قلب الصفحة المتعلقة بالكلب البرني (نسبة إلى مدينة برن).

أتاح يان فاكيرز لأيفوري أن يأخذ بثأره في لعبة

الشطرنج.

أما أنا فجلست إلى مكتبتي، بعدما نظفت ببالغ الدقة آلة التصوير التي اشتريتها في الصباح نفسه، مع قدح جعة مثلجة وشطيرة أعددتها إعداداً حسناً للغاية. وبدأت أحرر رسالة إلى أمي لأبلغها بوصولي، ثم وضعت لتوي قلم الحبر، وأنا مغتبط بأن أعدّ لها مفاجأة.

ثمة نهارات قوامها أشياء تافهة، لكن المرء يتذكرها لوقت طويل، من دون أن يستطيع معرفة السبب.

كنت أحطت والتر علماً بسفري. لن تبدأ دروسي إلا يوم الافتتاح ولن يلحظ أحد في الأكاديمية غيابي. إشتريت بسكويتاً وشاياً وخردلاً إنكليزياً أمي مولعة به. وبعد أن أقفلت حقيبتي، وأغلقت باب منزلي، أوصلني تاكسي إلى المطار. سوف أبلغ أثينا في وسط العصر، في الوقت المحدد للوصول إلى مرفأ «بيره» والإبحار على ظهر مركب بحري سيقودني في غضون ساعة إلى جزيرة هيدرا!

كان الجو في هيثرو كالمعتاد فوضوياً بامتياز، لكن عندما يحلق المرء حتى حدود أميركا الجنوبية، لا شيء يفاجئك في صدد السفر. لحسن الحظ، كان الإقلاع في الموعد المحدد، ثم أعلن الطيار أننا سنحلق فوق فرنسا،

قبل الاتجاه صوب سويسرا، فشمال إيطاليا والبحر الأدرياتيكي وأخيراً اليونان. لم أكن رجعت إليها منذ زمن بعيد وكنت سعيداً لأنني اتخذت قراراً بزيارة أمي. كنا نحلق الآن فوق باريس، السماء صافية، والركاب الجالسون مثلي في الجانب الحسن من المقصورة، كانوا ينعمون برؤية العاصمة بشكل بهي، حتى برج إيفل أمكنتنا رؤيته.

***   *   ***

باريس

توسلت كثيراً الى جانّ كي تساعدها في إقفال حقيبتها.

ـ لا أريد أبداً أن تذهبي.

ـ سأفوّت طائرتي، هيا أسرعي، أرجوك جان، ليس لدينا الوقت للجدل!

جرى الرحيل بتسرع. لم تكن جان داخل السيارة المنطلقة باتجاه أورلي تنبس بكلمة.

ـ أوتظلين تحردين حتى نفترق؟

همهمت جان: أنا لا أحرد. أنا حزينة، هذا كل ما في الأمر.

ـ أعدك بأنني سأهاتفك بانتظام.

ـ وعد كاذب! عندما تصلين إلِى هناك، لن تكون لشيء أهميته ما عدا عملك، ثم إنكِ ردَدْتِهِ علي مراراً، لا وجود لمقاصير هاتفية ولا لشبكات...

ـ ما من أحد برهن أن الغسكون لم يفوا بوعودهم.

ـ جيروم هو غسكوني!

ـ جان، كان هذان الشهران الأخيران على جانب كبير من الروعة، ولا شيء مما جرى لي كان ممكناً أن يحصل لولاك. هذه الرحلة، أنا مدينة بها لك، أنتِ...

ـ أعلم ذلك، أنت البلهاء ما كنت لتبدلي نفسك بأي شخص آخر في العالم، ومع ذلك فأنت تؤثرين تمضية أيامك بصحبة هياكلك العظمية في واديَ أومو على أن تمضيها بالأحرى مع أختك التي تدعين أنك غير قابلة للاستغناء عنها. أوه، ثم إني آخر البلهاوات كنت قد أقسمت ألا أخاصمك، وأمس طالما رددتُ في غرفتي كل الكلمات السعيدة التي ينبغي أن أقولها لك.

حدقت جان إلى كيرا طويلاً.

ـ ماذا هنالك؟

ـ لا شيء، إني أتشرّب محياك قبل أن يتعذر علي رؤيته.

ـ كفّي عن هذا، جان، سوف تسببين لي الضجر، تعالي لزيارتي!

ـ أجد صعوبة في معادلة ميزانيتي أواخر الشهر، علي أن أحادث على الفور صاحب مصرفي بشأن رحلة صغيرة إلى أثيوبيا، قد يتولاه الذهول. ماذا فعلت بعقدك؟

أمرت كيرا يدها حول عنقها.

ــ إنها لقصة طويلة.

ــ هيا، أسمعك.

ــ لقد وجدتُ أحد معارفي القدامى في لندن بطريق المصادفة.

ــ وأعطيته هذه القلادة التي كنت شديدة التعلق بها؟

ــ قلت لك، جان، إنها لقصة طويلة.

ــ ما اسمه؟

ــ أدريان.

ــ وهل جئتِ به لرؤية أبي؟

ــ كلا، طبعاً كلا.

ــ لاحظي، إن كان في وسع أدريان الغامض هذا أن يبعد ماكس عن أفكارك، فليكن مباركاً.

ــ ما الذي تضمرينه ضد ماكس؟

ــ لا شيء!

أمعنت كيرا النظر إلى أختها.

سألت: «لا شيء». أو «لا شيء، إنما العكس تماماً»؟

لم تجب جان عن السؤال.

إلا أن كيرا همست: لكني ملكة المغفلات... «لم تردني أخبار عن ماكس منذ انفصالك عنه». ماكس استغرقت عودته إلى طبيعته وقتاً، لا تتكئي جراحاً إذا كانت غايتك الفرار في ما بعد. «لا ينبغي أن أقوله لك، لكن ماكس شارك في هذا العشاء»، أنتِ صعبة التصديق، أنت المتيمة به!

ــ كل ما تشائين!

ــ حدّقي في عيني ملياً، جان!

ــ ماذا كنت تريدين أن أقول لك؟ إني ألفيت نفسي وحيدة لدرجة أني أُغرمت بحبيب أختي السابق؟ لا أعرف حتى إن كنت مغرمة به أو بالزوجين اللذين كنتما تمثلانه، أو بفكرة زوجين وحسب.

ــ ماكس كله لك، عزيزتي جان، ولكن لا تكوني مع ذلك مخيَّبة الأمل. إنها لصدمة مؤلمة!

رافقت جان أختها حتى مكتب التسجيل، وما أن ابتلع البساط النقال أمتعة كيرا، حتى توجهتا لرشف فنجان قهوة

أخير. كانت جان متشنجة الحلق تشنجاً بالغ الشدة لكي تبدأ بالكلام، ولم تكن كيرا بأحسن حالاً منها. فتماسكتا بيديهما وكل منهما غارقة في أفكارها وصمتها. وما افترقتا إلا عند شباك الشرطة الجوية. ضمت جان كيرا بين ذراعيها وانفجرت باكية.

قالت كيرا وهي تذرف الدمع: أعدك بأنني سوف أتصل بك كل أسبوع.

ـ إنك ستخلفين الوعد، لكنني سأكتب إليك وتكتبين أنت إلي أيضاَ، ستروين لي مجريات أيامك، وأنا مجريات أيامي، وستمتد رسائلك صفحات وصفحات، أما الرسائل التي سأبعث بها إليك فستقتصر على بضعة أسطر، إذ لن يتجمّع لدي ما أخبرك به. وسترسلين إلي صوراً عن نهرك الرائع، بينما سأبعث إليك ببطاقات بريدية من محطة المترو. أحبك، أختي الصغيرة، إعتني بنفسك وعودي إلي بالأخص، سريعاً.

إبتعدت كيرا عائدة القهقرى؛ ومدت جواز سفرها وبطاقة ركوب الطائرة للشرطي القابع وراء زجاج محرسه. ثم التفتت وراءها، بعد انتهاء عملية المراقبة، لتلوح بيدها لأختها للمرة الأخيرة، غير أن جان كانت قد غادرت المكان.

ثمة نهارات قوامها أشياء صغيرةٍ تجعلك مكتئب النفس، كما ثمة لحظات وحدة نتذكرها طويلاً، وطويلاً جداً.

* * *

أثينا

عند نهاية النهار، تدب الحركة في مرفأ «بيره» فيبدو أشبه بخلية نحل. وما أن يترجل الركاب من أرتال الحافلات التي لا نهاية لها، ومن الباصات الصغيرة أو من سيارات التاكسي حتى يندفعوا من رصيف إلى آخر. وإذا بحبال المراكب تصطفق على هوى الريح مخضعة للإيقاع رقصة السفن الراسية أو تلك المتهيئة للإبحار. كانت الرحلة المكوكية التي تربط هيدرا بلغت عرض البحر، بعدما تهيأ الركاب للسفر. فجلست في المقدمة أحدق في خط الأفق، وبالرغم من أصولي اليونانية، ما كنت يوماً رابط الجأش في الظروف العصيبة.

هيدرا جزيرة خارج الزمان، وليس هنالك سوى وسيلتين للتنقل فيها، السير على الأقدام أو اعتلاء ظهر حمار. تشرف بيوت القرية المتشبثة بالجبل على مرفأ الصيد الصغير، ويمكن الوصول إليها عبر دروب شديدة الانحدار. جميع الناس هنا يعرفون بعضهم بعضاً، باستثناء فترة الموسم السياحي، إذ يستحيل أن تنزل من السفينة من دون أن يبتسم لك وجه أليف، ويضمك بين ذراعيه، ويصرخ لمن يود سماعه أنك عدت ثانية إلى الوطن. كانت

المجازفة بالنسبة إلي بلوغ منزل طفولتي قبل أن تتسلق إشاعة وصولي التلة. لا أدري لماذا كنت راغباً بقوة أن أعد لأمي هذه المفاجأة السارة. ربما لأنني ما أحسست من خلال رسائلها الوجيزة بأي توبيخ، وإنما بالأحرى بدعوة للحضور.

كان السيد كاليبانوس العجوز، المتاجر بالحمير، مغتبطاً لتسليمي أحد أجمل حيواناته. إنه لأمر يصعب تصديقه، وهو أن في هيدرا نوعين من الحمير، الحمير التي تتقدم بخطوات بطيئة، وتلك التي تهرول في مشية لطيفة. حمير النمط الثاني تُقايض بضعف سعر النمط الأول، وركوبها أصعب بكثير مما يخيل إلينا. فللحمار طبعه الخاص، وينبغي، إذا أراد المرء أن يسير الحمار في الاتجاه المرغوب، أن يعرف كيف يتصرف معه ليتقبل صاحبه.

توسل إلي كاليبانوس: لا تترك له لحظة راحة، إنه سريع بقدر ما هو كسول، عندما تجد نفسك في المنعطف، قبل الوصول تماماً إلى منزل والدتك، شدّ على العنان ناحية اليسار، وإلا سيلتهم الأزهار على حائط إبنة عمي، وسيفضي ذلك إلى التسبب في مشاكل أيضاً.

وعدته بأن أفعل ما في وسعي. وطلب مني كاليبانوس أن أودعه أمتعتي ليسلمني إياها في ما بعد. وربّت برفق

على ساعته محدداً لي أقل من خمس عشرة دقيقة لبلوغ البيت هناك قبل أن تعلم أمي أنني في الجزيرة.

ـ وفوق ذلك، أنت محظوظ لأن هاتف خالتك معطل!

للخالة هيلانة في المرفأ مخزن صغير لبيع البطاقات البريدية والتذكارات، وهي تتكلم دونما توقف، وفي أغلب الأحيان كي لا تقول شيئاً، لكن ضحكتها أكثر الضحكات سيرورة على ما أعلم، وهي لا تني تضحك.

ما أن انطلقتُ في الطريق، حتى استعدت مجدداً ردود فعل طفولتي. لن أقول إنني كنت مهيب الطلعة، وكان حماري يتمايل بعجزه، لكني كنت أتقدم مسرعاً، وجمال الأمكنة يثير إعجابي في كل مرة أعود إلى الجزيرة. لم أنشأ وأترعرع هنا، لأني ولدت في لندن وعشت فيها دائماً، غير أننا كنا، في كل العطلات، نعاود استثمار منزل أمي العائلي، قبل أن تستقر فيه فعلاً عقب وفاة والدي.

أسمي أدريان، إلا هنا، حيث يدعوني الناس أدريانوس على الدوام.

* * *

أديس أبابا

حطت الطائرة في مطار بوله، ومضت لتصطف عند نهاية الموقف الجديد البرّاق الذي غدا مدعاة فخر واعتزازٍ للمدينة. إضطرت كيرا وفريقها أن يصبروا ساعات طوالاً قبل تخليص معداتهم من الجمارك. كانت في انتظارهم ثلاثة باصات صغيرة. إذ وفى المنسق الذي اتصلتْ به كيرا مطلع الأسبوع بوعده. فحمّل السائقون الصناديق والخيام والأمتعة في المركبتين الأوليين، فيما استقلّ أعضاء الفريق المركبة الثالثة. هدرت المحركات وفرقعت أوصالها مؤذنة ببدء المغامرة الطائشة. إجتازت المركبات المستديرة التي ترفع من شأن التعاون الصيني ـ الإفريقي. وبالفعل فإن واجهة محطة أديس أبابا المركزية تزدان بمنحوتة تمثل العلم الأحمر ونجمة الصين. سلك الموكب الجادة الكبرى التي تمر عبر العاصمة من الشرق إلى الغرب. كان السير كثيفاً، وما لبث أعضاء الفريق المرهقون أن استسلموا للرقاد، فلم يتأثروا بالفوضى المحيطة بهم، وبالكاد استفاقوا نتيجة للأرتجاجات المفاجئة عندما كانت عجلة سيارة تغوص في حفرة رخوة.

يقع وادي أومو على مسافة خمسمائة وخمسين

كيلومتراً على خط مستقيم وثلاثة أضعاف هذه المسافة إذا أريد اجتيازها بالسيارة، كما يختفي الزفت أثناء السفر ليحل مكانه التراب ثم آثار من الطريق.

تجاوزوا أديس، تفكي وتولو بولو، وتوقف الموكب عند حلول الظلام في جون. بعدها أفرغت المعدات لتحميلها في الحال على ظهر مركبتين طويلتين تصلحان للقيادة في كل الأماكن. كانت كيرا مبتهجة وأعضاء فريقها سعداء، على الرغم من التعب الذي استبد بهم.

في ولكيت، أبى سائقو السيارات الرباعية الدفع مواصلة الرحلة، وقرروا قضاء الليل هنالك.

قامت عائلة باستقبالهم. فأكل أفراد الفريق الوجبة التي قدمت إليهم بطيبة خاطر، وهي عبارة عن طبق «وات». ثم رقد الجميع على حصر أعدت في الحجرة الرئيسية.

كانت كيرا أولى المستفيقين من النوم. خرجت إلى درج المنزل الخارجي، وراحت تجيل ناظريها في الجوار. المدينة مؤلفة في قسمها الأكبر من بيوت بيضاء ذات سقوف من صفيح متموج، في حين أن سطوح باريس باتت بعيدة، وهي مشتاقة إلى جان. فجأة تساءلت لماذا ورطت نفسها في مثل هذه المغامرة. انتشلها صوت أريك، أحد زملائها، من أفكارها.

ـ نحن الآن بعيدون جداً عن المنظومة الإعلامية الخارجية، أليس كذلك؟

أجابت كيرا: كنت أبدي الملاحظة نفسها، ولكن إن كنتَ تعتقد أنك وصلت إلى نهاية العالم، فما عليك إلا أن تصبر قليلاً، إنها على بعد خمس مائة كيلومتر من هنا.

ـ إني قليل الصبر على بقائي هنا وعلى مباشرة العمل.

ـ إن أول ما يجب عمله هو أن نجعل القرويين يتقبلوننا.

ـ هل هذا يقلقك؟

ـ لقد انطلقنا ونحن أشبه بلصوص في أعقاب عاصفة.

خلص أريك إلى القول وهو يهم بالانصراف: لكنكِ لم تسرقي شيئاً، إذاً ما من داعٍ لتجلبي إلى نفسك الهموم.

كانت تلك المرة الأولى التي أدهش فيها اعتقاد زميلها العملي كيرا، ولن تكون طبعاً المرة الأخيرة. فهزت كتفيها وتوجهت نحو المركبات لتتحقق من حسن حال المعدات.

في السابعة صباحاً، إستأنف الموكب مسيرته. وبعد

اجتياز ضاحية ولكيت، تخلت البيوت عن امكنتها لأكواخ ذات شقوق من القش مدببة. وتبدل المشهد كلياً بعد مضي ساعة، حين توغلت كيرا وفريقها في وادي «جيب».

وكان الاتصال الأول بالنهر، فعبروا جسر «دوك» الذي يطل على مجرى الماء المهيب، والذي جددت كيرا الروابط معه أخيراً. وبناء على طلبها، توقفت سيارتا الدفع الرباعي.

سأل أحد زملائها: متى يمكننا الوصول إلى المخيم؟

قال إريك متأملاً مجرى الماء في قعر الهاوية: كان في وسعنا النزول إليه.

أجابت كيرا: أجل، كان في وسعنا ذلك. في عشرين يوماً أو ربما أكثر إذا بدت أفراس النهر ذات مزاج نزق ورفضت السماح لنا بالمرور؛ وقد نضيع على الأرجح نصف ما نملك من معدات في التيارات المائية. كما كان باستطاعتنا أن نركب طائرة صغيرة حتى «جيما»، ولكن ذلك يكلفنا غالياً من أجل كسب يوم واحد.

عاد أريك إلى السيارة ذات الدفع الرباعي دون إبداء أي تعليق. كان النهر إلى يسارهم يخترق السهول، قبل أن يغوص في الغابة.

واصل الموكب مسيرته مثيراً وراءه سحاباً من الغبار كثيفاً. كان الطريق يزداد تعرجاً وتصبح الشعَب الضيقة الواجب اجتيازها أكثر تدويخاً في كل مرة. عَند الظهيرة، تخطى الموكب «أبلتي» وشرع الهبوط نحو آسنداكو. كانت الرحلة طويلة لا آخر لها، وحدها كيرا بدت صامدة. أخيراً، دخلت السيارات جيما، حيث ستمضي ليلتها الثانية. وفي الغد، سوف تلاقي كيرا من جديد وادي أومو.

* * *

هيدرا

ــ لحسن الحظ، أن خالتك اتصلت بي هاتفياً من حانوت السمان لتخبرني سلفاً أنك نزلت في المرفأ. هل كنت تود أن أتعرض لنوبة قلبية؟

هذه هي الكلمات الأولى التي واجهتني بها أمي عندما دخلت البيت. تلك كانت طريقتها في استقبالي. وطريقتها كذلك في توجيه اللوم إلي على شهور الغياب الطويلة.

ــ ما زالت خالتك نظرتها حادة، وأنا لست متأكدة من أنني كنت سأتعرف إليك لو رأيتك في المدينة! أظهر نفسك في الضوء لأراك. لقد هزلت وبدا وجهك شاحباً.

كنتُ لا أزال في انتظار ملاحظتين أو ثلاث منها علّها تقبل أخيراً أن تفتح ذراعيها لي.

ــ يبدو أن حقيبتك ليست ثقيلة، أتوقع أنك لن تمكث إلا بضعة أيام؟

ولكن حين أعربت لها عن رغبتي في قضاء عدة أسابيعٍ هنا، روّحتْ أمي عن نفسها أخيراً وضمتني بحنان. أقسمتُ لها بأن ملامحها لم تتبدل، فربتت على خدي ناعتة إياي بالكذاب، وقبلت مع ذلك الإطراء. وانهمكتْ حالاً

بشؤون المطبخ، مجرية جردة بكل ما تبقى لديها من طحين، سكر، حليب، بيض، لحم وخضار.

سألتها: هل لي أن أعرف ماذا تفعلين؟

ــ تصور أن لي إبناً هبط الجزيرة فجأة، بعد أكثر من سنتين من غير أن يقوم بزيارة لأمه ولو مرة واحدة. وبما أنه دبر أمره ليصل في آخر النهار، لا يكاد لدي ساعة واحدة لتهيئة الحفلة.

ــ أريد فعلاً أن أتعشى معك وحدنا، دعيني أصطحبك إلى المرفأ.

ــ وأود أنا لو صغرتُ ثلاثين سنة وتخلصت من داء الروماتزم إلى غير رجعة!

فقعتْ أمي أصابعها وحكت أسفل ظهرها.

ــ والآن، أرأيت، إن محاولتنا لم يكتب لها النجاح. من هنا استخلص أن تمنياتنا لم تستجب اليوم. سنعدّ إذاً وليمة جديرة بهذه العائلة وبسمعتها؟ هذا فيما لو ظننت أن وصولك إلى الجزيرة مرّ من غير أن ينتبه إليه أحد!

عبثاً تحاول أن تحاجّها حول هذا الموضوع أو أي موضوع آخر كذلك جميع الناس في القرية سيفكرون تماماً

أننا نمضي معاً السهرة وحدنا، لكن الاحتفاء بوصولي كان يهم أمي كثيراً، وكنتُ أرفض حرمانها من هذه المتعة.

حمل الجيران خمراً وجبناً وزيتوناً، وأعدّت النساء المائدة، ودوزن الرجال آلاتهم الموسيقية. فشربنا ورقصنا وغنينا حتى ساعة متأخرة من الليل، وطلبتُ من خالتي تسويغ تصرفها على انفراد لأشكر لها رصانتها. فأقسمت لي أنها لا تعرف عما أتكلم.

كانت أمي عندما استقيظت في الغد، قد نهضت منذ وقت طويل. وكان كل شيء مرتباً واستعاد البيت مظهره المألوف يومياً.

سألتني أمي وهي تقدم إلي القهوة: ماذا تنوي عمله هنا خلال أسابيع عدة؟

أرغمتُها على الجلوس معي.

ــ قد يكون بالفعل بداية حسنة، ألاّ تهتمي بخدمتي من الصباح إلى المساء. قد جئتُ للإهتمام بكِ، وليس العكس.

ــ للاهتمام بي؟ يا للعمل الرائع! مضت سنوات طويلة وأنا اعتدت الإهتمام بي وحدي؛ وبصرف النظر عن ايلينا التي تأتي لنشر الغسيل، والتي أساعدها بالمقابل في مخزنها، أنا لست في حاجة إلى مساعدة أحد.

لولا خالتي ايلينا، لشعرتْ أمي بأنها أشد وحدة ووحشة. وبينما كنت أتناول فطوري، سمعتُها تفرغ حقيبتي وترتب حوائجي.

قالت وهي بقرب نافذة غرفتي: أراكَ تهز كتفيك!

قضيت أول أيام عطلتي على إعادة الروابط مع مشاهد الجزيرة. كان حمار كاليبانوس يقودني على امتداد الدروب. كنت أتوقف عند خليج صغير، مغتنماً فرصة خلوه من الناس لأغوص في البحر وأخرج بسرعة فائقة، وفرائصي ترتعد من البرد. كنت أتغدى مع أمي وخالتي في المرفأ وأنصت إليهما وهما ترويان قصصاً عائلية، وذكريات تكررُ سردَها باستمرار كلُ منهما دون ملل أو كلل. أيتفق أن تحل لحظة من لحظات العمر تكون فيها السعادة قد انقضى أوانها، وألا ينتظر المرء شيئاً في حياته؟ أهذا هو الطعن في السن؟ عندما لا يتحدث الحاضر إلا عن الماضي، وعندما لا يعود الحاضر سوى ومضة حنين نخفيها في خفر بقهقهات مدوية؟

ـ لا شيء... هل ستتغديان كلتاكما لدى عودتي إلى لندن، على هذه المائدة وتتذكران وجبة اليوم هذه، على أنها ذكرى سعيدة؟

سألت ايلينا: بكل تأكيد! لماذا تطرح سؤالاً سخيفاً كهذا؟

ـ لأنني أتساءل أيضاً لماذا لا تغتنمان الآن هذا النهار الجميل بدلاً من أن تنتظرا رحيلي؟

قالت أمي وهي تبتسم: أما أنا فبلى، وأعتقد أنه ليس على خطأ تماماً. لنكف عن الكلام على مثل هذه الحكايات القديمة ولنتحدث عن المستقبل. هل لديك مشاريع، ايلينا؟

نظرت خالتي إلينا أنا وأمي كلاً بدوره.

ثم أعلنت بكل ما وسَعَها من الجد: سوف أعيد دهن جدار المخزن في نهاية الشهر، قبل بداية الفصل بالضبط. لقد نصل اللون الأزرق، ألا تريان ذلك؟

أردفت أمي وهي تغمزني بعينها: بلى، هذا ما كنت أقوله تماماً، وهو موضوع سيستأثر باهتمام أدريانوس.

تساءلت ايلينا هذه المرة ما إذا كنا نسخر منها، غير أني أقسمت لها بأن هذا ليس صحيحاً؟ وتناقشنا خلال ساعتين في اللون الأزرق الذي سينبغي اختياره لواجهة مخزنها. وذهبت أمي إلى حد إيقاظ بائع الألوان من قيلولته لتصادر سلّم ألوان؛ وفيما كنا نجرب طلي الجدار لاختيار اللون الأفضل المناسب له، أبصرتُ على محيا أمي ألواناً تُبتكر من جديد.

مر أسبوعان كنا أثناءها نعيش تحت رحمة هذه الشمس

التي شعرت بأمس الحاجة إليها، وبحسب الحرارة التي كانت تتسلق يوماً بعد يوم. ومضى شهر حزيران ببطء، وشاهدنا قدوم أوائل السياح.

أتذكر ذلك الصباح كما لو كان أمس. كان يوم جمعة، دخلت أمي الغرفة التي كنت أقرأ فيها، مستفيداً من البرودة التي تحتفظ بها الشبابيك الخارجية. إضطررت إلى وضع كتابي جانباً، إذ وقفت أمامي شابكة ذراعيها. وطفقت تحدق إلي دون أن تنبس بكلمة، وفي هيئة غريبة فوق ذلك.

ــ ماذا هناك؟

أجابت: لا شيء.

ــ هل نزلتِ بالضبط لكي تريني أقرأ؟

ــ جئت أحمل إليك الألبسة الداخلية.

ــ لكنك لا تحملين شيئاً في يديك!

ــ لقد نسيتها في الطريق.

ــ أمي؟

ــ أدريان، منذ متى تحمل عقوداً؟

حين تناديني أمي أدريان، يعني ذلك أن أمراً جاداً يشغل بالها.

وتابعت تقول: لا تتظاهر بمظهر الإنسان البريء.

ـ ليس لدي أدنى فكرة عما تتكلمين.

ألقت أمي نظرة سوداء على درج منضدة سريري.

ـ إني أحدثك عما وجدته في حقيبتك والتي رتبتها هنالك.

فتحت الدرج موضوع حديثنا، ووجدت بداخله القلادة التي نسيتها كيرا في لندن؛ لماذا حملتها معي؟ لم أكن بنفسي أعرف السبب.

ـ إنها هدية!

ـ هل يهدون إليك اليوم عقوداً؟ وليس أي نوع من العقود. إنه لشيء جدّ مبتكر كهدية.

من كان كريماً معك إلى هذه الدرجة؟

ـ صديقة لي. لماذا تهتمين فجأة بهذا العقد ولما يمضِ على مجيئي إلى هنا سوى أسبوعين؟

ـ حدثني أولاً عن هذه الصديقة، التي تهب لآلئ

لرجل، وعندها سأكف ربما عن الاهتمام بعقدك.

ــ في الحقيقة ليست هدية، وإنما نسيتْها عندي.

ــ لماذا تقول إذاً إنها هدية، إذا كانت نسياناً؟ هل ثمة أشياء أخرى نسيتَ أن تقولها لي؟

ــ ولكن، أماه، ماذا تقصدين من وراء ذلك؟

ــ أفي وسعك أن تشرح لي من هو الأهوس الذي نزل من سفينة آثينا المكوكية، ومضى يطوف مراكز التجارة في المرفأ سائلاً عنك؟

ــ أي أهوس؟

ــ إنك تنوي الإجابة عن كل من أسئلتي بسؤال آخر؟ إنه أخيراً لأمر مزعج.

ــ لا أدري عما تتكلمين.

ــ أنت لا تعرف لمن هذا العقد، ولا تعرف أن تصف لي تلك التي وهبته لك أولاً، لكنها أخيراً نسيته عندك، كما لا تعرف من هو شرلوك هولمز الذي يرتدي سروالاً قصيراً جداً في المرفأ، يشرب زجاجة الجعة الخامسة ويسأل المارة إذا هم يعرفونك؟ إنهم يخابرونني مرات في شأنه، وتصورْ أنني أنا بدوري لا أعرف ماذا أقول!

ــ شرلوك هولمز يرتدي سروالاً قصيراً جداً؟

ــ في سروال قصير وفلانلّة، مع قميص بلا كمين وعمرة ذات مربعات، لا ينقصه إلا الغليون!

ــ إنه والتر!

ــ أتعرفه إذاً؟

ــ لبستُ قميصاً وهرعت نحو الباب، آملاً ألا يكون حماري قرض الحبل الذي يربطه إلى الشجرة أمام البيت؛ كان قد اكتسب هذه العادة القذرة منذ مطلع الأسبوع، كي يتنزه على هواه في حقل الجار ويغازل أتاناً لم تكن مع ذلك تكترث لعروضه.

ــ والتر هو زميل في العمل، كنت أجهل كلياً أنه ينوي زيارتنا نحن.

ــ نحن؟ أرجوك، أدريان، لا تشركني في ذلك!

في الحقيقة، لم أفهم شيئاً عن سبب توتر أعصاب أمي، التي كانت عادة من أكثر النساء احتفاء بالضيف، ولا عن مغزى هذه الفكرة الصغيرة التي أبدتها لي، فيما كنت أغلق باب البيت: «زوجتك السابقة أيضاً كانت زميلة!».

ــ إنه فعلاً والتر الذي هبط الجزيرة قبل ساعة من

الزمن، وكان يجلس على شرفة المطعم المجاور لمخزن ايلينا.

عندما رآني صاح: أدريان!

ــ كما كنت أقول لصاحب النزل اللطيف، لولاك لما كانت الأكاديمية هي الأكاديمية. كنت مشتاقاً إليك، يا صديقي!

ــ تماماً، إنها الحقيقة المجردة.

إنفجرت ضاحكاً، ولكن كنت على خطأ، إذ اعتبر والتر ذلك دليلاً على فرح رؤيته هنا، ثم نهض، بمعونة خمس أو ست زجاجات جعة، ليضمني بين ذراعيه. ورأيت، من فوق كتفه، الخالة ايلينا تتصل هاتفياً بأمي.

ــ والتر، ما كنت أنتظرك...

ــ ولا أنا كذلك، لم أكن أنوي الإتيان إلى هنا. أمطرت السماء وأمطرت، ولم يتوقف هطول المطر منذ رحيلك؛ لقد ضقت ذرعاً برتابة الحياة، ثم كنت في حاجة إلى نصائحك، لكننا سنتحدث عن ذلك فيما بعد. عندئذ قلت لنفسي: لماذا لا تذهب لقضاء بضعة أيام في الشمسٍ؟ لماذا يذهب دائماً الآخرون ولست أنت؟ هذه المرة، أنصتُّ إلى نفسي، هجمت على إعلان ترويجي لخفض الأسعار ملصق على واجهة

إحدى وكالات السفر، وها أنذا هنا!

ــ لكم من الوقت؟

ختم كلامه لاهثاً وهو يقدم لي بطاقة حجزه: لأسبوع تقريباً، ولكن لا داعي للتأثير علي، اؤكد لك أني اتخذت الترتيبات الضرورية. كان الإعلان الترويجي يشمل غرفة في فندق صغير ظريف، في ناحية ما هنا، لا أعرف تماماً أين.

رافقت والتر عبر أزقة المدينة القديمة، لاعناً ذلك الغداء الذي ارتكبت أثناءه قلة الفطنة فبحت له باسم الحزيرة التي أردتها منفى اختيارياً لي.

ــ يا لجمال بلدك، أدريان، إنه بكل بساطة رائع. هذه الجدران البيضاء، هذه الشبابيك الزرقاء، هذا البحر، حتى الحمير هي مثار إعجاب!

ــ إنها ساعة القيلولة، والتر، لو كان بمقدورك أن تتكلم بصوت أخفض قليلاً، هذه الأزقة رنانة بشكل مريع.

وشوش: طبعاً وبكل تأكيد.

ــ وهل لي أن أقترح عليك تغيير لباسك؟

نظر والتر إلى نفسه من الأعلى إلى الأسفل، تتملكه

الدهشة.

ــ هل من شيء لا يلائمني؟

ــ لنضع حقيبتك ولنذهب لنهتم بالأمر.

كنت أجهل أني عندما كنت أساعد والتر في العثور على لباس أشد رصانة في سوق المرفأ، كانت ايلينا تتصل بأمي لتخبرها بأني أتسوق مع صديقي.

اليونانيون بطبيعتهم يحتفون بالضيف، وأنا لم أكن لأكذب سمعتهم هذه، فدعوت والتر إلى العشاء في المدينة. وتذكرت أن والتر كان قد التمس نصائحي، فسألته ونحن على شرفة المطعم، بما استطيع أن أخدمه.

سألني: هل لك خبرة بالكلاب؟

روى لي واقعة نزهته العابرة مع الآنسة جنكيز قبل بضعة أسابيع في هايد بارك.

ــ غيّر ذلك اللقاء أشياء كثيرة، والآن كلما تبادلنا التحية، أسألها عن أخبار أوسكر، وهو اسم كلبها البرني، وفي كل مرة تؤكد لي أنه على أحسن حال؛ ولكن في ما يعنينا فإننا نراوح في المكان ذاته.

ــ لماذا لا تدعوها إلى حفلة موسيقية أو إلى مشهد

من مشاهد الطرب؟ مسارح «كوفنت غاردن» تجعلك تحار في ما تختار.

ــ كيف لم تراود خاطري فكرة سديدة كهذه؟

أطال والتر النظر إلى البحر وتنهد.

ــ لا أعرف أبداً كيف أتدبر أمري.

حدق والتر مجدداً إلى البحر وعاود التنهد.

ــ وإن هي رفضت؟

وصلت الخالة إيلينا، وقفت بلا حراك أمامنا، منتظرة أن أباشر التقديم. دعاها والتر إلى مائدتنا. لم تتمنع ايلينا عن القبول لا بل جلست حتى قبل أن أنهض لأقدم لها كرسياً. كانت إيلينا تتمتع بروح الفكاهة غير مشكوك فيها حين لا تكون بصحبة أمي. استهلت الكلام ولم تتخلَّ عنه قط ساردة كل وقائع حياتها لوالتر. ومكثنا حتى أغلق المطعم أبوابه، فعاودت مرافقة صديقي إلى فندقه ورجعت على ظهر حماري حتى البيت. كانت أمي ساهرة في باحة الدار تلمع فضياتها في الساعة الواحدة صباحاً!

وفي الغد، رنّ الهاتف حوالي الرابعة عصراً. جاءت أمي تبحث عني في الشرفة، وأخبرتني مرتابة أن صديقي

يرغب في الحديث إلي.

إقترح علي والتر القيام بنزهة في آخر العصر؛ أما أنا فأردت الانتهاء من كتابي ودعوته إلى الانضمام إلينا في السهرة. ونزلت لتأمين بعض حاجياتي في القرية واتفقت مع كاليبانوس على أن يمر ويبحث عن والتر في فندقه حوالي التاسعة ويقوده إلى بيتنا. لزمتْ أمي الصمت مكتفية بإعداد المائدة ودعوة خالتي إلى هذا العشاء الذي بدا أنها تعارضه.

سألتها وأنا أساعدها في تهيئة المائدة: ماذا بك؟

وضعت أمي الصحون وشبكت ذراعيها، وهو ما لم يكن يبشر خيراً.

ــ بعد عامين من الغياب، لم تكد تطلعني على أخبارك، والشخص الوحيد الذي تقدمه إلى أمك هو صاحبك شرلوك هولمز. متى تفكر أخيراً أن تعيش حياة طبيعية؟

ــ كل شيء يتعلق بما تعنينه بكلمة طبيعية.

ــ أود لو يكون لي هم واحد لا غير وهو ألا يتعرض أحفادي لأذى على الصخور.

لم تكن أمي أبدت يوماً مثل هذه الرغبة. قدمتُ لها

كرسياً لتجلس عليه وأعددت لها كأس أوزو، كما تحبها، بلا ماء وبقطعة ثلج واحدة. نظرت إليها برقة، مفكراً مرتين في ما سأقوله لها.

ــ أتريدين أحفاداً الآن؟ لقد أصررت دائماً على النقيض، وكنت تقولين إن تربيتك لي تكفيك وتزيد، وكنت تبرئين نفسك أن تكوني إحدى هؤلاء النسوة اللواتي يردن مهما غلا الثمن، عندما يغادر أولادها العش، أن يلعبن مجدداً الدور نفسه في ثياب جديدة.

ــ حسناً، لقد أصبحت إحدى هؤلاء النسوة، وليس هنالك غير المعتوهين الذين لا يبدلون رأيهم أبداً، أليس كذلك؟ الحياة تمضي سريعاً، أدريانوس، وأنت توافرَ لك الوقت كله لتلهو مع أصدقائك. واللحظة ليست للحلم في الغد. الغد، في مثل سنك، هو اليوم؛ أما بالنسبة إلي، كما استطعت التأكد منه، فاليوم أصبح أمس.

إعترضتُ قائلاً: ولكن يتسع أمامي الوقت بكامله.

ــ لا تباع الخسة عندما تكون أوراقها ذابلة!

ــ لا أعلم ما الذي يقلقك، ولماذا تقلقين، إلا أني لا أرتاب أن ألتقي يوماً المرأة المثالية جداً. لا يتعين لا على المرأة ولا على الرجل أن يكونا مثاليين، ولكن ما يرغبان

في تقاسمه بالشراكة. إن قصة حب كبيرة هي التقاء شخصين مانحين من ذاتهما. هل وجدت هذا في حياتك؟

إعترفتُ أن ذلك لم يكن شأني أنا. أمرّت أمي يدها على خدي وابتسمت لي.

ـ هل فتشت عن ذلك وحسب؟

نهضت من دون أن تلامس كأسها ورجعت إلى المطبخ، وقد تركتني وحدي في الشرفة.

وادي أومو

أسفرت الصباحات الباهتة في وادي أومو عن مشاهد لمستنقعات ومروج عشبية تفصل بينها هضاب مرتفعة. كان كل أثر للعاصفة قد زال. وعاود القرويون بناء ما ألحقت بهم الرياح من أضرار. وعاودت القرود تتأرجح من غصن إلى آخر وهي تكاد لا تلوي الأشجار لدى مرورها.

تخطّى علماء الآثار قرية تابعة لقبيلة كواغو، وبلغوا أخيراً قرية بني مرسي، الواقعة إلى الأسفل قليلاً.

كان المحاربون والأطفال يلهون على ضفة النهر.

سألتْ كيرا رفاقها: هل شاهدتم شيئاً أجمل من سكان أومو؟

كانوا قد رسموا على بشرتهم البرونزية ذات الانعكاسات الضوئية الحمراء، وتصاوير بارعة. فالمرسيون يبرعون بالغريزة في إنجاز ما يقضي بعض كبار الرسامين أعمارهم في البحث عنه. إنهم يتناولون المغرة الحمراء أو أي صباغ آخر تجود به أرضهم البركانية، يتناولونه بأطراف أصابعهم أو برأس قصبة محددة، ليتبرجوا بالألوان، الأخضر، الأصفر، الرمادي. فتاة

صغيرة كأنها خرجت من إحدى لوحات غوغان كانت تضحك مع محارب شاب، وكأن اللوحة أعاد «روتكو» شرحها بأسلوب جديد.

حيال كل هذه الروعة، ظل زملاء كيرا صامتين ومشدوهين.

لو كان للبشرية مهد، لخيّل إلى المرء أن سكان أومو ما زالوا يعيشون فيه.

هرعت جموع القرويين للقائهم. وما كانت كيرا وسط أولئك الذين يرقصون إعراباً عن بهجتهم، تفتش إلا عن وجه واحد ورأس واحد. إنها لكانت تعرفت إليه بين مئات الوجوه، حتى تحت قناع من مغرة أو صلصال، كانت تعرفت إلى ملامحه، لكن هاري لم يحضر لاستقبالها.

* * *

هيدرا

في الساعة التاسعة تماماً، سمعتُ نهيق حمار على الدرب. فتحت أمي باب البيت واستقبلت والتر، بدا أن بدلته قد تأذت.

تنهد كاليبانوس وقال: وهو ينصرف ممتعضاً لأنه عجز عن إتمام مهمته بنجاح: لقد سقط ثلاث مرات! مع أني خصصت له أحد أكثر حيواناتي ليناً وانقياداً.

إعترض والتر: يمكن المرء أن يقول ما يشاء، ولكن شتان بين هنا وخيول صاحبة الجلالة. ما من لباس ولا نظام.

همست إيلينا: ماذا يقول؟

أجابت أمه وهي توجّهنا نحو الشرفة: إنه لا يحب حميرنا!

قدّم والتر تهانيه في شأن الزخرفة، وأقسم أنه لم يرَ قط شيئاً في مثل هذا الجمال. وتولاه العجب إزاء الأرضية الحصائية. ولم تتوقف ايلينا، ونحن حول المائدة، عن سؤاله عن مهمته في الأكاديمية، وعن الطريقة التي تعارفنا بها. كنت أجهل حتى ذلك اليوم مواهب زميلي

الدبلوماسية. لقد أثنى، طوال فترة العشاء، على الأطعمة التي قدمت إليه. وسأل أمي، أثناء تناول الحلوى، عن الكيفية التي التقت بها أبي. أمي لا ينضب لها معين في الكلام على هذا الموضوع. برودة المساء حملت ايلينا على ارتعاش بدنها. فغادرنا الشرفة لنجلس في غرفة الاستقبال، ونرشف القهوة التي أعدتها أمي. عندها فوجئتُ بأن أكتشف على طاولة الجدار بجوار النافذة، عقد كيرا الذي انتقل بصورة غامضة من درج منضدة سريري إلى هذا المكان. إقتفى والتر نظراتي وهتف مبتهجاً:

ولكني أعرف هذه القلادة!

أجابت أمي وهي تقدم إليه علبة شوكولا: لا أشك في ذلك لحظة واحدة!

لم يدرك والتر لماذا كانت أمي تفرح وهي تقول هذا الكلام، وعلي أن أعترف بأني أنا أيضاً فاتني إدراكه.

كانت إيلينا متعبة، وقد تأخر الوقت كثيراً لكي تنزل حتى القرية، فراحت، على عادتها غالباً تستقر في غرفة الضيوف لقضاء الليل. وانصرفت أمي في الوقت عينه ملقية التحية على والتر، وداعية إياي، عندما نفرغ من الشراب، إلى مرافقته من جديد. كانت تخشى أن يضل طريق العودة، لكن والتر أقسم أنه لا حاجة في الحقيقة إلى

ذلك، بيد أن الظروف المناخية بتّت بشكل مغاير.

طالما دهشتُ من اقتران الأمور الصغيرة التي تقرر مصير حياتك. إذ لا أحد يرى قطع اللغز التي تتجمع حتماً وتؤدي إلى حدوث انقلاب.

كنا أنا ووالتر نتناقش منذ ساعة ويزيد عندما اجتاحت زوبعة من البحر. لم أكن عرفت مثل هذه الزوابع منذ زمن بعيد جداً. ساعدني والتر في إغلاق الأبواب والنوافذ، وتابعنا بهدوء سياق حديثنا فيما كان الرعد يثور ثائره في الخارج.

لم يكن وارداً أن أدع صديقي يعود إلى فندقه في مثل هذا الطقس. كانت إيلينا تشغل الغرفة المخصصة للضيوف، فعرضتُ عليه أريكة غرفة الاستقبال مع غطاء لليل.

سلمتُ على والتر، بعدما آويته في بيتنا، ثم انسحبت وقد تولاني التعب كفاية، لكي يختلسني النوم في الحال. غير أن العاصفة كانت قد ازدادت شدة، وعبثاً حاولت إغماض عيني، إذ كانت الصاعقة بالغة العنف لدرجة أني استطعت أن أرى البروق تضيء الغرفة، حتى وجفوني مطبقة.

ظهر والتر بسرواله في غرفتي، في حال من الهياج لم

أكن أعرفها له. هزني، ورجاني بالنهوض وبمتابعته. فكرت بداية أنه رأى ثعباناً، ولكن لم يحدث قط في بيتنا شيء من هذا القبيل. واضطررت أن أمسك به بدوري من كتفيه علّه يوافق على الكلام معي.

ــ تعال، أرجوك، إنك لن تصدق عينيك.

لم يكن لي خيار سوى تتبع أثره. كانت غرفة الاستقبال غارقة في الظلام. قادني والتر حتى النافذة. فأدركت سريعاً سبب دهشته. كلما كان البرق يحزّ السماء، كان البحر يستنير كأنه مرآة عملاقة.

ــ لقد أحسنتَ فعلاً بإيقاظي من فراشي. علي أن أعترف أن المشهد في غاية الجمال.

سألني والتر: أي مشهد؟

ــ ماذا إذاً، هذا المشهد الذي أمامنا بالضبط، أليس لمشاهدة هذا أيقظتني؟

ــ ألأنك كنت تنام بضجة مماثلة؟ يقال إن لندن كثيرة الضجيج، لكن هيدرا وهي تغتسل تحت المطر، ليس لها ما تحسدها عليه. لا، ليس لهذا أخرجتك من فراشك.

كانت الصاعقة تلعلع في السماء، ولم أجد من الحكمة

البقاء قريباً إلى هذا الحد من النوافذ، بيد أن والتر كان يلح على بقائي هنالك بلا حراك. أخذ القلادة التي تركتْها أمي فوق طاولة الجدار وقدمها أمام النافذة، ممسكاً بها بأطراف أصابعه.

قال لي وهو دائم الهيجان: أمعن النظر الآن في ما سيحدث.

شرع الرعد يقصف، ولما فلق السماء برقٌ جديد، إخترق ضوء الصاعقة الساطع القلادة وانطبعت على جدار غرفة الاستقبال ملايين النقاط المضيئة الصغيرة، بشكل كثيف للغاية، بحيث اقتضى انتظار ثوان قبل أن تمحى الصورة من شبكات أعيننا.

ــ أليس هذا مدهشاً بكل بساطة؟ ثم أردف والتر: إمتنع علي النوم فاقتربت من النافذة. لماذا شعرت بالرغبة في العبث بهذا العقد، لا أدري، ولكن عبثت به. وفيما كنت أتفحصه عن قرب، حدثت الظاهرة التي كنتَ لتوك شاهداً عليها.

وعبثاً حاولتُ بدوري أن أفحص القلادة في ضوء مصباح أوقدته من فوري. لم يكن أي ثقب يرى بالعين المجردة.

ــ ما الأمر في رأيك؟

أجبت والتر: لا فكرة لدي على الإطلاق.

أما بالنسبة إلي، فقد كنت أجهل أن أمي في هذه اللحظة المحددة نزلت من غرفتها لتدرك سبب مثل هذه الضجة في غرفة الاستقبال، ومضت تصعد مجدداً وبخطى متسارعة بعدما رأتنا أنا ووالتر، في سروالينا، أمام النافذة المشرفة على البحر، نتبادل بالتناوب عقد كيرا، في ضوء البروق.

وفي الغد، سألتْ أمي والتر، أثناء العشاء، عن رأيه في البدَعِ؛ وقبل أن يتمكن أحدنا من الإجابة، قامت عن المائدة وراحت تعنى بمطبخها.

كنت جالساً في الشرفة المطلة على خليج هيدرا أتبادل مع والتر بعض ذكريات الطفولة المتصلة بهذا البيت. كانت السماء، في تلك الليلة، شفيفة والقبة الزرقاء صافية.

أعلن والتر وهو ينظر إلى الأعلى: لا أريد أن أتفوه بكلام فارغ، لكن ما أراه هنالك شديد الشبه بـــ...

قلت مقاطعاً إياه: بـــ «كسيوبه» وإلى جانبها تماماً مجرة أندروميد. ودرب التبانة حيث يوجد كوكبنا هي منجذبة حتماً بأندروميد. ومن المحتمل، وأسفاه، أن تتصادفا في خلال بضعة ملايين السنين.

ــ وبانتظار نهاية عالمك، كنتُ سأقول لك...

ــ وإلى اليمين قليلاً، هناك «فرساوس»، ثم بكل تأكيد نجمة الشمال، وآمل أنك ترى السديم الرائع...

ــ وأخيراً، هل ستكف عن مقاطعتي؟! لو نجحتُ في إيراد كلمتين من غير أن تلقي علي معلوماتك في أصول النجوم، لأمكنني أن ألفت انتباهك إلى أن كل هذه الأمور تجعلني أفكر كثيراً في ما رأيناه على الجدار أمسِ أثناء العاصفة.

نظر كل منا إلى الآخر، وكلانا في غاية الدهشة. ما خلص والتر إلى قوله كان وليد الخيال واللامعقول، ومع ذلك فإن ملاحظته كانت بالغة الإثارة. لو عدنا إلى التفكير في الموضوع بإمعان، لتبين أن تلك النقاط التي قذفها ضوء الصاعقة بكمية ظاهرية عبر القلادة، كانت شبيهة، إلى درجة الوقوع في الخطأ، بالنجوم الملتمعة فوق رأسينا.

ولكن كيف السبيل إلى تكرار هذه الظاهرة ثانية؟ عبثاً حاولت تقريب القلادة من المصباح، لم يحدث شيء البتة.

لقد أكد والتر الذي أصبح أكثر جنوحاً إلى العلم مني: إن قوة مصباح بسيط غير كافية.

ـ أين تود أن تجد مصدراً للنور قوياً كمثل قوة البرق؟

هتف والتر: ربما منارة المرفأ!

ـ إن حزمتها الضوئية عريضة جداً! لن نتمكن من تسليطها على جدار.

لم تراودني الرغبة في النوم، فرافقت والتر إلى فندقه، وشعرت أن نزهة على ظهر حمار ستعود علي بالنفع العميم، ثم كنت أريد مواصلة هذه المحادثة.

قلت لوالتر، الذي كانت دابته تسرع ورائي بخطى قصيرة: لنتبع طريقة منظمة. ما هي مصادر النور القوية جداً التي بإمكانها أن تفيدنا، وأين يمكننا العثور عليها؟

سألني في وقت أدنى فيه حماره من مستوى حماري: من منا سانشوبانسا ومن دون كيشوت؟

ـ هل تجد ذلك غريباً؟

ـ تلك الحزمة الخضراء التي ارتفعت في سماء غرينيتش، هل تذكر، أنت كنت الذي بينتها لي، كانت على الأرجح قوية، أليس كذلك؟

ـ الليزر! هذا ما نحتاج إليه بالضبط!

ــ إسأل إذاً أمك إن كان لديها ليزر في قبوها. ليس المرء في مأمن من ضربة الحظ أبداً.

لم ألحظ تهكم رفيقي، وإنما نكزت حماري بنكزة كعب خفيفة فسارع الخطو.

صاح والتر بينما كنت أبتعد عنه: وهو فوق ذلك سريع التأثر!

إنتظرته في المنعطف التالي.

قال والتر لاهثاً وقد أدركني: ثمة ليزر في دائرة علم الطيف بالأكاديمية، لكنه من الطراز القديم جداً.

ــ إنه على الأرجح ليزر ذو ياقوت أحمر، حزمته الحمراء لا تلائمنا، وإني لشديد الخشية منه. نحن في حاجة إلى آلة أكثر اقتداراً.

ــ ثم إنه، في كل حال، موجود في لندن، وأنا لن أرفض، حتى من أجل اكتشاف سر قلادتك، إقامتي في هذه الجزيرة مقابل كل ثروات الدنيا. لنفكر أيضاً، من يستخدم الليزر في أيامنا الراهنة؟

ــ الباحثون في الفيزياء الجزيئية، الأطباء وأطباء العيون بنوع خاص.

ـــ أليس لديك صديق طبيب عيون في نواحي أثينا؟

ـــ لا، على حد علمي.

حك والتر جبينه واقترح علي إجراء بعض الاتصالات من فندقه. كان يعرف المسؤول عن وحدة الفيزياء في الأكاديمية، لعل باستطاعته أن يرشدنا. وافترقنا على أثر اتخاذنا هذه القرارات.

في صباح الغد، إتصل بي والتر يسألني أن ألتحق به على جناح السرعة في المرفأ. وجدته في شرفة مقهى في غمرة حديث مع ايلينا، لم يعرني أدنى انتباه حين جلست إلى طاولتهما.

وفيما كانت خالتي تتابع سرد طرفة عن طفولتي، ناولني والتر بلا مبالاة قطعة ورقية. بسطتُ الورقة وقرأت:

معهد البنية الالكترونية والليزر

مؤسسة للبحث والتكنولوجيا (هلاّس).

711 10 GR هيراكليون، اليونان.

الإتصال بالدكتورة مكدالينا كاري.

ـــ كيف تصرفت؟

قال والتر مزهواً: هذا بالفعل أقل ما يقدم عليه شارلوك هولمز، أليس كذلك؟ لا تتظاهر بهذا المظهر الكاذب البريء، خالتك رجّحت كل شيء. لقد أذنتُ لنفسي بالاتصال بالسيدة مكدالينا هذه، التي أوصاها بنا كلينا أحد زملائي في الأكاديمية. إنها تنتظرنا هذا المساء أو غداً. وأكدت بأنها ستبذل قصارى جهدها لمساعدتنا. لغتها الإنكليزية ممتازة، وهذا لا يضيّع علينا شيئاً.

تقع هيراكليون على بعد مائتين وعشرين كيلومتراً في خط مستقيم. والوسيلة الأبسط لبلوغها ما زالت التوجه إلى أثينا، ومنها ركوب طائرة صغيرة توصلنا إلى كريت، إلا إذا سافرنا بحراً طوال عشر ساعات. ولئن انطلقنا الآن فبوسعنا الوصول آخر العصر.

سلم والتر على إيلينا. أما أنا فقد اتسع لدي الوقت للصعود إلى البيت وإبلاغ أمي بأنني سأتغيب أربعاً وعشرين ساعة، وإعداد حقيبة، قبل الإبحار على متن سفينة نقالة.

لم تطرح علي أمي أي سؤال، بل اكتفت أن تمنت لي سفراً سعيداً، بلهجة متكلفة إلى حد ما. عندها ذكرتني أنني ما زلت على عتبة الباب، ومدت لي سلة تحتوي على ما يمكن أكله أثناء الرحلة البحرية.

ـ كانت خالتك أنبأتني برحيلك، ينبغي أن تصلح أمك أيضاً لشيء ما. هيا انطلق، ما دمتَ مصمماً على الرحيل!

كان والتر ينتظرني على الرصيف. غادرت السفينة مرفأ هيدرا متجهة إلى أثينا. فقررت، بعد ربع ساعة من الإبحار، الخروج من المقصورة للتفسح. نظر إلي والتر مسروراً.

ـ لا تقل لي أنك مصاب بدوار البحر.

أجبته، تاركاً متكئي: إذاً، لا أقوله لك!

ـ لن تجد مانعاً في أن أنهي شريحات أمك، إنها لذيذة، وسيكون الاستغناء عنها بمثابة انتهاك للحرمات!

في «بيره»، حملنا تاكسي إلى المطار. كان والتر، هذه المرة، يعاني ضيقاً، بينما كان سائقنا يقود في خط متعرج على الأتوستراد.

ولحسن طالعنا، كان لا يزال ثمة مكان على متن طائرة صغيرة تؤمّن الاتصال بكريت في الساعة السادسة، كنا نهبط في موقف هيراكليون للطائرات. تولى العجب والتر وهو يترجل في الجزيرة.

ـ ولكن كيف يمكن المرء أن يكون يونانياً ويعيش

منفياً في إنكلترا؟ أوتحب المطر إذاً إلى هذه الدرجة؟

ــ أذكرك بأني كنتُ، بالأحرى، خلال هذه الأعوام الأخيرة، في المناطق التشيلية، أنا رجل كل البلدان، ولكل أمة محاسنها.

ــ أجل، أخيراً هناك مع ذلك فرق خمس وثلاثين درجة بين هنا وهنالك!

ــ ربما، ليس كل هذا الفرق، ولكن لا ريب أن المناخ...

قال والتر، مقاطعاً كلامي: كنتُ أتحدث عن نسبة الكحول بين جعتنا الإنكليزية وهذا الأوزو الذي أذاقتنيه خالتك قبل قليل.

ثم نادى على تاكسي وأشار علي بالصعود أولاً وناول السائق العنوان. ما كنتُ لأتصور ثانية واحدة إلى أين ستقودني هذه الرحلة.

إستقبلتنا الدكتورة مكدالينا كاري وراء حاجز المعهد المشبك حيث طلب منا أحد الحراس أن نتحلى بالصبر.

قالت مكدالينا مشيرةً إلى الحارس أن يسمح لنا بالدخول: أعذراني، هذه التدابير الأمنية هي بالفعل غير

ودية، ونحن ملزمون باتخاذ جميع الإجراءات الضرورية، لأن المعدات التي نمتلكها هنا مصنفة حساسة.

تولت مكدالينا إرشادنا عبر الرحبة التي تحيط بالمبنى المهيب المشيد بالباطون. ما أن دخلنا البناء، حتى اضطررنا للانصياع لقيود أمنية جديدة. واستبدلت هويتانا بلوحتين صغيرتين، حيث وردت عبارة «زائر» بأحرف كبيرة. وقّعت مكدالينا على مسند الدرج ووجهتنا نحو مكتبها. بدأت الكلام أولاً، وأنا أجهل أي غريزة دفعتني إلى الامتناع عن إخبارها بكل شيء، والتقليل من شأن الهدف من انتقالنا والدافع إلى التجربة التي كنا نتمنى القيام بها. إستمعت مكدالينا ببالغ الانتباه للعرض الذي قدمتُه إليها، إلا أنه كان يفتقر إلى الترابط. ولعل ذلك جراء الشبه بين مضيفتنا والآنسة جنكيز، ذلك الشبه الذي باغتني أيضاً.

قالت : لدينا ليزرات عدة، ولكن يتعذر علي، للأسف، وضع واحد منها تحت تصرفكما دون إذن مسبق، وهذا يستغرق وقتاً.

توسل والتر، وقد تخلص من حلم يقظته: لقد قمنا برحلة طويلة ويتوجب علينا أن نعود.

إعتذرت مكدالينا، طالبة منا أن ننتظر لحظات: سأرى ما يمكنني عمله، لكني لا أقدر أن أعدكما بشيء.

تركتنا وحدنا في مكتبها، راجية إيانا ألا نخرج منه أياً كانت الذريعة. فقد منعنا من التنقل في حرم المؤسسة من دون مرافق يقود خطانا.

طال الانتظار فعلاً خمس عشرة دقيقة. وعادت مكدالينا برفقة البروفسور ديمتري ميكالس، الذي تقدم منا بصفته مدير مركز الأبحاث. جلس على متكأ مكدالينا ورجانا بتأدب أن نشرح له ما ننتظره منه. تكلم والتر هذه المرة. لم أره أقل ثرثرة على هذا النحو. هل كانت تحفزه الغريزة نفسها التي أثرت في قبل قليل؟ واكتفى بأن تشفّع بوصاية العديد من الزملاء في الأكاديمية، وكان لكل منهم لقب جامعي مؤثر، غير أني ما كنت سمعت الكلام على أغلبهم.

ـ إننا نقيم علاقات ممتازة مع أكاديمية العلوم البريطانية، وسأكون في غاية الانزعاج بألا أتمكن من الإجابة بالموافقة على طلب عضويين مرموقين من أعضائها، على الأخص حين يتمتعان بدعم مماثل. علي القيام ببعض أعمال الرقابة الروتينية، وما أن يتم التأكد من هويتكما، حتى أسمح لكما بالولوج إلى أحد ليزراتنا، كي تتمكنا من إجراء تجاربكما. ولدينا بالضبط ليزر خضع للصيانة. باستطاعتكما أن تتصرفا به كما تشآن طوال الليل. وستبقى مكدالينا معكما حتى تؤمن لكما حسن سير

العمل.

شكرنا للأستاذ بحرارة كرم استقباله، كما لمكدالينا قبولها تكريس أمسيتها لنا، ثم فارقانا لإجراء تحقيقاتهما.

همس والتر في أذني: لنشبك أصابعنا كي لا يقدْما على التحقيق في جميع الأسماء التي أعطيتها لهما، فنصْف القائمة كذب.

بعد قليل، عادت مكدالينا تبحث عنا وقامت بمواكبتنا حتى القاعة التي فيها الليزر المشتهى منا.

ما كنت أتصور يوماً أن نستطيع استعمال آلة رائعة مثل هذه الآلة التي اكتشفناها لدى دخولنا الطابق تحت الأرضي. واستطعت أن أرى في النظرة شبه الأمومية التي ألقتها مكدالينا على هذا الليزر، كم كانت فخورة باستعماله. جلست وراء منضدة القيادة وأدارت العديد من القواطع.

قالت: حسناً، لو وضعنا المجاملات جانباً، وقلتما لي أخيراً ماذا تتوقعان في الحقيقة من حلي التكنولوجيا الصغير هذا. منذ قليل، لم أصدق في مكتبي لحظة واحدة شروحكما غير المترابطة وغير المفهومة كذلك، وقد يكون البروفسور ميكالس فعلاً مشغول البال في هذه اللحظة لأنه لم يصرفكما بكل بساطة.

تابعتُ كلامي على الفور: لا أعرف ما نبحث عنه بالضبط، إلا أن نكرر حدوث ظاهرة كنا شاهدين عليها. ثم سألت مكدالينا: ما قوة هذا الحلي الصغير؟

أجابت بصوت يفيض عزة نفس: 2,2 ميغاواط.

همس والتر مغتبطاً لسرعة حسابها: يا له من مصباح لعين! إنه أقوى سبعاً وثلاثين ألف مرة من المصابيح في غرفة استقبال أمك!

جالت مكدالينا في الغرفة بخطى واسعة، ثم ضغطت، عند مرورها أمام طاولة الجدار، على قاطع جديد فبدأت الآلة تئز. وأخذت الطاقة التي تمدها بها الكترونات التيار الكهربائي تحفّز ذرات الغاز المتوافر في الأنبوب الزجاجي. ولن تتلكأ الفوتونات (وحدات الكم الضوئي) عن التناغم بين المرآتين المثبتتين في كل من طرفي الأنبوب، بحيث تسمح للآلية أن تكبر وتتضخم؛ وفي لحظات قليلة ستصبح الحزمة قوية جداً لدرجة أنها ستخترق جدار المرآة الداخلي شبه الشفاف.

قالت: إنه جاهز للعمل تقريباً، ضعا الأداة التي تريدان فحصها أمام مخرج الحزمة، واسمحا لي بأن أنتهي من ضبط عملياتي، وسوف نستخلص النتائج لاحقاً.

أخرجتُ القلادة من جيبي، وضعتها في الموضع المناسب فوق قاعدة وانتظرت.

كانت مكدالينا ألجمت قوة الآلة، وحررت الشعاع الذي زلج على القلادة، كما لو كان سطح هذه الأخيرة عازلاً كلياً. وانتهزتُ فرصة انشغالها بالتحقق من البارامترات (المقادير المتغيرة القيمة) التي كانت تتوالى على شاشة المراقبة، لأدير المخرّشة (الدولاب الصغير) وأضخم كثافة الليزر. التفتت مكدالينا نحوي وانتقدتني بنظرها بقسوة.

قالت لي وهي تدفع يدي: من أذن لك بأن تفعل هذا؟

فأمسكتُ بيدها وتوسلت إليها أن تدعني أعمل. وبينما كنت أضخم قوة الحزمة، رأيت الذهول مرتسماً في نظر مكدالينا. لقد انطبعت على الجدار سلسلة النقاط المؤثرة ذاتها، الشبيهة بتلك التي شاهدناها في الليلة العاصفة.

تمتمت مكدالينا دهشة: ما هذا الذي نراه؟

أطفأ والتر الضوء وشرعت النقاط تتلألأ على الجدار.

قال بصوت ينم عن فرحه: قد يقال إن هذا أشبه بالنجوم.

لم تكن مكدالينا لتصدق مثلنا عينيها. دس والتر يده في

جيبه وأخرج منه آلة تصوير رقمية صغيرة.

قال وهو يضغط على الزر: حسنات السياحة! والتقط عشرات الصور. قطعت مكدالينا الحزمة والتفتت إلي.

ما هي وظيفة هذه الأداة؟

ولكن قبل أن أحاول تزويدها بشرح، أشعل والتر الضوء مجدداً.

ــ إنك تعرفين بقدر ما نعرف. وقد لاحظنا هذه الظاهرة تماماً وأردنا أن نكرر حدوثها، هذا كل ما في الأمر.

كان والتر وضع بحذر آلة تصويره في جيبه. دخل البروفسور ديمتري ميكالس إلى الغرفة وأطبق الباب وراءه.

قال مبتسماً: إنه لمدهش حقاً!

دنا من القاعدة حيث كانت القلادة موضوعة عليها وتناولها.

قال لي، وهو يشير إلى أقسام مزججة في أعلى الغرفة: هنالك رواق للمراقبة. ولم استطع مقاومة رغبتي في النظر إلى ما كنتم تفعلون.

قلّب البروفسور القلادة في قعر يده وأدناها من عينه ساعياً إلى رؤيتها من جانب إلى آخر. ثم حانت منه التفاتة إلي.

ـ لعلك لا تجد مانعاً في أن أدرس هذه الأداة الغريبة هذه الليلة؟ وبالطبع سأعيدها إليك في الساعة الأولى من صباح غد.

هل كان وصول حارس الأمن غير المتوقع أو اللهجة التي اتخذها البروفسور ميكالس هي التي أثارت ردة فعل والتر على هذا النحو؟ ليس في مقدوري أن أعرف ذلك أبداً. لكن هذا الأخير خطا خطوة باتجاه البروفسور وصفعه بيده اليمنى صفعة مذهلة. إنسطح ديمتري ميكالس على طوله ولم يكن لي من خيار آخر إلا الإهتمام بالحارس الذي أخرج هراوته وهمّ بتسديد ضربة إلى والتر. أما مكدالينا فأطلقت زعقة، في حين انحنى والتر على ميكالس الذي كان يتلوى وجعاً وانتزع منه الأداة؛ أما أنا فلم تكن لكمتي من الأسفل إلى الأعلى كافية لصرع الحارس، وكنا ندرج على الأرض كصبيين يتعاركان محاولين التغلب على الخصم. وضع والتر حداً للعراك حين أمسك الحارس من أذنه ورفعه بقوة لا تصدق. أرخى هذا الأخير قبضته وهو يصرخ بينما كان والتر ينظر إليه غاضباً.

ـ هيا قم بعمل مفيد وقيّد يديه بالأغلال المتدلية من حزامه، فإني لن أقتلع مع ذلك أذنه!

نفَّذت أمره وقيدت الحارس كما طلب مني والتر.

أنَّ البروفسور: إنكما لا تعلمان ماذا تفعلان.

أجاب والتر: لا، لقد قلت لك ذلك منذ قليل، ليس لدينا أدنى فكرة عن ذلك. وسأل مكدالينا: كيف يمكن الخروج من هنا؟ لا تجبروني على استخدام القوة معكم، فأنا استفظع رفع يدي على امرأة.

حدقت إليه مكدالينا رافضة الإجابة. إعتقدتُ فعلاً أن والتر سيهم بصفعها فتوسطتُ بينهما. هزّ والتر رأسه وأمرني بأن أتبعه. تناول سماعة الهاتف الذي يعلو المنضدة وانتزعه من فوق طاولة الجدار. ثم فتح باب الطابق تحت الأرضي، ألقى نظرة وجرني إلى الهرب معه. كان الممشى مقفراً، أغلق والتر الباب وراءنا بالمفتاح، معتبراً أن أمامنا ما يقارب الخمس دقائق قبل إعطاء الإنذار بالخطر.

سألتُ: لكن ماذا دهاك؟

أجاب وهو يعدو: سنناقش الأمر في ما بعد.

كان السلّم أمامنا يصعّد باتجاه الطابق الأرضي. توقف والتر عند سطح الدرج، استعاد أنفاسه ودفع الباب الذي انفتح على القاعة الكبرى. مثل أمام الحارس الذي أعاد إلينا جوازي سفرنا مقابل اللوحتين الصغيرتين. كنا نسير نحو المخرج، وإذا بتوكي ووكي تصدر قرقعة؛ عندئذ رمقني والتر.

ــ ألم تحجز جهاز الحارس اللاسلكي؟

ــ كنت أجهل أن لديه جهازاً لاسلكياً.

ــ هيا أركض!

إنقضضنا بأقصى السرعة في الرحبة المشجرة، وهدفنا بلوغ الحواجز المشبكة، راجين ألا يسد علينا أحدهم الطريق. لم يتسع الوقت أمام الحارس لاتخاذ موقف ما. فهو بينما كان يخرج من محرسه ويحاول استجوابنا، سدّد إليه والتر ضربة بكتفه جديرة بلاعب «ركبي» ما جعله ينهار بين الورود، بالمعنى الدقيق للكلمة. ضغط رفيقي على الزر المتحكم بالبوابة وأطلقنا سيقاننا للريح كأننا أرانب.

ــ تباً لك، والتر، ماذا أصابك؟

بينما كنا نهبط سلماً يقرّبنا من أحياء المدينة السفلية،

زعق بملء حنجرته: ليس الآن أوانه!

كان الشارع يتوالى بسرعة هائلة ومشية والتر لا تخور. إنغرزنا في زقاق آخر منحدر بشكل حاد، وبعد منعطف قاس هبطنا إلى جادة، متداركين بالكاد دراجة نارية كانت تمر مندفعة.

لم أكن قط زرت كريت على هذه الوتيرة.

صاح بي والتر: من هنا، فيما كانت سيارة للشرطة تتجه صوبنا، وصفارات إنذارها تهدر كلها.

إستعدتُ بعضاً من أنفاسي، وأنا في مأمن عند بوابة للعربات وجرني والتر مجدداً في سباق جنوني

أجبتُه مشيراً إلى شارع صغير إلى يسارنا: من هناك.

شدني والتر من ذراعي، وتواصل الهرب الذي لم أكن قط أفهم معناه.

كانت منطقة المرفأ بادية للعيان، فخفّف والتر سيره، وكان هناك شرطيان على الرصيف،لم يبديا مزيداً من الانتباه. وكانت سفينة راسية عند رصيف البحر متأهبة للاقلاع إلى أثينا، وسيارات تُحمَّل عليها، بينما الركاب ينتظرون دورهم وراء موزّع تذاكر آلي.

أمر والتر: هيا اشترِ لنا تذكرتين، فيما أنا اترصّد المكان.

ــ هل تريد العودة ثانية إلى هيدرا من طريق البحر؟

ــ وهل تفضّل أنت أن تحتكّ بمراقبي الأمن في المطار؟ لا، إذهبْ إذاً، واحصل على هاتين التذكرتين عوضاً عن مواصلة النقاش.

عدتُ بعد لحظات؛ كانت السفينة ستسافر أثناء هزيع كبير من الليل، وكنتُ قد نجحت في الحصول على مقصورة ذات سريرين. أما والتر فكان، من ناحيته، قد ابتاع من بائعِ جوّال عمرة وقبعة غريبة الشكل قدّمها إلي.

ــ لا نصعدَنَّ إلى السفينة في آن معاً، دع نحو عشرة ركاب يُحشرون بيني وبينك، فإذا كانت الشرطة تتعقبنا فستبحث عن رجلين يسافران معاً؛ واعتمْر هذه القبعة الغريبة، فهي ستلائمك تماماً! ولنتلاقَ على جسر السفينة الأمامي، ما أن تحلَّ الحبال.

نفّذت تعليمات والتر بحذافيرها، ووجدته ثانية بعد ساعة في المكان الموعود.

ــ والتر، لا بد أن اعترف لك بأنك تركت فيّ تأثيراً طيباً للغاية. فبين لكمتك الوخازة وهذا السباق المطاردة

عبر المدينة، ما كنت لأتوقع إطلاقاً كل هذا... هل باستطاعتك أخيراً أن تشرح لي لماذا صرعت بضربة واحدة ذلك الاستاذ؟

ــ لأنه كان، إلى ذلك، سيعنّفني! عندما دخلنا مكتب مكدالينا، شغل شيء ما بالي على الفور. فالزميل الذي أوصى بنا، كان أفضى إلي أنه استأنف دراسته معها. وواقع الأمر أن الزميل المذكور سيُحال على التقاعد في غضون شهرين، والمرأة التي تقدمت منا ليس لها من العمر ما يناهز الخمسة والثلاثين. وكنتُ في هيدرا راجعت دليل المركز. والمدير ليس هذا الاستاذ الذي كان، مع ذلك، يدّعي اللقب. غريب، أليس كذلك؟

ــ لنفترض ما تقوله صحيح، ولكن أي علاقة بين هذا وتحطيمك فكّه؟!

ــ إنها أصابعي هي التي انهكتها، لو تعلم مدى ما أعانيه من ألم في يدي!

ــ وأين تعلمت أن تقاتل على هذا النحو؟

ــ أنت لم تعرف يوماً المدرسة الداخلية، أليس كذلك؟ ولا المعاكسات أو العقوبات الجسدية، ولا حتى طقوس القبول في جمعيات سرية؟

لقد واتاني الحظ في أن أنعم بوالدين لم يكونا ليقبلا بالانفصال عن ولدهما مهما غلا الثمن.

تابع والتر: هذا فعلاً ما كنت أفكر فيه.

ـ هل كان ضرورياً أن تردّ بمثل هذه الحدة، كان يكفي أن تنصرف من هنالك.

ـ ثمة أوقات، أدريان، ينبغي أثناءها أن تعاود النزول من عليائك! عندما طلب ديمتري هذا الدعّي ما إذا كان في وسعه أن يستعير القلادة، كان قد وضعها آنذاك في جيبه. ولا أعتقد أن وصول الحارس كان سيترك لك الخيار كثيراً، وأشك بقوة أنك ستتمكن ثانية بهذه السرعة من رؤية أداتك الثمينة. تفصيل آخر، وليس من أقل التفاصيل شأناً، في حال إصرارك على توجيه بعض اللوم إلي: بدا لي هذا الاستاذ الذي زحمته بعض الشيء هو أقل دهشة منا بصدد نتيجة تجربتنا. لعلي تفاعلت مع الحدث بشيء من الخشونة، لكني على يقين من أنني كنت على حق.

ـ ها نحن الآن أشبه بفارَّين، وإني لأتساءل عن الذيول التي سوف تسفر عنها هذه القضية.

ـ سنراها عند نزولنا من هذه السفينة، غير أني لن أستغرب أن يكون لها بعض التداعيات.

أثينا

إِستعلم الصوت في سماعة الهاتف: كيف حال الاستاذ؟

أجابت المرأة: كسر في الحنك، ليّ في روابط العنق، ولكن ما من إصابة في الجمجمة.

ــ ما كنت أتوقع أنهما سيتصرفان على هذا المنوال، أخشى أن تتعقد المسألة من الآن فصاعداً.

ــ لم يكن شيء من ذلك متوقعاً، سيدي.

ــ لقد زلقت الأداة من بين أصابعنا، وهذا يؤسف له أشد الأسف. هل لديك أي فكرة عن المكان الذي يتواجد فيه رجلانا الفاران؟

ــ إنهما أبحرا على ظهر سفينة تربط هيراكليون بأثينا، وسوف ينزلان إلى البر صباح غد.

ــ هل لنا أحد العملاء على متنها؟

ــ أجل، هذه المرة كان الحظ إلى جانبنا؛ وقد اكتشفهما أحد رجالنا في المرفأ؛ إنه لم يستجوبهما لانعدام التعليمات في شأن ذلك، لكنه تحلّى بحضور الذهن فصعد إلى السفينة. وقد تسلمتُ منه رسالة فيما كانت الباخرة تتهيأ للإبحار. ما عساي أن أفعل غير ذلك؟

ـ لقد فعلت ما يتوجب عليك فعله. تدبّر أمرك كيما يمر هذا الحادث من غير أن ينتبه إليه أحد، ويكون الأستاذ تعرّض لسقطة مؤذية من على السلم. أصدري الأمر إلى قائد الأمن بألا يؤتى على ذكر هذا الحادث بين جدران المعهد، فليس وارداً أن يكتشف المدير لدى عودته من إجازته شيئاً ما.

ـ يمكنك الاعتماد علي، سيدي.

ـ وقد يكون الوقت حان لتغيير الاسم المذكور على باب مكتبك. توفّيت مكدالينا منذ ستة أشهر، ولم يعد الأمر مستساغاً على الإطلاق.

ـ ربما، ولكن ذلك كان سيعود علينا بفائدة عظيمة!

أجاب الرجل وهو يضع السماعة على قاعدتها: لن أقسم لك بذلك، لدى الاطلاع على النتائج.

دنا يان فاكيرز من النافذة ليفكر للحظات. كان الوضع يعاكسه أكثر مما لم يكن يرغب في الإقرار به. رفع سماعة هاتفه من جديد وألف رقماً إلى لندن.

ـ أردت أن أشكرك على اتصالك البارحة، سيد آشتون، للأسف، فشلت العملية في هيراكليون.

قدّم فاكيرز تقريراً مفصّلاً إلى محدثه عن الأحداث التي جرت قبل بضع ساعات.

ـ كنا نود اتخاذ أقصى تدابير الحيطة والحذر.

أجاب فاكيرز: أعلم ذلك وصدّقني أني متأسف جداً.

سأل السيد آشتون: أ وتظن أننا وقعنا تحت الشبهة؟

ـ كلا، لا أرى كيف سيمكن إقامة أي علاقة. لو تم ذلك لكنّا منحناهم مزيداً من الذكاء.

ـ طلبتَ مني أن أتنصّت على هاتف كل من عضوَي أكاديمية العلوم. لبيّت طلبك، وتناوبت على ذلك في أثينا، مخالفاً كل الأصول القانونية المرعية الإجراء. وتفضلتُ بإبلاغك أن أحدهما رجا زميلاً له كي يتمكن من الولوج

بامتياز إلى مركز أبحاث هيراكليون. وسعيت أن يتكلل مسعاه بالنجاح، وأعطيتك، بناء على طلبك، تفويضاً مطلقاً لتنهي بقية العمليات بنجاح تام. وفي الغد، نشب شجار في الطوابق تحت الأرضية ولاذ رجلانا الماكران بالفرار؛ ألا تزال تعتقد أنهما يتعرضان لخطر طرح بعض الأسئلة على أنفسهما؟

ـ أو كنا نحلم بفرصة أفضل لاستعادة هذه الأداة؟ ليست غلطتي إن اخفقت أثينا في مسعاها. باريس، نيويورك وزوريخ الجديدة، هي متأهبة من الآن فصاعداً، واعتقد أن الوقت حان لنجتمع جميعاً ونشترك معاً في إقرار ما ينبغي علينا عمله. أما إذا تصرفنا على هذه الشاكلة، فسيؤول بنا الأمر إلى إثارة ما نتمنى تداركه تماماً.

ـ أما أنا فأشير عليك، فاكيرز، بالعكس وبأن تكون حذراً. لستُ أمنحك وقتاً طويلاً قبل أن يشاع هذا الحادث. قم بالضروري كيلا يتحقق ذلك، وإلا لن أعود مسؤولاً عن شيء.

ـ ماذا تعني بذلك؟

ـ لقد أحسنتَ فهمي، فاكيرز.

قرع باب غرفته، فوضع فاكيرز حداً لمكالمته.

سأل إيفوري وهو يدخل الغرفة: ألا أسبب لك إزعاجاً؟

ــ لا، أبداً.

ظننتُ أني سمعتك تتكلم.

ــ كنتُ أملي رسالة على مساعدتي.

ــ تبدو متجهم الوجه، أكل شيء على ما يرام؟

ــ إنها القرحة القديمة التي تؤلمني.

ــ آسف، لعلمي بذلك. هل أنت مستعد دائماً لــ «دقّ» شطرنج في بيتك هذا المساء؟

أجاب إيفوري: أفهم ذلك، ربما في مرة قادمة؟

ــ إعتباراً من الغد إذاً، صديقي العزيز.

أغلق إيفوري الباب وسلك في الممر المؤدي إلى المخرج، ثم دار على عقبيه وتوقف أمام مكتب مساعدة فاكيرز. دفع الباب ولاحظ أن الغرفة خاوية، وهذا لم يكن ليثير دهشته كثيراً قرابة الساعة التاسعة مساءً

بحر إيجه

كانت السفينة تنطلق مسرعة في البحر الهادئ، وكنت أنا أنام ملء جفوني على السرير الأعلى في المقصورة، عندما أيقظني والتر. فتحتُ عيني ولما يكن النهار قد طلع.

ــ ماذا تريد، والتر؟

ــ هذا الساحل الذي نقترب منه، ما هو؟

ــ كيف تريدني أن أعرف؟ إنني لست أخفش، لا أبصر إلا في الليل!

ــ أنت من المنطقة. نعم أو لا؟

نهضتُ على مضض ودنوت من الكوة. لم يكن صعباً التعرف إلى جزيرة ميلوس ذات الشكل الشبيه بالهلال؛ قد يكفي الصعود إلى الجسر للوقوف على جلية الأمر والتأكد من أن آنتي ــ ميلوس، وهي جزيرة مهجورة، كانت ماثلة إلى يسار السفينة.

سأل والتر: هل تتوقف السفينة فيها؟

ــ سأكذب لو قلت لك إن لدي خريطة أمينة عن هذه الرحلة، ولكن أتصور، واليابسة تقترب أكثر فأكثر، أننا

نرسو في أدامس.

ــ أهي مدينة كبيرة؟

ــ سأقول على الأرجح إنها قرية كبيرة.

ــ إنهضْ إذاً، سننزل هناك.

ــ ماذا سنفعل في ميلوس؟

ــ إسألني بالأحرى ماذا أفضل ألا نفعل عند وصولنا إلى أثينا.

ــ والتر، أتعتقد حقاً أنهم يترصدون وصولنا إلى «يره»؟ نحن لا نعلم حتى إن كانت سيارة الشرطة تتعقبنا أو أنها كانت ببساطة تمر من هنالك. أعتقد أنك تولي هذا الحادث المؤسف أهمية بالغة جداً.

ــ إذاً سوف تشرح لي لماذا حاول أحدهم الدخول مرتين إلى المقصورة بينما كنت تنام.

ــ طمئنني، ألم تصرع هذا الشخص أيضاً بضربة منك؟

ــ إكتفيتُ بفتح الباب، لكن الممر الجانبي كان خالياً، كان الرجل قد هرب.

ــ أو أنه دخل المقصورة الملاصقة بعد أن تنبّه

لخطئه!

ــ مرتين متتاليتين؟ إسمحْ لي أن أبدي الشك في ذلك. عاودْ ارتداء ثيابك ولننزل بحذر ما أن تحاذي السفينة الرصيف. سننتظر في المرفأ ونركب السفينة التالية المتوجهة إلى أثينا.

ــ حتى لو أن هذه لا تنطلق إلا في الليلة القادمة؟

ــ كنا قد توقعنا أن نقضي ليلتنا في هيراكليون، أليس كذلك؟ إن كنت تخشى أن تقلق أمك لتأخرنا، فإننا سنتصل بها ما أن يبزغ النهار.

ما كنت أعلم إن كانت مخاوف والتر لها أساس من الصحة، أو أن هذا الأخير يجد لذة في المغامرة التي عشناها أمس، ويحاول مستعيناً بحيلة ما إطالة أمدها قليلاً. ومع ذلك، عندما ارتفع الجسر الصغير، رأيت ذلك الرجل الذي كان يحدّق إلينا من الجسر العالي، ووالتر يُرينيه. لست متيقناً أن لزميلي من الأسباب ما يحمله على الإيماءة إليه بحركة مشينة بينما كانت السفينة تبتعد عن الرصيف.

جلسنا على شرفة حانة للصيادين كانت تفتح أبوابها فور رسو أول سفينة. كانت الساعة السادسة صباحاً والشمس تطلع من وراء التلال. صعّدت طائرة صغيرة في

السماء مغيرة اتجاهها فوق المرفأ قبل أن تجري نحو عرض البحر.

سأل والتر: هل من مطار هنا؟

ـ مدرج، نعم، إن لم تخنّي الذاكرة، لكنني أظن أن طائرات البريد وبعض الطائرات الخاصة تستعمله.

ـ هيا بنا! لو تمكنّا لحسن الحظ أن نركب إحداها، لتملّصنا نهائياً من مطاردينا.

ـ والتر، أعتقد أنك تعاني نوبة ذُهان هذيان شديدة، ولست أفكر أن أحداً يتعقبنا.

ـ أدريان، دعني أقول لك، على الرغم من كل الصداقة التي أكنها لك، إنك تضايقني جدّياً!

سدّد والتر ثمن فنجاني القهوة اللذين رشفناهما، ولم يكن بد من أن أبيّن له الطريق المؤدية إلى المطار الصغير.

ها نحن، أنا ووالتر على جانب الطريق نستوقف سيارة. لم يكن نصف الساعة الأول ذا فائدة كبيرة، وكانت الشمس تلمّع الحجارة البيض والحرارة ترتفع.

بدا أن جماعة من الشبان يتلهون بوضعنا، وأن شكلنا

يوحي بأننا سائحان ضائعان، وقد فوجئوا على الارجح عندما دعوتهم لمد يد العون لنا، باليونانية، دون الاكتراث لهزئهم. أراد أكبرهم سناً أن يتقاضى أجراً جزاء مساعدته لنا، لكن والتر الذي أدرك كل شيء عن الوضع، كان مقتنعاً بما فيه الكفاية حتى أنهم قدّموا إلينا بفرح شديد مقعدَي دراجتين ناريتين.

إنطلقنا، وكل منا متشبث بسائقه الخاص؛ وإني لا أجد، بتلك السرعة وبدرجة الانحدار في المنعطفات، عبارة أخرى لوصف السائقين اللذين كانا يرافقاننا في الطرق المتعرجة. كنا نجري باتجاه مطار الجزيرة الصغير، يمتد أمامنا مستنقع مالح كبير، ويتمطى وراءنا مدرج مزفت من الشرق إلى الغرب، وكان المقر الخاص بالطائرات مقفراً. أشار أشد الشابين اللذين اصطحبانا فطنةً أن الطائرة التي توزع البريد كل يومين كانت قد أقلعت منذ قليل، وقد فوّتناها.

قلت: إنها تلك التي رأيناها قبل قليل.

أجاب والتر: يا لحدّة الذهن!

أسرَّ إلى أصغر أفراد الجماعة: إذا كنتما على عجل من أمركما، فثمة دائماً الطائرة الطبية.

ـ أي طائرة؟

ـ الطبيب الذي يحضر عندما يصاب أحدهم بمرض خطر، له طائرته الخاصة. هنالك في الكوخ الصغير جهاز هاتف لاستدعائه، لكن فقط في الحالات الطارئة. حين تعرض ابن عمي لنوبة الزائدة، جاء يبحث عنه في غضون نصف ساعة.

قال لي والتر الذي كنت اترجم له المحادثة: أعتقد أني بدأت أشعر بألم شديد في المعدة.

ـ مع ذلك لن تتسبب في إزعاج طبيب ولن تغير وجهة طائرته لبلوغ أثينا؟

ندّ عن والتر أنين وسقط على ركبتيه: إن متُّ جراء التهاب الصفاق، فستتحمل مسؤولية وفاتي طوال حياتك! إنه لعبء ثَقيل!

أخذ الأولاد يضحكون. كانت تمثيليات والتر لا يقوى أحد على مقاومتها.

أراني الشاب الأكبر سناً جهاز الهاتف القديم المثبت على جدار ما كان يؤدي دور برج مراقبة. إنه كوخ خشبي مع كرسي، طاولة وجهاز راديو يعود تاريخه إلى أيام الحرب. رفض تمرير المخابرة، إذ لو اكتشف غشنا للقي

توبيخاً شديداً، وفضّل تحاشي الضرب المبّرح الذي لن يتوانى والده عن تسديده إليه. نهض والتر يعرض عليه بعض الأوراق النقدية، التي ستقتنع صديقتنا الجديد بأن ضرباً موجعاً على أليته ليس أمراً مريعاً إلى هذا الحد.

ــ والآن أنت تفسد أولاداً. من حسن إلى أحسن!

ــ كنت سأسألك أن نتقاسم هذا المبلغ، لكنك إذا بحتَ لي بأنك تلهو قدر ما ألهو أنا، فسآخذ كل شيء على مسؤوليتي!

ما كنت بحاجة إلى الكذب فأخرجت محفظة نقودي لأشارك في ثمن الكذب. رفع الشاب السماعة، أدار ذراع التدوير وشرح للطبيب أن تدخله ضروري بأسرع ما يمكن. فثمة سائح يتلوى ألماً، وقد جرى نقله حتى المدرج، وليس عليه إلا أن يأتي للبحث عنه.

بعد نصف ساعة، سمعنا هدير محرك يقترب فجأة. لم يعد والتر بحاجة إلى التظاهر بأي وجع في المعدة بل انبطح على الأرض. كانت الطائرة الصغيرة من طراز «بايبرــ كب» قد حلقت فوقنا في طيران مسفّ. ثم انعطفت الطائرة على جناحيها قبل أن تنتظم باتجاه محور المدرج، وانتفضت مرتدة ثلاث مرات قبل أن تتوقف نهائياً.

تنهد والتر: الآن أفهم بصورة أفضل كلمة «كوكو»! (وتعني بالفرنسية الدارجة طائرة قديمة).

دارت الطائرة نصف دورة واقتربت منا. وما أن أصبحت بمحاذاتنا، حتى أطفأ الطيار المحرك، فيما استمرت المروحة في دورانها لحظات قليلة أيضاً، وتنحنحت المكابس وساد الهدوء. كان الأولاد كلهم منتبهين للمشهد الوشيك حدوثه. لم ينبس أحد بكلمة.

ترجل الطيار من طائرته، نزع عمرته الجلدية ونظارته وسلم علينا. كانت الطبيبة صوفي شوارتز، التي تجاوزت السبعين عاماً، تمشي بأناقة شبيهة بمشية أماليا إيرهارت. سألتنا في لغة إنكليزية شبه كاملة، بالرغم من اصطباغها بنبرة المانية خفيفة، من منا هو المريض.

هتف والتر مشيراً بإصبعه إليّ: هو!

ــ لا يبدو أنك متألم جداً، أيها الشاب. ماذا يصيبك؟

لقد أُخذتُ على حين غرة، وكان من المستحيل أن أداوم على كذب والتر. فبحت بكل شيء عن وضعنا لهذه الطبيبة التي قاطعتني لتشعل سيكارتها.

قالت: إن أحسنتُ الفهم فإنكما غيّرتما وجهة طائرتي الطبية، لأنكما تحتاجان إلى طائرة نقل خاصة إلى أثينا؟

إنكما لا تقلان وقاحة!

همس والتر: أنا الذي راودتني هذه الفكرة.

قالت له وهي تسحق عقب سيكارتها على الزفت: هذا لا يغيّر شيئاً كثيراً من انعدام إحساسك بالمسؤولية، أيها الشاب!

قال والتر بمظهر خجول: أقدم لك كل اعتذاري.

وبدا أن الأولاد الذين شهدوا الواقعة استمتعوا بالمشهد من غير أن يفهموا ما كان يقال.

ــ هل أنتما مطلوبان من الشرطة؟

أقسم والتر متوسلاً: كلا، نحن عالمان من علماء أكاديمية لندن الملكية، نجد أنفسنا في موقف حرج. صحيح أننا لسنا مريضين، إلا أننا بحاجة إلى مساعدتك.

وبدا أن الطبيبة شعرت فجأة بالارتياح.

ــ إنكلترا، يا إلهي، كم أنا أحب هذا البلد. كنت معجبة حتى الجنون بــ «الليدي دي» (الأميرة ديانا). يا لها من مأساة!

رأيت والتر يرسم إشارة الصليب، فتساءلت أين

ستتوقف مواهبه كممثل.

تابعت الطبيبة: المشكلة هي أن طائرتي ليست مزودة إلا بمقعدين، أحدهما مقعدي.

سأل والتر: والجرحى، كيف تعملين على إخلائهم؟

ـ أنا طبيبة تطير، ولست سيارة إسعاف. إن كنتما مستعدين أن تتلاصقا أظن أن باستطاعتي الإقلاع على الرغم من ذلك.

سأل والتر مضطرب البال: لماذا على الرغم من ذلك؟

ـ لأننا سنصبح أثقل قليلاً من الحد الأقصى المسموح به، لكن المدرج ليس قصيراً بهذا القدر، كما يظهر للعيان. فإذا انطلقنا والغاز ممتلئ والكوابح مشدودة، سيتوفر لنا على الأرجح ما يكفي من السرعة للتحليق.

وسألتُ: وفي حال العكس؟

أجابت الطبيبة: بلوف!

أمرت الأولاد هذه المرة، بلغة يونانية خالية من كل نبرة، أنَ يتنحوا ودعتنا إلى متابعتها. ثم تفرغت لنا قليلاً بعد أن دارت حول طائرتها لتقوم بزيارتها المعهودة التي تسبق عملية التحليق.

كان والدها يهودياً المانياً، وأمها إيطالية. أثناء الحرب، حطوا الرحال في جزيرة يونانية صغيرة. بعدها عمل القرويون على إخفائهم، ولم يشاؤوا عقب إعلان الهدنة مغادرة الجزيرة.

ـ لقد عشنا هنا على الدوام، أما أنا فلم أفكر يوماً في الإقامة في مكان آخر. هل تعرفون في العالم فردوساً أجمل من هذه الجزيرة؟ كان والدي طياراً وأمي ممرضة. هيا فتشوا لماذا صرت طبيبة تطير! والآن جاء دوركما، هلا شرحتما لي ما كنتما تتجنباه حقيقة. أوه، ثم هذا لا يعنيني بعد كل ما جرى، وأنتما لا يتراءى لي انكما شريران. في كل الأحوال، إنهم سيجردونني قريباً من إجازة القيادة، لذا فإن كل مناسبات الطيران يحسن اغتنامها. إنكما ستسددّان ثمن وقودي، هذا كل ما أطلبه منكما.

إنشغل بال والتر: لماذا سيجردونك من إجازة الطيران؟

كانت الطبيبة لا تزال تتفحص طائرتها.

قالت وقد أغربت في الضحك: على الطيار، في كل عام، أن يجري فحصاً طبياً فيفحص حدة نظره. حتى الآن، كان طبيب عيون، وهو صديق قديم ومتساهل جداً، يتكفل بالفحص، ويتظاهر بأدب أنه يجهل أني أعرف عن ظهر قلب لوحة الامتحان، بما فيها السطر الأخير حيث تصبح

الحروف صغيرة جداً بالنسبة إلي. لكنه أحيل على التقاعد ولم يعد في وسعي غش الناس من حولي لفترة أطول. لا تغضبا، فأنا ما زلت أستطيع، حتى وعيناي مغمضتان، أن أطير بهذه «البايبر» القديمة!

كانت تفضل ألا تحط في أثينا، إذ ينبغي للهبوط في مطار دولي طلب إذن من طريق الإذاعة، والخضوع لمراقبة الشرطة لحظة الوصول، عليها إذاً أن تملأ العديد من الاستمارات. في المقابل، تعرف في بورتو أيلي قطعة أرض صغيرة مهجورة ما زال مدرجها صالحاً للاستعمال. ومن هنالك، لن يتعين علينا إلا أن نركب سفينة ـ تاكسي حتى هيدرا

جلس والتر أولاً، واستندت أنا ما وسعني الاستناد إلى ركبتيه. لم يكن الحزام كبيراً بما يكفي لتوفير الحماية لنا كلينا، فتوجب علينا الاستغناء عنه. تنحنح المحرك وبدأت المروحة تدور ببطء، قبل أن تسرع نافثة الدخان. ربتت صوفي شوارتز على بدن الطائرة لإخطارنا أننا سنقلع عما قريب. كانت الضوضاء شديدة جداً بحيث كانت تلك الربتة الوسيلة الوحيدة للتواصل. عادت الطائرة تصعد المدرج ببطء، ودارت نصف دورة لتأخذ وجهة الريح، وتسلق المحرك مسرعاً. كانت الطائرة ترتجف بقوة كبيرة حتى

لتوقعتُ أن أراها تتفكك أوصالها قبل الهبوط. إلا أن قائدة الطائرة حررّت الكوابح وأخذ الزفت يتوالى تحت العجلات. كنا قد وصلنا تقريباً إلى نهاية المدرج عندما ارتفعت مقدمتها وفارقنا اليابسة. كان الأولاد في المرآب يلوّحون بأيديهم علامة الوداع. زعقت في والتر أن يردّ بالمثل للإعراب لهم عن شكرنا، غير أنه زعق فيّ بدوره أنه قد يحتاج، عند الوصول، إلى مفتاح إنكليزي لفك أصابعه من الحديدة التي تشبث بها.

ما كنت شاهدت قط جزيرة ميلوس كما تسنى لي في ذلك الصباح. كنا نحلّق فوق البحر على ارتفاع بضع مئات الأمتار، لم يكن للطائرة غطاء شفاف، فيما كانت الريح تصفر بين الإطارات، وأنا لم أشعر البتة أني حر كما شعرت بالحرية يومذاك.

أمستردام

إحتاج فاكيرز إلى بعض الوقت قبل أن يألف شبه العتمة السائدة في الطوابق تحت الأرضية. لبضع سنوات خلت، كانت عيناه تتكيفان في الحال، لكنه الآن طعن في السن. عندما ظن أنه يرى فيها بوضوح ليجتاز متاهة الجسور التي تسند البناء، تقدم بحذر على المجازات الخشبية الصغيرة المثبتة على ارتفاع بضع عشرات السنتيمترات فوق الماء، غير متأثر بالبرد ولا بالرطوبة اللذين تحتفظ بهما القناة الجوفية. كان فاكيرز يعرف المكان جيداً، إنه الآن على خط عمودي بالنسبة إلى القاعة الكبرى. ضغط، حين حدّد موقعه تحت الخرائط الرخامية، على مفتاح دعم مغروز في لوح خشبي ثخين وانتظر أن تفعل الآلية فعلها. دار لوحان خشبيان على محوريهما فاتحين طريقاً تسمح الآن ببلوغ مؤخرة الجدار. انفصل باب بدا حتى ذلك الحين غير مرئي وسط الظلام، عن تماثل القرميد. أقفل فاكيرز الباب وراءه وأشعل الضوء.

كان الأثاث يتألف من طاولة معدنية ومتكأ؛ أما القاعة فكانت مجهزة، كمعدات، بشاشة مسطحة وحاسوب. جلس فاكيرز أمام حلقة لمفاتيح الآلة ونظر إلى ساعته. أخطرته

إشارة صوتية أن المحاضرة بدأت منذ لحظة.

نقر فاكيرز على ملامس حاسوبه قائلاً: صباح الخير، أيها السادة، تعرفون لماذا نحن مجتمعون اليوم.

ـ مدريد: كنت أعتقد أن هذا الملف طوي منذ سنين.

ـ أمستردام: كلنا كنا نفكر ذلك، لكن بعض الأحداث الأخيرة جعلت من الضروري إعادة تشكيل هذه الخلية. يُستحسن، هذه المرة، ألا يحاول أحدنا تحدي الآخرين.

ـ روما: لم يعد العصر هو ذاته.

ـ أمستردام: نحن سعداء بأن نسمعك تقول ذلك.

ـ برلين: ماذا تنتظرون منا؟

ـ أمستردام: أن نجعل وسائلنا مشتركة وأن يطبق كل منا القرارات التي سنزمع اتخاذها.

ـ باريس: إن قراءة تقريرك تحملني على الاعتقاد أن إيفوري أصاب الحقيقة لثلاثين عاماً خلت، هل أنا على خطأ؟ ألا ينبغي أن ندعوه للانضمام إلينا؟

ـ أمستردام: يبدو أن هذا الاكتشاف يعزز في الواقع نظريات إيفوري، لكني أرى من المستحسن استبعاده، إذ

يظل غير متوقع ما أن نتناول الموضوع الذي يجمعنا اليوم.

ـ لندن: هناك إذاً أداة ثانية شبيهة حتماً بأداتنا.

ـ أثينا: شكلها مختلف، أما انتماؤها المشترك فهو أكيد الآن. وإذا كان حادث مساء البارحة مؤسفاً، إلا أنه جاءنا بالبرهان القاطع. وكان سيكشف لنا عن ميزة نجهلها. واستطاع أحد رجالنا أن يتأكد منها بأم عينيه.

ـ روما: ذاك الذي تعرض لتحطيم وجهه؟

ـ أمستردام: هو بالضبط.

ـ باريس: أوتظن أن هنالك أدوات أخرى مماثلة؟

ـ أمستردام: إيفوري مقتنع بذلك، أما الحقيقة فهي أننا لا نعرف شيئاً في هذا الصدد. إن شغلنا الشاغل الآن هو استعادة الأداة التي ظهرت لتوها، وليس معرفة ما إذا تتوافر أدوات أخرى.

ـ بوسطن: هل أنت متأكد تماماً؟ نحن لم نصدق، كما ذكرتَ، تحذيرات إيفوري وأخطأنا في تقديرنا. أريد فعلاً أن نخصص أموالاً وموارد بشرية لاستعادة هذه الأداة، غير أني أفضل أن أعرف أين تطأ أقدامنا. أشك أننا سنظل

نراوح في مكاننا بعد ثلاثين عاماً.

ـ أمستردام: هذا الاكتشاف عرضي محض.

ـ برلين: هذا يعني أنه من الممكن وقوع أحداث أخرى!

ـ مدريد: لا أعتقد، بعد تفكير سديد، أن لنا مصلحة في محاولة أي شيء الآن، يا أمستردام، إن مسعاك الأول آل إلى الفشل، ومسعاك الثاني الخائب سيسترعي الانتباه. وأكثر من ذلك، لا شيء يبرهن لنا أن ذلك أو تلك التي تمتلك هذه الأداة تعرف ما يتعلق الأمر به. ومن ناحية أخرى، لسنا نحن بالذات متأكدين دائماً منها. لا نؤجّجنَّ ناراً لن نتمكن من إخمادها لاحقاً.

ـ اسطنبول: تعبّر مدريد وأمستردام عن موقفين متعارضين. أنا أنحاز إلى مدريد، وأقترح عليك الامتناع عن القيام بعمل ما غير مراقبتهما، أقله الآن. سوف نجتمع من جديد في حال تطور الموقف.

ـ باريس: أنضم إلى وجهة نظر مدريد.

ـ أمستردام: إنه لخطأ، فنحن إذا جمعنا الأداتين، فلربما استطعنا أن نتعلم المزيد.

ـــ نيودلهي: لكن، يا أمستردام، نحن إذا جمعنا الأداتين، فلربما استطعنا أن نتعلم المزيد، إن كان ثمة شيء نتفق عليه كلنا منذ ثلاثين عاماً، فإنما هو هذا بالفعل!

ـــ القاهرة: نيودلهي على حق تماماً.

ـــ لندن: لا بد من مصادرة هذه الأداة وقفل هذا الملف في أسرع ما يمكن.

ـــ أمستردام: لندن على حق. من يمتلكه هو مختص بعلم الكون، وشاءت المصادفة أن تسلمها له عالمة آثار، هل تعتقدون، بعد الأخذ في الاعتبار مؤهلاتهما الخاصة، أنهما سينفقان وقتاً طويلاً قبل اكتشاف الطبيعة الحقيقية لما بين أيديهما؟

ـــ طوكيو: مع ذلك، بشرط أن يفكرا بالاتفاق في ما بينهما؛ فهل هما دائماً على اتصال الواحد بالآخر؟

ـــ أمستردام: لا، ليس في الآونة التي نتحدث فيها إليك.

ـــ تل أبيب: أنا على اتفاق إذاً مع القاهرة، لننتظر.

ـــ برلين: أفكر كما تفكر، يا تل أبيب.

ـــ طوكيو: وكذلك أنا.

ـــ أثينا: هل تودّ إذاً أن تتركهما يتمتعان بالحرية في تحركاتهما؟

ـــ بوسطن: لنسِّم هذه حرية تحت المراقبة.

وإذ لم يكن شيء آخر على جدول الأعمال، رفعت الجلسة. أطفأ فاكيرز شاشته وهو معكّر المزاج تعكيراً شديداً. لم يُختتم الاجتماع كما كان يتمنى، لكنه كان أول المطالبين باتحاد قوى حلفائه، فهو سيحترم إذاً القرار الذي تتخذه الأكثرية.

هيدرا

كانت السفينة ــ التاكسي أوصلتنا قبل الظهر. كنا أنا ووالتر نمشي مشية زرية حتى أن خالتي عندما رأتنا أظهرت استياء شديداً. تركت كرسيها المطوي وشرفة مخزنها لتخفّ إلى ملاقاتنا.

ــ هل تعرضتما لحادث سير؟

سأل والتر وقد قام بترتيب صلعته قليلاً: لماذا؟

أردف والتر بلهجة مرحة: لنقل إن الرحلة كانت أكثر حراكاً بقليل مما كنا نتوقع، لكننا تلهينا على الأرجح. وبناء عليه، فإن فنجان قهوة سوف يفيدنا فائدة كبرى، إضافة إلى حبتي أسبرين للتخلص من هذه التشنجات التي تؤلم ساقي ألماً شديداً، لا يمكنك أن تتصوري إلى أي مدى ابن أختك هو ثقيل.

ــ ما هي العلاقة بين وزن ابن اختي وساقيك، والتر؟

ــ ليس من علاقة إطلاقاً، حتى يجلس على ركبتي طوال ساعة.

ــ ولماذا جلس أدريان على ركبتيك؟

ـ لأنه، للأسف، لم يكن سوى مقعد واحد للانطلاق في الفضاء! حسناً، فنجان القهوة هذا، هل ستشاركينا في ارتشافه؟

رفضت خالتي الدعوة، قالت وهي تبتعد أن لديها زبائن. نظرنا أنا ووالتر مشدوهين، كان مخزنها أشد فراغاً من أي وقت مضى.

قلت لوالتر: علي أن اعترف أننا نبدو مهملين جداً.

رفعت يدي للفت انتباه الخادم، وأخرجت القلادة من جيبي ووضعتها على الطاولة.

ـ لو تصورتُ لحظة واحدة أن هذا الشيء سيسبب لنا العديد من المشكلات...

سألني والتر: في رأيك، ما الفائدة منها؟

كنتُ صادقاً حين قلتُ له إنني لا أملك أدنى فكرة عنها؛ ماذا يمكن إذاً أن تمثّل جميع تلك النقاط التي كانت تتراءى لدى تقريبها من مصدر ضوء ساطع؟

أضاف والتر: وليس أي نوع من النقاط، إنها تتلألأ!

ـ أجل، كانت النقاط تتلألأ، ولكن أن ننتقل من هنا لنخلص إلى استنتاجات متسرعة جداً، لم يكن ثمة غير

خطوة واحدة لا يقدم عالم صارم على تخطيها. فالظاهرة التي شهدناها بأنفسنا كان يمكن أن تكون أيضاً عارضة.

ـ إن المساميّة، الخفية على العين المجردة، ضئيلة جداً، بحيث تحتاج إلى ضوء قوي للغاية لكي تخرق المادة. إنها تشبه قليلاً جدار سد قد يفقد كتامته تحت تأثير ضغط قوي للماء.

ألم تقل لي إن صديقتك عالمة الآثار عجزت عن تعليمك أي شيء يتعلق بمنشأ هذه الأداة أو عمرها؟ سوف تعترف أنت أن الأداة مع ذلك غريبة.

لم أكن أتذكر أن كيرا كانت منشغلة البال بمثل ما كنا نحن في هذه الآونة، وقد لفتُّ نظر والتر إلى ذلك.

ـ تترك هذه المرأة الشابة عندك عقداً يتميز بقدرته الطريفة التي نعرفها، يا للمصادفة الجميلة! يحاول بعضهم اختلاس هذه القلادة منا، فنضطر إلى الهرب كشخصين بريئين تلاحقهما قوى الشر، ولكنك لا ترى دائماً إلا الصدفة؟ لا بد أن يكون ما يسميه العارفون الصرامة العلمية! أفي وسعك أن تنظر من قريب إلى الصور التي كانت لي براعة التقاطها في هيراكليون، وتقول لي ما إذا كانت هذه الصور تجعلك تفكر في شيء آخر غير سطح مستو ضخم لقطعة من جبنة غرويار؟

وضع والتر آلته الرقمية للتصوير فوق المائدة التي نتناول عليها فطورنا. جعلتُ الصور تتوالى واحدة تلو أخرى، كان حجمها صغيراً للغاية حتى أتمكن من تكوين فكرة جادة عنها. لم أكن أرى، بكل ما أوتيت من انتباه وما أتحلى به من إرادة حسنة، إلا نقاطاً؛ لا شيء أتاح لي أن أؤكد أن الأمر يتعلق بنجوم، أو بأي كوكبة نجوم، أو حتى بكومة نجمية.

ـ أنا آسف، هذه الصور لا تثبت لي شيئاً.

هتف والتر: إذاً الويل لعطلتي، لنعد إلى لندن! أريد أن أتحقق من الأمر. فور رجوعنا إلى الأكاديمية، سنحول هذه الصور إلى الحاسوب وتستطيع أنت أن تدرسها في ظروف ملائمة.

لم تكن لي أي رغبة في مغادرة هيدرا، لكن والتر كان مولعاً جداً بهذا اللغز، فلم أشأ أن أخيّب أمله، هو الذي وظّف كل طاقاته عندما كنت أعدّ امتحاني الشفهي الكبير، بحيث سأغدو ناكر الجميل إن أنا تركته يذهب بمفرده. بقي أن أصعد إلى البيت من جديد وأعلن لأمي عن رحيلي السابق لأوانه.

تفرّست أمي في، لاحظت حال ثيابي والخدشات على ساعديّ، فخفضت كتفيها كما لو أن العالم أطبق عليهما.

شرحتُ لها لماذا أنا ووالتر علينا العودة إلى لندن، ووعدتُها أن هذه الرحلة لن تكون إلا ذهاباً وإياباً، وأنني سوف أرجع قبل نهاية الأسبوع.

قالت لي: إن أحسنتُ الفهم تريد العودة إلى لندن كي تنسخ في حاسوبك صوراً التقطتها مع صديقك؟ ألا تجد من الأبسط أن تتوجه إلى مخزن خالتك؟ إنها تبيع حتى آلات ترمى بعد الاستعمال، وإذا كانت الصور غير ناجحة، هوب! تلقيها في سلة المهملات!

ــ لعلنا اكتشفنا، أنا ووالتر، شيئاً ما مهماً يخصنا، ويجب أن نتحقق منه.

ــ لو كنت في حاجة إلى التقاط صور لكما كليكما لتتحقّقا منها، فما كان عليك إلا طرح السؤال على أمك، وأنا قلت لك على الفور!

ــ لكن عم تتحدثين؟

ــ عن لا شيء، هيا استمّر في اعتباري بلهاء!

ــ أنا بحاجة لأن أكون في مكتبي، هنا لا تتوافر لي المعدات الضرورية ولا أفهم لماذا تبدين مغتاظة إلى هذه الدرجة؟

ـ لأنني وددت لو وضعت ثقتك بي، أو تعتقد أني سأقلّل من حبي لك لو قلت لي الحقيقة؟ لكن حتى لو بحت لي بأنك تحب ذلك الحمار في ركن البستان، لكنتّ مع ذلك ابني أدريان!

ـ أمي، هل أنت متأكدة من أنك بخير؟

ـ أنا، نعم، أما أنت فأشكّ في ذلك؛ عُدْ إلى لندن، فالأمر في غاية الأهمية، ولعلي سأكون على قيد الحياة عندما ترجع ثانية، من يدري؟

حين كانت أمي تمثل لي مشهداً مأسوياً يونانياً، كان شيء ما يقلقها بصورة جدية. لكني كنت أفضل ألا أتصور ما ينكّد عيشها، حتى أن الفكرة الوحيدة التي راودتني بدتْ لي غريبة الشكل.

بعد إعداد حقيبتي، وجدت والتر مجدداً في المرفأ. كانت أمي حريصة على مرافقتنا. إنضمت إليها إيلينا على الرصيف، ولوّحتا لنا بإشارات واسعة عندما أبحرت السفينة.

علمتُ في وقت متأخر جداً أن أمي سألت خالتي ما إذا كانت تظن أنني سأقوم بالسفر جالساً على ركبتي والتر. كنتُ أجهل أنني لن أرى هيدرا مرة ثانية بهذه السرعة.

أمستردام

نظر فاكيرز إلى ساعته لمعرفة الوقت. ما زال إيفوري غائباً وساوره القلق. كان رفيقه في لعبة الشطرنج دقيقاً في حفظ المواعيد لا يرقى إليه الشك، وهذا التأخير لم يكن ليليق به. دنا من الطاولة النقالة، وتحقّق من الطبق ــ العشاء الذي أوصى بإعداده. التقط بعض الثمار المجففة التي تزيّن صحن الجبن، وإذا بجرس مدخل جناحه رنّ، أخيراً كان شوط على وشك أن يبدأ. فتح فاكيرز الباب، فقدّم إليه كبير الخدم مغلفاً موضوعاً على طبق من فضة.

إنسحب فاكيرز إلى جناحه ليطّلع على محتوى الظرف الذي تسلمه قبل قليل. على ورق صقيل، بضع كلمات مكتوبة بالريشة:

«آسف لتخلفي عن الموعد، إن التزاماً في اللحظة الأخيرة يضطرني

إلى مغادرة أمستردام، سوف أعود عاجلاً. تحياتي».

إيفوري

ملاحظة: شاه مات، لقد تأجّل الشوط.

قرأ فاكيرز الملاحظة ثلاث مرات، متسائلاً عما يريد إيفوري إيحاءه من خلال هذه الجملة الصغيرة التي لا يمكن، وقد صدرت عنه، أن تكون تافهة المعنى. كان يجهل إلى أين يتوجه صديقه، والآن فات الآوان لجعله تحت المراقبة. أما الطلب إلى حلفائه أن يحلوا محله ... كان هو الذي ألح على استبعاد إيفوري، فكيف يشرح لهم أن هذا الأخير كانت له جولة مسبقة؟

شاه مات، كما كتب إيفوري. إبتسم فاكيرز وهو يرتّب الورقة الصقيلة في جيبه.

مطار شيبهول، أمستردام. في هذه الساعة المتأخرة، وحدها بعض الطائرات التي تؤمن الاتصال بالعواصم الأوروبية الكبرى ما زالت على الأرض.

ناول إيفوري بطاقة السفر إلى المضيفة وسلك جسر العبور الصغير. جلس في الصف الأول، بكّل حزامه ونظر عبر الكوة. بعد ساعة ونصف، سيحط في مطار سيتي الصغير. ولدى وصوله ستنتظره سيارة، وقد تم حجز غرفته في دورشسنار، كل شيء منظم. كان فاكيرز تسلم الكلمة الوجيزة التي وجهها إليه، ومجرد هذه الفكرة جعلته يبتسم.

أغمض إيفوري عينيه، لأن الليل سيطول وكل دقيقة

نوم يحسن استغلالها.

مطار أثينا

كان والتر حريصاً، مهما كلّف الثمن، على أن يحمل معه هدية من اليونان للآنسة جنكنز. فاشترى زجاجة أوزو من المنطقة الحرة، وزجاجة ثانية في حال تكسّرت الأولى، وثالثة ليقدمها هدية. نداء أخير، وتردّد إسمانا في مكبرات الصوت. لم يكن الصوت لطيفاً جداً، وكنت منذ الآن أتوجس خيفة من نظرات الركاب المتهمة لنا عندما دخلنا المقصورة. وعقب سباق جنوني في الأروقة، وصلنا في الوقت المناسب بالضبط لنتحمل التعنيف القاسي الذي وجّهه إلينا قائد الطائرة عند باب الركوب، ثم بعض التوبيخات ونحن نصعد إلى داخل الطائرة باتجاه المكانين اللذين ما زالا شاغرين في الصف الأخير. إن تغيير نظام التوقيت مع إنكلترا سيُكسبنا ساعة كاملة وسنصل إلى هيثرو عند منتصف الليل. إلتهم والتر الوجبة المقدمة إليه ووجبتي التي قدمتها إليه بكل طيبة خاطر. وفور جمعُ الأطباق، خففت المضيفة الأنوار في المقصورة. فالصقتُ وجهي بالكوة واستفدت من المشهد. إن رؤية السماء من على ارتفاع عشرة آلاف متر هي، بالنسبة إلى فلكي، لحظة ولا أروع. كانت نجمة القطب تتلألأ إزائي. ورأيتُ كسيوبه وخمّنت وجود «سيفه» إلى يمينها. حانت مني

إلتفاتة إلى والتر الذي كان يغفو غفوة خفيفة.

ــ هل تحمل معك آلة تصوير؟

ــ إن كنت ستلتقط صوراً تذكارية داخل هذه الطائرة فالجواب لا. بين ما أكلته للتو والمسافة التي تفصلنا عن الصف الأمامي، يبدو أنني أشبه بحوت داخل معلّب.

ــ لا، والتر، ليس لالتقاط صورة لك.

ــ في هذه الحال، إن كانت لديك أداة تساعدك على الوصول إلى جيبي، فالآلة هي لك، أما أنا فعاجز عن الحركة.

عليّ أن اعترف أننا كنا مرصوصين رصاً كسمك السردين، ولم يكن التقاط الآلة بالأمر اليسير. ما أن أخذتها بيدي، حتى فتشتُ من جديد عن مجموعة الصور الملتقطة في هيراكليون. فكرة غير معقولة عنّتْ ببالي. وبقيتُ حائراً أنظر ثانية عبر الكوة.

قلت لوالتر وأنا أدسّ آلة التصوير في جيبي: أعتقد أننا أحسنا الصنيع بعودتنا إل لندن.

ــ إنتظر إذاً، حتى تتناول فطورك صباح غد على شرفة مطعم ماطرة، وسنرى إن كنتَ ستحتفظ برأيك ذاته.

ـ إنه سيُرحب بك دائماً في هيدرا.

ـ هل تدعني أنام أخيراً، أوتعتقد أني لا أراك تتلوّى من الضحك في كل مرة توقظني فيها؟

لندن

كنتُ قد أوصلت والتر بالتكسي، وفور وصولي إلى منزلي هرعتُ إلى حاسوبي. وبعدما وضعتُ الصورة في الآلة، أمعنت النظر إليها وعقدت العزم على إزعاج صديقٍ قديم، يعيش على بعد آلاف الكيلومترات من هنا. وجهتُ إليه رسالة الكترونية، أرفقتها بكليشهات التقطها والتر طالباً منه ما يمكن أن توحيه إليه. وسرعان ما استلمتُ من أروان كلمة موجزة، فهو يشعر بالبهجة حين يقرأ لي. وعدني بتفحص الصور التي أرسلتها إليه تواً والإجابة في أقرب وقت ممكن. ما زال هناك مقراب لاسلكي في أطاكاما طرأ عليه عطل وهو غارق في العمل.

بعد ثلاثة أيام، وافتني أخباره في عزّ منتصف الليل. وهذه المرة ليس بالبريد، وإنما عن طريق الهاتف، وكان لأروان صوت لم أعهده من قبل.

هتف من دون أن يبادئني بـ صباح الخير: كيف نجحتَ في إنجاز مثل هذا العمل الخارق؟

ولما كنت أجهل ما أجيبه به، طرح أروان علي سؤالاً آخر أثار دهشتي أكثر فأكثر.

ــ كنت تحلم بجائزة نوبل، فأنت تتوافر لك كل الحظوظ خلال هذه السنة! ليس عندي أدنى فكرة عن الطريقة التي انتهجتها لتنجح في صنع نموذج مماثل، لكن ذلك أقرب إلى المعجزة! إن كنتَ بعثت إلي بهذه الصور كي تخرسني من الدهشة، عندئذ مرحى لك، لقد قُضي الأمر!

ــ ماذا شاهدت، أروان، قُلْه لي!

ــ إنك تعلم جيداً ما شاهدته، لا تحاول استجداء الإطراء مني، فهو، في مثل هذه الحال، يحث على الخديعة. والآن ستقول لي كيف نجحت في تحقيق ضربة المعلم هذه، أم أنك تريد أن تتمادى في إثارة سخطي؟ هل تأذن لي أن أشاطر أصحابنا المقيمين هنا هذه الصور؟

توسلتُ إلى أروان: لا، بالأخص!

تنهّد قائلاً: أفهمك، وقد سبق لي الشرف في أنك منحتني ثقتك وذلك بالسماح لي بمشاهدة هذه التحفة قبل إعداد بيانك الرسمي. متى ستعلن النبأ؟ إني على يقين أنك بهذا الذي بين يديك ربحت جوازك للالتحاق بنا، حتى ولو انتابني الشك أيضاً في أنك ستحار في ما تختار؛ جميع الفرق الفلكية ترغب أن تكون في عداد أفرادها.

ــ أروان، أسألك بإلحاح صِفْ لي ما شاهدت!

ـ أنت مرهق لكثرة ما كررته على نفسك منذ البداية، أو تريد أن تسمعني أن أقوله لك؟ إنني أفهمك، يا صاحبي، لو كنتُ مكانك لشعرت مثلك بالهيجان. ولكن أعطني أعطك، أشرح لي كيف صنعت.

ـ كيف صنعتُ ماذا؟

ـ لا تهزأ بي ولا تقل لي أنك توصلت إلى ذلك من طريق المصادفة.

ـ أروان، من فضلك، تكلمْ أنت أولاً.

ـ استغرق ذلك مني ثلاثة أيام لأعرف إلى أين كنت تقودني. لا تقوّلني ما لم أقله. لقد تعرفتُ سريعاً إلى كوكبات التم والفرس المجنّح وسيفه، حتى ولو كانت مقادير الأحجام في النجوم لا تتطابق، والزوايا خاطئة والمسافات غير معقولة. إذا كنتَ تعتقد أنك تنصب لي فخاً بمثل هذه السهولة فأنت مخطئ. إني سألت نفسي أي لعبة لعبتها، ولماذا جمعت كل هذه النجوم واستناداً إلى أي المعادلات. وحاولتُ كشف ما دفعك إلى وضعها في هذا الموقع، وهذا ما أثار شكوكي. وأعترف لك أني عمدت إلى الغش قليلاً واستعنتُ بحواسيبنا وكلفتها القيام بحسابات مكثفة طوال يومين، ولكن عندما ظهرت النتيجة لم يخالجني أي شعور بالأسف لاستنفار كل هذه الموارد. كنتُ

قد رأيت بصورة صحيحة، غير أني ما كنتُ أستطيع أن أتعرّف، بالتأكيد، إلى ما يوجد وسط هذه الصور الغريبة جداً.

ــ وماذا رأيتَ، أروان؟

ــ سديم البجع.

ــ ولماذا يثيرك ذلك إلى هذا الحد؟

ــ لأنه كما يمكن رؤيته من الأرض منذ أربع مائة مليون سنة!

كان قلبي يخفق مضطرباً، وأحس أن ساقي تخوران، لأن لا شيء من كل ذلك كان ذا معنى. ما أقدم أروان على كشفه لي كان بكل بساطة شيئاً غير معقول، أن تكون مادة، مهما تكن عجيبة، قادرة على قذف قطعة من السماء، يعتبر منذ الآن ظاهرة يصعب فهمها؛ وأن تكون السماء كما يمكن رؤيتها من الأرض منذ نحو نصف مليار سنة، يُعدّ أمراً مستحيلاً.

ــ أدريان، أرجوك، قل لي كيف صنعت لتحصل على نموذج في مثل هذه الدقة؟

لم أتمكن من الرد على صديقي أروان.

ــ أعرف أني كنتُ معيداً لدروسك خلال أسابيع عدة، وينبغي أن أتذكر على الأرجح كل ما علّمتنيه، ولكن منذ حادث إخفاقنا في لندن، كانت الأسابيع مضطربة كفاية، حتى لا أشعر إطلاقاً أنني مسؤول عن بعض السهو.

أجبتُ والتر بإيجاز: السديم هو مهد النجوم، إنه سحابة منتشرة، مكونة من غازات وغبار، يقع في الفضاء بين مجرتين.

كان ذهني شارداً وأفكاري قائمة على بعد آلاف الكيلومترات من لندن، حول الطرف الشرقي لإفريقيا، حيث تقيم تلك التي نسيت عندي قلادتها الغريبة. كان السؤال الذي يلاحقني هو أن أعرف إن كان الأمر يتعلق في الحقيقة بسهو. عندما طرحت السؤال على والتر. هزّ برأسه ناعتاً إياي بالساذج اللطيف.

غداة غد، عندما كنتُ متوجهاً إلى الاكاديمية، حظيتُ بلقاء فريد. كنتُ قد أتيت باحثاً عن قهوة في هذه المؤسسات الجديدة التي غزت العاصمة أثناء إقامتي في التشيلي. أياً يكن الحي أو الشارع، فالزخرفة هي ذاتها دائماً، والحلويات نفسها، وينبغي التزود بشهادة في لغات غريبة لتتمكن من توصية طلب، نظراً إلى تنوع تركيبات القهوة والشاي وتسمياتها الغريبة.

بينما كنتُ أنتظر في المشرب «Skinny Cap With Wings» (ترجموها أنتم بـ كبوتشينو تحملها معك)، دنا مني رجل. سدّد قيمة مشروبي وطلب مني إن كنتُ أقبل تخصيص لحظات له؛ أراد أن يحادثني في موضوع سيسترعي، بحسب رأيه، كل انتباهي. جرّني نحو القاعة فجلسنا على متكأين عريضين، هما نسختان رديئتا الصنع لكنهما مريحتان جداً. حدّق الرجل فيّ طويلاً قبل أن يستهل الكلام.

ــ أنت تعمل في أكاديمية العلوم، أليس كذلك؟

ــ أجل، هذا صحيح، ولكن من لي الشرف في الحديث إليك؟

ــ طالما أراك هنا صباحاً. لندن عاصمة كبيرة، غير أن كل حي فيها هو قرية، وهذا ما يحافظ على سحر هذه المدينة الكبيرة جداً.

ما كنتُ أتذكر أنه سبق لي أن التقيتُ محدثي، إلا أني ذو طبع شارد الفكر، ولم أكن أرى سبباً للارتياب في كلامه.

تابع قائلاً: سأكذبُ عليك إن قلتُ إنّ لقاءنا هو لقاء عارض تماماً. كنت أود أن اقترب منك منذ بعض الوقت لمخاطبتك.

ــ ها هي أمنيتك قد تحققت.كيف أستطيع مساعدتك؟

ــ أتؤمن بالقدر، أدريان؟

أن يدعوك إنسان مجهول باسمك يثير على العموم نوعاً من القلق، ذلك كان وضعي أنا.

ــ نادني إيفوري ما دمتُ قد أذنت لنفسي بأن أدعوك أدريان. لعلي أفرطتُ في استعمال هذا الامتياز الذي يمنحني أياه تقدمي في السن؟

ــ ماذا تريد؟

ــ تجمعنا نقطتان مشتركتان... أنا مثلك عالم، لكنك أنت تنعم بالشباب وبسنين طويلة أمامك لعيش ما أنت مولع به؛ أما أنا فلستُ إلا أستاذاً عجوزاً يقرأ الكتب المغبرة لتمضية الوقت.

ــ ماذا كنت تدرّس؟

ــ الفيزياء الفلكية، وهي قريبة جداً من اختصاصك، أليس كذلك؟

وافقته بإيماءة من رأسي.

ــ لا بد أن أعمالك في التشيلي كانت مثيرة للاهتمام.

آسف لأنك إضطررت إلى الرجوع منها. أتصور كم أنت مشتاق، بشكل مؤلم، للعمل في موقع أطاكاما.

وجدتُ أن هذا الرجل يعرف عني الشيء الكثير، ولم يكن هدوؤه الظاهر ليلطف من قلقي.

ـ لا تكن أسير الشكوك. إن كنت أعرفك قليلاً، فذلك لأني كنت هناك، على نحو ما، عندما قدمت أعمالك أمام أعضاء مؤسسة والش.

ـ على نحو ما؟

ـ لنقلْ إني كنتُ في عداد لجنة الاختيار، لعدم كوني عضواً من أعضاء هيئة التحكيم. قرأت بانتباه ملفك. لو كان الأمر يعود لي وحدي لفزتَ بتلك الجائزة. في نظري، كانت أعمالك من بين الأعمال التي تستحق أكثر من غيرها كل تشجيع.

شكرتُ له إطراءه وسألته في ما أستطيع أن أفيده.

ـ لست أنت، أدريان، الذي تستطيع أن تفيدني، بل العكس، سترى. تلك المرأة الشابة التي غادرت معها السهرة، تلك التي فازت بالجائزة...

أحسستُ، هذه المرة صراحة، بضيق وفقدت شيئاً من

هدوئي.

ــ أتعرف كيرا؟

أجاب محدثي الغريب وهو يبلّل شفتيه في فنجان القهوة: نعم، بكل تأكيد. لماذا لم تعد تواظب على الاتصال بها؟

ردَدْتُ عليه من دون أن أحاول طويلاً إخفاء أن حديثه ما عاد ممتعاً لي: أعتقد أن هذا يتعلق بحياة الناس الخاصة.

أردف محدثي: ما أردتُ أن أكون متطفلاً، وأرجوك أن تقبل اعتذاري، إذا ما أساء إليك سؤالي بأي حال من الأحوال.

ــ لقد قلت لي، سيدي، إنه تجمعنا نقطتان مشتركتان، فما هي النقطة الثانية؟

أخرج الرجل من جيبه صورة فوتوغرافية جعلها تزلق فوق الطاولة. كانت صورة قديمة تثبت ألوانها الناحلة أنها لا تعود إلى الأمس القريب.

قال الرجل: أنا على استعداد لأراهن أن هذه الصورة ليست بغريبة عليك كلياً.

بيّنت بالتفصيل الصورة التي تظهر عليها أداة ذات شكل شبه مستطيل.

ــ أتعرف ما تنطوي عليه من دسيسة في شأنها؟ إننا عاجزون عن تحديد تاريخ لها. إن الأساليب الأكثر تطوراً تلزم الصمت، فيستحيل تعيين عمر هذه الأداة. منذ ثلاثين عاماً، وأنا أطرح السؤال عينه، وفكرة أن أفارق هذا العالم من غير أن أعرف الجواب تتسلّط علي. إنه لأمر سخيف، لكنه مع ذلك يشغل بالي. عبثاً استمع إلى صوت العقل أيضاً وأيضاً، وأقول لنفسي لن تبقى لها أية أهمية عندما يواريني الثرى، ولكن سدى، إني أفكر فيها من الصباح إلى المساء ومن المساء إلى الصباح.

ــ وهل من شيء يجعلك تدرك أن في استطاعتي أن أفيدك؟

ــ أنت لا تنتبه، أدريان، لقد سبق أن قلتُ لك إني أنا الذي سأساعدك وليس العكس. منِ الأهمية بمكان أن تركز على ما أقوله لك. عاجلاً أم آجلاً، سينتهي هذا اللغز إلى أن يحتل كل أفكارك؛ عندما ستوطّن العزم على الاهتمام بها حقاً ستنفتح أمامك أبواب سفر لا يمكن تصوره، رحلة سياحية سوف تقودك إلى أبعد بكثير مما بالإمكان أن يخطر ببالك. وإني لأشكّ أن يكون مظهري بالنسبة إليك في هذه

اللحظة مظهر عجوز مخبول لكن حكمك علي سيتبدل. نادرون هم أولئك الذين لديهم من الجنون ما يكفيهم للإقدام على تحقيق أحلامهم، إن المجتمع طالما يجعلهم يدفعون ثمن مثل هذا الإبداع. المجتمع جبان وحسود، أدريان، ولكن هل هذا سبب كاف للرفض؟ أليس زحم المكتسبات وبلبلة الحقائق علة كافيةً للعيش؟ أليس هذا جوهر الروح العلمية؟

ـ هل جازفت بنفسك فجعلك المجتمع تدفع الثمن، سيد إيفوري؟

ـ أرجوك، لا تدْعُني «سيد». دعني أشاطرك معلومة تثير حماسك، وأنا متيقن من ذلك. الأداة الظاهرة في هذه الصورة تتّسم بميزة أخرى في مثل أصالة الميزة الأولى، وهذه، في كل حال، ستسليك تسلية لا مزيد عليها. عندما تخضع لمصدر نور قوي، تبث مجموعة غريبة من النقاط. أيذكّرك هذا بشيء ما؟

لقد وشت ملامح وجهي بانفعالي لا محالة، فنظر إلي الرجل مبتسماً.

ـ أترى، إني لم أكذب عليك، فأنا الذي عدت عليك بالنفع فعلاً.

ـ أين وجدتها؟

ـ إنها حكاية تطول وتطول. المهم أن تعرف أنها موجودة، وهذا سيخدمك في ما بعد.

ـ بأية طريقة؟

ـ مجنّباً إياك ضياع وقت بلا حساب وأنت تتساءل ما إذا كانت الأداة التي تملكها هي مجرد عارض من عوارض الطبيعة. إنها ستحميك كذلك من الغباوة التي يرتكبها المرء حين يخاف النظر إلى الواقع وجهاً لوجه. كان أينشتاين يقول إثنان لا متناهيان: الكون وحماقة الإنسان، وإنه لا يرتاب إطلاقاً بالنسبة إلى الأمر الثاني.

وسألته: ماذا تعلمت في صدد النموذج الذي تمتلكه؟

ـ لم أمتلكه، اكتفيت بدراسته وإني للأسف لا أعرف عنه إلا النزر اليسير، ثم لا أريد بالأخص أن أقوله لك. لا لأني لا أثق بك، وإلا لماذا أنا ها هنا؟ لكن المصادفة وحدها لا تكفي. إنها، في أحسن الحالات، لا تصلح إلا لإثارة فضول الروح العلمية. وحدها البراعة والمنهج والجرأة تقود إلى الاكتشاف؛ لا أريد توجيه أبحاثك المستقبلية، إني أفضل أن أتركك حراً طليقاً من كل فكرة مسبقة.

سألتُ هذا الرجل الذي بدأتْ افتراضاته تزعجني جدياً: أية أبحاث؟

ـ هل تأذن لي بسؤال أخير، أدريان؟ أي مستقبل ينتظرك في أكاديمية العلوم الباهرة هذه؟ كرسي مدرّس؟ صف من الطلبة اللامعين، كل منهم مقتنع بتفوق ذكائه؟ أو علاقة متقدة مع أجمل فتاة في المدرج؟ لقد مررتُ بهذه الأحوال كافة، ولا أتذكر أي وجه من الوجوه. لكني أتكلم، وأتكلم من غير أن أترك لك الإجابة عن سؤالي. إذاً ما هذا المستقبل؟

ـ لن يكون التدريس سوى مرحلة في حياتي، وسأعود عاجلاً أو آجلاً إلى أطاكاما.

أذكر أني قلت هذا الكلام كصبي فخور في الوقت نفسه بأن يعرف درسه على رؤوس أصابعه، وغاضب لمقارنة نفسه بجهله بالذات.

ـ لقد ارتكبت خطأً سخيفاً في حياتي، أدريان، ما اعترفت به قط؛ ومع ذلك، فإن فكرة التكلم معك يعود علي الآن بالنفع العميم. لقد ظننتُ أن في وسعي أن أفعل كل شيء بمفردي. يا للغرور ويا له من إضاعة للوقت!

ـ وفيمَ يعنيني ذلك؟ ولكن مَن تكون؟

ـ أنا انعكاس الرجل الذي تجازف أن تصيره. لو كان بإمكاني أن أجنّبك هذا الخطر، لانتابني إحساس بأني أفدتك وسأتذكر محياك. أنت الشخص الذي كنته قبل سنين طوال. إنه لغريب، كما تعلم، أن يتأمل المرء ذاته في مرآة الزمن الذي ولّى أوانه. قبل أن أفارقك، أود أن أنقل إليك معلومة أخرى، لعلها أهم أيضاً من الصورة الفوتوغرافية التي أريتك إياها. تعمل كيرا في بقعة للحفريات تقع على بعد مائة وعشرين كيلومتراً إلى شمال شرق بحيرة توركانا. هلا تساءلت لماذا أقول لك هذا الكلام؟ لأنك إذ تعقد العزم على السفر إلى أثيوبيا للعثور عليها ثانية، ستوفر عليك الكثير من الوقت. الوقت ثمين، أدريان، ثمين جداً. لقد سعدتُ بالتعرف إليك.

فوجئت بمصافحته، الصريحة والودية وشبه الرقيقة، استدار على عتبة الباب ومشى مجدداً بضع خطوات في اتجاهي.

قال لي: لي عندك خدمة صغيرة أطلبها. عندما تلتقي كيرا لا تخبرها شيئاً عن لقائنا هذا، لأنه سيلحق الضرر بك.

كيرا امرأة أقدرها حق التقدير، لكن طبعها ليس دوماً سلس القياد. لو كان عمري أقل أربعين سنة، لكنتُ الآن

جالساً في الطائرة بديلاً منك.

هذه المحادثة أثارت فيّ اضطراباً شديداً. وظللتُ محبطاً لأني لم أعرف طرح الأسئلة التي تفرض نفسها علي، واضطررت أن أدوّنها لكثرة عددها.

مرّ والتر أمام واجهة المقهى، أشار إلي بيده، دفع باب المؤسسة وجاء ينضم إلي.

قال وهو يجلس على المتكأ الذي أخلاه لتوه إيفوري الغريب الأطوار: يظهر عليك الاستياء! ثم أردف: لقد أطلتُ التفكير هذه الليلة، وجئت في وقتي لأجدك هنا، يجب أن نتكلم حتماً.

ــ أنا سامعك.

ــ كنتَ تبحث عن ذريعة لتعاود رؤية صديقتك؟ بلى، بلى، لا تجادلني، كنت تبحث عن ذريعة لتعاود رؤية صديقتك! أظنُّ ليس من البلاهة في شيء أن نذهب لسؤالها عن الأسباب الحقيقية التي تركت من أجلها قلادتها فوق منضدة سريرك، للمصادفة ظهرٌ قوي يتحمل وزر غيره، ولكن إلى هذه الدرجة!

ثمة أيام قوامها محادثات وجيزة تحدوك على اتخاذ قرارات معينة.

أضاف والتر: طبعاً، أود أن اصطحبك إلى أثيوبيا، لكني لن أذهب!

ـ ولكن هل قلتُ إني مسافر إلى أثيوبيا؟

ـ كلا، ولكن ستسافر مع ذلك.

ـ ليس من دونك.

ـ مستحيل، لقد ابتلعتْ هيدرا بقية مدخراتي.

ـ إذا كان الأمر لا يتعلق إلا بالمال، فأنا أقدم لك البطاقة هدية مني.

ـ وأنا أقول لك إن ذلك ليس موضوع بحث. إن سخاءك يشرّفك، ولكن لا تضعْني بالرغم من ذلك في موقف حرج.

ـ ليس الموضوع موضوع سخاء. هل ينبغي أن اذكّر بما كان سيصيبني في هيراكليون لولاك؟

ـ لا تقلْ لي إنك تريد أن تجنّدني كحارس خاص لك، إني سأحمله على محمل سيئ للغاية. أنا لست إلا كومة عضلات، حائز شهادة خبير في المحاسبة وتوجيه الموارد البشرية.

ــ والتر، لا تتمنّع، تعال!

ــ إنـها فكرة رديئة جداً، وذلك لأسباب عدة.

ــ أذكرْ لي سبباً واحداً وأنا أدعك وشأنك!

ــ حسناً، تصوّرْ إذاً البطاقة البريدية التالية. المشهد: وادي أومو. الساعة: الصباح الباكر أو منتصف النـهار، كما يحلو لك. وفقاً لما قلتَه لي المشهد رائع. منظر الموقع بالضبط: بقعة حفريات أثرية. الأشخاص الرئيسيون: أدريان وعالمة الآثار المسؤولة عن الموقع. إنتبه الآن للمشهد جيداً؛ سترى أنه شيق. يصل صاحبنا أدريان في عربة جيب، إنه دبق قليلاً، لكنه يظل وسيماً قوي البنية. تسمع عالمة الآثار هدير السيارة، تضع جانباً مالجها ومطرقتها الصغيرة، وتنزع نظارتها...

ــ لا أظن أنها تستعمل نظارة!

ــ ... لا تنزع نظارتها، ولكن تقف بالمقابل منتصبة لتكتشف أن الزائر غير المنتظر ليس إلا الرجل الذي فارقته في لندن آسفة. الانفعال بادٍ على محياها.

ــ لقد استوعبت اللوحة، إلى أين تريد الوصول؟

ــ اسكت ودعني انتهي! عالمة الآثار وزائرها يمشيان

الواحد تجاه الآخر، وكل منهما يجهل ما سيقوله. هنالك، بُمْ، لم يُعر أحد اهتمامه لما كان يدور في خلفية الموقع. والتر الطيب واقف بجوار الجيب، وقد ارتدى سروالاً قصيراً جداً من نسيج قطني ناعم واعتمر قبعة ذات مربعات، وضاق ذرعاً بالاحتراق تحت أشعة الشمس، في حين تعانق الغبيان وتلاثما ببطء، وسأل والتر ـ من يسمعه أصلاً ـ ماذا ينبغي عمله بالأمتعة. ألا تجد أن هذا يفسد بصراحة المشهد؟ والآن، هل أنت مصمم على الذهاب بمفردك أو أصنع لك من جديد رسماً؟

كان والتر قد خلص أخيراً إلى إقناعي بالقيام بهذه الرحلة، حتى لو أني أعتقد أنه سبق أن اتخذت القرار بذلك.

وما أن حصلتُ على تأشيرة دخول وتنظيم وصولي، ركبت الطائرة في هيثرو لأهبط لاحقاً بعد عشر ساعات في أديس ابابا.

في اليوم نفسه، قصد المدعو إيفوري، الذي لم يكن غريباً تماماً عن هذه الرحلة، باريس وكتب:

«إلى أعضاء اللجنة:

لقد حلّق رجلنا هذا اليوم متجهاً إلى أديس ابابا. لا

جدوى من تحديد ما يفترضه ذلك. سيغدو من الصعب علينا، من غير إشراك أصدقائنا الصينيينا الذين يحتفظون بعدد معين من المصالح في أثيوبيا، أن نواصل رقابتنا. أقترح أن نجتمع اعتباراً من الغد. تحياتي».

أمستردام

نحّى يان فاكيرز حلقة مفاتيح حاسوبه جانباً ومال مجدداً إلى الملف الذي ناوله أياه أحد معاونيه. نظر مرات متتالية إلى تلك الصورة في واجهة أحد المقاهي اللندنية. كانت تمثّل إيفوري يتناول الفطور بصحبة أدريان.

أشعل فاكيرز قداحته، ووضع الصورة في منفضة وأضرم النار فيها. عندما أتت النار عليها نهائياً، أطلق الملف وتمتم:

ــ لا أدري كم من الوقت سيمكنني أن الزم الصمت عن زملائي في شأن الدور الذي تلعبه وحدك، رعاك الله!

كان إيفوري ينتظر بصبر نافد في رتل سيارات التاكسي المتوقفة في مطار أورلي.

عندما حان دوره، جلس في مؤخرة السيارة ومدّ إلى السائق قطعة ورق صغيرة. كان وارداً عليها عنوان مطبعة قائمة على مقربة من جادة سيبستوبول. كانت حركة السير

سلسة. سوف يصل إليها في غضون نصف ساعة.

قرأ لورنزو، في مكتب بروما، بريد فاكيرز، ورفع سماعة هاتفه طالباً من سكرتيرته أن تلتحق به.

ـ أما زالت لدينا اتصالات فعالة في أثيوبيا؟

ـ أجل، سيدي. هنالك على الأرض شخصان. وقد أخذت للتو أعد الملف الإفريقي لاجتماعك الأسبوع المقبل في ديوان وزارة الخارجية.

ناول لورنزو سكرتيرته صورة فوتوغرافية وجدول توقيت كُتب بسرعة على ورقة.

ـ إتصلي بهم. فليخبروني بتنقلات ولقاءات ومحادثات هذا الرجل الذي سينزل في أديس ابابا على متن طائرة قادمة من لندن صباح غد. إنه من الرعايا البريطانيين. الحذر مطلوب. قولي لرجالنا أن يتخلوا عن رقابتهم على أن يكشفوا عن أنفسهم. لا تأتي على ذكر هذا الطلب في أي من الملفات، وأتمنى أن يبقى في الوقت الحاضر أشد الطلبات سرية ما أمكن.

استعادت السكرتيرة الوثائق التي قدمها لها لورنزو وانكفأت.

أثيوبيا

لم يستغرق الهبوط في مطار أديس ابابا إلا ساعة. ما أن ختموا جواز سفري واستعدتُ أمتعتي حتى صعدت على متن طائرة صغيرة متوجهة إلى جينكا.

كان جناحا هذه الطائرة القديمة صدئين جداً، بحيث سألت نفسي كيف يمكنها أن تستمر في الطيران. كان الغطاء الشفاف لحجرة الطيار ملطخاً بالزيت. وبدت جميع مراقم لوحة القيادة هامدة، باستثناء بوصلة الملاحة التي كانت إبرتها تهتز باستمرار. ما كان الطيار يبدو أنه قلق فوق الحد. عندما بدأ المحرك يتنحنح، اكتفى بشد مقبض الغاز شداً خفيفاً أو بإبعاده بحثاً عن النظام الأمثل الذي يلائمه. كان يبدو أنه يحلّق سواء بالنسبة إلى العين أو إلى الأذن.

ولكن كان، تحت جناحي هذه الطائرة الذاوي رونقهما، تتوالى في ضجيج مخيف أجمل مشاهد إفريقيا.

طفرت العجلات على المدرج الترابي، قبل أن نجمد وسط سحابة من الغبار كثيفة. هرع بعض الصبية باتجاهنا فخفت ألا تتلقف المروحة واحداً منهم. مال الطيار نحوي

ليفتح بابي، رمى حقيبتي خارجاً فأدركت أن طريقينا تفترقان هنا.

وما كدت أضع رجلي على الأرض حتى دارت طائرته راجعة أدراجها. وتسنى لي الوقت الكافي لألتفت وأراها تبتعد فوق ذؤابات أشجار الكينا.

الفيت نفسي وحيداً من جديد في أي مكان، وتحسّرت بمرارة لأني عجزت عن إقناع والتر بمرافقتي. نظرت، وأنا جالس على برميل زيت قديم، وحقيبتي عند قدميّ، إلى الطبيعة الوعرة المحدقة بي. كانت الشمس تجنح نحو الغروب وتبين لي أني لا أملك أي فكرة عن المكان الذي سأقضي فيه ليلتي.

رجل في قميص منسلة خيوطه، قدم لملاقاتي وعرض علي المساعدة. هذا، في كل حال، ما ظننتُ أني فهمته. أن أشرح له أني أبحث عن عالمة آثار تعمل ليس بعيداً من هنا، تطلّب مني شجاعة على الابتكار كبيرة. فتذكرت تلك اللعبة التي كنا نمارسها في كنف العائلة، حيث كان ينبغي الإيماء إلى موقف أو التفوه بمجرد كلمة حتى يتمكن الآخرون من أن يحزروا ذلك. لم أفز قط في هذه اللعبة! وها أنا على وشك التظاهر بأني أحفر الأرض، وأتقد حماساً إزاء قطعة خشبية مبتذلة كما لو أني اكتشفت كنزاً

ثميناً؛ وبدا لي محدثي حزيناً للغاية، بحيث انتهى بي الأمر إلى العدول عن ذلك. هزّ الرجل كتفيه ومضى.

بعد عشر دقائق، عاد إلى الظهور بصحبة فتى كلّمني بداية بالفرِنسية، ثم بالانكليزية وأخيراً مازجاً بين اللغتين مزجاً قليلاً. علمت منه أن ثلاثة فرق علماء آثار تنشط في المنطقة. واحد منها يعمل على بعد سبعين كيلومتراً إلى شمال موقعي، وثانٍ في وادي ريفت بكينيا، وثالث، وصل منذ وقت قليل، ونَصب مخيماً له على بعد نحو مائة كيلومتر إلى شمال شرق بحيرة توركانا. أخيراً حددتُ موقعَ كيرا، ولم يبق لي إلا أن أجد وسيلة للالتحاق بها.

إقترحِ الفتى عليٍ أن أتبعه. والرجل الذي جاء يستقبلني أراد فعلاً إيوائي ليلاً. ما عرفت كيف أشكره واقتفيت أثره، وأنا أبوح لنفسي لو أن أثيوبياً ضلّ طريقه في شوارع لندن كما كنت أنا هنا هذا المساء، واستدلني على طريقه، ربما لم تتوافر لي كرم الأخلاق لأعرض عليه منزلي. إختلاف ثقافة أو أحكام مسبقة، أحسست أني في الحالتين إنسان بالغ الغباء.

تقاسم ضيفي عشاءه معي، وظل الفتى في صحبتنا. لم يكن يكف عن التحديق إلي، كنتُ وضعت سترتي فوق كرسي بلا ظهر، فراح، من دون أن يشعر بأي حياء، يلهو

بنبش جيوبها. وجد فيها قلادة كيرا فأعادها حالاً إلى مكانها. وفجأة خيل إلي أن وجودي لم يعد يبهجه، فغادر الكوخ دون أن ينبس ببنت شفة.

نمتُ على حصير واستيقظت عند الفجر. وبعد أن ارتشفت أحد أطيب أنواع القهوة التي ذقتها في حياتي، انصرفت للتنزه بقرب بقعة الطيران الصغيرة محاولاً التوصل إلى وسيلة تعينني على مواصلة سفري. لم يكن المكان يخلو من الفتنة، لكني ما كنت، مع ذلك، لأقيم فيه إلى الأبد.

سمعتُ في البعيد هدير محرك. كانت سحابة من الغبار تلف سيارة رباعية الدفع تجري باتجاهي. تجمدت العربة الصالحة لكل أنواع الطرق أمام المدرج، وترجّل منها رجلان. كانا كلاهما إيطاليين. ابتسم لي الحظ إذ كانا يتكلمان لغة إنكليزية ملائمة جداً، وبدا بالأحرى أنهما ودودان. لم يكونا أشد دهشة لرؤيتهما لي هنا، وسألاني إلى أين أقصد. أريتهما بأصبعي نقطة على الخريطة التي بسطاها على غطاء سيارتهما واقترحا علي في الحال الاقتراب من وجهتي المقصودة.

كان حضورهما يضايق الفتى أكثر من حضوري أنا. هل كان ذلك أثراً من آثار المرحلة التي خضعتْ فيها أثيوبيا

للاستعمار الإيطالي؟ لم أكن أدري شيئاً، لكنّ دليليّ العجيبين ما كانا في الحقيقة لينالا إعجابه.

بعد أن شكرت بحرارة مضيفيّ، ركبت السيارة الرباعية الدفع. طرح علي الإيطاليان، طوال الرحلة، العديد من الأسئلة حول مهنتي، والحياة في أطاكاما كما في لندن، وحول أسباب سفري إلى أثيوبيا. لم تكن لي الرغبة في أن أتبسّط حقاً حول هذه النقطة الأخيرة، فاكتفيت بأن أقول لهما إني قدمتُ إلى هنا للالتحاق بامرأة، الأمر الذي سوّغ، في نظر إيطاليين من روما، ذهاب المرء إلى أقاصي المعمورة. وسألتهما بدوري عن حضورهما إلى هنا. كانا يستوردان أقمشة ويديران شركة في أديس ابابا، ويكتشفان، وهما من عشاق أثيوبيا، البلاد كلما سنحت لهما الفرصة.

كان من الصعب تحديد المكان الذي أنوي التوجه إليه بصورة دقيقة، ولم يكن شيء ما يضمن لي الوصول إلى هنالك بسلوك الطريق. إقترح علي السائق أن ينزلني في قرية للصيادين واقعة على ضفاف أومو، وهكذا سيغدو من السهل علي أن أؤمن بالمال مكاناً لي على ظهر زورق يجري في النهر. على هذا النحو ستتوافر لي أفضل الاحتمالات للعثور على مخيم علماء الآثار الذي أبحث

عنه. يبدو أنهما يعرفان المنطقة معرفة جيدة، فسلمت زمام أمري إليهما واتبعت نصائحهما. أما ذلك الذي لم يكن يقود الزورق فعرض علي خدماته كمترجم. منذ زمن وجوده هنا تعلم بعض المبادئ الأولية في التمرس باللهجات الأثيوبية العامية وكان يبذل قصارى جهده لإيجاد صياد قد يرغب أن يحملني على ظهر قاربه.

في وسط العصر، ودَّعت مرافقيّ، وابتعد بي القارب الهش الذي ركبته عن الضفة وترك للتيار عناء قيادته.

ما كان العثور على كيرا أمراً في مثل السهولة التي افترضها صديقاي الإيطاليان. فنهر أومو ينقسم إلى فروعٍ عدة. وفي كل مرة كان يسلك طريقاً صالحاً للملاحة بدلاً من طريق آخر، كنت أتساءل ما إذا لم يتجاوز المخيم من غير أن يراه.

كنتُ أود الاستفادة من بهاء المشاهد وروعتها، وإذا بي أكتشف في كل تعرّج للنهر مشاهد جديدة، لكن ذهني انشغل في البحث عن الكلمات التي باستطاعتي أن أقولها لكيرا في حال العثور عليها، الكلمات التي قد تشرح الغاية من زيارتي، وهو أمر لم أكن أنا بنفسي متأكداً منه.

كان النهر ينغرز باتجاه منحدرات صخرية ذات تربة ضاربة إلى اللون الرمادي، تحول دون حدوث أي انحراف

في الإبحار. وكان ربان القارب يسهر على إبقائنا وسط مجرى الماء. تبدّى لنا واد جديد، ولمحتُ أخيراً على قمة تلة صغيرة المخيم الذي كنتُ آمل كثيراً اكتشافه.

رسونا على ضفة، هي مزيج من رمل ووحل. استعدتُ حقيبتي، سلمت على الصياد الذي رافقني حتى هذا المكان وسلكتُ درباً شُقّ بين الأعشاب العالية. صادفتُ فرنسياً أدهشه وجودي، فسألته إن كانت امرأة تدعى كيرا تعمل هنا، فأشار بإصبعه إلى الشمال وعاد إلى أشغاله.

وفي مكان أعلى قليلاً، تجاوزت قرية من الخيام ووصلت إلى طرف بقعة الحفريات الأثرية.

كانت الأرض محفورة في شكل مربعات، واوتاد وحبال رفيعة تحدّ جوانب كل حفرة. كانت الحفرتان الأوليان اللتان تأملتهما فارغتين، لكني لمحت رجلين يعملان في حفرة ثالثة. وعلى مسافة أبعد قليلاً، رجال آخرون ينظفون التربة بملاقط. كان من الممكن الاعتقاد، من حيث أنا متواجد، أنهم يمشطون الأرض. ما من أحد أعارني انتباهه، فتابعتُ التقدم على طريق الدورة التي تشكلها المنحدرات بين كل حفر، إلى أن أوقفني على الأقل وابل من الشتائم انهال من وراء ظهري. أحد مواطنيّ، وكانت لغته الإنكيزية متقنة تماماً، سأل صائحاً من هو ذلك الأبله

الذي يتنزّه وسط الحفريات. كان يكفي أن أجول ببصري الأفق مسرعاً لكي يتبين لي أن الأبله المشار إليه لا يمكن أن يكون أحداً غيري.

من الصعب تصوّر مقدمة أفضل للقاء جعلني من الآن محموماً. أن يعامل المرء معاملة غبي وسط أي مكان ليس في متناول أي كان. حوالي عشرة رؤوس طلعت من الثقوب، على غرار قبيلة من حيوانات النمس تبرز من جحورها عند الإعلان عن الخطر. رجل ضخم الجثة أمرني هذه المرة بالألمانية أن أرحل فوراً.

في الحقيقة، أنا لا أتقن الألمانية، لكن مفردات قليلة كانت كافية لأن أفهم أنه لا يمزح. ثم فجأة برز، وسط كل هذه النظرات المتهمة لي، نظرة كيرا التي انتصبت بدورها على قدميها...

... لا شيء حدث كما كان والتر قد تنبأ!

هتفت مذهولة: أدريان؟

لحظة ثانية من لحظات الوحدة الشديدة. لما سألتني كيرا عما يمكن أن أعمل فعلاً هنا ـ وقد تخطت مفاجأتها المتعة المحتملة لرؤيتي ثانية ـ فإن فكرة إجابتها وسط هذا العالم المعادي الصغير، كان من تأثيرها أن غرقتُ في

صمت عميق. فبقيت هناك متجمداً، وقد ساورني انطباع أنني دخلتُ حقل ألغام كان ناصبوها يترصدون اللحظة التي تمكنهم من أن أذهب هباء منثوراً.

أمرتني كيرا وهي قادمة لملاقاتي: بالأخص لا تتحرك!

ثم دنت مني وقادتني حتى مخرج منطقة الحفريات.

ــ أنت لا تدرك ما قمت به لتوك! تهبط في أي مكان بنعليك الضخمين، كان بمقدورك أن تدوس برجليك عظاماً لموتى ذات أهمية لا تقدر بثمن.

ــ توسَّلت إليها مستهزئاً: قولي لي إني لم أفعل شيئاً من هذا القبيل.

ــ كلا، ولكن كان بمقدورك أن تفعل، إنه الشيء نفسه تقريباً. هل تراني أنزل بسرعة في مرصدك واعبث بكل ازرار مرصادك؟

ــ أعتقد أنني فهمت تماماً أنك كنت غاضبة.

ــ لستُ غاضبة، إنما أنت غير مسؤول، ليس هذا الشيء ذاته.

ــ صباح الخير، كيرا...

طبعاً، كان باستطاعتي أن أجد عبارة أكثر ابتكاراً وأشد ملاءمة من «صباح الخير كيرا». لكنها كانت العبارة الوحيدة التي عنّت ببالي.

ــ نظرتْ إلي من أخمص قدمي إلى قمة رأسي. وكنت أنا أترّقب اللحظة التي ستهدأ فيها، لفترة قليلة على الأقل.

ــ ماذا تفعل هنا، أدريان؟

ــ إنها لحكاية طويلة، وقد قمت برحلة أطول أيضاً؛ لو كان لديكِ قليل من الوقت تكرسينه لي لتمكنتُ من شرحه لك.

ــ نعم، ولكن ليس الآن، فإني، كما يمكنك أن تلاحظ، في عز يوم العمل.

ــ لم يكن في حوزتي رقم هاتفك في أثيوبيا، وحتى رقم سكرتيرتك لآخذ موعداً. سأعاود الهبوط إلى النهر والاستراحة بين شجرة جوز الهند وشجرة موز. إن كان لديك لحظة فراغ. مرّي بي.

ودون أن أترك لها الفرصة للكلام، درتُ على عقبي وانطلقت ثانية في الاتجاه الذي أتيت منه. كانت لي مع ذلك عزة نفسي!

سمعت من وراء ظهري: لا وجود لأشجار جوز الهند ولا لأشجار موز هنا، أيها الجاهل الكبير!

التفتُ ورائي، فشاهدت كيرا تتقدم نحوي.

ـ أعترف أنه لم يكن مروّعاً كبادرة استقبال، أنا متأسفة، أعذرني.

فسألتها: هل أنت غير مرتبطة للغداء؟ كنتُ أتمتّع بموهبة خاصة هذا النهار لطرح أسئلة غبية. هذا، على الأقل، ما حملها على الضحك. فشدتني من ذراعي وجرتني نحو المخيم. ثم دعتني إلى دخول خيمتها، وفتحتْ ثلاجة أخرجت منها زجاجتي جعة ومدّت إلي إحداهما.

ـ إشربْ، ليست بعد باردة جداً، ستسخن خلال خمس دقائق. هل أنت هنا لوقت طويل؟

إن التواجد هنا وحيدين تحت خيمتها، كان من الغرابة بمكان بحيث كاد يبدو لنا غير ملائم. عندئذ غادرنا الخيمة لنتمشى بمحاذاة النهر. وأدركتُ بصورة أفضل، وأنا أتنزه على هذه الضفة، كم كان صعباً على كيرا أن تهجر مكاناً مماثلاً.

ـ إني لمتأثرة جداً لقدومك حتى هنا، أدريان. كانت نهاية الأسبوع هذه في لندن لحظة رائعة، رائعة ولكن...

كان لا بد أن أقاطعها، إذ لم تكن لدي الرغبة خاصة في سماع ما ستقوله لي، فقد كنت تخيلته قبل سفري من لندن بوقت طويل. ربما ما تم ذلك، أخيراً، بمزيد من الوعي، لكن المسألة لم تكن هناك.

لماذا أجبتُها بسرعة فائقة حتى أنها أساءت فهم نيتي، بينما كان الواقع عكس ذلك تماماً؟ لقد جئت حتى هنا، تحدوني الرغبة على معاودة رؤيتها، وسماع صوتها. والتعرف إلى نظرتها، ولو اتسمت بالعداوة، وملامستها، يساورني حلم ملحاح بضمها إلى صدري، وبتذوق طعم بشَرَتها أيضاً، لكني ما بحتُ لها بشيء من ذلك. بلاهة جديدة من قبلي أنا أو عزة نفس في غير محلها. الحقيقة هي أني لم أرد أن ترفض استقبالي، مرة ثانية، لكني لا أقول ثالثة.

أردفتُ قائلاً كي استهل مجدداً الشرح: حضوري هنا لا يتسم بأي طابع رومنسي، كيرا. يجب أن أكلمك في موضوع ما.

ـ يبدو أنه أمر جدي للغاية حتى أنك أتيت من مكان بعيد كل هذا البعد.

ها هو ذا نوع اللغز الذي، بجانبه، يقتصر تقييم عمق الكون برأيي على معادلة رياضية بسيطة. قبل بضع دقائق

تقريباً، بدت كيرا أنها تعارض فكرة قيامي بهذه الرحلة من أجل لقائها ثانية، والآن، وقد أثبتّ لها العكس، بدت مستاءة جداً.

قالت ويداها مثبتتان على خصرها: أوجز كلامك، لا بد من الالتحاق بفريقي.

ــ إذا كنت تفضلين، يمكن انتظار هذا المساء. لست حريصاً على فرض رأيي؛ في كل الأحوال، لا أستطيع السفر مجدداً هذا النهار، إذ ليس هنالك سوى رحلتين في الأسبوع تربطان لندن بأديس ابابا والرحلة القادمة لا تقلع طائرتها إلا بعد ثلاثة أيام.

ــ يمكنك البقاء ما شئت، هذا المكان يستقبل جميع الناس، باستثناء بقعة الحفريات التي أود كثيراً ألا تذهب للتنزه فيها من غير أن يُعنى أحد بإرشادك.

وعدتُها بذلك وتركتها تنهي نهارها. سوف نلتقي في غضون ساعات وتتّسع لنا السهرة بطولها لنتجاذب أطراف الحديث.

ــ قالت وهي تصعد الطريق: إجلسْ في خيمتي، ولا تنظر إلي هكذا. لم نعد في سن الخامسة عشرة. لو قضيت الليل في العراء لافترستك العناكب. قد أحسن الصنيع

بجعلك تنام مع الشبان، لكن شخيرهم أشد هولاً من عضة تلك العناكب أيضاً.

تناولنا العشاء بصحبة الفريق. كانت عداوة علماء الآثار تجاهي قد زالت منذ أن لم أعد ذلك الفيل الذي يتجوّل ببراءة وسط حفرياتهم؛ وكانوا بالأحرى كثيري الترحيب بي أثناء العشاء مغتبطين. في اعتقادي، أن يروا وجهاً جديداً، كان يتحفهم، علاوة على ذلك، بأخبار جديدة عن أوروبا. وكنت احتفظت في حقيبتي بجريدة وجدتها في الطائرة، فأحدثتْ وقعاً قوياً. تزاحم الجميع عليها ومن استولى عليها توجب عليه أن يقوم بقراءتها للآخرين. من الصعب استيعاب كم أن هذه الأخبار العادية في الجريدة ترتدي فجأة أهمية كبيرة في نظر أولئك الذين هم بعيدون عن ديارهم.

اغتنمت كيرا فرصة تحلّق فريقها حول النار لتجذبني على انفراد.

إنهالت علي باللوم وهي ترمقهم مستغرقين في قراءة الجريدة: بسببك أنت سيشعرون بالإرهاق غداً. الأيام منهكة، وكل دقيقة عمل تؤخذ في الحسبان. نحن نعيش على إيقاع الشمس، في الزمن العادي كان الفريق سينام الآن.

ــ أتصوّر إذاً أن هذا المساء ليس مساء عادياً.

تلتْ ذلك برهة صمت قصيرة، فنظر كل منا في اتجاه الآخر.

تابعتُ قائلاً: ينبغي أن أبوح لك أنلا شيء كان طبيعياً حقاً بالنسبة إلي منذ بضعة أسابيع. وتتابع هذه الأحداث غير الطبيعية ليس عديم الصلة بحضوري هنا.

أخرجتُ القلادة من جيبي ومددتها لها.

لقد نسيتِ هذا فوق منضدة سريري، جئت اليوم أرده إليك.

تناولت كيرا عقدها في راحة يدها وتأملته طويلاً، ولاحت على محياها ابتسامة جميلة.

قالت لي: إنه لم يعد ثانية.

ــ من هو؟

ــ ذاك الذي أهداه إلي.

ــ أأنت مشتاقة إليه إلى هذه الدرجة؟

ــ لا يمضي يوم من غير التفكير فيه والإحساس بأني مذنبة في حقه لأنني هجرته.

لم أكن أتوقع هذا ولزمني الكثير من الجهد لأجد رداً سريعاً لا ينم عن ارتباكي.

ــ إن كنت تحبينه إلى هذا الحد، فلن تعدمي وسيلة لإبلاغه به؛ إنهَ سيغفر لك، مهما كنتِ قد فعلت.

آثرت ألا أعرف المزيد عن ذاك الذي استمال قلب كيرا، كما لم أشأ أن أصلح بينهما؛ لكني قرأت في عينيها حزناً لا مثيل له.

ــ قد يتعين عليك أن تراسليه.

أجابت كيرا وهي تهز كتفيها: في ثلاثة أعوام، نجحتُ أن القّنه الكلام بلغة فرنسية وبعض مبادئ الإنكليزية، لكنه ما انفك يجهل القراءة. ثم لا أعرف أين أجده.

ــ ألا يعرف القراءة؟

ــ هل جئت حقاً حتى هنا لتحمل إلي بالضبط هذا العقد؟

ــ وأنتِ، هل نسيته حقاً في منزلي؟

ــ وما الضرر من ذلك، أدريان؟

ــ إنها ليست أي نوع من القلائد، كيرا. لو كنتِ على

الأقل تعرفين ذلك؟ إنها تتحلى بميزة غريبة على الأقل. شيء ما كنتُ أريد أن أتقاسمه معك، شيء حسن أهم مما تستطيعين تصوره.

ـ ألى هذا الحد؟

ـ أين استطاع صديقك الحصول عليها؟ من باعه إياها؟

ـ لكنك في أي عالم تعيش، أدريان؟ إنه لم يحصل عليها بل وجدها في فوهة بركان هامد، على بعد أكثر من مائة كيلومتر من هنا. لماذا تبدو محموماً إلى هذه الدرجة، ماذا في الأمر من أهمية كبرى؟

ـ أتعرفين ما يحدث عندما تقربين قلادتك من مصدر نور قوي؟

ـ أجل، أعتقد أني أعرف. حسناً، إسمع أدريان، عندما عدت إلىِ باريس أردتُ بدافع محض الفضول أن أعرف أكثر قليلاً عن هذا العقد. حاولتُ بمساعدة صديق أن نحدّد له تاريخاً، ولكن دون جدوى. ثم ذات مساء، وأثناء عاصفة رهيبة جداً، اخترقه الضوء فرأيتُ أكداساً من النقاط الصغيرة المنيرة تظهر على جدار غرفة الاستقبال، حيث كنتُ. وبعد قليل، حين نظرت من النافذة، وجدتُ نوعاً

من الشبه بين ما تراءى على الجدار وما كنتُ أراه في السماء، وشاء القدر أن يتقاطع درب كل منا لبعض الوقت في ما بعد. في ذلك الصباح، عندما غادرت منزلك في لندن، شعرت بالرغبة في أن أترك لك رسالة، لكني لم أجد الكلمات المناسبة. إذ ذاك تركتُ لك هذا العقد قائلة في نفسي، لئن كان ثمة شيء يمكن اكتشافه في هذا الخصوص، فهو منوط باختصاصك أنت وليس باختصاصي أنا. إن كان ما رأيته يشغل بالك أو يثير حماسك، فأنا مغتبطة لذلك. أترك لك هذه القلادة، إفعلْ بها ما تريد. إني غارقة في العمل هنا، إذ إن الفوز بالجائزة وقيادة هذا الفريق واستحقاق الثقة التي أولتني إياها، كل ذلك مسؤولية ضخمة، ولن يتوافر لي حظ ثالث، هل تفهمني؟ إنه لكرم أخلاق منك أن تأتي حتى هنا لتشاطرني قصتك، ولكن من مسؤوليتك أنت أن تواصل التحقيق إلى نهايته. أنا أحفر الأرض ولا يتّسع لي الوقت لأن يكون عقلي في النجوم.

كانت أمامنا شجرة خرنوب كبيرة، قصدتُ للجلوس تحت أغصانها ودعوت كيرا للمجيء إلى جواري. فسألتها: لماذا أنتِ هنا؟

ــ هل أنت تمزح؟

ولما لم أجبها رمقتني فرحة.

قالت، أهيم حباً في أن أخوض في الوحل، وبما أن الوحل كثير هنا، أتلذّذ بذلك!

ــ لا تتهكمي، فأنا لا أسألك ماذا تفعلين، وإنما أريد أن تشرحي لي لماذا أنتِ هنا فيَ أثيوبيا، وليس بالحري في مكان آخر.

ــ هذه أيضاً قصة جدّ طويلة.

ــ أمامي الليل بطوله.

ترددت كيرا بعض الوقت. ثم نهضت لتفتش عن قطعة حطب وعادت تجلس بجانبي.

قالت لي راسمة دائرة كبيرة على الرمل: قبل زماننا هذا بوقت طويل جداً، كانت القارات كلها متحدة.

ورسمت دائرة أخرى ضمن الأولى.

ــ كان مجموعها يشكل نوعاً من قارة هائلة ووحيدة، تُحْدق بها المحيطات وتعرف بــ «السوبر قارة بانجه». لقد اهتز الكوكب اهتزازات رهيبة، وبدأت صفائح الأرض البنائية تتحرك. وانشطرت «السوبر قارة» شطرين «لورآسيا في الشمال وكوندوانا في الجنوب. ثم انفصلت

إفريقيا وأصبحت بكاملها تقريباً جزيرة. وعلى مقربة من هنالك حيث تقيم الآن، ارتفع حاجز من الجبال بتأثير ضغط لا يقاوم. لم تكن هذه القمم الجديدة عديمة التأثير في المناخ. كانت قممها تحتجز الغيوم، وبانعدام المطر، بدأ تصحر أراضي الشرق».

«رأت القرود التي كانت تعيش على الأشجار، في منأى عن الوحوش المفترسة، رأت مساكنها تتقلص باستمرار. أشجار أقل، ثمار أقل، وأخذ الغذاء يتناقص وتعرض النوع لخطر الفناء. إسمع جيداً، هنا يأخذ التاريخ كامل معناه».

«وإلى الغرب قليلاً، في مقابل واد لا ينبت فيه بعد اليوم سوى أعشاب عالية، كانت الغابة تَستمر في البقاء. ومن أعالي بعض الأشجار التي ما زالت باقية، كان بإمكان القرود أن تشاهد تلك الأراضي التي يغزر فيها الغذاء.أترى، إن قانون التطور يقوم على التكيف مع البيئة من أجل ضمان البقاء، وغريزة البقاء هي أقوى مما عداها. عندئذ تركت القرود، بعد تغلبها على الخوف، الأغصان المورقة. في الجانب الآخر من السهل، جنة لن ينقص فيها القرود شيء».

«ها هي إذاً قرودنا في الطريق. ولكن عندما تم الانتقال عبر الأعشاب العالية على قوائم أربع، لم يعد في استطاعة

الحيوان أن يرى الشيء الكثير. لا الاتجاه الذي يجري السير نحوه ولا المخاطر التي تترصّدك. فما عساك تفعل لو كنت مكانها؟».

قلت مسحوراً بصوتها: لا أعرف.

ـ لعلك، على غرارها، تنتصب بالأحرى على قائمتيك الخلفيتين لترى بعيداً وتسقط على قوائمك الأربع لمواصلة السفر؛ وستنتصب مرة جديدة لتتأكد من وجهتك قبل متابعة طريقك، وهلمّ جرا إلى أن تجد التجربة مملة، وتضيق ذرعاً بالنهوض والنزول، وهكذا وأنت تتقدم على غير هدى، كنتَ تنحرف بلا انقطاع عن الوجهة التي حدّدتها لنفسك. كان لا بد أن ترسم خطاً مستقيماً وتخرج من هذا السهل المعادي، حيث يهجم الوحوش الضاربة، ليلة بعد ليلة، على أمثالك، لتبلغ الغابة سريعاً وتبلغ ثمارها الشهية. عندها لعلك كنت حاولتَ، ذات يوم، أن تمشي بسرعة أكبر، عقب انتصابك على قائمتيك الخلفيتين، كنت حاولت أن تبقى واقفاً.

«بطبيعة الحال، كانت مشيتك غير لبقة ومؤلمة، لأنّ لا هيكلك العظمي ولا عضلاتك مكتيفة في هذه الوضعية، لكنك كنت ستقاوم مدركاً أن بقاءك رهن بقدرتك على بلوغ وجهتك المنشودة. إن عدد القرود التي قضت في الطريق

جراء الإرهاق أو قتلتها الوحوش قد تكون قد أقنعتك بضرورة الإسراع في المضي قدماً وبوتيرة أسرع دائماً. كان يكفي أن يبلغ زوجان هدفهما حتى يتمكن النوع كله من النجاة. لم تعد بعد الآن، وعلى غير علم منك، وسط هذا السهل، ذلك القرد الذي كان، حتى البارحة، يقفز من غصن إلى غصن، ويعدو على قوائمه الأربع في أويقات هربه القصير على الأرض؛ على غير علم منك، كنتَ منذ ذلك الحين رجلاً صغيراً، يا أدريان، لأنك كنت تمشي. ورفضت الصفات الخاصة بنوعك لتخترع نوعاً آخر، بشرياً. هذه القرود التي كسبت التحدي غير المتوقع في كسب الأراضي الخصبة في المقلب الآخر من السهل، كانت أسلافنا. لا يهمّ ما إذا كان ما سأرويه لك لا يزال يثير غضب بعض رجال العلم، الحقيقة في هذا المضمار قلما تجمع عليها كلمة الناس عندما تظهر واضحة للعيان».

«قبل عشرين عاماً، اكتشف زملاء بارزون بقايا لوسي، فبات هيكلها العظمي أشهر من نجمة سينمائية. كان عمر لوسي ثلاثة ملايين سنة، واتفق العالم بأسره على اعتبارها جدّة البشرية، لكنه كان مخطئاً، لأنه بعد ذلك ببضعة عقود، اكتشف باحثون آخرون بقايا بشرية عرفت بـال Andipithecus Kadabba))، وله من العمر خمسة ملايين سنة، وكان غرْز رباطاته كما بنية حوضه وهيكله العظمي تثبت

لنا أنه هو الآخر ذو قدمين وهكذا، جرّدت لوسي من وضعها».

مؤخراً اكتشف فريق آخر عظاماً متحجرة لميت ينتمي إلى أسرة ثالثة من ذوي القدمين. وهي عظام أقدم لـ «أوروبيين» عاشوا لستة ملايين سنة مضت. هذا الاكتشاف قلب رأساً على عقب كل المعلومات التي كنا على علم بها منذ ذلك الحين. إذ لم يكن الأوروبيون يمشون وحسب، بل كانوا كذلك أقرب صلة بنا. إن التطور الجيني لا يعرف الارتداد إلى الوراء. وهذا ما أعاد جميع الذين اعتبروا أجداداً للبشرية إلى مرتبة أبناء عم بعيدين، وارجأ اللحظة المفترضة لحدوث الانفصال بين ذرية القرود وذرية أشباه البشر. ولكن من منا لا يزال بإمكانه أيضاً أن يدعي بصورة أكيدة أنه قبل الأوروبيين، كان ثمة آخرون تقدموهم؟ زملائي يبحثون عن الجواب في الغرب بينما أنا توجهت إلى الشرق. في هذا الوادي، عند أسفل هذه الجبال، وذلك لأني أعتقد بكل قواي أن الجد الأول للإنسان تجاوز عمره السبعة أو الثمانية ملايين سنة وأن بقاياه في مكان ما تحت أقدامنا. أتعرف الآن لماذا أنا في أثيوبيا؟

ــ كيرا، حسب تقديراتك الأكثر افراطاً، ما العمر الذي ترتئينه لأول جد بين أجدادنا؟

ــ لستُ أملك آلة سحرية حتى في تخيلاتي الأكثر غرابة. فقط عندما أحقق اكتشافاً سأتمكن من الإجابة عن سؤالك. ما أعرفه هو أن كل الناس على وجه الأرض يحملون المورثة (الجين) ذاتها. أياً يكن لون بشرتنا، فإننا ننحدر جميعاً من كائن واحد بالذات.

ــ كانت البرودة قد عملت على طردنا من التلة. جهّزت لي كيرا سريراً تحت خيمتها، وأعطتني غطاء ثم أطفأت الشمعة التي كانت تنيرنا. عبثاً حاولت أن أفقد هذه الفكرة بكل طاقاتي، وجودي بجوارها كان يسعدني، حتى لو لم نكن نتقاسم السرير نفسه. كنا غارقين في ظلام دامس، وسمعتها تتقلّب.

فسألتها: هل هنا في هذا المكان عناكب حقاً؟

قالت لي: لم أرها حتى اليوم بعد. ليلة سعيدة، أدريان. أنا مسرورة لوجودك هنا.

روما

كان إيفوري جالساً إلى طاولة الشرب في مقهى يقوم وسط مطار فيوميتشينو. نظر إلى ساعة الجدار التي تعلوه تماماً واستغرق مجدداً في جريدة الـ «كورييره دللاسيرا».

جلس بجانبه رجل على مقعد بلا ظهر.

ـ آسف، إيفوري، حركة السير ما زالت أسوأ مما هي عادة. ما الذي يمكنني أن أخدمك به؟

ـ لا شيء تقريباً، عزيزي لورنزو، سوى أن تشاطرني المعلومات التي في حوزتك.

ـ ما الذي يجعلك تفترض أني أملك معلومات قد تعنيك؟

ـ حسناً، لنلعب هذه اللعبة بألطف ما يمكن من الطرق. سأبدأ إذاً أولاً وأقول لك كل ما أعرفه. إن الخلية، على سبيل المثال، تم تشكيلها مجدداً، وإن ذاك الذي حدقتَ إليه هو في الوقت الراهن في أثيوبيا، وأنه التحق بعالمة الآثار الشابة؛ وأعرف أيضاً أن للصين هنالك مصالح اقتصادية متعددة، وقد احتفظتْ فيها بدعم قيّم، وما زلتُ اصطنع

المكر لأعرف أن على الآخرين أن يتساءلوا عن ضرورة دعوة الصينيين إلى طاولتهم. لنرَ ماذا أستطيع فعلاً أن أعلمك من أمور أخرى؟ إن إيطاليا احتفظت بدورها ببعض العلاقات مع أثيوبيا؟ وأنك، إذا كنت الرجل ذاته الذي عرفته، حفزت واحداً أو العديد من عملائك؟ إني أبحث، أبحث، أنتظر، لدي بالتأكيد أمور أخرى صغيرة أرويها لك. آه أجل، لم تبلغ أحداً مشاريعك، بقصد الإبقاء على وضع اليد وربما لتولّي مراقبة العمليات في الوقت المحدّد.

ــ إنك لم تأت إلى هنا لتحمل معك اتهامات مثيرة للضحك، أتصور أنَ حديثاً هاتفياً كان يفي بالمطلوب.

ــ هل تعلم، لورنزو، ما هي القوة الكبرى في مهنتك، في أيامنا هذه؟

ــ أنا على يقين من أنك ستعلمني إياها.

ــ ألا تخضع لأية تكنولوجيا. لا لهاتف، ولا لحاسوب، ولا لبطاقة مصرفية. تذكّر كيف كانت الجاسوسية مسألة معقدة عندما لم يكن لهذه القذارات التافهة وجود بعد، لم يعد اليوم في ممارسة هذا الفن أي لذة. فأول أبله يشعل هاتفه المحمول، يباشر بتعيين موقعه بفضل بطارية من الأقمار الصناعية خلال بضع دقائق تقريباً. لا شيء يعوّض أبداً عن ارتشاف فنجان قهوة مع صديق قديم في غفلة

مقهى في مطار.

ــ لم تقل لي بعدُ ما تريده.

ــ أنت على حق، كدت أنساه. مضى زمن طويل كنتُ أدّيت لك بعض الخدمات، أليس كذلك؟ غير أني لن أناشد اعترافك بالجميل، ولا أقول إن ذلك لن يتحقق ذات يوم، لكن ما أتمناه اليوم لا يبرّر تخلّي عن مثل هذه الورقة الرابحة، إن ذلك سيكون ثمنه غالياً جداً. كلا، كل ما أطلبه منك في الواقع هو أن تهيئ لي الوسائل التي تتيح لي التقدم قليلاً على الآخرين. لن أقول شيئاً عن دسائسك، وبالمقابل أخبرني بما يجري في وادي أومو. سأكون على قدر كبير من الشهامة، عندما سيحلّق أفراخ اليمام عندنا باتجاه بقاع أخرى، عندئذ سيتعين علي أن أوافيك بالأخبار. إعترف أن وجود معتوه لا تراه العين على رقعة الشطرنج هو من أهم دواعي الحظ لمن يمتلكه في معسكره.

ــ أنا لا ألعب إلا البوكر، إيفوري، ولست معتاداً على قوانين الشطرنج. ما الذي يحملك على الظن بأنهما سيغادران أثيوبيا؟

ــ أه، من فضلك، لورنزو، لا تعمد إلى هذه الأمور فيما بيننا، ولا تحسبني غبياً. لو كنتَ تعتقد أن عالمنا الفلكي ذهب ليغازل حبيبته، لما كنتَ سارعتَ إلى إيفاد

رجالك إلى هنالك.

ــ لكني لم أقدم يوماً على مثل هذا العمل!

سدّد إيفوري حساب مشروبه ونهض، ثم ربّت كتف جاره.

ــ سعدتُ، لورنزو، لرؤيتك مجدداً، بلغ زوجتك تحياتي اللطيفة.

انحنى الاستاذ العجوز ليلتقط حقيبته وابتعد، فلحق به لورنزو في الحال.

ــ حسناً، لقد اقتفى رجالي أثره في مطار أديس ابابا، كان استأجر طائرة صغيرة للذهاب إلى جينكا. وتم الاتصال هناك.

ــ هل اتصل رجالك به؟

ــ بطريقة مغفلة تماماً، أصعدوه معهم في الطريق وانتهزوا الفرصة لوضع جهاز مراقبة في أمتعته، جهاز إرسال صغير متوسط المدى. إن حديثه مع عالمة الآثار الشابة تلك التي تكلمتَ عليها يظهر أنه لم يفهم بعد ماذا يحدث، لكنه ليس بعيداً عن بلوغ الحقيقة، ليست المسألة إلا مسألة وقت، لأنه اكتشف بعض خصائص الأداة.

سأل إيفوري: أية خصائص؟

أجاب لورنزو من دون أن يبدي من الاهتمام أكثر مما أبدى: كما قلت لك، إنها خصائص لم نكن نعرفها، ولم نسمع كل ما دار من حديث بينهما، وجهاز المراقبة مخبّا بين أمتعته. يتعلق الأمر بقذف نقاط عندما تُقرَّب الأداة من مصدر نور ساطع.

ـ أي نوع من النقاط؟

ـ تحدّث عن سديم، لعله يقصد سديم البجع، أتصوّر أنها عبارة إنكليزية.

ـ يا لجهلك المصطنع، صديقي المسكين! إن سديم البجع موجود في كوكبة الوزّ العراقي على مقربة من نجم الدنب. كيف لم أفكر في ذلك قبل الآن؟!

كان هياج إيفوري المفاجئ كبيراً لدرجة أن لورنزو انتابته الجفلة.

ـ ها هوذا ما يبدو أنه أثار حماسك بشدة.

ـ ثمة ما يبرّر ذلك، فهذه المعلومة تثبت كل ما كنت أفترضه.

ـ إنك باقتراحاتك، إيفوري، تنحيّت عن الجماعة؛ أريد

فعلاً أن أمدّ لك يد المساعدة تذكاراً للماضي، ولكن لا تسئ إلى مكانتي بحماقاتك.

أمسك إيفوري بربطة عنق لورنزو، وشدّ العقدة من جديد وبسرعة كبيرة بحيث لم يعد لدى هذا الأخير متسع من الوقت ليقاوم، فقد بدأ يشعر بنقص الهواء واحمّر وجهه بلمحة بصر.

ـ لا تفهمني أبداً، لا تعاملْني بمثل هذه الطريقة! أنتم مجموعة حمير، تخافون الاقتراب من الحقيقة، كما كان الرهبان الأكثر ظلامية قبل ستة قرون. وأنتم لا تستحقون، على غرارهم، بالاضطلاع على المسؤوليات الموكلة إليكم. عصابة عاجزين!

كان مسافرون توقفوا، وقد تملكتهم الدهشة إزاء المشهد. أرخى إيفوري قبضته ووجّه إليهم ابتسامة مطمئنة. تابع المارة طريقهم وعاد صاحب الحانة إلى مشاغله. كان لورنزو قد حلّ ياقة قميصه ومضى يستنشق نفحات من الهواء كبيرة.

قال لورنزو وهو يحاول كظم نوبة سعال: المرة القادمة، إذا أقدمت على عمل كهذا، سأقتلك!

ـ بشرط أن تتمكن من ذلك، أيها الدعيّ الصغير! لكننا

طالما تشاجرنا على هذا النحو، فلا تُظهر لي قلة الاحترام، هذا كل ما في الأمر.

عاود لورنزو الجلوس على مقعده وطلب كوب ماء كبير.

استأنف إيفوري الكلام: ماذا تفعل فراخ يماماتنا في هذه اللحظة؟

سبق أن قلتُ لك ذلك، إنها على بعد ألف فرسخ من أن يساورهم الشك في شيء ما.

ـ على بُعد ألف أم مائة فرسخ؟

ـ اصغ إلي، إيفوري، لو كنتُ مسؤولاً عن العمليات، لصادرت الأداة المذكورة منذ وقت طويل، طوعاً أو كرهاً، وحلّت المشكلة. من ناحية ثانية، يخيّل إلي أن هذا القرار الذي ينادي به عدد من اصدقائنا سيتم اتخاذه بالاجماع، إن عاجلاً أو آجلاً.

ـ إني أدعوك ألا تصوّت بهذا الاتجاه وأن تستخدم نفوذك كي يقتدي بك الآخرون.

ـ لن تحاول أن تملي علي أيضاً السلوك الذي انتهجه.

ـ كنتَ تخشى أن تسيء إليك حماقاتي، فما الذي

سيحدث لو علمت الجماعة أننا تلاقينا؟ يمكنك بكل تأكيد أن تنكر حصول ذلك، ولكن، في رأيك، كم من عدسات مراقبة قامت بتصويرنا منذ أن شرعنا في النقاش؟ إني على يقين أن مشادتنا الصغيرة لم تمرّ من غير أن تلفت الانتباه. لقد قلتُ لك، هذه الوفرة في وسائل التكنولوجيا قذارة حقيقية.

ـ لماذا تفعل هذا، إيفوري؟

ـ لأن أصدقاءك سيكونون حقاً قادرين على الاقتراع بالإجماع على اقتراح في مثل الغباء الذي ذكرته منذ قليل، وليس وارداً أن يرفع أي شخص أصبعه الصغرى على فرخَي يمامنا اللذين ربما سيقومان أخيراً بتلك الأبحاث التي خفتم القيام بها حتى هذا الحين.

ـ هذا بالضبط ما كنا نسعى إلى تحاشيه منذ أن تم اكتشاف الأداة الأولى.

ـ والآن هناك أداة ثانية ولن تكون الأخيرة، لذلك سنبذل أنا وأنت كل ما في وسعنا كي نسمح لمن هم في حمايتنا ببلوغ النجاح. أولوية المعرفة، أليست هي التي تحفزك؟

ـ إنها هي التي تحفزك أنت، إيفوري، ولا علاقة لها بي.

ــ هيا، لورنزو، لا أحد ضحية الخداع حتى بين هذه الجماعة من الناس المحترمين جداً.

ــ إذا كان فرخا يمامتك، كما تسميهما، يدركان أهمية اكتشافهما ويعلنان عنه، فهل تعي مدى الخطر الذي يعرّضان العالم له؟

ــ أي عالم تتحدث؟ عن ذلك الذي لا يتمكن قادة الأمم الأكثر قوة من الاجتماع دون إثارة الفتن؟ أو العالم الذي تختفي فيه الغابات بينما تذوب ثلوج القطب الشمالي كالثلج تحت أشعة الشمس؟ أو العالم الذي يموت فيه معظم الكائنات البشرية من الجوع والعطش في حين تترنح أقلية من الناس على رنة الجرس في وول ستريت؟ أو العالم الذي يتعرض لرهبة وإرهاب جماعات صغيرة متعصبة تقتل باسم آلهة وهمية؟ أي هذه العوالم يملأ قلبك رعباً أكثر من سواه؟

ــ لقد جنّ جنونك، إيفوري!

ــ كلا، أريد أن أعرف. من أجل هذا، أحلتموني جميعاً على التقاعد، كي لا يتعيّن عليكم النظر في المرآة. أنت تعتقد أنك إنسان شريف، لأنك تذهب إلى الكنيسة يوم الأحد، لكنك تعاشر المومسات يوم السبت؟

ـ وأنت، ألعلك تعتقد أنك قديس؟

ـ لا وجود للقديسين، يا عزيزي المسكين، إنما أنا لم يعد عضوي ينتصب منذ زمن بعيد، وهذا يؤمن لي الحماية من بعض النفاق.

أنعم لورنزو النظر طويلاً في إيفوري، وضع كأسه على منضدة الشرب ثم نهض عن مقعده.

ـ سوف تكون أول المطلعين على ما سأطلع عليه. أمنحك يوماً سلفاً، لا أكثر. إما تقبل أو تترك. خذ بعين الاعتبار أن هذا يمحو كل ديوني تجاهك. إن الثمن المدفوع لا يعتبر باهظاً، ولا وجود لـ «شاه مات» في لعبة البوكر.

غادر لورنزو المكان. ألقى إيفوري نظرة جديدة على ساعة الحائط فوق المشرب؛ الرحلة إلى أمستردام ستقلع في غضون خمس وأربعين دقيقة، وليس لديه وقت يضيعه.

وادي أومو

كانت كيرا لا تزال نائمة، فنهضتُ وخرجت من الخيمة مثيراً أقل ما يمكن من الضجيج. كان المخيم غارقاً في السكون. تقدمتُ حتى مؤخرة التلة. كان نهر أومو، إلى أسفل، يغشاه ضباب خفيف. بعض الصيادين قد انهمكوا بشؤون قواربهم الخفيفة.

قالت كيرا من خلفي: إنه لجميل، أليس كذلك؟

قلت لها ملتفتاً نحوها: لقد عانيت من كوابيس، هذه الليلة. كنت تتقلبين في كل الاتجاهَات مطلقة صيحات خافتة.

ــ لا أتذكر شيئاً. ربما حلمتُ ما دار في محادثتنا مساء أمس؟

ــ أبإستطاعتك، كيرا، أن تقوديني إلى المكان الذي تم فيه العثور على قلادتك؟

ــ لماذا؟ وما الفائدة من ذلك؟

ــ الحاجة إلى تعيين مكان محدد، يساورني شعور مسبق.

ــ لم أتناول الشاي بعد، إتبعني فأنا جائعة، وسنتناقش حول الموضوع أثناء الفطور.

حينما عدت إلى الخيمة، ارتديت قميصاً نظيفاً وتحقّقت في حقيبتي من أنني جلبتُ بالفعل كل المعدات التي أنا بحاجة إليها.

كانت قلادة كيرا كشفت لنا عن قطعة سماء لا تتوافق مع قطعة عصرنا. لذا كنتُ مضطراً أن أعرف المكان الدقيق الذي تركه فيه آخر من استخدم هذه الأداة. إن القبة المرصعة بالنجوم التي يمكن مشاهدتها في ليلة صافية، تتبدل يوماً بعد يوم. وسماء آذار تختلف عن سماء تشرين الأول. لكنّ مجموعة من الحسابات قد تسمح بأن أعرف في أي فصل اكتُشفت هذه السماء التي يرقى تاريخها إلى أربع مائة مليون سنة.

ــ وفقاً لما قاله لي هاري، إنه اكتشفها في الجزيرة المركزية وسط بحيرة توركانا. وهو بركان هامد، تربته خصبة والمزارعون يتوجهون من حين لآخر للبحث عما يغذون به أراضيهم. لقد عثر على القلادة أثناء رحلة رافق فيها والده.

ــ إذا كان صديقك يتعذر وجوده، فهل يعيش أبوه في الضواحي القريبة؟

ــ هاري صبي يتيم الوالدين، أدريان.

كنتُ وشيْتُ بدهشتي، فإذا بكيرا تنظر إلي وهي تهز رأسها.

ــ ألم يخيل إليك أنني أنا وهو...

ــ لقد خيل إلي أن صديقك هاري أكبر سناً مما هو، هذا كل ما في الأمر.

ــ لا أستطيع أن أزوّدك بمزيد من الإيضاحات عن مكان اكتشافه.

ــ أنا لا أتقيد بحساب المكان متراً متراً على وجه التقريب. هل سترافقيني حتى هنالك؟

ــ كلا، بكل تأكيد، فالذهاب والإياب يستغرقان يومين على الأقل، ولا يسعني ترك فريق عملي. علي واجبات هنا.

ــ لو فكشتِ كاحلك سيتوقف كل شيء، أليس صحيحاً؟

ــ سأضع جبيرة وأستأنف عملي.

ــ لا أحد لا غنى عنه.

ــ أما عملي فلا أستطيع الاستغناء عنه، إن كنتَ تفضل

رؤية الأمور من وجهة النظر هذه. لدينا سيارة رباعية الدفع. وقد حفظت درس تجربتي الأخيرة. في وسعي أن أودعك إياها إن شئت، وينبغي فعلاً أن أجد لك في القرية شخصاً يكون بمنزلة دليل لك. إن انطلقت الآن فستبلغ البحيرة آخر العصر. إنه ليس ببعيد، غير أن الطريق المؤدية إليها كأني بها غير سالكة من أولها إلى آخرها. يجب أن تقود السيارة ببطء شديد. ثم عليك أن تجد زورقاً لبلوغ جزيرة الوسط. لست أدري كم ساعة تنوي قضاءها هنالك، لكنك إذا لم تتباطأ فستتمكن من العودة مساء الغد. وهذا سيؤمّن لك الوقت الكافي للعودة إلى أديس ابابا لكي تدرك طائرتك.

ـ لم يُتح لنا أن نرى بعضنا بعضاً إلا لفترة قصيرة.

ـ بما أنه يتوجب عليك الذهاب حتماً إلى البحيرة، فلا أحد يُعتبر مذنباً.

كتمتُ غضبي بأحسن ما استطعت وشكرت لكيرا تأمينها السيارة. رافقتني حتى القرية ومضت تتكلم مع زعيمها. بعد ذلك بعشرين دقيقة، كنتُ أنطلق مجدداً معه. لقد انقضى وقت طويل، لم يكن خلاله قد سنحت له الفرصة لزيارة بحيرة توركانا؛ كما لم يكن قادراً في مثل سنه أن يقوم بالسفر من طريق النهر. وكان مغتبطاً لاستفادته من

مركبة. وعدني بأن يقودني حتى الجرف القائم مقابل البركان. وما أن نصل إلى المكان حتى يجد لنا بسهولة قارباً خفيفاً. وبينما انتهى من إعداد بعض الحاجيات ومواكبة كيرا ثانية إلى المخيم، انطلقنا فوراً في الطريق.

ترجلت كيرا من السيارة الرباعية الدفع، دارت حولها وأتت تتكئ بمرفقيها على بابي.

ـ لا تتأخر طويلاً، لعله يتسنى لنا بعض اللحظات نقضيها معاً قبل عودتك. آمل أن تجد ضالتك المنشودة.

ما جئت أبحث عنه هنا كان متوافراً في الحقيقة تحت ناظري، ولكن كنت لا أزال أحتاج إلى بعض الوقت قبل البوح به.

كانت لحظة الرحيل قد أزفتْ فهممتُ باختراق الطريق الضيقة التي تصل الدرب بالمخيم. عندها طقطقت علبة السرعة، فنصحتني كيرا بغرز دواسة الواصل. وفيما أخذت السيارة تتراجع، بدأت كيرا تركض حتى وصلت بمحاذاتي.

ـ أبوسعك أن تؤخر رحيلك بضع دقائق؟

ـ نعم، بكل تأكيد، لماذا؟

ـ لكي أبلغ أريك أن يتولى قيادة الحفريات حتى غد

وأهيئ لي حقيبة. إنك في الحقيقة تدفعني إلى القيام بأي عمل كان.

أما زعيم القرية فكان يغط في غفوة على المقعد الخلفي، حتى أنه لم يلاحظ كيرا وقد لحقتْ بنا.

فسألتُ: أنصطحبه معنا، رغم ذلك؟

ـ قد يكون من غير اللبق أن نتركه على قارعة الطريق.

وأضفتُ قائلاً: ثم سيقوم بدور المرافق.

سدّدتْ كيرا إلي ضربة على كتفي وأشارت علي بالتقدم.

لم تبالغ كيرا، فالدرب كان سلسلة من الحفر الصغيرة، تشبثتُ بالمقود محاولاً مراقبة الاتجاه ومتجنباً الغوص في أرض رخوة. لقد اجتزنا في ساعة واحدة عشرة كيلومترات تقريباً؛ على هذا المنوال، لن يكفي النهار للوصول إلى شاطئ الأمان.

هزة أقوى من غيرها أيقظت راكبنا، فتمطى زعيم القرية ودلنا على درب يكاد لا يرى عند منعطف. فهمتُ من تأشيراته أنه يريد أن نسلك طريقاً مختصراً. حضتني كيرا على اتباع توصياته. كان الدرب منطمساً بأكمله، وكنا

نتسلق سفح تلة. فجأة، تراءى أمامنا سهل فسيح ذو بريق ذهبي صبغته أشعة الشمس. كانت الأرض، تحت وقع عجلاتنا، قد لانت، فتمكنت أخيراً من الإسراع قليلاً. بعد أربع ساعات، طلب مني الزعيم أن أتوقف فترجّل من السيارة وابتعد.

تبعناه أنا وكيرا، ومشينا في خطى دليلنا حتى حافة منحدر صخري. فأرانا الشيخ دلتا النهر في أسفل، وكانت بحيرة توركانا المهيبة تمتد على أكثر من مائتي كيلومتر؛ كان يمكن، من جزرها البركانية الصغيرة الثلاث، رؤية تلك التي تقع إلى الشمال فقط، وينبغي كذلك أن نسير فترة طويلة قبل الوصول إلى المكان المقصود.

على الضفة الكينية، كانت أسراب من طيور النحام تطير مشكلة منحنيات طويلة أنيقة في عرض السماء. بينما كانت فجوات الجبس تضفي على مياه البحيرة صبغاً بلون العنبر يتحول، بعد مسافة قليلة، إلى الأخضر. لقد فهمتُ الآن على نحو أفضل لماذا كانوا يسمونها بحيرة اليشْب (jade).

بعد أن صعدنا إلى سيارة الدفع الرباعي، سلكنا طريقاً مغطاة بالحجارة كي نصل إلى الطرف الشمالي من البحيرة.

كان المكان مقفراً باستثناء قطيع من الظباء. سرنا كيلومترات من دون أن نلتقي إنساناً واحداً. كانت الأراضي

التي بيّضتها الملاحات في بعض الأماكن تعكس نور الشمس لدرجة الانبهارٍ. وفي أماكن أخرى، كان ما يشبه النبات قد انتشر مسجلاً الغلبة على الصحراء. وسط مشهد تغشاه أعشاب عالية، انتصب رأس جاموس ضلّ طريقه.

أشارت لوحة مغروسة في وسط أي مكان أننا دخلنا إلى كينيا، وعبرنا قرية للبدو. كانت بعض البيوت المبنية بتراب جاف تشهد على أن بعض الناس قد توطنت في الأرض. وكانت الطريق، للالتفاف حول هضبة صخرية، تبتعد عن الضفة، فلم نعد، خلال بعض الوقت نرى البحيرة، وبدت هذه الطريق كأنها لا نهاية لها.

قالت كيرا: عما قليل، سنبلغ كوبي فورا.

كوبي فورا موقع أثري اكتشفه ريتشارد ليكي الاختصاصي بعلم الإنسان، الذي كانت كيرا معجبة بعمله. لقد كشف النقاب عن مئات الأحافير (البقايا المتحجرة)، من بينها هياكل عظمية تعود إلى الإنسان القرد الجنوبي، وكذلك كمية من أدوات حجرية. غير أن الاكتشاف الأبرز كان العثور على بقايا الإنسان الماهر (Homo habilis) السلف المباشر للإنسان، الذي كان يعيش قبل نحو مليوني سنة. وفيما كنا نجتاز موقع الحفريات، أدارت كيرا رأسها، فأدركتُ أنها تحلم في هذه اللحظة أن يعرّج يوماً مسافرون

أمام موقع أثري سيُعلَّم على أنه واحد من اكتشافاتها. بعد ذلك بساعة واحدة، كنا على وشك الوصول إلى نهاية رحلتنا.

كان بعض الصيادين على ضفة البحيرة. تكلم الزعيم معهم، وكما كان وعدنا، نجح في أن يُركبنا في قارب خفيف مزوّد بمحرك. أما هو فآثر البقاء على الضفة. كان قد قام بهذا السفر الطويل ليتأمل هذا المشهد السحري للمرة الأخيرة في حياته.

بينما كنا نبتعد عن الضفة، لمحتُ في البعيد سحاب غبار، إنها بالتأكيد سيارة، لكن نظري تحول إلى جزيرة الوسط، تلك التي كانوا يسمونها أيضاً الجزيرة ذات الوجه الغريب، لأن ثلاثاً من فوهاتها تشكل رسم عينين وفم. وكانت الجزيرة الصغيرة تحوي من الفوهات اثنتي عشرة بالإجمال. كل واحدة من الفوهات الثلاث الرئيسية تضم في وسطها بحيرة صغيرة. ما أن نزلنا على شاطئ رملي أسود، حتى حثتني كيرا على تسلق جدار كثير الأنحدار. كانت الأرض البازلتية تتفتت تحت أقدامنا، فاحتجنا إلى ساعة من الزمن تقريباً لبلوغ قمة البركان. كان المنظر من عل، على ارتفاع ثلاثمائة متر، مؤثراً. ولم يكن في ميسوري أن أمتنع عن التصور بأن وحشاً خرافياً ذا قدرة

مدمرة لا حصر لها غلبه النعاس تحت مياهها الهادئة.

وضّحت لي كيرا، رغبة منها في طمأنتي، أن الاندلاع البركاني الأخير يعود إلى أزمنة سحيقة، لكنها أضافت بنبرة تهكمية، إن الفوهة عرفت، في العام 1984، روائح كريهة لا يمكن اعتبارها، بالمعنى الدقيق للكلمة، ثوراناً بركانياً، إلا أنها كانت مبعث آلام مبرحة كافية لرؤية سحب بخار الكبريت من ضفاف البحيرة الكبيرة. هل كانت هذه الارتجاجات هي التي أدت إلى إنبثاق القلادة التي تحملها حول عنقها من أحشاء الأرض؟ وإذا كانت الحالة كذلك، فمنذ كم من الزمن كانت تستريح هناك؟

قالت لي كيرا: هنا، في هذا المكان، وجدها هاري. هل هذا يعنيك في شيء؟

أخرجت من حقيبة ظهري جهاز تعيين الموضع عبر الأقمار الصناعية الذي حملته معي وحددت الموضع الذي يشير إليه. كنا نتواجد في الموقع 3 و 29 إلى الشمال من نقطة الاستواء وفي 36 و 40 إلى شرقها.

ـ هل وجدتَ ما كنتَ تبحث عنه؟

أجبتها: ليس بعد، ينبغي لدى عودتي إلى لندن أن أقوم بمجموعة من الحسابات.

ـــ وما الغرض منها؟

ـــ لأتحقق من التوافق القائم بين القبة السماوية التي نستطيع مراقبتها من هنا، وتلك التي كشفتها قلادتك. لعلي بذلك أحصل على معلومات قيمة.

ـــ وأنت لا تقدر أن تجد هذه الإحداثيات على الخارطة؟

ـــ بلى، ولكن ليس كما لو كان المرء على أرض الواقع.

ـــ أين يكمن الاختلاف الكبير؟

ـــ ليس الشيء نفسه، هذا كل ما في الأمر.

وإذ قلتُ ذلك، احمّر وجهي كالأبله. لو كان والتر هنا لقال لي: «يا لك من أخرق!».

كانت الشمس تنحدر نحو الغروب، وعلينا أن نهبط ثانية باتجاه الشاطئ الرملي الأسود والوصول إلى قاربنا. سوف ننام، هذا المساء، في القرية البدوية التي مررنا بها أثناء اجتياز الطريق.

وبينما كنا ندنو من الضفة، لاحظنا أنا وكيرا أن شيئاً ما ليس على ما يرام. كانت أبواب السيارة مفتوحة كلها، وزعيم القرية قد توارى عن الأنظار.

قالت كيرا لكي تطمئن بالاً: لا بد أنه يرتاح في الداخل، ولكن كنا كلانا مضطربي الخاطر.

تركنا الصيادون على الضفة وما لبثوا أن اتجهوا إلى عرض النهر عائدين إلى بيوتهم قبل هبوط الظلام. اندفعتْ كيرا مسرعة نحو السيارة فتبعتها لأتحقق أن أسوأ الشر قد حدث.

كان زعيم القرية ممدداً فوق التراب، قد سقط على وجهه. فيما كان خيط دم رفيع ومسودّ الآن سال من رأسه ليختفي بين الحصى. إنحنتْ عليه كيرا وقلبته بمنتهى الحذر، غير أن عينيه الزجاجيتين لم تدعا أي شك يحوم حول مصيره. جثت كيرا على ركبتيها ورأيتها تبكي للمرة الأولى.

قالت بحسرة: لا ريب أنه تعرّض لوعكة وهوى أرضاً، كان علينا ألا نتركه وحده على الإطلاق.

احتضنتها بين ذراعيّ وبقينا هكذا نسهر على جثة هذا الرجل الذي أثّر موته فيّ تأثيراً غريباً.

كان الليل ذو الزرقة العميقة يتألق فوقنا وفوق الرقاد الأخير لزعيم قبيلة عجوز. كنتُ آمل، في هذه الليلة، أن تلتمع نجمة أخرى في السماء.

ــ يجب صباح الغد إبلاغ السلطات.

قالت لي كيرا: لا، بالأخص، نحن هنا في أرض كينية، لو تدخلت الشرطة سيحتفظون بالجثة ما دام التحقيق مستمراً. ولو قاموا بتشريح الجثة لاعتبرت العملية تحقيراً للقبيلة. يتعين علينا أن نحملها إلى ذويها لتوارى التراب خلال الأربع والعشرين ساعة. إن قريته سترغب في تكريمه كما يقتضي الواجب، فهو شخصية مهمة بالنسبة إليهم، وهو القدوة لهم وعنوان معرفتهم وحكمتهم. لا ينبغي مخالفة طقوسهم. إن مجرد موته على أرض غريبة ستعتبر مأساة. وكثيرون سوف يرون في ذلك ضرباً من اللعنة.

لقد قمنا بلفه في غطاء، وعندما وضعناه في مؤخرة السيارة الرباعية الدفع، لاحظت آثار عجلات بجوار مركبتنا. فكرت ثانية في سحابة الغبار التي لمحتها قبل ذلك بقليل حين توجهنا إلى جزيرة الوسط. هل من الممكن ألا يكون موت هذا الزعيم العجوز جراء حادث وعكة وسقطة قاتلة فحسب؟ ما الذي جرى، في الحقيقة، أثناء غيابنا؟ وبينما كانت كيرا مختلية بنفسها، كنتُ أنا أتفحص التراب بفضل مصباح جيب وجدته في علبة السيارة. آثار نعال كانت تحيط بسيارتنا وهي من الكثرة بحيث لا يمكن

اعتبارها لنا وحدنا. فهل كانت للصيادين الذين رافقونا؟ بالرغم من ذلك، لا أتذكر أنهم ابتعدوا عن زورقهم. وإني كنتُ أقسمت بكل طيب خاطر أننا توجهنا لملاقاتهم. آثرتُ عدم الحديث إلى كيرا لأنها كانت حزينة جداً، ولم أكن راغباً في إثارة قلقها بشكوك لا أساس لها إلا من بعض آثار مطاط وأحذية منطبعة على درب ضفة البحيرة المغبر.

نمنا ساعات على الأرض مباشرة. وعند الفجر قادت كيرا السيارة، وبينما كنا نتوجه نحو وادي أومو قالت بصوت خافت:

ـ أبي أيضاً قضى بالطريقة نفسها. كنت قد ذهبت لشراء بعض الحاجيات، ولدى عودتي وجدته منطرحاً على درج مدخل البيت.

تلعثمتُ وقلت بلهجة عديمة اللباقة: أنا آسف.

ـ الحقيقة أن ما زاد الوضع رهبة لم يكن رؤيته هنالك ممدداً على الدرج، رأسه إلى أسفل، ورجلاه أمام الباب؛ لا، لقد حدث ما هو أشد رهبة في ما بعد. عندما حملوا جثته، عدْتُ إلى غرفته ورأيت الأغطية مجعّدة، فعرفت الحركات التي ندت عنه وهو يقوم هذا الصباح، خطواته الأخيرة عند نهوضه من الفراش. تخيّلته يمشي صوب الستار الذي أزاحه قليلاً ليرى الحالة الجوية السائدة. كان ذلك بالنسبة

إليه عملاً طقسياً، يهمه أكثر من جميع الأخبار التي يمكن أن يقرأها في جريدته. وجدتُ فنجان قهوته في مجلى المطبخ، أما الزبدة فما زالت على المائدة بقرب قطعة خبز باشر بأكل نصفها.

«حين ننظر إلى الأدوات المستخدمة يومياً، كسكينة للزبدة مثلاً، نلاحظ أن أحداً فارقنا وأنه لن يعود أبداً؛ إنها سكينة زبدة بلهاء تقطع إلى الأبد شرائح من الوحدة في حياتنا».

فهمتُ، وأنا استمع إلى كيرا، لماذا حملتُ عقدها إلى اليونان، ولماذا لم يفارق جيبي منذ اليوم الذي كانت تركته فوق منضدة سريري قبل سفرها.

بلغنا القرية في نهاية النهار. لما خرجت كيرا من السيارة، أدرك المرسيون أن أمراً خطراً قد حدث. فما لبث أولئك الذين كانوا في الساحة المركزية أن توقفوا عن الحركة، فرمقتهم كيرا باكية، لكن أحداً منهم لم يقترب ليحاول مواساتها. فتحتُ الباب الخلفي وأمسكتُ بجثة العجوز بين ذراعي، ثم وضعتها على الأرض حانياً رأسي علامة الخشوع، فسرى في مجلس القوم أنين متواصل؛ رفعت النساء أيديهن إلى السماء وشرعن في الصراخ، في حين دنا الرجال من جثة زعيمهم. ورفع ابنه الغطاء

ولاطف ببطء جبين والده. ثم انتصب وحدّق إلينا بقساوة، منقبض الوجه. أدركتُ من نظراته أنه لم نعد مرحّباً بنا. ما الجدوى بالنسبة إليهم مما جرى، المهم أن زعيمهم العجوز انطلق معنا حياً يرزق وها نحن نعيده إليهم ميتاً. شعرتُ بالعداوة تجاهنا تتضخم في كل لحظة. فأمسكت بكيرا من ذراعها وقدتها بتمهل نحو السيارة.

قلتُ لها: لا تلتفتي وراءك.

تجمّع القرويون حولنا، عندما كنا ندخل السيارة الرباعية الدفع، وأحاطوا بالمركبة. وفي الحال قذف رمح على غطاء السيارة، وانتزع رمح ثان المرآة العاكسة، وكان لدى كيرا الوقت الكافي لتزعق فيّ بأن أنحني، وإذا برمح ثالث اخترق واجهة السيارة. كنتُ قد هيأتها للتراجع، فوثبتْ فعدّلت وجهتها دائراً إلى الخلف واندفعت مسرعاً إلى خارج القرية.

لم تقتفِ الزمرة الغاضبة أثرنا، فوصلنا بعد عشر دقائق إلى المخيَم. حين رأى أريك حال السيارة ذات الدفع الرباعي وهزال كيرا، تولاه القلق. رويتُ له قصة الأحداث المؤسفة. عندها تحلق فريق علماء الآثار بأجمعه حول النار للبت في السلوك الذي ينبغي انتهاجه.

وافق كل واحد منهم على التنبؤ بأن مستقبل الفريق

معرض للخطر. قررتُ، منذ الغد، العودة إلى القرية لأتحدث إلى نجل الزعيم كما يليق بـ «رجل رفيع التهذيب» وسأشرح له أنْ لا يد لنا البتة في غياب والده المفجع.

أثار كلامي غضب أريك وأظهر إلى أي حد كنتُ أجهل خطورة الموقف. فصاح: نحن لسنا في لندن، ولن يهدأ غضب القرويين بالجلوس حول فنجان شاي. إن نجل الزعيم يرانا مذنبين ولن يعيّن وقتاً طويلاً قبل أن يصبح المخيم عرضة للانتقام.

قال أريك: عليكما أن تحتميا في مكان آمن، عليكما الرحيل من هنا.

نهضت كيرا معتذرة من زملائها، إنها لم تكن على ما يرام، وعند مرورها بالقرب مني، رجتني أن أنام في مكان آخر، لأنها كانت في حاجة إلى أن تلبث وحدها ففارقتُ الجماعة لأسير في أثرها.

قالت لي من غير أن تبطئ سرعة خطوها: يمكنك أن تكون فخوراً بنفسك، فقد قلبتَ الأمور رأساً على عقب.

ــ ولكن، تباً لكِ، كيرا، لستُ أنا من قتل هذا العجوز!

ــ لا نستطيع حتى أن نشرح لذويه مما توفي، سيتوجب علي أن أتخلى عن حفرياتي لتفادي وقوع مجزرة

عامة. إنك قوّضت عملي وآمالي، وفقدتُ لتوي كل شرعية للبقاء هنا، ولا بد أن يفرح أريك ليخلفني في مهمتي. لو لم أصطحبك إلى جزيرتك اللعينة، لما حدث شيء من هذا كله. إنك على حق، فلستَ أنت المذنب بل أنا!

ـ ولكن ما الذي أصابكم جميعاً؟! لماذا تتصرفون كأنكم مذنبون؟ هذا الرجل مات بسبب كبر سنه. كان يرغب في مشاهدة بحيرته للمرة الأخيرة. وقد أتحنا له الفرصة لتحقيق إحدى رغباته الأخيرة. أريد العودة إلى القرية منذ هذا المساء، وسأتحدث إليهم.

ـ بأية لغة؟ أ وتتكلم اللغة المورسية الآن؟

لزمت الصمت في مواجهة عجزي.

ـ سأصطحبك، صباح الغد، إلى المطار، وسأمكث أسبوعاً في أديس ابابا علّ الأمور تهدأ هنا؛ سننطلق وطلوع النهار.

دخلتْ كيرا خيمتها من دون أن تمسيني بالخير.

لم تكن لي أي رغبة في الالتحاق بالجماعة. كان علماء الآثار لا يزالون يتجادلون في شأن مصيرهم، وهم متحلقون حول نار المخيم. وكانت مقاطع من أحاديثهم المتنامية إليّ تثبت لي أن كيرا تنبأت عما سيجري هنا،

وأن أريك راح يوطّد سلطته على الآخرين. أي مكان ستجده عند عودتها؟ ذهبت أجلس على التلة لأنظر إلى النهر. كان كل شيء هادئاً جداً، شعرت بوحدتي وبمسؤوليتي عما كان يحدث.

إنقضت ساعة من الزمن، وإذا بي أسمع وقع خطوات من ورائي. إنها كيرا أتت تجلس بجانبي.

ــ لا أتمكن من استعادة هدوئي. لقد خسرت كل شيء هذا المساء، فلم يعد لي عمل، ولا مصداقية، ولا مستقبل، كل شيء تبدّد واضمحل. في المرة الأولى طردتني ريح الشمال، وها أنت، أدريان، كأني بك أصبحت عاصفة ثانية.

لاحظتُ، على العموم، أن امرأة حين تناديك باسمك في سياق الحديث، فهذا يعني أن لديها ما تؤنبك عليه.

ــ هل تؤمنين بالقدر، كيرا؟

ــ أوه، أرجوك ليس الآن، هل ستخرج من جيبك لعبة ألــ «تارو» وتسحب لي الأوراق؟

ــ أنا، ما آمنتُ بها يوماً، بل كرهت مجرد الفكرة بوجود القدر، لأن ذلك يعني إنكار حرية الإرادة وإمكانية القيام بالاختيار وتقرير مستقبلنا.

ـ أنا لستُ حقاً في وضع يساعدني على سماع فلسفتك التي لا تقدّر بفلسين.

ـ لا أؤمن بالقدر، لكني طالما تساءلت عن المصادفة. لو أنك تعرفين عدد الاكتشافات التي ما كانت لتتحقق لولا تدخلها في تيسير النجاح؟

ـ عندي أسبرين إن شئتَ، أدريان.

ـ أنت هنا لأنك تحلمين بالعثور على أثر الإنسان الأول، هلَ هذه ضالتك المنشودة؟ طرحتُ عليك السؤال أمسِ وتهربتِ من الإجابة عنه. في أحلامك الأشد غرابة، كم يَكون عمرَ هذا الإنسان الصفر؟

أعتقد أن كيرا ردت علي ممتعضة أكثر منها مقتنعة.

قالت لي: لو كان عمر الإنسان الأول خمسة عشر أو ستة عشر مليون سنة، لما تملكتني الدهشة أكثر مما دُهشتُ.

ـ وإذا جعلتك تكسبين ثلاثمائة وخمسة وثمانين مليون سنة دفعة واحدة، فماذا تقولين؟

ـ إنك تعرضت لمزيد من أشعة الشمس اليوم.

ـ إذاً، دعيني أصوغ هذه المسألة بطريقة مغايرة. هذه

القلادة غير القابلة للتأريخ، والتي نجهل تركيبتها، أما زلتِ تعتقدين أنها بالضبط عارض من عوارض الطبيعة؟

كنتُ قد أصبت الهدف. فمضت كيرا تحدّق في ملياً، ورأيت على ملامح وجهها تعبيراً أدهشني.

ـ في تلك الليلة العاصفة الشهيرة، ما رأيته على الجدار عندما ظهرت ملايين النقاط المضيئة بفضل البرق، كان في الواقع سديم البجع، مهد نجوم بين مجرتين.

سألت كيرا مذهولة: أ صحيح ما تقول؟

ـ أجل، صحيح، وثمة المزيد بعد. تلك الشريحة من السماء التي عكستها قلادتك ليست مماثلة تماماً لهذه التي تزينها فوق رأسينا. أما تلك القطعة فيعود تاريخها إلى أربعمائة مليون سنة. ماذا يطابق ذلك في سلمك الجيولوجي؟ هذا ما سألتها.

أجابتني، مندهشة: يطابق ظهور الحياة على الأرض.

ـ لدي أسباب وجيهة تحملني على الاعتقاد أن ثمة أدوات أخرى مماثلة لتلك التي تحملينها حول عنقك. إذا كانت جميعها ذات حجم متقارب، وإذا صحت حساباتي، عندئذ سنحتاج إلى أربع أخرى لعكس صورة كاملة للسماء. لغز غريب، أليس كذلك؟

ـ من المستحيل، أدريان، أن تكون خارطة للسماء قد أُعدت قبل أربع مائة مليون سنة!

ـ كنت أنت بالذات تقولين لي إن العالم بأسره كان يعتقد، لعشَرين سنة خلت، أن أقدم أسلافنا لا يتجاوز عمره الثلاثة ملايين سنة. تصوري لحظة أن نصل كل الأجزاء الناقصة، وما زلت أجهل كيف، لكننا نبرهن أنه، لأربعمائة مليون سنة مضت، شُكلت خارطة للسماء بدقة جديرة بوسائل ملاحظة لا يمكننا حتى افتراضها، فما هي النتائج التي تستخلصينها من ذلك؟

بقيت كيرا خرساء حيال أهمية مثل هذا الاكتشاف.

ما كنت لأفكر يوماً أن موت رجل عجوز سيضطرها إلى التخلي عن حفرياتها، لكني كنتُ آمل منذ سفري من لندن أن أقنعها بأن تتبعني.

بقينا كلانا صامتين، نرصد السماء حتى وقت متأخر من الليل.

منحنا أنفسنا بضع ساعات من النوم، ثم ودّعنا مع الفجر جماعة المخيم. تجمّع الفريق بكامله حول السيارة الرباعية الدفع لإلقاء تحية الوداع علينا. وكما تم الاتفاق بيننا ستوصلني كيرا إلى مطار أديس ابابا، بينما تبقى هي

في المدينة الوقت الكافي لتهدئة النفوس. وسوف يدير أريك الأبحاث أثناء غيابها، وستتصل به بصورة منتظمة مترقّبة إشارة العودة.

خلال السفر الذي استغرق يومين، لم نتوقف عن مساءلة أنفسنا حول القلادة العجيبة. ما معنى حضورها في ذلك البركان القديم وسط بحيرة توركانا؟ هل كان أحدهم بملء إرادته في ذلك المكان، لماذا؟ وعلى الخصوص متى؟

كان كل منا يعلم أن هناك على الأقل نموذجاً آخر يتميز بالخصائص المشابهة، حتى لو لم نتحدث عنها. كان ينبغي تجميع خمسة أجزاء منها لتشكيل سماء كاملة، لكن المسألة المهيمنة على تفكيرنا الآن هي معرفة مكان وجودها وكيف نستطيع وضع اليد عليها.

لبضعة أشهر خلت، فيما كنتُ أعيش على هضبة أطاكاما، ما كنت لأتصور قط ضرورة ربط مهاراتي كعالم فيزياء فلكي بمهارات اختصاصية في علم الإحاثة، بحثاً عن اكتشاف غير محتمل حدوثه.

كنا نباشر يومنا التالي من السفر، عندما تذكّرتْ كيرا مقالاً قرأته في مجلة قبل بضع سنوات. لهذه الذكرى الغامضة نحن مدينون بالرحلة التي تنتظرنا. هل أقدمنا على العمل لاحقاً بدافع غريزة علمية، نتيجة إحساس بقرب

حدوث شيء؟ إنني عاجز تماماً عن قوله. لكن كل شيء بدأ عندما سألتني كيرا إذا ما كنتُ سمعت الكلام على أداة ترقى إلى العصر البرونزي شبيهة باسطرلاب، جرى اكتشافها في المانيا. إذ إن كل فلكي جدير بهذا الإسم على علم بوجود اسطوانة «نبرا». فقد كشف عنها حفارون متخفون في منطقة الساكس العليا في نهاية القرن العشرين. تزن الأداة حوالي كيلوغرامين. وقد اتخذت هيئة ترس دائري يبلغ قطره ثلاثين سنتيمتراً، ويظهر عليه، ضمن صفيحة ذهبية مرصعة، هلال ونقاط صغيرة يستشف منها أنها أجرام سماوية. تكوينها بعيد عن التصديق، حتى أن علماء الآثار ظنوا في بادئ الأمر أنها صنيعة مزوّر. غير أن تأريخاً دقيقاً لها أثبت أخيراً أنها تعود فعلاً إلى ثلاثة آلاف وست مائة سنة. كما أثبتت بعض السيوف والحلي التي عثر عليها في المكان نفسه صحتها. ولإسطوانة نبرا، عدا طعنها في القدم، ميزتان فريدتان على الأقل، فالنقاط البارزة عليها تشبه نجوم الثريا السبعة، وهي مجموعة نجوم برزت في سماء أوروبا إبان ذلك العصر. أما الميزة الثانية فهي وجود قوس على الجانب الأيمن مقدارها إثنتان وثمانون درجة تطابق تماماً الفرق بين النقطة التي تشرق منها الشمس في نبرا فترة الانقلاب الصيفي والنقطة التي تشرق منها فترة الانقلاب

الشتوي. أما في ما يخص مهمة الأسطوانة، فقد أشيعت نظريات عدة عنها: من الجائز أنها خصصت للزراعة، فالانقلاب الصيفي يعلن بدء البذر، وظهور نجوم الثريا في السماء، وموسم الحصاد. إحتمال آخر، كانت إسطوانة نبرا أداة تعليم ونقل للمعرفة الفلكية؛ وتشهد، في كلتا الحالتين، على أن معرفة الإنسان في هذا الخصوص كانت، إبان ذلك العصر، أشد تقدماً بكثير مما كنا نفترضه.

كانت اسطوانة نبرا أقدم تمثيل للسماء معلوم حتى يومنا هذا، أقله حتى ظهور القلادة التي كانت كيرا تداعبها بين أصابعها، في الجزيرة المركزية لبحيرة توركانا...

ــ أي صلة يمكن أن تقوم بين اسطوانة نبرا وقلادتي؟

أجبتُ بسرور: لست أدري، لكنني أظن أن ذلك يستحق منا القيام بجولة صغيرة في ربوع المانيا.

كلما كنا نقترب من العاصمة، كنت أشعر بأن كيرا تنطوي على نفسها. هل كانت إمكانية حصول اكتشاف مهم هي التي تحول دون إحساسي بمتاعب السفر أم أنها فكرة النجاح في إقناع كيرا بمواصلة أبحاثها معي؟ للأسف، إن الهياج الذي كان يبعث فيّ الروح، لا يبدو متبادلاً: وفي كل مرة كانت لوحة إشارة تعلن عن المسافة التي تفصلنا عن أديس ابابا، كانت كيرا تستسلم مجدداً للأحلام وتتوه في

أفكارها.

مائة مرة، امتنعتُ عن سؤالها، ومائة مرة عدت إلى وحدتي مكتفياً بمتابعة الطريق.

كنا ركنّا السيارة الرباعية الدفع في محطة المطار، وتبعتني إلى نقطة انطلاق الركاب. كانت هنالك رحلة متوجهة إلى فرانكفورت غداً. فاشتريتُ بطاقتين من مكتب الشركة الجوية، لكن كيرا انتحت بي جانباً.

ـ أنا لا أرافقك في رحلتك، أدريان.

قالت إن حياتها قائمة هنا، وإنها ليست مستعدة لمثل هذا التنازل. ففي أسابيع أو في شهر على الأكثر، سوف تكون السكينة قد عادت إلى الوادي، وتكون هي رجعت إلى عملها.

عبثاً حاولت مجادلتها في أن الاكتشاف المشترك الذي سنكشف ربما النقاب عنه قد ينّم، ذات يوم، عن شيء خارق؛ أما هي فكانت لا تنفك تردد أن هذا السعي هو من نصيبي وليس من نصيبك أنت. وأدركتُ من نبرة صوتها أنها ثابتة العزم، وأنه لا يجديني في شيء أن ألح عليها.

بقيتْ لنا أمسية واحدة نقضيها في أديس ابابا قبل رحيلي، فطلبت منها معروفاً أخيراً، أن نجد لنا مطعماً

جديراً بهذا الإسم، مكاناً لن أخرج منه ومعدتي مهتاجة.

لقد كلّفني كثيراً تجاهلي أننا سنفترق غداً، ولكن لماذا تضييع الوقت القليل الذي بقي لنا أن نتقاسمه؟

تمالكت نفسي طوال العشاء، ولم أرضخ مرة واحدة، خلال النزهة التي قمنا بها لدى عودتنا إلى الفندق، لتجربة إرغامها على تغيير رأيها.

وفيما كنت أرافقها إلى غرفتها، ضمتني كيرا بين ذراعيها مسندة رأسها إلى كتفي وهمست في أذني أنها ستفي بالوعد الذي طلبته منها في لندن، بيد أنها لم تقبّلني.

كنتُ أكره فكرة الوداع في المطار، فسهرة العشية كانت حزينة كفاية، ومن غير المجدي زيادة الطين بلة. عند بزوغ الفجر، غادرت الفندق بعد أن أزلقتُ كلمة تحت باب غرفة كيرا. ما زلت أذكر أني كتبت كم أنا آسف لأني سببت لها العديد من المشكلات. وكنت أتمنى من أعماق قلبي أنها سوف تجد من جديد وبأسرع وقت هذه الحياة التي بنتها لنفسها بمزيد من الشجاعة. وبحتُ لها أيضاً بأنانية مسعاي، وبعدما أعربت لها عن شعوري بالذنب، اعترفت بأنني كنت أجهل كل شيء مما ينتظرني. معنى ذلك أني قمت منذ الآن باكتشاف، ما أعظم أهميته: أن

حضورها جعلني أنعم بالسعادة. كنت أشك فعلاً أن هذا الاعتراف عديم اللباقة، وتردّد قلمي مرات فوق قطعة الورقة قبل أن أخط عليها هذه الكلمات القليلة، ولكن ماذا يهم ما دامت كلمات صادقة.

كانت قاعة نقطة الانطلاق والوصول مكتظة بالمسافرين، حتى لتعتقد أن إفريقيا بأكملها قررت السفر هذا الصباح. لم يكن لرتل ركاب رحلتي نهاية. بعد انتظار طويل، ألفيتني جالساً في الصف الأخير من الطائرة. وبينما كانت أبواب المقصورة تنغلق، سألت نفسي ما لو كان من الأفضل أن أعود إلى لندن، وأضع حداً لما لم يكن في نهاية المطاف سوى وهم واسع. أعلنت المضيفة بعض التأخير، من دون أن تشرح مع ذلك السببَ.

ثم رأيتُ فجأة في الممر الجانبي، بين الركاب الذين يرتبون أمتعتهم في قسم الحوائج، كيرا تجر حقيبة ثقيلة في مثل وزنها. فاوضتْ جاري على إبدال مقعدهما، فقبل بطيب خاطر، وجلست إلى جواري متنهدة.

قالت وهي تربط حزامها: خمسة عشر يوماً، أتسمعني، في غضون أسبوعين أينما كنا، تضعني مجدداً في طائرة متوجهة إلى أديس ابابا. هل تعدني بذلك؟

وعدتُها.

خمسة عشر يوماً لاكتشاف الحقيقة حول قلادتها، أسبوعان لجمع ما فرّقته مائة مليون سنة، كانت تبدو لي رهاناً من المحال التقيد به، ولكن الأمر ما كان يعنيني كثيراً. كانت الطائرة تسرع على المدرج، وكيرا جالسة إلى جانبي، ورأسها مسنود إلى الكوة، وقد أطبقت عينيها. هذه الأيام الخمسة عشر القادمة قد تكون أكثر بكثير مما كنتُ آمله أمسِ أيضاً. خلال ساعات الطيران الثماني، لم تلمّح قط إلى الرسالة التي أزلقتها تحت باب غرفتها داخل الفندق، كما لم تلمح إلى ذلك في ما بعد، على كل حال.

فرانكفورت

ثلاثمائة وعشرون كيلومتراً كانت تفصلنا عن نبرا. فاستأجرتُ، على الرغم من إرهاقي من السفر، سيارة على أمل أن أصل إلى المكان المقصود قبل نهاية العصر.

لم أكن أنا ولا كيرا نتصور أن هذه المدينة الريفية الصغيرة انتشرت شعبيتها إلى هذا الحد، فالمكان الذي اكتشفت فيه الاسطوانة السماوية المشهورة قد اتخذ شكل مركز إغراءات سياحية. برج صغير مهيب من الباطون كان يرتفع وسط السهل، وينطلق، من قاعدة البنية المائلة مثل برج بيزا، خطان على الأرض، يُفترض أن كلاً منهما يمثل محوري الانقلاب الشمسي. وكان المجمع مكمّلاً ببناء جبار من خشب وزجاج مشيد على قمة التلة، هو أشبه بمتحف يشوه المشهد الطبيعي.

لم تطلعنا زيارة الموقع المخصص لاسطوانة نبرا على أي شيء يخفق له القلب. على بعد بضعة كيلومترات من المكان، كان لوسط القرية، بشوارعه الضيقة المبلطة وآثار قصره وواجهاته الجميلة، الفضل في تجديد الروابط مع بعض مظاهر الأصالة، لكن بشرط تجاهل واجهات المخازن التي كانت تعرض بوفرة «تيشرتات»، وأواني مائدة ونسخاً

من كل الأنواع عليها صورة الاسطوانة.

توجهتْ إلي كيرا قائلة: ربما ينبغي التفكير في القيام بحفريات في منتزه استيريكس.

قدّمت نفسي لصاحب الفندق الذي سلمنا لتوه مفاتيح غرفته الأخيرة الشاغرة، وبعد أن عرّفته بمؤهلاتنا المهنية الخاصة بكل منا، وافق على طلبي ووعد بأن ينظم لنا غداً مقابلة خاصة مع أمين موقع نبرا الأثري.

ساحة لوبيانكا، عالمان غريبان يتجاوران. من جهة البناء الضخم ذو الواجهة البرتقالية الذي كانت المخابرات الروسية تشغله، ومن الجهة الأخرى قصر «اللعبة».

كان فاسيلي يورنكو قد عدل، هذا الصباح، عن تناول فطوره في مقهى بوشكين، وهذا ما جعله سيئ المزاج. وانتظر، عقب ركْن سيارته القديمة من طراز «لادا» على امتداد رصيف، أن يفتح المخزن أبوابه. في الطابق الأرضي كانت الدوّارة (لعبة الخيل) المضاءة تقوم بالدورات الأولى خلال النهار، ولكن لم يكن أي طفل ركب الخيول الخشبية بعد. امتنع فاسيلي عن لمس درابزين السلم المتحرك، لأنه بحسب ذوقه شديد القذارة. توقف في الطابق أمام منصة حيث يجد المرء فيها أجمل نسخ طبق الأصل عن دمى أم الأولاد (في مسرح العرائس). كان هذا التجميع لتماثيل صغيرة متشابكة بعضها مع بعض مدعاة تسلية دائمة له. كانت أخته في شبابها تملك مجموعة لا تقدر اليوم بثمن، إلا أن اخته ترقد منذ ثلاثين عاماً في مقبرة نوفوديافتشي والمجموعة العجيبة لم تعد سوى ذكرى بعيدة. منّت عليه البائعة بابتسامة عريضة، وبنظرة

قليلة التشويق، نظراً لفكيه الأدردين، أشاح يورنكو بوجهه، فأمسكت البائعة بدمية ذات ألوان زاهية، لها رأس أحمر وجسم أصفر، وأخفتها في قعر كيس من ورق. وطلبت من زبونها ألف روبل. دفع يورنكو المبلغ وابتعد. وبعد قليل، جلس إلى طاولة مقهى، حكّ الطلاء الذي كان يغطي الدميتين الثالثة والخامسة ونسخ الأرقام التي ظهرت. ركب القطار الكهربائي، ثم نزل في محطة بلوشاد فوستانيا وسلك الممر الطويل المؤدي إلى محطة موسكو.

توجه، في مستودع الأمانات، إلى خزانة الدرج التي حدّدتها الدمية الثالثة، ونظم على قرص القفل الرقم المشار إليه في الدمية الخامسة، واستحوذ على الغلاف في داخلها. كان يحتوي على بطاقة طيران، وجواز سفر، ورقم هاتف في المانيا وعلى ثلاث صور شمسية، كانت إحداها تمثل رسم شخص، والثانية رسم امرأة، والأخيرة رسم الشخصين أنفسهما وهما يهبطان من طائرة. على ظهر الصورة تمت خربشة اسميهما. رتّب يورنكو المغلف في جيبه ونظر إلى جدول التوقيت البادي على بطاقة الطيران. كانت أمامه ساعتان للوصول إلى مطار شرميتافو. حاول أن يتذكر إن كان ركن سيارته في مكان مسموح، لكن الوقت كان قد فاته كي يهتم بذلك.

روما

كان لورنزو متكئاً بمرفقيه على شرفة مكتبه. سقط عقب سيكارته بسرعة في الشارع إلى أسفل. نظر إليه وهو يتدحرج حتى مسرب الماء. أغلق النوافذ ورفع سماعة هاتفه.

أعلن لورنزو: لقد تعرّضنا لمشكلة صغيرة في أثيوبيا، لقد غادرا البلد.

ـ أين هما؟

ـ فقدنا أثرهما في فرانكفورت.

ـ ماذا حدث؟

ـ أولئك الذين كانوا يؤمّنون اقتفاء أثرهما أصابهما سوء الحظ. لقد ذهب اللذان في حمايتك إلى بحيرة توركانا برفقة زعيم القرية، وكان يقوم بدور الدليل. أراد رجالي أن يسألوه لمعرفة القصد من ذهابهما إلى جزيرة صغيرة وسط البحيرة، ووقع حادث مفجع.

ـ أي نوع من الحوادث؟

ـ أنحى الشيخ باللائمة عليهما، وتعرض لسقطة قاتلة.

ـ من على علم بذلك؟

ـ لقد ضمنت لك أولوية الاطلاع على معلوماتي، ونظراً لمجرى الأحداث، لا أستطيع أن اتركك أكثر من النهار قبل الاتصال بهم. ينبغي أن أشرح لماذا كان رجالي يتعقّبون ذينك الساذجين.

لم يتسع الوقت لـ لورنزو أن يلقي التحية على إيفوري، لأنه كان قد علّق سماعة الهاتف.

سأل فاكيرز الذي كان جالساً على المتكأ قبالته تماماً: ما رأيك؟

ـ لن يبقى إيفوري مخدوعاً لوقت طويل، افترض حتى أنه عرف أنك الآن على علم بذلك، إنه ثعلب عجوز ولن نصطاده بفخ كهذا.

ـ إيفوري صديق قديم، ولست أحاول اصطياده بفخ، أريد في الحقيقة منعه من الاحتيال علينا. إن أهدافنا مختلفة ونحن لا نستطيع أن ندعه يباشر العمل.

ـ والآن، إذا كنتَ تريد رأيي في هذه اللحظة التي نتبادل فيها الحديث، أراهن أنه يوجه نشاط الجماعة.

ـ ما الذي يدفعك إلى التفكير على هذا النحو؟

ـ إني مستعد للمراهنة أيضاً على أن الرجل الذي ينتظر في أسفل الطريق قد اقتفى أثرك لدى خروجك من مكتبك.

ـ من أمستردام؟

ـ إنه، ليكشف عن نفسه بطريقة فظة إلى هذا الحد، إما عاجز، وإما أن صديقك القديم يبعث إليك برسالة من النوع الذي يقول «لا تعتبرني إنساناً أبله، فاكيرز، فأنا أعرف مكان وجودك». وبما أن الشخص نجح في اللحاق بك حتى هنا من غير أن تلاحظه فأنا ميال، على الأرجح، إلى الفرضية الثانية.

نهض فاكيرز متوجهاً في الحال إلى النافذة، لكن الرجل الذي تحدث عنه لورنزو لتوه كان قد ابتعد آنذاك.

ـ ينبغي أن تشدي حزامك، فالطرق ضيقة.

فتحت كيرا الزجاج واسعاً، وتصرّفت كما لو أنها لم تسمعني. لقد اتفق لي أحياناً خلال هذه الرحلة أن كانت لي الرغبة في فتح الباب ودفعه باتجاه الخارج.

استقبلَنا أمين متحف نبرا بكل ترحاب. كان الرجل فخوراً جداً بمجموعته التي فصّل الكلام على كل قطعة منها. سيوف، تروس، رماح، كل شيء مرّ أمام ناظرينا؛ وكان لا بد من سماع قصة كنوزه العديدة قبل أن يقدّم لنا أخيراً الاسطوانة.

كانت الأداة تلفت النظر. لا شيء يجمع بين مظهرها وقلادة كيرا، لكننا كنا كلانا مفتونين بجمالها ومهارة مبتكرها. كيف استطاع الإنسان في العصر البرونزي أن ينجز عملاً تقنياً باهراً كهذا؟ دعانا أمين المتحف إلى «الكافيتريا»، وسألنا عما يمكنه أن يكون مفيداً لنا. أرته كيرا عقدها وأفضيت أنا بخصائصه الفريدة إلى محدثنا. فسألني، وقد ملك مشاعره ما أتيت على كشفه له، سألني عن عمره. فأجبته أننا لا نعرف شيئاً عنه.

كان الرجل قد كرّس عشرة أعوام من حياته لدراسة اسطوانة نبرا، وكانت أداتنا تثير فضوله إلى أقصى حد. تذكّر بصورة غامضة أنه قرأ شيئاً ما قد يثير اهتمامنا. كان عليه أن يعنى بترتيب أفكاره وترتيب محفوظاته كذلك. اقترح علينا أن نلتقي ثانية في المساء ذاته وأن يشاركنا العشاء. سيحاول، حتى ذلك الحين، أن يبذل قصارى جهده ليساعدنا في أبحاثنا. لم نكن مرتبطين بموعد بعد الظهر. وفي الفندق حاسوبان تحت تصرف الزبائن، فاغتنمت الفرصة لأوافي والتر باخباري وأوجّه بعض الرسائل الالكترونية إلى زملاء لي، لاعباً بخفة بما أسمح لنفسي بأن أكشفه وما أفضل أن اكتمه عنهم كي لا أُعدّ من المستنيرين.

فرانكفورت

ما أن نزل فاسيلي من الطائرة حتى توجه نحو أربعة مكاتب تأجير للسيارات القائمة في مؤخرة المطار. كان قد أحضر معه صورة لكل موظف، وراح يسأل إن كان يعرف الزوجين اللذين يعرض عليه صورتهما. ثلاثة منهم أجابوا بالنفي، فيما أشار الرابع أن هذا النوع من الاستعلام يُعتبر سرياً. كان فاسيلي يعلم من الآن فصاعداً أن من يفتش عنهما لم يستعينا بسيارة تكسي للانتقال إلى المدينة، بل ما هو أهم بكثير، عند من استأجرا سيارة. ابتعد، هو المدرب على هذا النوع من التمارين، متوجهاً إلى غرفة الهاتف، التي استدعى منها الموظف الذي غادر لتوه المكان. ما أن رفع هذا الأخير السماعة، شرح له بلغة ألمانية شبه متقنة أن حادثاً وقع في ساحة وقوف السيارات وأن حضوره ضروري في أقرب وقت ممكن. راقب فاسيلي الرجل الذي كان يعلّق السماعة، وهو غاضب، واندفع مسرعاً باتجاه المصاعد المؤدية إلى ما دون الطابق الأرضي. وما أن توارى الموظف عن الأنظار حتى عاد فاسيلي نحو منضدة المكتب، انحنى على ملامس جهاز محطة السيارت، وفي الحال طقطقت الآلة الطابعة. ابتعد فاسيلي وبحوزته نسخة من عقد إيجار أدريان.

كان يعرف، بعد أن اتصل هاتفياً بالرقم الذي عثر عليه داخل المغلف في مستودع الأمانات بمحطة موسكو، أن سيارة المرسيدس الرمادية المسجلة 521 KAPA صوّرتها عدسات المراقبة في الطريق الرئيسية 43 B، ثم عدسات الطريق الرئيسية A5 المتوجهة إلى هانوفر؛ وعلى بعد مائة وخمسة وعشرين كيلومتراً، تم العثور مجدداً على السيارة في الطريق A7، حيث استخدمت المخرج 86. وكانت المرسيدس، على بعد مائة وعشرة كيلومترات من هنالك، تنطلق بسرعة مائة وثلاثين كيلومتراً في الساعة على الطريق A71، وبعد قليل كانت تجري على الطريق الوطنية باتجاه فايمر. ونظراً لعدم توافر جهاز مراقبة في الطرق الأقل أهمية، بدا أن السيارة كأنها تلاشت في الطبيعة، ولكن بفضل عدسة تصوير ضوء أحمر، ظهرت ثانية عند مفترق روتنبرغ.

استأجر فاسيلي عربة مغلقة ضخمة، وغادر مطار فرانكفورت متبعاً بدقة خط السير الذي كان نسخه.

كان الحظ، هذا النهار، إلى جانبه، طريق وحيدة تمتد من المكان الذي شوهدت فيه المرسيدس للمرة الأخيرة. ولاحقاً، عقب اجتياز خمسة عشر كيلومتراً، واجه، وهو يعبر صولاخ، خيار خط سير. كانت جادة كارل ماركس

تجري باتجاه نبرا، في حين أن طريقاً إلى يساره تنطلق نحو بوشا. لم تكن متابعة جادة كارل ماركس تذكره بشيء حسن، فذهب باتجاه بوشا؛ كانت الطريق توغل في ما ينبت من العشب تحت الشجر، قبل أن تظهر ثانية عبر مشهد حقول واسعة مزروعة بالكولزا.

لما وصل فاسيلي إلى جوار نهر في «مليبن»، بدّل رأيه؛ فقيادة السيارة صوب الشرق لم يعد يغريه، فعطف المقود ودار بغتة إلى شارع توماس فوستر. كانت وجهة السير التي سلكها على الأرجح ثلاثية، إذ كانت لوحة تشير إلى مدينة نبرا. وعندما رأى فاسيلي إلى يمينه موقف سيارات متحف الآثار، فتح الزجاج وأهدى لنفسه سيكارته الأولى خلال النهار. كان الصياد يشتمّ فريسته في الجوار، فلن يعود يحتاج إلى وقت طويل قبل أن يحدّد مكانهما.

كان أمين المتحف قد التحق بنا في الفندق. فارتدى للمناسبة بدلة من المخمل مضلّعة وقميصاً ذا مربعات وربطة عنق محبوكة، حتى أن ثيابنا التي نجت من خطر رحلة في إفريقيا كان مظهرها أنيق من مظهره. ذهب بنا إلى نُزُل وانتظر أن نجلس أنا وكيرا ليسألنا بمرح كيف تعارفنا.

أجبته: نحن صديقان منذ سنوات الدراسة!

سدّدت إلي كيرا ضربة حرة برجلها من تحت الطاولة.

قالت خادشة أصابع رجلي بكعبها: أدريان هو أكثر من صديق، إنه أشبه بدليل لي، وبالتالي فهو غالباً ما يصطحبني في أسفاره للترويح عن نفسي.

فضّل أمين المتحف تغيير موضوع الحديث، فنادى الخادمة وطلب وجبتنا.

قال: لعلّ لدي شيئاً سيهمكما. بينما كنتُ أقوم بأبحاثي حول أسطوانة نبرا، والله يعلم كم بحث أنجزتُ، وقعتُ في المكتبة الوطنية على وثيقة. اعتقدت بعض الوقت أنها ستعينني في أعمالي، لكنها كانت أثراً كاذباً، ولكن ليس في ما يخصكما ربما. عبثاً حاولت البحث خلال كل فترة بعد الظهر في ملفاتي، لم أتمكن من وضع اليد عليها، غير أني أتذكر جيداً مضمونها. إنه نص مكتوب بالغيزية، وهي لغة إفريقية قديمة جداً، حروفها قريبة نسبياً من الأبجدية اليونانية.

فجأة بدا اهتمام كيرا قد استفاق.

فأردفتْ قائلة: الغيزية لغة سامية أسهمت في تطور الامهرية في أثيوبيا والتريغينية في أريتريا. الكتابات التي أنجبت الغيزية تكاد تعود إلى ثلاثة آلاف سنة. وما يدعو

إلى الدهشة هو في الواقع التشابه ليس فقط في الأبجدية وإنما أيضاً في بعض تحريك الكلمات بين الغيزية واليونانية القديمة. ووفقاً لمعتقدات الكنيسة الأثيوبية الأرثوذكسية، فإن الغيزية هي ثمرة وحي إلهي هبط على اينوس، واينوس بحسب سفر التكوين، هو ابن سات، ووالد كنعان وحفيد آدم؛ وفي اللغة العبرية اينوش، وهو يوحي بمفهوم الإنسانية. وُلد اينوس، تبعاً للكتاب المقدس الأثيوبي الأرثوذكسي خلال سنة ثلاثمائة وخمس وعشرين من سني خلْق العالم، أي ما يرقى إلى القرن الثامن والثلاثين قبل الميلاد، الموافق للحقبة السابقة للطوفان في الميثولوجيا العبرية، ماذا في الأمر إذاً؟

كان لا بد أن أنظر إلى كيرا نظرة غريبة لأنها توقفت عن سردها، قبل أن تضيف أنها روّحت عن نفسها. إذ لاحظتُ أخيراً أن مهنتها الأساسية لا تقوم على مساعدتي في إعادة كتابة «دليل المسافر بحرية وبكلفة قليلة».

سألتْ كيرا أمين المتحف: هل تتذكر ما كان يكشف هذا النص المكتوب بالغيزية؟

ـ لنتفاهم جيداً، إذا كانت الكتابة الأصلية بالغيزية، فالكتابة التي في حوزتي أحدث عهداً بكثير، إنها نسخة جديدة لا يعود تاريخها إلا إلى القرن الخامس أو السادس

قبل الميلاد. وإذا كانت ذاكرتي حسنة، فإن الحديث يدور فيها حول اسطوانة سماوية، وهي نوع من خارطة تقوم كل قطعة منها مقام دليل لتعمير العالم. الترجمة على جانب من الاضطراب، تفتح الباب لتفسيرات شتى. ولكن ترد، في قلب النص، عبارة «إعادة توحيد»، هذا أتذكره بصورة جيدة جداً، وهذا المفهوم مرتبط بشكل غريب بمفهوم تقسيم. ومن المحال معرفة ما إذا كان أحد المفهومين أو الآخر يتنبأ عن مقدم العالم أو تدميره. يتعلق الأمر على الأرجح بكتابة متفاوتة دينياً، وهي نبوءة إضافية، على ما أتصوّر. في كل الأحوال، كانت متوغلة في القدم لتُعدّ مرجعاً لأسطوانة نبرا. ينبغي الذهاب إلى المكتبة الوطنية الألمانية. راجعي النص وكوّني فكرة شخصية عنه. لا أريد أن أثير فيك آمالاً كاذبة، فاحتمال أن تكون لهذه الكتابة أية علاقة بالأداة التي تحملينها حول عنقك ضئيل للغاية. لكني لو كنتُ مكانك لذهبت مع ذلك لأتحقّق، فلا ندري ما عسى أن ينتظرنا.

ـ وكيف العثور على هذه الوثيقة، والمكتبة الوطنية ضخمة؟

ـ على يقين من أنني راجعتها في مقر فرانكفورت، وقد حدث مراراً أن توجهت إلى مؤسسة ميونخ ولايبزغ،

ولكني على يقين في ما يتعلق بهذه الوثيقة أنها كانت فعلاً في فرانكفورت. ومن ناحية أخرى، يخطر الآن ببالي أنها كانت ضمن مجموعة وثائق رسمية، ولكن في أي منها؟ كل ذلك يعود إلى حوالي عشر سنوات. ينبغي في الحقيقة أن أرتب حوائجي. سأعكف على هذا العمل منذ هذا المساء، وإذا اكتشفتُ شيئاً سأتصل بكما على الفور.

بعد أن غادَرَنا أمين المتحف، قررنا أنا وكيرا العودة مشياً على الأقدام. لم تكن مدينة نبرا القديمة تفتقر إلى السحر والجاذبية، وسوف تساعد النزهة في هضم تلك الوجبة الوافرة جداً.

ـ آسف، أعتقد أني جررتُك إلى مغامرة ليس لها أول ولا آخر.

أجابتني كيرا: آمل أنك تمزح. لن تبرد همتك عندما يبدأ الأمر يكتسب أهمية؟ لا أعلم ما هي خططك لصباح غد، أما أنا فذاهبة إلى فرانكفورت.

كنا نجتاز بهدوء ساحة صغيرة تتوسطها فسقية رائعة، وإذا بسيارة أضواؤها باهرة ظهرت بغتة.

عندئذ صرختُ على كيرا: سحقاً له! إن هذا الغبي ينقضّ علينا مباشرة!

كان لدي الوقت الكافي بالضبط لأن أدفعها باتجاه فجوة بوّابة، حين مسّتني السيارة المسرعة مساً خفيفاً وانزلقت وسط الساحة قبل أن تسلك الشارع العريض. لو أراد ذلك الأهبل القضاء على حياتنا لأفلح في مسعاه. لم يتسع لي الوقت حتى لتسجيل رقم سيارته، بل ساعدتُ كيرا لتستوي على رجليها، فرمقتني مذهولة؛ هل كانت تحلم أم أن ذلك الشخص حاول سحقنا عمداً؟ لا بد من القول إن سؤالها تركني حائراً متردداً.

اقترحتُ عليها أن اصطحبها لتشرب شراباً منشطاً، فقد نالتْ حسابها من الانفعالات، لكنها آثرت الرجوع إلى الفندق. عندما بلغنا طابقنا، تملكتني الدهشة لدى رؤية صحن الدرج غارقاً في العتمة. أن يكون مصباح واحد أسلم الروح أمراً مقبولاً، ولكن الممشى بكامله... هذه المرة، كيرا هي التي تحلّت بحضور الذهن فاستبقتْني.

ــ لا تذهب هناك.

ــ غرفتنا في آخر هذا الممشى، ولا خيار لنا حقاً.

ــ إنزل معي إلى قاعة الاستقبال، ولا تلعب الآن دور البطل، ثمة خلل ما، أحس به.

ــ لقد احترقت الوصلات الرصاصية، هذا الذي اختلّ!

بيد أني شعرت أن كيرا قلقة، فنزلنا إلى أسفل.

اعتذر عامل الاستقبال وعاود الاعتذار، لم يسبق أن حدث شيء من هذا القبيل البتة. وما هو أغرب أن طابقنا والطابق الأرضي مرتبطان بالمصهر نفسه، وكل شيء هنا كان مضاء ظاهرياً. فأمسك بمصباح جيب، وطلب إلينا أن ننتظر في القاعة ووعدنا بالعودة فور إصلاح العطل.

شدتني كيرا صوب المشرب، وأخيراً قد يسمح لها قليل من عرق «شنيص» المسكر بالاستسلام للنوم.

كان قد انقضت الآن عشرون دقيقة على انطلاق عامل الاستقبال.

ــ إبقي هنا، سأرى ماذا يجري، وإذا لم أعد خلال خمس دقائق، إتصلي بالشرطة.

ــ سآتي معك.

ــ لا، أنت تبقين هنا، كيرا، إسمعيني لمرة واحدة على الأقل، وإلا سَينتهي بي الأمر، في يوم من هذه الأيام، إلى فتح ستر الباب. ولا تقولي شيئاً، فأنا أفهم نفسي بصورة ممتازة.

كنتُ أحس بالذنب لأنني تركت حارس البناية يذهب

بمفرده، في حين كانت كيرا استشعرت خطراً لم أصدّقه. تسلقت السلم متحيناً فرصة حدوث أقل ضجيج ينم عن حضور شخص ما، وناديت بكل الأسماء الالمانية التي أعرفها، وتقدمت بحذر في ظلمة الممشى، فوجدت أول ما وجدت مصباح الجيب عندما وطأته بقدمي، ثم عامل الاستقبال ممدداً على الأرض. كان رأسه مضرجاً في بركة دم صغيرة، يقطر من جرح بليغ في الجمجمة. كان باب غرفتنا مفتوحاً، وكذلك النافذة. لقد أفرغت أمتعتنا وبعثرت كل حوائجنا. ولكن لم يُسرق شيء لنا، باستثناء شيء قليل من حبي لذاتي.

قرأ ضابط الشرطة تصريحي من جديد، ولم يكن لدي ما أضيفه. وقّعت على أسفل المستند، وكررت كيرا العمل ذاته، وغادرنا مخفر الشرطة.

ساعدنا صاحب الفندق على إيوائنا في مؤسسة أخرى من مؤسسات المدينة، لكننا لا أنا ولا هي استطعنا النوم. كان عنف هذا الحادث قد قرّب بيننا. هذه الليلة، أخلفتْ كيرا وعدها في السرير الذي تجمع فيه واحدنا بين ذراعي الآخر، فتعانقنا وتلاثمنا.

لم يكن، بحصر المعنى، السياق الرومنطيقي الذي كنتُ أحلم به، لكن الشيء غير المرتقب يكشف أحياناً عن كنوز

لا متوقعة؛ أخذت كيرا، وهي تستسلم للنوم، يدي في يدها، وهذه البادرة العاطفية كان وقعها أشد طغياناً من قبلة.

في صباح الغد، كنا نتناول الفطور على شرفة مطعم.

ـ يجب أن أفضي إليك بشيء. ليست المرة الأولى التي يتفق لي فيها أن أعيش حادثاً مؤسفاً مثل حادث البارحة. إني لأتساءل ما إذا كان باب غرفتنا قد تعرض للخلع من قبل لص بسيط وأتساءل أيضاً عن ذلك السائق الذي كاد يسحقنا.

وضعت كيرا الـ «كروسان»، وحدقّت في ملياً فاستطعتُ أن اقرأ في عينيها شيئاً آخر يختلف عن الدهشة.

ـ أنتَ تعني ضمناً أن شخصاً ما يلاحقنا؟

ـ في كل الأحوال، بعد قلادتك؛ أما قبل الاهتمام بها فكانت حياتي أكثر هدوءاً... باستثناء أزمة تنفّس جراء قلة الأكسجين في المرتفعات.

وقمت بسرد ما حدث لي ولوالتر في هيراكليون لكيرا، وسرد الطريقة التي أراد بها ذلك البروفسور الاستيلاء على عقدها، وكيف أقنعه والتر بالعدول عن ذلك والسباق ـ المطاردة التي عقبتْه.

سخرت كيرا مني وانفجرت ضاحكة، ومع ذلك لم أرَ شيئاً غريباً في ما كنتُ أرويه لها.

ـ لقد حطمتَ وجه شخص لأنه أراد الاحتفاظ بعقدي لبضع ساعات كي يدرسه، وأوسعتَ رجل أمن ضرباً وقيدت يديه، ثم فررتما كاللصوص وأنتما تظنان أنكما في غمرة مؤامرة؟

أعتقد أن كيرا كانت تسخر أيضاً من والتر، وهذا ما كان ليعزيني أكثر من ذلك، إنما بعض الشيء.

ـ وبينما كنت هنالك، ألم يكن موت زعيم المرسيين العجوز حادثاً أيضاً؟

لم أحر جواباً.

فاستطردتْ تقول: إنك لتهذي، إذ كيف بوسعَهم أن يعرفوا أين كنا؟

ـ لستُ أدري، ولا أريد المبالغة في شيء، لكني أعتقد أنه يتوجب علينا أن نضاعف قليلاً من احتياطاتنا.

لمحنا أمين المتحف من بعيد، فاندفع مسرعاً نحونا، ودعوناه للجلوس.

قال: علمتُ بالحادث المؤسف الذي وقع لكما أمس. إنه

لأمر مخيف، المخدرات تفتك بألمانيا. من أجل مقدار قليل من الهرويين، الشبان مستعدون لارتكاب أية جريمة. لقد حدثت سرقات عدة بجهد جهيد، وتم السطو على بعض غرف الفنادق، كما تتعرض لها كل الأماكن التي يرتادها السياح، ولكن حتى الآن لم تقع أعمال عنف إطلاقاً.

أجابت كيرا بنبرة قاطعة: لعله عجوز أراد حصته، إن العجزة أشد عبثاً.

وناولتها ضربة محترسة بركبتي من تحت الطاولة.

أردفت تقول: لماذا القاء كل شيء على عاتق الشبان دائماً؟

أجاب أمين المتحف: لأن الأشخاص المسنين يقفزون بصعوبة أكبر من نافذة في الطابق الأول من الفندق، لدى محاولتهم الهرب.

ردّت كيرا، وهي أكثر عناداً مما مضى: كنتَ تركض ممتلئاً عافية وأنت لستَ فرخ حجل من أفراخ هذه السنة.

قلت ضاحكا، استهزاء وإنقاذاً للموقف: لا أظن أن السيد أمين المتحف أتى يزور غرفتنا مساء أمس.

أجابت كيرا: وليس هذا ما كنت أقترحه أنا كذلك.

تدخل أمين المتحف: أخشى أنني فقدت سياق الحديث. على الرغم من كل هذه المتاعب، عندي مع ذلك خبران سعيدان. الأول أن عامل الاستقبال هو بمنأى عن الخطر، والثاني هو أني وجدت رقم المدوّنة في المكتبة الوطنية. كان ذلك مدعاة هياج لي، وقد قضيت قسماً كبيراً من الليل وأنا أفتح علباً وصناديق إلى أن وضعتُ اليد أخيراً على دفتر صغير كنت أفهرس فيه جميع المستندات التي كنت أراجعها آنذاك. فور دخولكما المكتبة، عليكما طلب المرجع التالي، قال وهو يمدّ إلينا قطعة ورقة صغيرة. هذا النوع من المؤلفات قديم جداً وسريع العطب أيضاً لكي يكون في متناول الجمهور العريض، غير أن مزاياكما المهنية سوف تتيح لكما الدخول. لقد سمحتُ لنفسي بتوجيه فاكس إلى زميلتي، أمينة متحف فرانكفورت، إنكما ستكونان موضع ترحيب.

شكرنا لمضيفنا كل الجهد الذي بذله من أجلنا وغادرنا نبرا، مخلّفين وراءنا ذكريات حسنة وسيئة.

بدت كيرا، أثناء المسيرة، قليلة الكلام. أما أنا فكنت أفكر في والتر آملاً أن يجيب عن رسالتي الإلكترونية التي بعثت بها إليه. وصلنا في نهاية الصباح إلى المكتبة الوطنية.

كان المبنى الحديث الإنشاء يرتفع على مستويين. كانت الواجهة الزجاجية تحفّ في مؤخرتها ببستان كبير. تقدّمنا من مركز الاستقبال، وبعد لحظات قليلة، أقبلتْ امرأة ترتدي بدلة نسائية ضيقة لملاقاتنا. قدمت نفسها على أن اسمها إيلينا فايسبك ودعتنا إلى متابعتها حتى مكتبها، حيث قدمت لنا قهوة وبسكوتاً جافاً. لم نكن قد تناولنا فطورنا، فالتهمته كيرا.

ــ في الحقيقة إن هذه المدونة بدأت تثير فضولي، فمنذ سنوات لم يكن أحد أبدى اهتماماً بها، وها إنتما اليوم الجماعة الثانية التي ترغب في مراجعتها.

سألت كيرا: هل ثمة شخص آخر جاء يزورك؟

ــ كلا، لكني تسلمت هذا الصباح طلباً بالبريد الإلكتروني. الكتاب مدار البحث لم يعد هنا، إنه محفوظ في برلين. ليس لدينا، بين هذه الجدران، إلا مستندات أحدث عهداً. لكن هذه النصوص، كما العديد من المؤلفات الأخرى، تم ترقيمها لضمان بقائها إلى الأبد. كان في وسعكما أنتما أيضاً أن توّجها إلي طلبكما بالبريد الإلكتروني، وهكذا كنت أرسلت إليكما نسخة عن الصفحات التي تهمكما.

ــ هل يمكنني معرفة من تقدم بطلب مماثل لطلبنا؟

ـ كان صادراً عن الإدارة العامة في جامعة أجنبية، لا أستطيع قول المزيد، إذ اكتفيت بتوقيع الإذن. أمينة سري هي التي عالجت الطلب وقد ذهبت لتناول فطورها.

ـ ألا تتذكرين إلى أي بلد تنتمي هذه الجامعة؟

ـ يخيل إلي أنها هولندا، أجل أعتقد أن الأمر كان يتعلق بجامعة أمستردام. في جميع الأحوال، كان الطلب صادراً عن أستاذ، غير أني لا أتذكر اسمه، فأنا أوقع كل يوم العديد من الأوراق، بحيث باتت مجتمعاتنا وحوشاً إدراية حقيقية.

قدمتْ إلينا أمينة المكتبة مغلفاً من ورق لين، يحتوي بداخله على صورة طبق الأصل بالألوان عن المستند الذي كنا نبحث عنه. كانت المخطوطة مكتوبة فعلاً باللغة الغيزية؛ تفحصتها ببالغ الانتباه. تنحنحت أمينة المكتبة وأشارت إلى النموذج الذي سلمتنا إياه للتو هو ملك لنا، وفي وسعنا التصرف به كما يحلو لنا. فشكرناها قبل مبارحة المكان.

في الجهة الثانية من الشارع، كانت تقوم مقبرة شاسعة، تذكرني بمقبرة «أولد برومتون» في لندن، حيث كنت أذهب غالباً للتنزه. إنها ليست مجرد مقبرة، بل هي أيضاً حديقة عامة جميلة مغطاة بالأشجار، ومشهد غير

متوقع وهادئ وسط مدينة كبيرة.

ذهبنا نجلس عل مقعد؛ كان ملاك من المرمر جاثماً على قاعدته يبدو أنه يراقبنا. أومأت إليه كيرا بإشارة من يدها وأكبّت على النص. لقد قارنت الإشارات بالترجمة الإنكليزية المقتضبة المرافقة لها. كان النص قد ترجم كذلك إلى اليونانية، العربية، البرتغالية والإسبانية، ولكن ما قرأناه بالإنكليزية لم يكن يتضمن أي معنى:

«تحت الزوايا الثلاث المرصعة بالنجوم، أودعتُ المجوس اسطوانة القدرات، وفصلتُ الأجزاء التي توحّد المستوطنات.

فلتبقَ مخفية تحت أعمدة الوفرة. وليجهل كل امرئ أين هو الأوج، فليل أحدهم هو حارس المقدمة.

فلا يوقظه إنسان، وعند التقاء الأزمنة الخيالية ترتسم نهاية البيدر».

قالت كيرا وهي تعيد المستند إلى داخل المغلف: ها قد حقّقنا تقدماً كبيراً! لا أعرف إطلاقاً ما يعنيه كل هذا وأنا عاجزة عن ترجمتها بنفسي. أين قال لنا أمين متحف نبرا أنه عثر على هذه المدوّنة؟

ــ لم يقل لنا ذلك. قال ببساطة إنه يعود إلى القرن

الخامس أو السادس قبل الميلاد. وأوضح أن المستند مدار البحث كان هو بدوره نسخة معادة لنص ما زال أقدم بكثير.

ــ إذاً، نحن في مأزق جميل.

ــ أليس بين معارفك من هو قادر على إلقاء نظرة على هذا النص؟

ــ بلى، أعرف واحداً في وسعه أن يساعدنا، إلا أنه يقطن باريس.

قالت كيرا ذلك بلا حماس كبير، كما لو أن وجهة النظر هذه تبدو معاكسة لها.

ــ أدريان، لا أستطيع مواصلة هذه الرحلة، إذ لم يعد لدي فلس واحد، ونحن لا نعرف إلى أين ذاهبان، ولا حتى لماذا ذاهبان.

ــ عندي بعض المال المدخر، وما زلت شاباً كفاية كيلا يساورني القلق في شأن تقاعدي. نحن نتقاسم المغامرة، وباريس ليست بعيدة جداً، نستطيع الذهاب إليها حتى بالقطار إذا فضِّلت ذلك.

ــ بالضبط، أدريان، لقد قلتَ نتقاسم، وأنا لا أملك

الوسائل لتقاسم شيء ما.

ــ لنبرم عقداً إذا شئت. لنتصورْ أنني وضعتُ اليد على كنز، أعدك بأن أقتطعَ من الحصة التي تصيبك نصف حساب نفقاتنا.

ــ وإذا كنتُ أنا التي أعثر على كنزك، فأنا مع ذلك عالمة الآثار!

ــ عندها، سأربح في عملية صرف النقد.

رضيتْ كيرا، في نهاية المطاف، أن تتوجه إلى باريس.

إنفتح الباب بغتة. انتفض فاكيرز وفتح درج مكتبه بحركة خاطفة.

ــ هيا، أطلقِ النار علي ما دمتَ هنا! لقد سبق أن غرزت في ظهري سكيناً، ولم نصل بعد إلى هذا الحد تقريباً.

أجاب فاكيرز دافعاً السلاح إلى قعر الدرج: إيفوري! كان بمقدورك أن تضرب، لقد تجاوزتُ سنّ اختبار مثل هذا النوع من الرعب.

ــ إنك تقدمت في السن كثيراً، وما عادت ردود فعلك كما كانت، يا صديقي.

ــ لا أدري ما الذي يجعلك تنقاد إلى مثل هذا الغضب، ولكن لو بدأتَ بالجلوس أولاً، لتمكنّا ربما من العثور عل شرح لائق بين شخصين متمدنين.

ــ كفَّ عن عاداتك الحميدة، فاكيرز، كنت أظن أنني استطيع الثقة بك.

ــ لو كنتَ تظنه حقاً لما كنت أرسلت من يتعقّبني في

روما.

ــ أصحيح ما تقول؟

ــ صحيح.

ــ إذاً، إن لم تكن أنت، فالأمر أشد إثارة للقلق أيضاً.

ــ لقد حاولوا اغتيال محميّينا، وهذا غير مقبول!

ــ عدنا فوراً إلى استخدام الألفاظ الكبيرة! لو أراد أحد منا أن يقتلهما، لكانا الآن في عداد الموتى. إننا حاولنا تخويفهما، على الأكثر، لم يكن موضوع تعريضهما للخطر مدار بحث على الإطلاق.

ــ أكاذيب!

ــ كان هذا القرار أخرق، أوافقك على ذلك، لكن لم يكن من صنيعي أنا، وقد عارضته شخصياً. إتخذ لورنزو مبادرات مزعجة في هذه الأيام الأخيرة. في كل حال، أنا أبلغته، إن كان ذلك يساعد على تعزيتك، كم نحن نخالفه طريقة تصرفه. لهذا بالضبط سافرتُ إلى روما، وهذا لا يمنع أن يكون مجلسنا مشغول البال جداً للتطور الذي تتخذه الأحداث. لا بد أن يمتنع محمياك، كما تسميهما، عن تحركاتهما عبر العالم. لم نتعرض حتى الآن لأي مأساة

مؤسفة، غير أني أخشى أن يلجأ أصدقاؤنا إلى وسائل أكثر فعالية، إذا استمرت الأمور على هذا النحو.

ــ ألأن موت زعيم قبيلة عجوز لا يُعتبر مأساة بالنسبة إليك؟ لكن في أي عالم تعيش؟

ــ في عالم قد يعرّضونه للخطر.

ــ كنتُ أعتقد أنلا أحد يصدّق نظرياتي. أرى أخيراً أن حتى الأغبياء يغيّرون رأيهم.

ــ لو كانت الجماعة تتبنى نظرياتك كلياً، لما كان إلا مبعوث لورنزو يقابل عالميك. لا يرغب المجلس في المجازفة بنفسه، وإن كنتَ حريصاً إلى هذا الحد على باحثيك، فإني أقترح عليك بحرارة أن تقنعهما بعدم مواصلة بحثهما.

ــ لن أكذبك، فاكيرز، فقد أمضينا أمسيات طويلة ونحن نلعب معاً الشطرنج، إنني سأكسب هذه المباراة. وحدي مقابل الجميع، إذا اقتضى

ــ أنت تمالقني، إيفوري.

ــ كلا، أنا ما بخستُ يوماً قدرْ أصدقائي، لهذا أنا دائماً على قيد الحياة. أعود إلى باريس، ومن غير المجدي أن

تكلّف أحد بتعقبي.

نهض إيفوري وبارح مكتب فاكيرز.

باريس

كانت المدينة قد تبدّلت ملامحها بشكل واضح منذ زيارتي الأخيرة لها. ففي كل مكان كان المرء يشاهد دراجات هوائية، ولو لم تكنٍ كلها متشابهة تماماً، لظننتُ أني في أمستردام. هذه فعلاً غرابة يتسم بها الفرنسيون، إنهم عاجزون عن توحيد لون تكسياتهم، أما في صدد دراجاتهم الهوائية، فابتاعوا كلهم النموذج نفسه. في الحقيقة، لا يسعني أن أفهم تصرفاتهم أبداً.

أجابتني كيرا: لأنك أنت إنكليزي، وشِعر مواطنيّ سيخفى عليكم دائماً، أنتم البريطانيين.

ما كنتُ أرى الكثير من الشعِر في هذه الدراجات الرمادية، ولكن منِ الضروري الاعتراف بأن المدينة ازدادت رونقاً وجمالاً؛ ولئن كانت حركة السير أشد صخباً مما علق بذاكرتي، فقد اتسعت مساحة الأرصفة، وكلّست واجهات العمائر، وحدهم الباريسيون بدا أنهم لم يطرأ عليهم أي تغيير على مدى عشرين عاماً. ما انفكوا يعبرون الطريق عند الإشارة الخضراء، ويتدافعون من دون أن

يعتذروا أبداً... إن فكرة الوقوف في الصف تبدو غريبة عنهم كل الغرابة. ففي محطة الشرق، تم تجاوزنا مرتين في صف سيارت التكسي.

أردفت كيرا: باريس أجمل مدينة في العالم، وهذه حقيقة غير قابلة للنقاش، إنها واقع الحال.

أول عمل كانت تريد القيام به لدى وصولها أن تزور اختها. فتوسلتْ إلي بألا أخبرها بما جرى في أثيوبيا. كانت جان ذات طبع قلق، ولا سيما في ما يمت بصلة إلى كيرا، ليس وارداً إذاً الحديث إليها عن الضغوط التي ألزمت اختها الصغرى بمغادرة وادي أومو لفترة مؤقتة، فجان قادرة فعلاً على أن تتمدّد فوق معبر الطائرة لمنع أختها من العودة إليه. كان لا بد الآن من اختلاق قصة لتبرير حضورنا إلى باريس؛ فاقترحتُ عليها أن تقول إنها أتت لزيارتي؛ فأجابتني كيرا بأن اختها لن تصدق أبداً مثل هذه التلفيقات. فتظاهرتُ كما لو أن ذلك لم يغظني، ومع ذلك هذه كانت حالي.

أجرت اتصالاً بجان، محترسة تماماً أن تكشف لها أننا في الطريق إليها، ولكن بعد أن أوصلنا التكسي إلى المتحف، نادت كيرا اختها من هاتفها المحمول وطلبت منها التوجه إلى النافذة لترى ما إذا كانت تعرف الشخص الذي

يلوّح لها في البستان. نزلت جان في أقل وقت ممكن لتقول لها ذلك وانضمت إلى الطاولة التي كنا أخذنا مكانينا حولها. ضمت اختها بين ذراعيها بقوة حتى لظننتُ أن اختها ستختنق. وددتُ في هذه اللحظة لو كان لي أخٍ استطيع أن اعدّ له مثل هذا الضرب من المفاجأة. فكرتُ في والتر، في صداقتنا الوليدة.

تفحّصتني جان من قمة رأسي إلى أخمص قدميّ، وسلمت علي. فرددتُ بدوري على تحيتها. سألتني، ببالغ الفضول والارتباك، إذا كنتُ انكليزياً. فلهجتي لم تكن لتسمح بأي شك يحوم حول هذه المسألة، غير أني أحسست تأدباً بوجوب الردّ بأن الوضع هو كذلك.

سألت جان: أنت إذاً إنكليزي من إنكلترا؟

أجبت بحذر: تماماً.

كاد وجه جان يحمر حياء.

كنتُ أريد أن أقول إنكليزياً من إنكلترا يعني من لندن؟

ــ قطعاً.

قالت جان: أرى ذلك.

لم أصبر على رغبتي في سؤالها عما تراه بالضبط،

ولماذ حملتها إجابتي على الابتسام؟

صعقتني كيرا بنظرها، كنت على وشك الاختفاء. كان لا بد أن لديها أشياء كثيرة تقولها إحداهما للأخرى، لكن جان أصرّت على أن أظل في صحبتهما. لقد تقاسمنا وقتاً ممتعاً للغاية لم تتوقف جان أثناءه عن سؤالي حول مهنتي وحياتي على العموم، وكدت أشعر بالارتباك لأنها بدت أشد اهتماماً بي من اهتمامها بأختها، حتى أحستْ كيرا أخيراً بالامتعاض، فقالت لأختها في حين كانت جان تود أن تعرف، لا أدري لأي سبب، إن كنتُ رافقت كيرا إلى ضريح والدها: أستطيع أن أترككما وحدكما إذا كنت أزعجكما، وسأرجع ثانية.

قلتُ، منكّداً كيرا بعض الشيء: لم نبلغ بعد هذا المستوى من الألفة.

أملت جان أننا سنمكث عندها الأسبوع بكامله، فراحت تخطط لمشاريع عشاء ونهاية أسبوع. إلا أن كيرا أقرت لها أننا لن نلبث هنا سوى يوم أو يومين على أبعد تقدير. وعندما سألتنا، خائبة الأمل، إلى أين نحن ذاهبان، تبادلنا أنا وكيرا نظرات حائرة، إذ لم يكن لدينا أي فكرة، فدعتنا جان إلى بيتها.

تمكنت كيرا، خلال الوجبة، أن تتصل هاتفياً بالرجل

الذي كان علينا أن نجده، ذلك الذي قد يكون في وسعه أن يلقي ضوءاً على النص المكتشف في فرانكفورت. وحدّد موعد اللقاء في صباح الغد.

اقترحتْ علي كيرا وهي عائدة إلى غرفة الاستقبال: أظن من الأفضل أن أذهب هناك وحدي.

سألت جان: إلى أين إذاً؟

أجبتُ: لقاء أحد الأصدقاء، زميل عالم آثار، إن أحسنتُ الفهم. إننا نحتاج إلى مؤازرته لترجمة نص كُتب في لغة إفريقية قديمة.

سألت جان وكانت تبدو أكثر فضولاً مني: أي صديق؟

لم تجب كيرا بل اعتزمت البحث عن طبق الجبن، وكان ذلك إيذاناً بحلول لحظة العشاء التي كنتُ أخشاها أكثر من سواها. بالنسبة إلينا نحن الإنكليز، تبقى جبنة الـ «كامبير» لغزاً إلى الأبد.

صرخت جان، علّ كيرا تسمعها من المطبخ: ألن تري ماكس؟

إمتنعت كيرا عن الإجابة.

أضافت جان، مصطنعة النبرة ذاتها: إن كان لديك نص

للترجمة، فأنا عندي كل الاختصاصيين الضروريين في المتحف.

ردّت كيرا، وقد ظهرت مجدداً في غرفة الاستقبال: إهتمي بما يعنيك، أختي الكبرى.

ــ من هو ماكس؟

ــ صديق تهيم جان بحبه!

أجابت جان: لئن كان ماكس صديقاً، فأنا أخت طيبة.

قالت كيرا: ثمة لحظات أنتهي فيها إلى التساؤل عن ذلك.

ــ بما أن ماكس هو صديق، فسيسعد بلقاء أدريان، لأن اصدقاء الأصدقاء هم أصدقاء، أليس كذلك؟

ــ ما هو الجزء الذي سها عن بالك، جان، في «اهتمي بما يعنيكِ»؟

كانت الفرصة سانحة لأن أتدخل فأبلغت كيرا بأنني سوف أرافقها غداً إلى موعدها. لو كنتُ نجحت في وضع حد للنزاع الناشب بين الاختين، لنجحت كذلك في إزعاج كيرا، التي قلبت وجهها لي بقية الأمسية وقدّمت أريكة غرفة الاستقبال كسرير لي.

في صباح اليوم التالي، ذهبنا بالقطار الكهربائي في اتجاه جادة سيبستوبول. كانت مطبعة ماكس تقوم في شارع متاخم. لقد استقبلنا بمنتهى اللطف ودعانا إلى مكتبه الكائن في طابق وسيط قليل الارتفاع. لطالما كنت معجباً بهندسة الأبنية الصناعية القديمة المبنية في عصر إيفيل، وبتركيبات العوارض الصغيرة المنتجة في مصانع «لورين» للصلب التي لا مثيل لها في العالم.

إنحنى ماكس على مستندنا، تناول دفتر مذكرات وقلماً وشرع يعمل في يسر لم يَحُل دون افتتاني. يبدو كأنه موسيقار يقرأ قطعة موسيقية مدوّنة ويعزفها في الحال.

ـ هذه الترجمة مليئة بالأخطاء، ولست أقول أن ترجمتي ستكون كاملة، ينبغي أن يتسع لي الوقت، ولكني أجد من الآن أخطاء لا تغتفر هنا وهناك. قال لنا: تقدّما سأبينها لكما.

وضع القلم فوق الورق، ومضى يجيل الطرف في النص مشيراً إلى المعادلات اليونانية الخاطئة.

ـ ليس الكلام هنا على «المجوس»، بل على السلطات. وكلمة «وفرة» هنا وردت خطأ، وعلينا أن نقرأ مكانها «لا نهاية». يمكن أن تنطوي وفرة ولا نهاية على معنيين متقاربين، غير أن الكلمة الثانية هي التي ينبغي

استعمالها في هذه الحال. كما لا ينبغي، في مكان آخر إلى أسفل، قراءة كلمة «إنسان» وإنما كلمة «شخص».

دفع بنظارته إلى طرف أنفه. في اليوم الذي سأضطر فيه لاستعمال نظارة، يتعين علي أن أتذكر تجنّب القيام بهذه الحركة على الإطلاق، إنه لجنون، عمل كهذا يزيد في سنوات عمرك فجأة. إن كان تبحّر ماكس في العلم يستدعي الاحترام حتماً، فإن الطريقة التي كان ينظر بها إلى كيرا مشتهياً يغيظني إلى أقصى حد. كان لدي الانطباع أنني الشخص الوحيد الذي لاحظتُ ذلك، بينما كانت كيرا تتصرّف كأن شيئاً لم يكن، وهذا ما ضاعف استيائي.

ـ أظن أن هنالك بعض الأخطاء في تصريف الأفعال ولست متيقناً أن ترتيب الجمل صحيح، الأمر الذي يشوّه كلياً ترجمة النص. ما قمتُ هنا إلا بعمل تمهيدي، لكن العبارة المجتزأة «تحت الزوايا الثلاث المرصعة بالنجوم» على سبيل المثال، ليست موضوعة في مكانها الصحيح. يجب عكس موقع الكلمات وربطها في آخر الجملة التي تختص بها، على الطريقة الإنكليزية إلى حد ما، أليس كذلك؟

أراد ماكس، بكل تأكيد، أن يزيّن درسه الاستاذي بطُرفة كلامية، فامتنعتُ عن كل تعليق. انتزع الورقة من دفتر

المذكرات ومدّها إلينا. انحنينا بدورنا على ترجمته لنقرأ، وهذه المرة، من غير نظارات:

«فصلتُ طاولة الذاكرات، وأودعت المستوطنات الأجزاء التي تضمها معاً. تحت الزوايا الثلاث المرصعة بالنجوم تلبث ظلال اللانهاية مخفية. ليجهلْ كل امرئ أين هو الأوج، ليل أحدهم ما يحرس الأصل، ولا يوقظه إنسان، عند اتحاد الأزمنة الخيالية، سوف ترتسم نهاية البيدر».

ـ من المؤكد أنه إذا نظرنا إليها هكذا، فهي أشد وضوحاً بكثير.

بدلاً من أن تدفع كلمتي الجارحة ماكس إلى الابتسام، كانت قد سلّت كيرا.

ـ في كتابات موغلة في القدم كهذه الكتابة، لشرح كل كلمة أهمية مماثلة لأهمية الترجمة.

نهض ماكس لتصوير المستند، ووعدنا أنه سيكرس له نهاية الأسبوع، وسأل كيرا أين يمكنه أن يلحق بها، فأعطته رقم هاتف جان. كما أراد ماكس أن يعرف إلى متى ستبقى في باريس، فأجابته كيرا أنها لا تدري عن ذلك شيئاً. كان لدي الانطباع البغيض أني غائب عن الأنظار. من حسن الطالع، اتصل رئيس دائرة بماكس لحدوث عطل

في إحدى الآلات. فاغتنمتُ الفرصة لأعلن له أننا استغللنا لطفه كفاية وأن الوقت قد حان لتركه يعود إلى العمل، فرافقنا ماكس.

قال على عتبة الباب: في الواقع، لماذا تبدين اهتماماً بهذا النص؟ هل له علاقة بأبحاثك في أثيوبيا؟

نظرتْ إلي كيرا بحذر وكذبت على ماكس قائلة له إن زعيم قبيلة عهد به إليها. حين سألني إن كنتُ أحب وادي أومو بقدر ما تحبه هي، أكدت كيرا من دون أي إزعاج أني أحد معاونيها الأكثر قيمة.

ذهبنا لاحتساء قهوة في مقهى بمنطقة «ماريه». لم تكن كيرا نبست بكلمة مذ غادرنا ماكس.

ــ إنه فظيع بشكل غريب كصاحب مطبعة.

ــ كان ماكس أستاذي في علم الآثار، وقد غيّر مهنته.

ــ لماذا؟

ــ إنه ذو تربية بورجوازية، ما كان ليتمتع بلذة المغامرة ولا بالأرض، ثم بعد وفاة والده، تولى أعمال العائلة.

ــ هل بقيتما معاً لمدة طويلة؟

ـ من قال لك إننا كنا معاً؟

ـ أعرف أن لغتي الفرنسية غير مرضية، لكن كلمة «تمهيدي» هل تشكل جزءاً من المفردات الشائعة؟

ـ لا، لماذا؟

ـ عندما يستعمل المرء صيغاً معقدة جداً للتعبير عن أشياء بسيطة، فهذا يعني على العموم أننا نشعر بالحاجة إلى التعاظم، وأن الرجال تخور عزائمهم عند الإقبال على العمل حين يرغبون في نيل إعجاب الآخرين. إن صاحب المطبعة وعالم الآثار شديد الاعتداد بنفسه، أو إنه ما انفك يحاول التأثير فيك. ولا تقولي لي إني على خطأ!

ـ وأنت لا تقل لي إنك تغار من ماكس، إن هذا يهز المشاعر.

ـ ليس من سبب لأن أغار من أي كان، لأني تارة أحد أصدقائك، وتارة أخرى أحد أهم معاونيك، أليس كذلك؟

سألتُ كيرا لماذا كذبت على ماكس.

ـ لست أدري، لقد تأتّى لي ذلك من تلقاء نفسي.

كنتُ أفضل الكلام في موضوع آخر غير ماكس، وبخاصة أني رغبت في الابتعاد عن مطبعة ماكس وحيه

وعن باريس في أقرب وقت ممكن. فاقترحت على كيرا أن نقوم بزيارة أحد معارفي اللندنيين، لعله يستطيع أن يساعدها على فك رموز هذا النص، وهو أشد تبحراً في العلم من صاحب المطبعة.

قالت لي: لماذا لم تحدثني عنه قبل ذلك؟

ــ لأنني لم أفكر في الأمر، هذا هو السبب.

في كل حال، لم يكن الكذب حكراً على كيرا!

بينما كانت كيرا تودع أختها وتستعيد بعض حاجياتها، اغتنمت الفرصة للاتصال بوالتر. وبعد أن أطلعتُ على أخباره، سألته أن يؤدي لي خدمة، بدت له غريبة على الأقل.

ــ أتود أن أجد لك أحداً في الأكاديمية يجيد معرفة اللغات العامية الإفريقية؟ هل دخّنت شيئاً غير مباح، أدريان؟

ــ القضية دقيقة جداً، عزيزي والتر، لقد ارتبطتُ بشيء من العجلة، ونستقل القطار في غضون ساعتين ونصل هذا المساء إلى لندن.

ــ يا له من خبر مفرح، أقله أخيراً بالنسبة للجزء

الثاني من جملتك؛ أما بصدد الناسك الذي لا بد أن أخرجه لك من مخبئه، فالأمر أكثر تعقيداً. هل سمعتك تقول نحن؟

ــ لقد سمعتني.

ــ أما قلت لك إنه من الحكمة أن تذهب إلى أثيوبيا بمفردك؟ لك فيّ صديق صدوق، أدريان، سأحاول أن أجد لك شخصاً حاذقاً يعنى بك.

ــ والتر، ما أحتاج إليه هو مترجم من اللغة الغيزية القديمة.

ــ هذا بالفعل ما أقوله، وأنا بحاجة إلى ساحر للعثور عليه! لنتعشَّ معاً هذا المساء، إتصلْ بي فور وصولك إلى لندن، سأرى ما أستطيع القيام به في هذه الأثناء.

وعلّق والتر سماعة الهاتف.

في المقلب الآخر من بحر المانش

كان القطار «اوروستار» يجري مسرعاً عبر الريف الإنكليزي، وقد خرجنا من النفق قبل وقت قليل. كانت كيرا غافية على كتفي، فقد نامت أثناء قسم كبير من الرحلة. أما أنا فغزت جماعة من النمل ساعدي، لكني لم أكن لأتحرك أياً يكن السبب، مخافة أن أوقظها.

بينما كان القطار يبطئ في سيره لدى اقترابه من محطة آشفورد، تمطت كيرا بشيء من اللطف، إلى أن عطست ثلاثاً وبقوة كافية لتجعل كل ركاب العربة تقريباً ينتفضون.

قالت معتذرة: إنها عادة ورثتها عن والدي، ولم أستطع أن أفعل شيئاً للتغلب عليها. أما زلنا بعيدين؟

ـ نصف ساعة تقريباً.

ـ لسنا على يقين من أن لهذا المستند علاقة بقلادتي في شكل من الأشكال، أليس كذلك؟

ـ في الواقع، لا، ولكن ممنوع علي، على العموم، امتلاك حق اليقين.

وأردفت تقول: مع ذلك، تريد أن تعتقد أن ثمة صلة

بينهما كليهما.

ـ كيرا، حين نبحث في المتناهي في الكبر عن نقطة متناهية في الصغر، عن مصدر نور مهما يكن بعيداً، و حين نرصد ضجيجاً قادماً من عمق أعماق الكون، ليس حيالنا سوى شيء واحد يمكننا من التأكد منه: إنه رغبتنا في الاكتشاف. أعرف أن الأمر سيان بالنسبة إليك حين تنقبين الأرض. عندها نعم، لم نعثر بعد على أي شيء يتيح لنا أن نتقدم في الاتجاه الصحيح، ما عدا هذه الغريزة المشتركة التي تدفعنا إلى اعتقاد ذلك، وهو شيء لا بأس به، أليس كذلك؟

لم يكن لدي انطباع بأني قلت شيئاً على جانب كبير من الأهمية، كما لم تكن محطة آشفورد رومنطيقية على وجه الخصوص، وإني لأتساءل لماذا في هذه اللحظة بالذات وليس في لحظة أخرى، التفتت كيرا، وضعت يديها على خديّ وقبّلتني كما لم تكن بعد فعلت ذلك قط.

فكرتُ مجدداً في هذه اللحظة من حياتي خلال أشهر، ليس لأنها تظل إلى الأبد من أجمل ذكرياتي وحسب، بل لأني حاولتُ أيضاً، دون جدوى، فهم ما قمت به فعلاً لإثارة اندفاعة مماثلة. وجدت الجرأة لأسألها عن ذلك، ولم أحظ منها كجواب إلا على ابتسامة. وأخيراً اكتفيت بذلك على

الدوام. وهذا يتيح لي أن أعيد طرح السؤال مجدداً، وأن أعيش ثانية هذه القبلة، في محطة آشفورد، في نهاية عصر يوم صيفي جميل.

باريس

حرّك إيفوري الفارس على رقعة الشطرنج المرمرية التي تتصدّر غرفة استقباله. كان لديه منها قطع قديمة، وكان أجمل ما في مجموعته في غرفته، وهو نموذج فارسي كله بلون العاج، يعود تاريخه إلى القرن السادس. الـ «شاطارونغا» لعبة هندية قديمة، لعبة أربعة ملوك، تخلت عن طاولتها للشطرنج. والشطرنج عبارة عن ثمانية مربعات صغيرة في ثمانية أخرى، حيث يصبح مجموع المربعات أربعاً وستين مربعة، تشرح سير الزمن والعصور. أما تعارض الأسود والأبيض فقد جاء في وقت متأخر. كان الهنود والفرس والعرب يلعبون على ترابيع من لون واحد، وأحياناً على شبكة مرسومة على الأرض. وقبل أن يصبح لعبة دنيوية، استخدم الرسم التخطيطي لرقعة الشطرنج كمخطط للهند الفيدية لبناء المعابد والمدن. كان يرمز إلى النظام الكوني، وتطابق المربعات الأربعة المركزية الله الخالق.

إن صرير الفاكس انتشل إيفوري من أحلامه، فتوجه إلى المكتبة حيث الجهاز وانتزع الورقة التي كانت قد انطبعت.

نص محرّر بلغة إفريقية قديمة جداً، تليه ترجمة. كان صاحبها يرجوه أن يتصل به فور أَخْذ العلم بها، وهو ما قام به على الفور.

قال الصوت عبر الهاتف: لقد أتت تزورني اليوم.

ــ هل كانت وحدها؟

ــ لا، كان يرافقها رجل إنكليزي مزهّو بنفسه. هل استطعتَ أن تلقي نظرة على المستند؟

ــ قمت بذلك لتوي، هل أنجزت هذه الترجمة بنفسك؟

ــ خير ما استطعتُ نظراً للمهل المتوافرة.

ــ إنه عمل رائع. اعتبرْ مشاكلك المالية أنها باتت جزءاً من الماضي.

ــ أبوسعي أن أسألك لماذا تهمك كيرا إلى هذه الدرجة وما هي أهمية هذا النص؟

ــ لا، إن تمنيت أن يعوّم المال الموعود به منذ الغد حسابات مطبعتك.

ــ حاولت الاتصال بها عما قليل، فاخبرتني اختها قبل أن تعلق سماعة الهاتف في وجهي، أنها سافرت إلى لندن.

هل بإمكاني أن أؤدي لك خدمة أخرى، سيدي؟

ــ أبلغني، كما سبق أن اتفقنا، إذا عاودتْ الاتصال بك.

عاد إيفوري، بعد انتهاء المكالمة، للجلوس في غرفة الاستقبال. وضع نظارته، ممسكاً بالنص، وشرع بدوره ينقّح الترجمة. منذ السطر الأول، أدخل عليها بعض التعديلات.

لندن

إن فكرة قضاء بضعة أيام في منزلي لم تكن لتزعجني. فاغتنمت كيرا نهاية نهار هانئة لتتسكع في شوارع بريم روز هيل؛ وما أن خلوتُ إلى نفسي حتى اتصلتُ بوالتر.

ـ إني أُعلمك، أدريان، قبل أن تباشر بقول شيء ما، ليكن معلوماً لديك أني بذلتُ ما في وسعي، واعلمْ أنه لم يعثر على مترجم من الغيزية القديمة في سوق بيمليكو، ولا في سوق كمدن، وقد تحقّقت من ذلك، إنهم غير مقيّدين أيضاً في الصفحات الصفراء.

حبست أنفاسي، إذ لم تبهجني فكرة الاعتراف لكيرا بأنني خدعتها بهدف إبعادها عن ماكس الذي كان يحوم حولها.

ـ هل قلت لك إنك محظوظ لأن أكون صديقاً لك، أدريان؟ أفلحتُ في وضع اليد على شخص نادر الصفات، يسعه أن يساعدك. أنا ذو بصيرة نفاذة تحملني على الدهشة من نفسي. تصوّر أني تكلمت عن مشكلتك مع صديقة، يتوّجه قريب لها كل يوم أحد إلى كنيسة القديسة مريم لصهيون الأرثوذكسية الأثيوبية. تدخل هذا الشخص

لدى كاهن، رجل قديس يبدو أن تبحره في العلم لا حدود له. هذا الأب ليس فقط رجل كنيسة بل هو كذلك مؤرخ وفيلسوف كبير جداً. إنه لاجئ سياسي في إنكلترا منذ عشرين عاماً، ومعترف به أنه أحد أكبر المتخصصين في المادة التي تعنيك. لنا موعد معه صباح غد. والآن يمكنك القول: «والتر، يا لك من عبقري».

ــ من هي تلك الصديقة التي ندين لها بهذه الخدمة النفيسة للغاية؟

أجاب والتر شبه مرتبك: إنها الآنسة جنكنز.

ــ إنه لخبر يأخذ بمجامع قلبي أخذاً مضاعفاً، إنك عبقري، والتر.

وإذ أحسست بفرح عارم لإعادة العلاقات معه، دعوته لقضاء الأمسية في منزلي. أثناء العشاء، تعلمتْ كيرا ووالتر أن يتعارفا بشكل أفضل، فسردنا له، على التوالي، حكاية مغامراتنا وأحداثنا المزعجة في وادي أومو، وتلك التي عشناها في نبرا، من غير نسيان أحداث فرانكفورت وباريس. قدّمنا له النص الذي عثرنا عليه في المكتبة الوطنية الالمانية، وترجمة ماكس. قرأها ببالغ الاهتمام من دون أن يفهم مع ذلك المعنى. وكلما كان والتر يلتحق بي في المطبخ، أو نلقي أنفسنا وحيدين حول المائدة، كان

يبوح لي بأنه يجد كيرا مدهشة، رائعة وممتعة، فاستخلصتُ أنه كان تحت تأثير جاذبية أخاذة. أما ما كان والتر أغفل قوله لنا، فهو أنه علينا حضور الطقس الديني قبل أن نتمكن من محادثة الكاهن.

أعترف أني ذهبت إلى هنالك صباح ذلك الأحد، وأنا أجرّ قدميّ جراً، إذ أن صلتي بالكنيسة كانت، منذ طفولتي، بعيدة جداً، مع ذلك كانت اللحظة مؤثرة بصورة خاصة. لقد أسرني جمال التراتيل بقدر ما أسرني صدق الخلوة مع النفس. في هذه الكنيسة، كان كل شيء يبدو وكأنه طيبة عذبة. فور انتهاء الاحتفال الديني، وفيما كان المكان يخلو من رواده، جاء الكاهن يبحث عنا ودعانا إلى اقتفاء أثره حتى المذبح.

كان قصير القامة، محدب الظهر جداً، ربما تحت وطأة اعترافات الناس، أو جراء ماض شهد حروباً وإبادات جماعية. لا شيء مما يتراءى أنه قبيح يبدو ظاهراً فيه، ومن المستحيل أن تطيل النظر فيه. حسْب صوته الخفيض والأخاذ، يُشعرك برغبة في تتبّع أثره إلى أي مكان كان.

قال لنا بعدما أعاد قراءة المستند مرتين: إنه مستند مدهش على الأقل.

وخلافاً لبالغ دهشتي، لم يُبدِ أي انتباه للترجمات

المرفقة به.

سأل: هل أنت متيقن من صحته وأصالته؟

ــ نعم.

ــ المشلكة المطروحة هنا ليست الترجمة بل التفسير على الأرجح. لا تتم ترجمة شعر كلمة كلمة، أليس كذلك؟ وهكذا بالنسبة إلى الكتابات القديمة. من السهل أن نقوّل نصاً دينياً ما نريد أن يقول تقريباً؛ ثم إن الناس لا يحرمون أنفسهم من إفساد الكلمة الطيبة وتحريفها بغية الاستئثار في غير وجه حق بقوى والحصول على ما يرغبون من مؤمنيهم. لا تعمد الكتب المقدسة إلى تهديد ولا إلى إصدار الأوامر، إنها تدل على الطريق وتترك للإنسان الخيار في إيجاد من يرشده، ليس في الحياة وإنما باتجاه الحياة. أولئك الذين يزعمون فهم وتخليد كلمة الله لا يفهمونها دائماً على هذا النحو ويستغلون سذاجة الذين يرضون بحكمهم.

سألتُ: لماذا تقول لنا هذا، يا أبتِ.

ــ إنني أفضل معرفة نياتكم قبل أن أثقفكما لاحقاً حول طبيعة هذا النص.

ــ شرحتُ له أني عالم فيزياء الفلك وكيرا عالمة آثار،

ففاجأني الكاهن مفضياً إلينا أن اشتراكنا لم يكن من غير تبعات.

ــ أنتما كلاكما تبحثان عن شيء، يعتبر فهمه أمراً مخيفاً، فهل أنتما واثقان من أنكما مستعدان لمواجهة الإجابات التي قد تجدانها في أثناء طريقكما؟

ــ سألت كيرا: ما مبعث الخوف في ذلك؟

ــ النار حليف جليل الفائدة للإنسان، لكنها تشكل خطراً على الطفل الذي يجهل استعمالها. كذلك الأمر في ما يخص بعض المعارف. لا يزال الناس أطفالاً على مستوى الإنسانية. انظرا إلى عالمنا الحالي وشاهدا كم نحن بحاجة إلى تربية أيضاً.

ــ وعد والتر أنني أنا وكيرا شخصان محترمان كل الاحترام وجديران بالثقة، لكن كلامه هذا حمل الكاهن على الابتسام.

ــ سألني: ماذا تعرف حقاً عن الكون، سيدي عالم فيزياء الفلك؟

لم يكن سؤاله ينطوي على شيء من التعجرف. كما لم يكن في نبرة صوته أي بادرة زهو، ولكن قبل أن أتمكن من الرد على سؤاله، نظر إلى كيرا نظرة رفق وعطف

وسألها:

ـ أنت التي تعتقدين أن بلادي هي مهد البشرية، هل سبق أن تَساءلت لماذا؟

كنا نأمل كلانا أن نتمكن من تقديمِ أجوبة علمية سديدة، غير أنه سرعان ما طرح علينا سؤالاً ثالثاً:

أوتعتقدان أن لقاءكما كان عارضاً وهل تتصوران أن من الممكن أن يصل مستتد كهذا المستند بمجرد عامل المصادفة؟

تمتمت كيرا: لست أدري، أبتاه.

ـ أنت عالمة آثار، سيدتي. هل تعتقدين أن الإنسان اكتشف النَار، أم أن النار تراءت له، عندما آن الأوان ليتم ذلك على هذا النحو؟

ـ أعتقد أن ذكاء الإنسان الوليد أتاح له تدجين النار.

ـ هل تسمّين هذا العناية الإلهية. إذاً؟

ـ لو كنتُ أؤمن بالله، لكان الأمر كذلك على الأرجح.

ـ إنك لا تؤمنين بالله ولكنك تلجئين إلى رجل دين محاولة اختراق سر غامض يغيب إدراكه عن بالك. لا تنسِ

هذه المفارقة، أرجوك، لا بد أن تتذكريها عندما يحين أوانها.

ـ عن أي أوان تتحدث؟

ـ حينما تدركين إلى أين يقودك هذا الطريق، لأنك لا تعرفين شيئاً، لا هذا ولا ذاك. وإلا هل كنتِ سلكت هذا الطريق؟ أشك في ذلك.

خاطرتُ في السؤال فقلت: لا أفهم، أبتاه، عما تكلمنا، أبوسعك أن تنيرنا حول معنى هذا النص؟

ـ إنك لم تجب عن سؤالي: ماذا تعرف عن الكون، سيدي عالم فيزياء الفلك.

أجاب والتر نيابة عني: أؤكد لك أني اعرف أشياء، كنت تلميذه لأسابيع عدة، ولعلك لا تتصور مجمل المعارف التي كان لا بد أن أمتثلها، ولم أتمكن من تذكر كل شيء.

ـ أرقام، أسماء نجوم، أوضاع، مسافات، حركات، كل هذه الأمور ليست إلا معاينات، أنت وزملاؤك بدأتم تلمحون، لكن ماذا فهمتم؟ هل يسعكم أن تقولوا لي ما هو المتناهي في الكبر أو المتناهي في الصغر؟ أتعرفون المصدر، أتستشفون النهاية؟ هل تعرفون من نحن، وماذا يعني أن نكون بشراً؟ أتستطيعون أن تشرحوا لطفل في

السادسة من عمره ما هو الذكاء، الذي تحدثت عنه الآنسة، الذكاء الذي أتاح للإنسان أن يدجن النار؟

ــ لماذا لطفل في السادسة من عمره؟

ــ لأنكما إن عجزتما شرح معنى كلي لطفل في السادسة، فيعني ذلك أنكما تجهلان معناه!

كان الكاهن قد رفع صوته للمرة الأولى وتجاوب صداه بين جدران كنيسة القديسة مريم.

قال وهو يستعيد هدوءه: كلنا أطفال في السادسة على هذا الكوكب الصغير.

ــ كلا، لا أستطيع الإجابة عن أي من هذه الأسئلة، أبتاه، لا أحد يستطيع ذلك.

ــ ليس بعد، ولكن لو عرضتُ عليكما هذه الأجوبة، هل أنتما على استعداد لسماعها؟

تنهّد الرجل وهو يردّد هذا الكلام، وكأنه يعاني الغم والاكتئاب.

ــ أتتمنيان أن أضيء طريقكما؟ ليس ثمة سوى طريقتين لفهم ما هو النور، وغير وسيلتين للمضي قدماً نحوه. لا يعرف الإنسان إلا طريقة واحدة. لهذا فإن الله

يكتسي أهمية كبرى بالنسبة إليه. للطفل ذي الأعوام الستة الذي سألكما ما هو الذكاء، كان بإمكانكما أن تجيبا بكلمة واحدة: الحب. ها هي ذي فكرة ستظل تغيب عن بالنا زمناً طويلاً. هذه الحدود التي تهمّان في تخطيها، لا مجال للعودة عنها إلى الوراء مستقبلاً. عندما تعرفان ذلك، سيكون الوقت قد فاتكما لإعلان الرفض، لهذا السبب ما زلت أطرح عليكما سؤالي مجدداً. هل أنتما مستعدان لتجاوز حدود ذكائكما الشخصي، والمخاطرة بالتخلي عن وضعكما البشري، على غرار ما يتخلى المرء عن عهد الطفولة؟ هل تدركان أن رؤيته لأبيه لا يعني بالضرورة معرفته؟ أترضيان أن تكونا يتيمي مَن ربّاكما ورفعكما إلى هذا الوضع البشري؟

لم نجب لا أنا ولا كيرا هذه الشخصية الفريدة. وددتُ لو أفهم ما كانت حكمته تحاول أن تكشف لنا، وأخمّن ما الذي يرغب صادقاً أن يحمينا منه. آه، لو علمت وحسب!

انحنى على الورقة، تنهّد من جديد وحدّق إلينا ملياً، أنا وكيرا.

قال لنا: إليكما كيف ينبغي قراءة هذه الكتابة.

إنشطر لوح زجاج صحن الكنيسة الملون جراء شظية بالغة الصغر، يكاد قطرها لا يتجاوز التسعة مليمترات. لقد

عبرت القذيفة الكنيسة بسرعة ألف متر في الثانية. اخترقت الرصاصة قفا العنق، بترت عرق الودج، قبل أن تتحطم على فقرة العنق الثانية. فتح الرجل فمه بحثاً عن قليل من الهواء وانهار في الحال.

ما سمعنا طلقة نار ولا حتى تشظي لوح الزجاج الملون فوق صحن الكنيسة. ولولا الدم الذي تدفق من فمه، هذا الدم الذي أخذ يسيل على امتداد عنقه، لظننا أن الكاهن كان يحس بضعف. اندفعت كيرا إلى الوراء، وأرغمها والتر على الانحناء قبل أن يجرها نحو أبواب الكنيسة.

كان الكاهن منطرحاً على وجهه فوق الأرض، ويده ترتعش، فمكثتُ هنالك مكزّزاً حيال الموت الذي كان يأخذه معه. جثوتُ على ركبتي وقلبّته. كانت عيناه شاخصتين إلي، وخيّل لي أنه يبتسم. أدار رأسه فرأى بركة الدم التي تتشكل حوله. فهمتُ من نظرته أنه يريدني أن اقترب.

همس في آخر نسمة حياة له: الأهرام المخبوءة، المعرفة، النص الآخر. لئن وجدتَها يوماً، فدعها تنام إذاً، أرجوك، ما زال الوقت مبكراً لإيقاظه، فلا ترتكبْ ما يتعذر إصلاحه.

تلك كانت كلماته الأخيرة.

وحدي تحت صحن الكنيسة المقفر، سمعتُ في البعد صوت والتر يتوسل إلي أن ألحق به. بحركة من يدي أطبقت عيني الكاهن، لمحت الورقة الملطخة بدمه، ثم خرجت كغبي، من الكنيسة.

كانت كيرا جالسة على درج الفناء أمام الكنيسة، تنظر إلي متشككة مرتعشة، لعلها تأمل أن أقول لها إن كل هذا لم يكن سوى كابوس، وإني بفرقعة أصابعي سأعيدها إلى عالم الواقع، لكن والتر هو الذي تولى القيام بذلك.

ــ لنرحل من هنا، هل تسمعاني؟ لقد حان أوان استعادة السيطرة على أنفسكما، ستستسلمان لميولكما لاحقاً. تباً لك، أدريان، اهتمّ بكيرا ولنهرب جميعاً. لو كان القاتل في الجوار، لما رغب قط في ترك ثلاثة شهود وراءه، ولا ننسَ أننا في وضع مكشوف!

ــ لو أرادوا قتلنا لكنا الآن في عداد الموتى.

كان الأجدر بي أن ألتزم الصمت، لقد تطايرت قطعة حجر عند قدمي في كل اتجاه. أمسكتُ بكيرا من ذراعها وجررتها في الشارع. فيما كان والتر يتعقبنا. ركضنا نحن ثلاثتنا حتى ضاقت أنفاسنا. وإذا بتكسي مرّ عند نهاية كوبر لاين، زعق والتر بملء حنجرته، فأضاءت أنوار السيارة الخلفية. سألنا السائق عن وجهة مآلنا فأجبنا

بصوت واحد: إلى أبعد ما يمكن!

عند عودتي إلى بيتي، رجاني والتر أن أغير قميصي، لأن القميص الذي أرتديه ملطخ بدم الكاهن، ولم يكن مظهر كيرا بأحسن من مظهري، فألبستها أيضاً ملطخة. فتوجهتُ بها نحو غرفة الحمام، فخلعتُ كنزتها وازلقت بنطالها ودخلت معي تحت المرشة.

أتذكر أني غسلت شعرها، كأنما كنت أسعى إلى تحريرها من رجس علق ببشرتنا. اسندتْ رأسها إلى صدري وأخذت حرارة الماء تنعش جسدينا المجلّدين. رفعت كيرا رأسها، ومضت تحدق إلي. وددت لو تفوّهت بكلمات مهدئة، وحدهما يداي كانتا تحاولان طمأنتها، وأقوم ببعض الملامسات لمحو آثار الرعب الذي تقاسمناه.

قدّمت، عند رجوعي إلى غرفة الاستقبال، بعض الألبسة إلى والتر.

تمتمت كيرا: لا بد من إيقاف كل شيء، زعيم القرية، والآن هذا الكاهن، ماذا فعلنا، أدريان؟

أكد والتر لدى انضمامه إلينا في الغرفة: لا علاقة لمقتل هذا الرجل برحلتنا السياحية. إنه لاجئ سياسي، وهذه ليست المحاولة الأولى التي استهدفته. كانت الآنسة جنكنز

حدثتني عنه قبل لقائنا معه. كان يلقي محاضرات، يناضل من أجل السلام ويعمل على مصالحة الجماعات الإتنية في شرق إفريقيا. لدعاة السلام أعداء كثر. لقد تواجدنا في المكان الرديء في اللحظة الرديئة.

اقترحت عليهما المثول أمام الشرطة، لعل شهادتنا تسهم في مساعدتهم على إجراء تحقيقهم. يجب العثور على الأشرار الذين أقدموا على ارتكاب هذه الجريمة.

عندئذ سأل والتر: الشهادة على ماذا؟ هل رأيت شيئاً ما؟ لن نذهب إلى أي مكان! إن بصماتك منتشرة في كل مكان، أدريان، مائة شخص لمحونا أثناء القداس، وكنا نحن آخر من اجتمع بالكاهن، قبل أن يتم اغتياله.

أردفت كيرا: والتر ليس على خطأ، لقد بدأنا بالهرب، سيرغبون في معرفة السبب.

قلتُ وقد استشطت غضباً: لأنهم اطلقوا النار علينا، ألا يكفي هذا سبباً؟ كان هذا الرجل مهدداً، فلماذا لم تؤمّن الحكومة حماية له؟

أشار والتر: ربما لم يكن يريدها.

ــممّ تريد أن تشتبه بنا الشرطة؟ لا أرى شيئاً من شأنه أن يربطنا بهذه الجريمة.

ـ تمتمت كيرا: أنا بلى! لقد أمضيت سنين طويلة في بلد هذا الرجل، أثيوبيا. عملت في مناطق حدودية حيث يعيش أعداؤه، قد يكفي هذا للمحققين حتى يشتبهوا في بأني أقمت علاقات مع مموّلي هذه الجريمة. أضف إلى ذلك أني لو سئلتُ لماذا غادرتُ على جناح السرعة وادي أومو، فماذا تريدني أن أجيب؟ أن موت زعيم القرية الذي كان يرافقني اضطرني إلى الرحيل عن البلد؟ وأني بعد إعادة جثته إلى قبيلته، لذتُ بالفرار كمجرمة من دون أن أبلّغ الشرطة الكينية بوفاته؟ أننا كنا معاً حين مات ذلك الرجل العجوز، كما كنا معاً لما اغتيل هذا الكاهن. أنت على حق، إن رجال الشرطة سيهيمون حباً بقصتنا! لو ذهبنا الآن إلى المحفر، لما بتّ متأكدة من أننا سنرجع للعشاء!

ـ كنت أريد بكل قواي أن أرفض هذا السيناريو الكارثي الذي كان والتر مع ذلك يتبناه.

ـ ألححت في غير طائل: إن الشرطة العلمية ستثبت بأقصى السرعة أن الطلقة النارية أطلقت من الخارج، لذلك فلا داعي إطلاقاً لاضطراب بالنا.

كان والتر يذرع المكان جيئة وذهاباً، وهو مقطب الجبين. توجه نحو مائدة الجدار حيث كنتُ أصفّ زجاجات الكحول وصبّ لنفسه كأس ويسكي مزدوجة.

ــ عدّدت كيرا كل الأسباب التي تجعل منا مذنبين مثاليين. منهم المذنبون الذين قد تتمكن السلطات من الرضى عنهم، كي تنهي بسرعة تحقيقاً تطمئن نتيجته العقول. ستكون الشرطة مغتبطة أن تعلن في أقرب وقت أنها قامت باستجواب قتلة الكاهن، وأكثر من ذلك أن هؤلاء القتلة هم أوروبيون.

ــ ولكن في نهاية المطاف، لماذا؟ إنه عمل غير معقول.

أجابت كيرا بمزيد من النضج السياسي الذي لم يتوافر لي: لتلافي حريق الحي الذي كان يعيش فيه وتدارك كل فتنة طائفية.

تابع والتر: حسناً علينا ألا نرى كل شيء أسود قاتماً، وتبقى هناك إمكانية تبرئتنا من كل ما وقع. هذا، وإن أولئك الذين يتمادون إلى حد قتل رجل دين لا ينبغي لهم أن يكونوا من صنف الرجال الذين يتضايقون من الشهود، إني لأهب حياتي غالية إذا ما ظهرت وجوهنا على غلاف جريدة يومية صغيرة الحجم.

ــ أهذا هو ما تدعوه ألا نرى «كل شيء أسود قاتماً»؟

ــ آه لا، إذا كنت راغباً حقاً في تعتيم اللوحة، سأحدثك

عن مهننا الخاصة بكل واحد منا. في ما يتعلق بكيرا، أضف إلى موت زعيم القرية موت هذا الكاهن، ولا أراها عائدة إلى العمل في أقرب وقت في أثيوبيا. أما بالنسبة إلينا، أدريان، فاترك لك أن تتصور ردود فعل أعضاء المجلس في الأكاديمية إذا الفينا أنفسنا متورطين في قضية في مثل هذا الرعب. صدّقني إن الشيء الوحيد الذي نضطلع به هو محاولة نسيان كل ذلك وانتظار عودة الهدوء.

بعد هذه الكلمات التي تفوّه بها والتر، بقينا ثلاثتنا جالسين ينظر كل منا إلى الآخر في منتهى الصمت. لعل الأمور ستؤول إلى التهدئة، لكننا نعلم جميعاً أن لا أحد سينسى هذه الضحوة الرهيبة. كان يكفي أن أغمض عيني لأشاهد نظرة ذلك الكاهن الذي توفي بين ذراعيّ، تلك النظرة الهادئة جداً فيما كانت الحياة تفارقه. سأتذكر أبداً كلماته الأخيرة: «الأهرام المخبوءة، المعرفة، النص الآخر. إن وجدتها يوماً فدعها تنام إذاً، أرجوك».

ـــ أدريان، أنت تتكلم أثناء نومك.

انتفضتُ واعتدلت في سريري.

تمتمت كيرا: أنا آسفة، لم أكن أرغب في إبقاء الخوف في داخلك.

ــ أنا هو الآسف لقد كنت تحت وطأة كابوس.

ــ الحظ يواتيك، فأنت على الأقل تنام، أما أنا فلا يسعني أن أطبق عينيّ.

ــ كان عليك أن تسارعي إلى إيقاظي.

ــ كنت أحب النظر إليك.

كانت الغرفة غارقة في شبه عتمة، والحرارة فيها مرتفعة جداً، فنهضتُ لأفتح النافذة. تابعتني كيرا بنظرها. كان صفاء الليل يكشف تقاطيع جسمها، فردّت عنها الغطاء مبتسمة لي.

قالت: تعال عاود النوم.

كان لبشرتها طعم الملح، وعند انثناء النهدين عبير العنبر والكراميل؛ وكانت سرّتها محفورة بشكل دقيق بحيث أحببتُ أن أجيل عليها شفتي؛ ومست أصابعي بطنها مساً خفيفاً فقبّلت نداوته. شدت كيرا بساقيها على ذقني لتهديني إلى فمها. كان يُسمع عبر النافذة صوت زرزور؛ وقد خيّل إلينا أن العصفور يدوزن انشودته وفقاً لإيقاع أنفاسنا. وعندما يلوذ بالصمت يتوقف تنفس كيرا، فتنتزع ذراعيها من ذراعي وتدفع عنها جسمي لتعود وتتشبث به لتوها.

إن ذكرى هذه الليلة ما انفكت تراودني كأنها ذكرى لحظة حميمة، كنا أثناءها نطرد الموت؛ وكنت على علم أن أية رفيقة أخرى لن تهبني مثل هذا العناق، وهذه الفكرة ملأتني خوفاً.

كان النهار يرتفع في الشارع الهادئ؛ تقدمت كيرا عارية حتى النافذة.

قالت لي: يجب أن نغادر لندن.

ـ لنذهب إلى أين؟

ـ هناك حيث يغوص الريف في البحر، في آخر طرف كورنواي، هل تعرف سانت ميْوس؟

ما كنت قصدتها قط.

وأردفت: هذه الليلة كنتَ تقول أشياء غريبة أثناء نومك.

ـ كنت أحلم في صدد الكلمات الأخيرة التي قالها لي الكاهن قبل رحيله.

ـ لم يرحل، بل مات! كذلك لم يرحل أبي في سفر طويل، كما كان يقول ذلك القسيس الذي كان يحتفل بالقداس الجنائزي. مات هي الكلمة الصحيحة، وهو ليس

في أي مكان آخر إلا في قبره.

ــ في طفولتي، كنتُ أعتقد أن كل نجمة هي نفس بشرية تتلألأ في السماء.

ــ قد يكون عدد النجوم تكاثر في سمائك منذ الأزمنة السحيقة.

ــ هنالك مئات المليارات، أكثر مما يضم كوكبنا من بشر.

ــ إذاً من يعلم؟ لكني أعتقد أني سوف أضيق ذرعاً وأنا أرمش بغرابة في صقيع الفضاء.

ــ هذه طريقة من طرق النظر إلى الأمور. لا أدري ما ينتظرنا في ما بعد، ولا أفكر في ذلك أغلب الأحيان.

ــ أما أنا فأفكر بلا انقطاع. لا بد أن هذا التفكير ملازم لمهنتي. ففي كل مرة أُخرج من الأرض عظمة أسائل نفسي. ويغضبني أن أقبل بفكرة أن الشيء الوحيد المتبقي من وجود بأكمله هو قطعة عظم الفخذ أو ضرس من الأضراس.

ــ ليست العظام فقط هي التي تبقى منا، كيرا، وإنما ذكرى ما كنّاه في الماضي. كلما فكرتُ في أبي، كلما حلمته

في منامي، انتزعته من الموت مثل شخص نوقظه من النوم.

قالت كيرا: إذاً أبي طفح الكيل عنده، فأنا لا أدعه ينام غالباً.

كانت كيرا ترغب في التوجه إلى كورنواي، فغادرنا البيت على رؤوس أصابعنا، وتركنا كلمة لوالتر الذي كان يرقد في غرفة الاستقبال واعدين إياه بالعودة سريعاً. كانت سيارتي القديمة تنتظرنا في مرآبها، وقد انطلقت تعمل في ربع دورة. وعند الظهيرة كنا نجري عبر الريف الإنكليزي، ونوافذ السيارة مفتوحة كلها. كانت كيرا تغني بصوت عال وقد نجحت في عملها الباهر الهادف إلى التغطية على صوت الريح التي كانت تصفر داخل السيارة.

على بعد ثلاثة عشر كيلومتراً من سالزبوري، لمحنا من بعيد أعمدة ستونهنغ الأحادية التي كانت معالمها الصفيقة ترتسم على خط الأفق.

سألت كيرا: هل سبق أن زرتَها؟

ــ وأنتِ؟

لي أصدقاء باريسيون لم يطأوا قط برج إيفيل، وآخرون من نيويورك لم يصعدوا البتة إلى أعلى عمارة «ايمباير

ستايت». أنا إنكليزي ومع ذلك أعترف بأني ما ذهبت يوماً إلى هذا الموقع الذي يفد لزيارته سياح من العالم أجمع.

أسرّت إلي كيرا قائلة: إذا كان ذلك يحمل الطمأنينة إليك، فأنا أيضاً لم أُبالِ بذلك. ما رأيك لو زرناها؟

كنتُ أعلم أن الدخول إلى هذا المعْلم التاريخي الذي يرقى تاريخه إلى أكثر من أربعة آلاف سنة خاضع لنظام صارم. عند أوقات الافتتاح، يتنزه الزوار على امتداد طريق ذات معالم مضيئة، وهم يتقدّمون على وقع صوت صفارة ينفخ فيها دليل حتى تعيا رئتاه، ويمنعون من الابتعاد عن المكان. كنت أشك تماماً أن يُسمح لنا بالتنزه بحرية، حتى عند حلول المساء.

أضافت كيرا: لقد قلته لتوك، فالليل لن يلبث أن يهبط والشمس ستغيب في غضون ساعة، ولا أرى أحداً في الجوار، وبدا أن المنع أشد إثارة للتسلية من عداه.

بعد الأوقات العصيبة التي عشناها أمس، كان يحقّ لنا أن نلهو قليلاً. إذ لا يسمح المرء بأن تُطلق النار عليه كل يوم. لففتُ المقود وسلكت الطريق الضيقة التي تصل بالصخرة الشاهقة حيث تنتصب الأعمدة الأحادية. كان ثمة حاجز من الأسلاك الحديدية تحول دون المضي قدماً. أطفأت المحرك فترجلتْ كيرا من السيارة وتقدمت باتجاه

المحطة المقفرة.

قالت لي بمرح: تعال، إن المرور من هنا أشبه بلعب أطفال.

كان يكفي أن ننحني بمساواة الأرض حتى نتسلل من تحت السياج. كنتُ أتساءل ما إذا تكشف إشارة خطر تسلّلنا، غير أني ما رأيت أي تمديد لأسلاك من هذا القبيل، ولا عدسة مراقبة أيضاً. في كل حال، كان الوقت متأخراً، وكيرا تنتظرني في الجانب الآخر.

كان الموقع أشد إثارة للمشاعر مما تصورت، فالسور الأول من نُصب «الدولمن»[3] يشكل دائرة قطرها مائة وعشرة أمتار. بأي أعجوبة تمكن الناس من بناء عمارة كهذه؟ وكان يمتد حولنا مشهد سهل لا تتخلله صخرة من الصخور. كان كل دولمن في السور الأول الخارجي من الممكن أن يزن بضعة عشرات الأطنان. كيف جرّوها حتى هنا، وكيف عملوا على نصبها؟

قالت لي كيرا: يبلغ محيط الدائرة الثانية ثمانية وتسعين متراً. وقد خطّط بشكل واضح ومنتظم، الأمر الذي يعتبر غير قابل للتصديق حقاً. أما الحلقة الثالثة فتتألف من ستة وخمسين تجويفاً، أطلق عليها اسم ثقوب «أوبري»، وكلها

مرتبة بصورة منتظمة. عثر فيها على فحم خشبي وعظام متكلسة، إنها على الأرجح غرف إحراق الجثث، نوع من عقار جنائزي مسوّر.

رمقتُ كيرا بذهول.

ــ كيف تعرفين كل هذه المعلومات؟

ــ أنا عالمة آثار ولست بائعة زبدة وحليب، وإلا كنتُ شرحت لك كيف يتحول الحليب إلى جبن!

ــ وهل تمتد ثقافتك لتشمل المواقع الأثرية حول العالم بأسره؟

ــ أخيراً، أدريان، إنها ستونهنغ! يتعلم التلاميذ هذه الأمور في المدرسة.

ــ هل تتذكرين كل ما علموك إياه في المدرسة؟

ــ كلا، ولكن ما قمت بقراءته في هذه اللحظة على اللوح الذي خلفي تماماً، نعم. هيا تعال، كنتُ أحثك عل السير.

كنا نتقدم باتجاه مركز البيئة الأثرية الضخمة ونتخطى دائرة الحجارة الزرقاء الخارجية. علمتُ فيما بعد أن خمساً وسبعين أحادية من حجر رملي كانت في الأصل تشكله أي

خمسة وسبعون عملاقاً، يزن أضخمها خمسين طناً. وكانت الحجارة قد جمعت بشكل هيكل بناء متين، ولكن كيف تم نصب الحجارة بالوقوف الانتصابي ورفع السواكف (أعلى الباب الذي يقابل العتبة)؟ كنا نتأمل بصمت الاعجوبة غير القابلة للتصديق. كانت الشمس تجنح إلى الغروب ململمة أشعتها التي تسللت تحت الأروقة. فجأة بدأ الدولمن الوحيد الممتد في الوسط يتلألأ خلال لحظة قصيرة، وكان بريقه لا يضاهى.

قالت كيرا: يظن البعض أن ستونهنغ بناها الدرويديون.

تذكرتُ أني قرأت بعض المقالات في مجلات تعنى بنشر العلوم. كانت ستونهنغ أجّجت فضول أذهان كثيرة، وذُكر العديد من النظريات في شأنها، من أكثرها حمقاً إلى أشدها تفسيراً منطقياً. ولكن أين تكمن الحقيقة؟ كنا في مطلع القرن الحادي والعشرين، بعد نحو أربعة آلاف وثمانمائة سنة على بدء الأعمال الأولى، وبعد ثمانية وأربعين قرناً على حفر الرُدم الأولى، ولم يكن في مقدور أحد أن يشرح معنى هذه العمارة. لماذا كلّف الرجال الذين كانوا يعيشون هنا منذ أكثر من أربعة آلاف سنة، كلّفوا أنفسهم تشييد هذه المنشأة؟ كم شخصاً من بينهم ضحى بنفسه من أجلها؟

ــ يعتقد البعض أن ثمة سبباً فلكياً في ترتيب الحجارة.

كان وضع الكتل يسمح بتحديد الانقلابين الشتوي والصيفي.

سألتني كيرا: مثل اسطوانة نبرا؟

أجبتُ حالماً ولكن بطريقة فخمة: أجل، مثل اسطوانة نبرا.

تفحّصت السماء فلم ترَ فيها نجوماً هذا المساء، كان حاجز من الغيوم كثيف يغطي البحر. فاستدارت بغتة نحوي.

ــ أفي وسعك أن تعيد علي كلمات الكاهن الأخيرة؟

ــ كنتُ بدأت فعلاً أنساها، هل أنتِ على يقين من أنك تريدين التفكير مجدداً فيها؟

لم تكن بحاجة إلى إجابتي، كان يكفي أن أرمقها لأتعرّف إلى هذا المظهر الذي تظهر به عندما تكون مصممة على شيء ما.

ــ كان يتكلم على أهرام مخبوءة؛ على نص آخر، على شخص يجب تركه نائماً... آه كنا نعرف. ولكن معرفة ماذا، عجباً لا أعرف شيئاً!

سألت كيرا: ثلاثيات الزوايا والأهرام تتشابه في ما

بينها، أليس كذلك؟

ــ أجل، من وجهة نظر هندوسية.

ــ ألا يقال كذلك إن الأهرام كانت مرتبطة بالنجوم؟

ــ بلى، في ما يتعلق بأهرام المايا، يدور الكلام على هيكل القمر وهيكل الشمس. أنتِ عالمة آثار، لا بد أنك تعرفين ذلك خيراً مني.

أردفت تقول مستغرقة في أفكارها: لكن أهرام المايا ليست مخبوءة.

ــ هنالك الكثير من المواقع الأثرية التي تنسب إليها، خطأ أو صواباً، مهام فلكية. لعل ستونهنغ كانت اسطوانة جبارة لنبرا، غير أن شكلها ليس شكل هرم. بقي أن نعرف أين يمكن أن تنوجد تلك التي لمّا يتم اكتشافها بعد؟

أجابت كيرا: هناك، يوم نقلب تربة كل صحارى العالم، وننبش كل الغابات الممكن تصورها، ونسبر أعماق المحيطات، سيكون بإمكاني ربما أن أجيب عن سؤالك.

برق شقّ السماء، وأخذ الرعد يدوي بعد لحظات قليلة.

سألتني كيرا: هل عندك مظلة؟

ـ لا.

ـ نِعْم الأمر إذاً.

مدريد

حطت الطائرة في نهاية العصر في مطار باراخس. طائرة خاصة من بين طائرات أخرى أتت تصطف في باحة المحطة. كان فاكيرز، منقبض الوجه، أول النازلين من عبارة الملاحة، يتعقبة لورنزو الذي ركب الطائرة أثناء توقفها في روما. بينما كان السيد آشتون آخر من غادر حجرة القيادة. كانت سيارة كبيرة تنتظرهم عند نهاية باحة الموقف الخاصة بطائرات رجال الأعمال. أوصلتهم العربة إلى قلب المدينة، فدخلوا إلى أحد البرجين المائلين المشيدين في جانبي ساحة أوروبا.

استقبلتهم إيزابيل ماركيز، الملقبة بـ مدريد، في قاعة الاجتماع التي كانت ستائرها مسدلة.

قالت: بعد قليل سينضم إلينا برلين وبوسطن، ولن يتأخر موسكو وريو عن ذلك، فقد واجهتهم أحوال جوية سيئة في الطريق.

أجاب السيد آشتون: نحن أيضاً تعرّضنا للخض والاهتزاز بما فيه الكفاية.

وتوجه إلى طاولة بجانب الجدار عليها صينية مرطبات، وسكب لنفسه كوب ماء كبير.

ــ كم سيكون عددنا هذا المساء؟

ــ إذا لم ترغم العاصفة القادمة السلطات على إغلاق المطار، ثلاثة عشر صديقاً من أصدقائنا سيجلسون حول هذه الطاولة.

قال لورنزو وهو يتهاوى على متكأ: هكذا أسفرت عملية ما قبل البارحة عن فشل.

ردّ السيد آشتون: ليس عن فشل تام، كان ذلك الكاهن يعرف أكثر مما نتوقّع.

ــ كيف تصرّف عميلك فأخطأ الهدف؟

ــ كان الهدف على بعد مائتي متر، وكان يصوّب بنظارة حرارية، ماذا تريدني أن أقول لك: «الوقوع في الخطأ من طبع الإنسان». (Errare humanum est).

ــ لقد أفضى عمله الأخرق إلى موت رجل دين، وأرى طرفتك الكلامية باللاتينية تنم عن ذوق بالغ الفساد. يخيّل إلي أن أولئك الذين كنتَ تصوب عليهم سيأخذون من الآن فصاعداً حذرهم.

ــ لا نعلم شيئاً عن ذلك، لكننا تركنا الحبل على الغارب مؤقتاً، ولم نعد نمارس سوى رقابة بعيدة.

ــ إعترف على الأرجح بأنك فقدت أثرهما.

توسطت إيزابيل ماركيز بين السيد آشتون ولورنزو.

ــ لسنا مجتمعين هنا للتخاصم بل لنتفق على الطريق الذي ينبغي اتباعه. لننتظر اكتمال الجمع ولنحاول العمل سوياً. علينا اتخاذ قرارات خطيرة.

همهم السيد آشتون: هذا الاجتماع عديم الجدوى، ونحن نعلم جيداً ما هي القرارات الواجب اتخاذها.

صرّحت المرأة التي كانت قد دخلت قاعة الاجتماع: لا يشاطرك الجميع هذا الرأي.

ــ أهلاً بك بيننا، ريو!

نهضت إيزابيل لاستقبال ضيفتها.

ــ أليس موسكو برفقتك؟

قال فاسيلي وهو يدخل بدوره: أنا هنا.

أردف السيد آشتون: لن ننتظر الغائبين إلى ما لا نهاية، لنبدأ الآن!

أجابت مدريد: إذا شئت، ولكن لن نصوّت على قرار ما لم يكتمل عقد هذا المجلس تماماً.

جلس السيد آشتون في آخر الطاولة إلى يمين لورنزو، بينما اتخذ فاسيلي مكاناً له إلى يساره، وشغل باريس المتكأ التالي، في حين كان فاكيرز قبالته؛ وفي غضون نصف الساعة القادم انضم إليهم برلين، بوسطن، بكين، القاهرة، تل أبيب، آثنيا واسطنبول. هكذا أصبحت الخلية بكامل أعضائها.

استهلت إيزابيل بتوجيه الشكر إلى جميع الذين حضروا هذا المساء. كان الموقف خطيراً كفاية لتبرير هذه الدعوة. كان البعض قد سبق في الماضي أن جلسوا معاً لمناقشة الملف عينه، فيما كان آخرون، أمثال ريو وتل أبيب أو آثينا يحلّون محل أسلافهم.

ــ مبادرات فردية انتهت نهاية سيئة. لا نستطيع أن نرشد باحثينا إلا من خلال تعاون وتواصل لا تشوبهما شائبة.

إعترض آثينا، لم يكن حادث هيراكليون متوقعاً، رمق كل من لورنزو والسيد آشتون زميله من دون إبداء أي تعليق.

أكد موسكو: لا أرى أين أسفرت هذه المهمة عن فشل. لم تكن المسألة في نبرا تتعلق بتصفيتهما، وإنما إلقاء الرعب في قلبيهما.

سألت إيزابيل: هل يمكنكم جميعاً العودة إلى المسألة التي تجمعنا؟ الآن نعلم أن نظريات أحد زملائنا الذي كان عناده بضرورة إقناعنا قد كلّفه، في ما مضى، الإقصاء عنا، لم تكن على الأرجح لا معقولة كما كنا نعتقد.

ندّ عن برلين قوله: كنا جميعاً نفضل الاعتقاد أنه على خطأ، لأن ذلك يلائمنا بالفعل! لو لم نرفض له الاعتمادات التي طالب بها في حينه، لما كنا اليوم هنا. كل شيء سوف يخضع للرقابة.

عندها هتف السيد آشتون: ليس لأن قطعة أخرى ظهرت لا أعرف من أين، سيعني ذلك أن إيفوري على حق في كل الأمور.

استشاطت ريو غضباً: مهما يكن من أمر، لم يأذن أحد لك بأن تعرض حياة هذا العالِم للخطر.

ــ منذ متى ينبغي لنا الاستئذان للعمل في منطقتنا بالذات وعلى الأخص ضد أحد رعايانا؟ هل هذا قانون جماعي جديد فاتني الاطلاع عليه؟ أن يتصل أصدقاؤنا

الألمان بموسكو للتدحل في منطقتهم، هذا في نهاية المطاف يعنيهم وحدهم، ولكن لا تحاولوا إعطائي درساً في عقر داري.

صاحت إيزابيل: توقفْ، أرجوك!

وقف آثينا وخاطب المجلس.

ــ لنكفَّ عن التظاهر ولنكسب وقتاً. نعرف بعد الآن أنْ ليس ثمة قطعة بل أقله قطعتان متماثلتان، وعلى الأرجح متكاملتان. بطبيعة الحال، كان إيفوري على صواب، رغماً عن السيد آشتون. لم يعد في وسعنا أن نتجاهل إمكان وجود قطع أخرى، ولكن لا نعلم أين. الوضع هو كالآتي: ندرك بسهولة الخطر الذي نتعرض له إذا ما تم جمع هذه الأدوات واطلع السكان على ما يمكن أن تكشفه. وبالمقابل، ما زالت قادرة على تعليمنا أموراً أخرى. فلنأمل على الرغم من بعض المبادرات المؤسفة، أنهما لا يساورهما الشك في أننا نراقبهما. نستطيع أن ندعهما يواصلان أبحاثهما، هذا لن يكلفنا شيئاً. أما إذا حالفهما النجاح فسوف يكفينا أن نعترض سبيلهما فنستعيد عملهما. هل نحن مستعدون لمخاطرة محتملة بإفلاتهما منا، وهو أمر مستبعد الحدوث في حال نسّقنا الوسائل المتاحة لنا، على ما تشير إليه مدريد، أم أننا نفضل، كما يتمنى السيد

آشتون، وضع حد فوري لتعطشهما للاكتشاف؟ نحن لا نتكلم ببساطة على اغتيال عالمين بارزين. أنفضل البقاء في الجهل مخافة أن ما يكتشفانه يتهم نوعاً محدداً من النظام في العالم؟ أنختار الانضمام إلى معسكر الذين أرادوا حرق غاليليو؟

ردّ بكين: لم يكن لأعمال غاليليو وكوبرنيك أي نتيجة يمكن مقارنتها بالنتائج التي قد تثيرها اكتشافات عالم فيزياء الفلك وصديقته عالمة الآثار.

إعترض السيد أشتون مجدداً: لا أحد بينكم قادر على مواجهة ذلك، كما أنه ليس قادراً على تهيئة بلاده لذلك. يجب أن نقنع هذين العالمين بالعدول عن محاولتهما في أقرب وقت ممكن، أياً كانت الوسائل المعتمدة لتحقيق ذلك.

ـ أبدى آثينا وجهة نظر منطقية ينبغي أخذها في الاعتبار. منذ ثلاثين عاماً ظهرت هذه القطعة الأولى ونحن نعلل النفس بالافتراضات. أمن الضروري أن أذكر بأننا طالما اعتقدنا بأنها فريدة في نوعها؟ لدى عالم فيزياء الفلك هذا وعالمة الآثار هذه، احتمالات لا مثيل لها لإمكان بلوغهما إلى نتيجة مقنعة. ما كان ليخطر يوماً ببالنا أن نجمع شخصين يتبين لنا أن المؤهلات الخاصة بكل منهما تتكامل إلى هذه الدرحة. إن فكرة تركهما يتابعان أبحاثهما

تحت رقابة مشددة تبدو لي أكثر من سديدة. لن نكون هنالك إلى الأبد؛ فإذا تخلصنا منهما، ونحن نناقش ذلك هذا المساء، فما عسانا أن نفعل لاحقاً؟ هل ننتظر بروز قطع أخرى؟ وحتى لو تحقق ذلك في قرن أو قرنين، فما التغيير الذي يحدثه في العمق؟ ألا ترغبون في الانتماء إلى الجيل الذي سيعرف الحقيقة أخيراً؟ لندعهما يعملان، سنتدخل في الوقت المحدد، هذا ما اقترحته ريو.

واستنتجت إيزابيل: أعتقد أن كل شيء قد قيل، فلنقترع الآن على هذا الاقتراح أو ذاك.

تدخل بكين: عذراً، ما هي الضمانات التي نؤمّنها لبعضنا بعضاً؟

ـ ماذا تريد أن تقول؟

ـ من منا سيحكم أن الأوان قد حان لاعتراض سبيل عالمينا؟ لنفترض أن إيفوري على صواب إلى النهاية، وأن ثمة فعلاً خمس أو ست قطع، من سيتولى حراستها عندما يتم جمعها؟

وافق القاهرة: إنه لسؤال وجيه، أظن أنه جدير بالمناقشة.

اعترض السيد آشتون: لن نتفق أبداً، وأنتم تعلمون ذلك

حق العلم، وهذا سبب إضافي كيلا نورّط أنفسنا في هذه المغامرة غير المسؤولة.

ــ أضاف تل أبيب: بل الأمر خلاف ذلك. لمرة واحدة سنكون كلنا متضامنين، إن خان أحدنا تحتّمت علينا مواجهة الكارثة نفسها معاً. لو أن اللغز الذي يتم فكه بتوحيد القطع ظهرت بوادره علانية، لكانت المسألة هي ذاتها في كل بلد من بلداننا، وتعرضت توازناتنا ومصالحنا كذلك للخطر، ومن ضمنه ذاك الذي قد يكون نقض العهد.

ــ أعرف وسيلة تقينا ذلك.

شخصت أنظار المجلس كلها إلى فاكيرز.

ــ ما أن نمتلك الدليل على ما نفترضه جميعنا، أقترح أن تُفرّق قطعة من جديد، واحدة لكل قارة، وبهذه الطريقة سنتأكد أنها لن تتمكن من التجمع أبداً.

استأنفت إيزابيل الكلام.

ــ يجب أن نقترع، ماذا تقررون؟

لم يبدِ أحدهم حراكاً.

ــ دعوني أصغ القضية على النحو التالي: من هم الذين يتمنون أن نضع حداً لسفر العالمين الشابين؟

رفع السيد آشتون ذراعه، حذا بوسطن حذوه، تردد برلين وانتهى به الأمر إلى رفع يده. إنضم باريس إلى التصويت كما فعل لورنزو. أما فاكيرز فتنهّد ولم يتحرك.

خمسة أصوات مقابل ثمانية، رُفض الاقتراح. غادر السيد آشتون الطاولة هائجاً.

ـ أنتَ لا تأخذ في الحسبان المخاطر التي تعرّضنا لها وأنت تؤدي هكذا دور مبتدئ قليل الخبرة في مهنته. آمل أن تعي ما تقوم به.

فسألت إيزابيل: هل ينبغي، سيد آشتون، أن نسمع أنك تود أن تتصرف بمعزل عن الآخرين؟

ـ سأحترم قرار هذا المجلس، وستكون خدماتي تحت تصرف الجماعة بغية مراقبة الكترونيكم الحريّن، وصدقوني، أنهما لن يكونا أكثر مما ينبغي.

غادر السيد آشتون القاعة، وبعد رحيله بقليل رفعت إيزابيل ماركيز الجلسة.

لندن

كانت كيرا قد تخلّت عن سانت لويس. قالت: في المرة القادمة. بلغنا لندن عند منتصف الليل في حالة يرثى لها.

ما كانت العاصفة لترحمنا، فتعرضنا للبلل، إلا أن كيرا كانت على حق في أمر واحد هو أننا قضينا لحظة لا سبيل إلى نسيانها في ستونهنغ.

أعتقد أن قصة تحاك على هذا المنوال، عبر تتابع لحظات صغيرة إلى أن تهبك يوماً طعم مستقبل يربط بين شخصين.

كان البيت مقفراً، وقد ترك والتر هذه المرة كلمة صغيرة، يطلب فيها أن نتصل به فور عودتنا.

التحقنا به في الأكاديمية غداً، وقمت بزيارة المكان مع كيرا، التي تملكتها الدهشة وهي تدخل إلى المكتبة. ولقينا والتر ثانية ليكشف لنا عن حادث مقلق. ما من جريدة نشرت نبأ اغتيال الكاهن، وبدا أن الصحافة تغاضت عن الحادث.

أعلن والتر رصين المظهر: لا أعلم أية استنتاجات استخلص.

ــ ألعلها رغبة منهم في عدم تأجيج النفوس؟

ــ عجب والتر: هل سبق أن شاهدت جرائدنا اليومية الصغيرة ترفض نشر أي شيء يساعدهم على بيع ورق؟

ـ أو أن الشرطة لفلفت ببساطة القضية بانتظار التقدم في تحقيقاتها؟

ـ في كل الأحوال، لدي أمل وطيد بأن نتخلص من الورطة إذا ظلت الأمور سرية.

رمقتنا كيرا كلاً بدوره، ثم رفعت يدها كأنها تستأذننا في الكلام.

ـ ألم يخطر ببالكما أن الكاهن لم يكن هو المستهدف في تلك الكنيسة؟

أسرَّ والتر: بلى طبعاً، أنا ما زلت أطرح على نفسي السؤال، لماذا يمقتونكما إلى هذه الدرجة؟

ـ بسبب قلادتي!

تابعت كيرا: المستفيد هو من يود الاستيلاء على القلادة. لم تتح لي الفرصة يوماً لأن أقوله لكما، لكن شقة أختي تم السطو عليها. ما كنت عقدت أي صلة بنفسي. أما الآن...

ـ الآن تتساءلين أيضاً ما إذا لم يحاول السائق الأرعن في نبرا أن يتعمد سحقنا؟

ـ تذكّر، أدريان، ذلك هو الانطباع الذي خامرني لأول

وهلة.

تدخل والتر: لنهدأ. أعترف أن كل ما جرى مثير للاضطراب، ولكن الظن بأنك أصبحت عرضة للسرقة، قال لكيرا، أو الاستنتاج أنهم َأرادوا وضع حد لحياتكما... لنحكّمْ عقولنا.

قال والتر هذا الكلام ليطمئننا، وقد توافر لدي الدليل على ذلك، عندما ألح بعد قليل أن نبرح لندن، ريثما تهدأ الأحوال.

ظلت كيرا مفتونة بعدد المؤلفات الذي تضمه مكتبة الأكاديمية، فكانت تجول في الممرات واستأذنتْ والتر بإخراج كتاب من رفّه.

ــ لماذا تطلبين هذا منه هو؟

قالت لاهية بي: لا أعلم، يخيل إلي أن لوالتر سلطة أوسع من سلطتك.

رمقني زميلي بنظرة لا تسعى في شيء إلى كتم رضاه، بل بالعكس. دنوت من كيرا وجلست حول طاولة قبالتها. رؤية أنفسنا هكذا أيقظت فينا ذكريات أخرى، فالزمن لا يمحو كل شيء، إنما تظل بعض اللحظات على حالها في ذاكرتنا، من غير أن نعرف لماذا تبقى هذه أكثر من

غيرها. ربما هي تلك الأسرار الدقيقة التي تفضي بها إلينا الحياة في صمت تام.

استعدتُ ورقة من دفتر ملاحظات منسي فوق الطاولة، كورّتها وبدأت أمضغها محدثاً أشد ما يمكن من الضجيج؛ وتناولت ورقة ثانية، فقالت لي كيرا دون أن ترفع رأسها وبابتسامة ارتسمت على جانبي شفتيها:

ـ هيا ابلعْ، إني أمنعك من إعادة بصقها!

سألتها ما الذي تقرأ.

ـ شيئاً ما عن الأهرام، ما كنتُ رأيت قط هذا الكتاب من قبل.

رمقتنا هذه المرة، أنا ووالتر، كما لو أننا صبيان عيل صبرهما.

ـ سأكون لكما شاكرة إن خرجتما للتنزه، أو لمَ لا للعمل إذا حدث ذلك لكما بين الفينة والأخرى، ولكن أتركاني على الأخص أن أقرأ هذا الكتاب بهدوء. هيا انصرفا، لا أريد أن أرى أياً منكما قبل موعد الإقفال. مفهوم؟

خرجنا للتنزه كما كانت قد طلبت منا.

باريس

كانت مقطوعة لـ باخ يتردد صداها في الشقة. إيفوري جالس في غرفة استقباله، بيده فنجان شاي، يلعب وحده شوطاً في الشطرنج. قُرع الباب. نظر إلى ساعته متسائلاً من يمكنه في الواقع أن يقوم بزيارته، إنه لم يكن ينتظر أحداً. اقترب من المدخل بخطى خافتة، رفع غطاء العلبة المصنوعة من الاكاجو والموضوعة على مائدة الجدار، تناول المسدس الذي تحويه ودسّه في جيب بيجامته.

سأل وهو واقف بعيداً من الباب: من الطارق؟

ــ عدو قديم.

أعاد إيفوري المسدس إلى مكانه وفتح الباب.

يا للمفاجأة!

لقد اشتقت، يا عزيزي، إلى أشواطنا في الشطرنج، هل تسمح لي بالدخول؟

أفسح إيفوري المجال لدخول فاكيرز.

قال جالساً قبالة رقعة الشطرنج: هل كنت تلعب وحدك؟

ــ نعم. وما تمكنتُ من هزيمة نفسي، إنه لأمر ممل.

حرك فاكيرز الفيل الأبيض من C1 إلى G5، مهدداً الفارس الأسود.

قدّم إيفوري للتو بيدقاً من H7 إلى H6.

ــ ما الذي يحملك إلى هنا، فاكيرز، أنت لم تأتِ من أمستردام لتحاول بالضبط أخذ فارسي.

أجاب فاكيرز متناولاً الحصان الأسود: أنا قادم من مدريد، لقد اجتمعت اللجنة أمس.

سأل إيفوري: ما القرار الذي اتخذوه.

ــ أن ندع محميّيك يتابعان أبحاثهما والاستيلاء على أعمالهما عندما يبلغان هدفهما، إذا تمكنا من بلوغه.

غادر الفارس الأبيض معسكره وتمركز في C3.

قال إيفوري باقتضاب وهو يقدم البيدق في B7 باتجاه المربع B5: إنهما سيبلغانه.

سأل فاكيرز: هل أنت واثق من ذلك؟

تحرك الفيل الثاني الأبيض من C4 نحو B3.

ــ كمثل ثقتي بأنك ستخسر هذا الشوط. إن قرار

المجلس هذا لم يكن ليرضيكم.

تقدم البيدق الأسود الذي كان يحرس البرج في A7، تقدّم مربعين واستقر في A5.

ــ عدْ عن خطتك، أعتقد أني أنا الذي أقنعتهم، إذ فضل البعض حول الطاولة أن يضعوا حداً لهذه المغامرة، وبصورة جذرية، ينبغي أن أقول.

تحرك البيدق الأبيض الذي يحرس البرج من A2 نحو A3.

قال إيفوري وهو يزحلق فيله من F8 إلى C5: ليس هناك إلا الاغبياء الذين لا يغيرون رأيهم.

ــ لقد تسبب السيد آشتون بمقتل كاهن في لندن، إنه حدث طارئ.

غيّر الفارس الأبيض موقعه من G1 إلى F3.

ــ حدث طارئ؟ هل اغتالوا كاهناً نتيجة حدث طارئ؟

تزحلق بيدق أسود من D7 إلى D6.

ــ كان صاحبك عالم الفيزياء الفلكية هو الهدف الحقيقي.

تحركت الملكة البيضاء من D1 إلى D2.

ـ يا له من عمل مؤسف، اتحدث عن السيد آشتون، وليس عن ضربتك الأخيرة، بالرغم من ذلك!

تزحلق الفيل الأسود من C8 إلى E6.

أخشى ألا يرضى صديقنا الإنكليزي عن القرار المتخذ في مدريد. أشتبه في أنه يريد أن يتصرف بمفرده في ركنه.

إستولى الفيل الأبيض على ابن عمه الأسود.

ـ هل سيقاوم إرادة الجماعة؟ إنه لأمر خطير جداً. أنا أحالوني على التقاعد لأسباب أقل شأناً منها بكثير. لماذا جئت تقول لي هذا؟ كان ينبغي أن تتقاسم مخاوفك مع الآخرين!

أكل البيدق الأسود الفيل الأبيض الذي غامر بتهوره متمركزاً في E6.

ـ إنها ليست سوى افتراضات، وأنا لا أقدر أن أتهم السيد آشتون علناً من غير دليل. ولكن إذا كنا ننتظر الحصول على عناصر أولية لاتهامه، أخشى أن يكون الوقت قد فات صديقتك الشابة. هل قلت لك إن السيد

آشتون كان يريد تصفيتها هي أيضاً؟

تم استبدال البرج وحلّ الملك الأبيض محل الرخ.

ــ طالما مقتُّ تعجرفه. ماذا تنتظر مني فاكيرز؟

تحرك البيدق الأسود من G7 إلى G5.

ــ لا أحب هذا الفتور الذي حل بيننا. قلتُ لك إني مشتاق إلى أشواط الشطرنج.

قدّم فاكيرز بيدقاً أبيض من H2 إلى H3.

ــ هذا الشوط الذي نوشك أن نلعبه ليس شوطنا، وأنت تعلم ذلك وتعلم كذلك كيف تكون نهايته. ليس إقدامك بالأحرى على تنحيتي في أمستردام هو الذي جرحني، بل تصوّرك أني لم أنتبه للعبك المزدوج.

غادر الفارس الأسود B8 وتقدم ثلاثة مربعات ليستقر في D7.

ــ إنك تستخلص، يا صديقي، استنتاجات متسارعة جداً، لولاي لما تجمّعت لدينا جميع هذه المعلومات.

تراجع الفارس الأبيض من F3 إلى H2.

تابع إيفوري الكلام مقدّماً من H6 إلى H5 البيدق الأسود

الذي يحرس البرج الثاني: إن كان عالمانا في خط تسديد السيد آشتون، فلا بد من حمايتهما، ولنَ يكون ذلك سهلاً، ولا سيما في إنكلترا. يجب حثهما على الرحيل في أقرب وقت ممكن.

ـ بعد الذي تعرضا له، لن يكون من السهل إخراجهما من جحرهما.

قدّم فاكيرز بيدقه الأبيض من G2 إلأى G3.

قال إيفوري محركاً ملكه مربعاً واحداً: أعرف وسيلة تدفعهما إلى مغادرة لندن.

ـ كيف تنوي العمل؟

وتقدم الملك الأبيض بدوره مربعاً واحداً.

تحوّل البيدق الأسود في D6 إلى الهجوم في D5. حدّق إيفوري إلى فاكيرز ملياً.

ـ لمِ تقل لي حتى الآن ما الذي جعلك تغير رأيك. عما قليل، كنتَ على استعداد لبذل كل ما في وسعك لمنعهما من المضي قدماً.

ـ ليس إلى حد قتل بريئين، إيفوري، فهذه ليست طريقتي.

تحرك البيدق الأبيض من F2 إلى F3.

ـ ليس الإبقاء على حياة شخصين هو ما يحفزك فاكيرز، أريد أن أسمعك تبوح لي بما يثقل صدرك حقاً.

تراجع الفارس الأسود من D7 إلى F8.

أسرّ إليه فاكيرز: أنا مثلك، إيفوري، أتقدم في السن وأريد أن أعرف. إن الرغبة في الفهم باتت أقوى من الخوف. أمس، خلال الاجتماع، سألتْ ريو إذا كنا نريد أن نعتبر بين أوَلئك الذين سيعرفون الحقيقة أو سنختار تركها للأجيال القادمة. ليست ريو على خطأ، فالحقيقة لا بد أن تتفجر غداً أو في غضون مائة عام، أي تغيير يطرأ جراء ذلك؟ لا يتراءى لي أني سأنهي أيامي مرتدياً ثوب قاضي بوان تفتيش عجوز. تراجع الفارس الأبيض من C8 إلى 2E، فانطلق الفارس الأسود للهجوم فوق رقعة الشطرنج وأخذ مكانه إلى جانب الملكة. قدّم فاكيرز بيدقاً أبيض من C2 إلى C3.

ـ إن كنت تعرف حقاً وسيلة لحماية عالم الفيزياء الفلكية هذا وصديقته عالمة الآثار، هيا تصرّف، إيفوري، ولكن تصرف الآن.

زلق البرج الأسود من A8 إلى G8.

ـ إنها تدعى كيرا.

قدم فاكيرز بيدقاً من D3 إلى D4، فيما تراجع الفيل الأسود C5 إلى B6. أكل بيدق أبيض بيدقاً أسود في 5E، فانتقمت له الملكة السوداء في الحال، محطمة ذاك الذي جازف بنفسه في الاقتراب منها كثيراً. وهكذا كان عدد النقلات الذي تم لعبه ثلاثاً وعشرين نقلة من دون أن يتكلم لا إيفوري ولا فاكيرز.

ـ أخيراً، إذا كنتَ مستعداً للاعتراف بصحة نظرياتي، وإذا قبلت القيام بما أقوله لك، إذاً قد يواتينا الحظ معاً لنعرقل مخططات ذلك الأبله السيد آشتون.

رفع إيفوري برجه ووضعه في H4.

ـ لقد خسرت اللعب، غير أنك كنت عارفاً ذلك منذ النقلة الخامسة.

نهض إيفوري ومضى يفتش في درج مكتبه عن النص الغيزي، الذي انتهى من ترجمته في ساعة متأخرة من الليل.

لندن

لم تكن كيرا غادرت مكتبة الأكاديمية. فعدنا نبحث عنها لاصطحابها إلى العشاء، لكنها تمنت علينا أن ندعها تنهي قراءاتها بمفردها. إنها بالكاد تنازلت ورفعت رأسها عندما صرفتنا بايماءة من يدها.

ـ تعشّيا بينكما، أنا مشغولة، هيا انصرفا.

عبثاً حاول والتر أن يقول لها إن ساعة الاقفال أزفت، لم تكن ترغب أن تسمع شيئاً، وكان لا بد أن يلتمس زميلي عطف الحارس الليلي كي تبقى كيرا عاكفة على الدراسة ما شاءت من الوقت. ووعدتني باللحاق بي في منزلي بعد قليل.

لم تكن عندي بعد في الساعة الخامسة صباحاً. فنهضتُ وقدت سيارتي قلق البال.

كانت قاعة الأكاديمية مقفرة، والحارس ينام داخل محرسه. عندما رآني انتفض واقفاً.

لم تستطع كيرا الخروج من المؤسسة لأن المنافذ مقفلة، وبدون كلمة السر لما تمكنت من فتحها.

أسرعتُ الخطى في الممر المؤدي إلى المكتبة الكبرى، والحارس يتبعني.

لم تلاحظ كيرا حتى وجودي. رمقتُها عبر الأبواب المزججة مستغرقة في قراءتها. كانت تسجل، من حين لآخر، في دفتر. تنحنحتُ لأعلن عن حضوري، فنظرت إلي وابتسمت.

سألتني وهي تتمطى: هل الوقت متأخر؟

ــ أو مبكر، حسب... لقد طلع النهار.

قالت وهي تطبق كتابها: أعتقد أنني جائعة جداً.

رتّبت أوراق ملاحظاتها، أعادت الكتاب إلى مكانه في الرف، وسألتني متشبثة بذراعي، إن كنت راغباً فعلاً في أن اصطحبها لتناول الفطور.

إن اجتياز المدينة في صمت ساعات الصباح الأولى أمر رائع عجيب. التقينا شاحنة بائع حليب صغيرة كانت بدأت جولتها. في لندن، لم يكن كل شيء قد تغير.

ركنتُ سيارتي في بريم روزهيل. كان الستار الحديدي لصالة شاي قد ارتفع، وصاحبتها ترتب طاولاتها الأولى على الشرفة. لقد قبلت أن تخدمنا.

ـ ما الذي احتواه هذا الكتاب من أمور شيقة جداً بحيث استغرقت قراءته الليل بأكمله؟

ـ تذكرتُ أن الكاهن لم يكلمك على أهرام تكتشفها، بل على أهرام مخبوءة، ليس الأمران متساويين. لقد شغل الأمر بالي فراجعت العديد من المؤلفات حول هذا الموضوع.

ـ أعذريني، لكن الفارق يخفى علي.

ـ ثمة ثلاثة أماكن في العالم تتوافر فيها أهرام مخبوءة. في أميركا الوسطى، تم اكتشاف بعض الهياكل ثم ما لبث أن طواها النسيان، فالطبيعة تغطيها من جديد. وفي البوسنة، كشفت صور التقطتها أقمار صناعية عن وجود أهرام، ولكن لا يعرف أحد إلى اليوم من بناها ولأية أسباب بناها؛ وفي الصين أيضاً، وهنا يختلف الموضوع كل الاختلاف.

ـ هل من أهرام في الصين؟

ـ إنها تعدّ بالمئات. وقد كان العالم الغربي يجهلها تماماً حتى العام 1910. معظمها قائم في مقاطعة شآن كسي، على مدى مائة كيلومتر حول مدينة كسي آن. اكتشف أولها فراد مايير شرودر وأوسكار مامان في

]، واكتشفت بعثة سيكالين سواه في 1913. يقال إن طياراً من طياري الجيش الأميركي كان يحلق، في 1945 فوق الحدود بين الهند والصين التقط، وهو يحلق فوق جبال كين لينغ، صورة جوية لما أسماه الهرم الأبيض. ولم يكن من المستطاع تحديد موقعه بدقة يومئذ، بيد أنها قد تكون أكبر بكثير من هرم خفرع. وقد نُشر مقال عنه في إحدى طبعات «نيويورك صانداي نيوز» في ربيع1947.

«ليست الأهرام الصينية، خلافاً لبنات عمها الأهرام المايا أو المصرية، مشيدة في معظمها بالحجر، وإنما بالتراب والصلصال. ونعرف أنها كانت، كما هي الحال في مصر، تستخدم كأضرحة للأباطرة وأسر السلالات الكبرى».

لقد أسرت الأهرام العقول على الدوام، وولّدت العديد من الفرضيات الغريبة. وباتت، خلال آلاف السنين، أضخم العمائر المبنية على الأرض، سواء ما يتعلق منها بالهرم الأحمر في مدينة الاموات بـ «دهشور» الواقعة على ضفة النيل الغربية، أو ما يتصل بهرم خفرع الذي ما زال يعتبر وحده بين عجائب الدنيا السبع. على أن شيئاً واحداً، مع ذلك، يثير الاضطراب؛ لقد نُصبت الأهرام الأكثر شهرة في الحقبة التاريخية نفسها، من غير أن يعي أحد كيف أن

حضارات متباعدة في ما بينها انتجت في كل مكان نموذجاً معمارياً متشابهاً.

جازفت في الكلام، مقترحاً أن الناس ربما كانوا يسافرون في ذلك العصر أكثر مما نتوقع.

ــ بالضبط، لعل ما تقوله ليس منافياً للعقل. راجعتُ في المكتبة مقالاً ورد في الموسوعة البريطانية لعام 1911. تعود العلاقات القائمة بين مصر وأثيوبيا إلى سلالة الفراعنة الثانية والعشرين؛ وقد اتفق، اعتباراً من السلالة الخامسة والعشرين، أن وُضع البلَدان تحت إدارة سلطة واحدة، وكانت عاصمة الامبراطوريتين يومئذ في ناباتا، في شمال السودان الحالي. إن الشهادات الأولى على العلاقات بين أثيوبيا ومصر ما زالت أقدم عهداً. فقبل ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد تكلموا على بلاد «بونت»، وهي الأراضي الممتدة جنوب النوبة. وأول سفر معروف إلى بلاد بونت تم على عهد الفرعون صاهوره. ولكن أصغِ إلى هذا جيداً، رسوم جدرانية تعود إلى القرن الخامس عشر ق. م. عُثر عليها في معبد دير البحري، تصور جماعة من البدو تحمل بخوراً وذهباً وعاجاً وخشب الأبنوس، وعلى الأخص المر[4]، الواقع أننا نعرف أن المصريين كانوا من محبي المر، المر الذي يجعلنا نتوقع أن المبادلات مع أثيوبيا ترقى إلى أقدم

عهود مصر.

ــ ما الرابط بين هذا كله وهرمك الصيني؟

ــ ها أنا آتية إلى ذلك. ما نسعى إلى إثباته هو العلاقة التي يمكن أن تقوم بين هذا النص وقلادتي. تُحدثنا هذه الكتابة باللغة الغيزية عن أهرام. تذكرْ الجملة الثالثة الواردة في النص: «لا يعلمنَّ أحد أين هي الذروة، ليل أحدهما هو حارس المقدمة». قال لنا ماكس لا يتعلق الأمر هنا بالقيام بترجمة حرفية، ولكن بتفسير النص. يمكن لكلمة «مقدمة» أن تعني «الأصل». عندها تعطينا الجملة التالية: «لا يعلمنَّ أحد أين هي الذروة، ليل أحدهما هو حارس الأصل».

ــ هذا، في الواقع، أجمل هكذا، لكني آسف، لا أرى أبداً أين تريدين الوصول.

ــ لقد عثرنا على قلادتي وسط بحيرة تبعد بضعة كيلومترات عن مثلث «إيلامي»، بلاد البونت المشهورة الواقعة على الحدود بين أثيوبيا، غينيا والسودان. هل تعرف كيف كان المصريون يسمون بلاد البونت؟

لم يكن عندي أي فكرة عن ذلك، فرمقتني كيرا بزهو ودنت مني.

كانوا يسمونها «تانيتيرو» وتعني «أرض الآلهة»، أو «بلد الأصل» أيضاً. في هذه المنطقة كذلك يوجد النيل الأزرق، منبع النيل؛ يكفي أن تتنزل والنهر لتصل إلى أول وأقدم الأهرام المصرية، هرم «جوزر» في سقارة. ربما وصلت قلادتي من هذه الطريق الصالحة للملاحة إلى وسط بحيرة توركانا. والآن لنعد ثانية إلى الصين، لقد كرست لها الجزء الثاني من ليلتي. لئن كانت شهادة ذلك الطيار الأميركي صحيحة ــ وجود هذا الهرم الأبيض موضوع خلاف دائم ــ فإن الهرم الذي قد يكون صوّره يرتفع إلى أكثر من ثلاثمائة متر، وهكذا سيكون إذاً أعلى هرم في العالم.

ــ أتريدين أن نذهب إلى الصين، إلى جبال كين لينغ؟

ــ هذا ما يلمّحه لنا هذا النص المكتوب بالغيزية. الأهرام المخبوءة... أميركا الوسطى، البوسنة أو الصين! سأختار أعلاها، إنه لتحدٍّ، احتمال من ضمن ثلاثة احتمالات! لكن ثلاثة وثلاثين بالمائة من الاحتمال، بالنسبة إلى باحث، أمر هائل، ثم أنا أثق بغريزتي.

وجدتُ صعوبة في فهم هذا التحول في السلوك عند كيرا. منذ قليل كانت لا تنفك تردد على مسمعي، لأول فرصة متاحة، كم هي مشتاقة إلى أثيوبيا. كنت أعلم أنها

امتنعت في الغالب عن الاتصال بأريك، الزميل الذي ينوب عنها في ممارسة مهامها. كلما كانت الأيام تمضي، كنت أخشى اللحظة التي ستعلن لي فيها أن كل شيء عاد إلى مجراه الطبيعي في وادي أومو، وأنها سترحل من جديد. أما الآن فها هي، مع ذلك، تقترح علي بالابتعاد أكثر فأكثر عن إفريقيا الحبيبة وعن حفرياتها.

كان علي أن ابتهج لفكرة الإقبال على هذه الرحلة إلى الصين معها، وتقاسم حماسها، لكنها حين اقترحتْ علي هذا السفر، أقلقتني المشروع لأسباب شتى.

قلت لها: سوف تعرفين، مع ذلك، أننا نفتش عن إبرة في كومة قش. وكومتك هذه موجودة في الصين!

ـ ماذا دهاك؟ لستَ مجبراً على الإتيانِ معي، أدريان، إن كنت تفضّل تدريس طلابك اللطفاء، إبقَ في لندن، أنا سأفهم تصرفك، أنت على الأقل حياتك قائمة هنا.

ـ ماذا يعني قولك إن حياتي أنا قائمة، على الأقل، هنا؟

ـ هذا يعني أني اتصلت البارحة هاتفياً بأريك، وأن الشرطة الأثيوبية قدمت إلى المخيم، وأني إن وطئت الآن أرضها فسيكون ذلك للإجابة عن دعوة للمثول أمام قاضٍ.

كما يعني ذلك أنني، بفضل هذين الذهاب والإياب إلى بحيرة توركانا حيث راودتني الفكرة الشيقة بمرافقتك، مطرودة للمرة الثانية من حفرياتي في أقل من عام! لم يعد لي عمل أزاوله، ولا مكان أرتاده، وعلي في غضون بضعة أشهر أن أقدم حساباً إلى هذه المؤسسة التي أودعتني مبلغاً ضخماً. ماذا تقترح علي كحل بديل؟ أن ابقى في لندن أقوم بأعمال المنزل في انتظار عودتك من العمل؟

ـ لقد تعرضت للسرقة في باريس، وتم السطو على غرفتنا في المانياَ، واغتيل كاهن تحت أنظارنا، ولا تقولي لي إنك لا تتساءلين عن الأسباب المؤدية إلى وفاة زعيم القرية. ألا تجدين أننا مررنا بمشكلات كثيرة مذ أبدينا اهتمامنا بهذه القلادة الملعونة؟ ولو أنك تلقيت أنت رصاصة مطلق النار ذلك؟ ولو أن سائق السيارة اَلأرعن في نبرا لم يخطئ صدمته؟ إنك خالية البال شأنك شأن والتر!

ـ مهنتي محفوفة بالمخاطر، أدريان، وينبغي أن نخاطر باستمرار. أوتعتقد أن أولئك الذين اكتشفوا عمود لوسي الفقري كان تحت تصرفهم مخطط المقبرة أو أحداثيات منظومة تحديد الموقع عبر الأقمار الصناعية الهابطة من السماء؟ طبعاً لا! قالت وقد انتابها الغضب.

الغريزة هي التي تصنع نسل المكتشفين، إنها كالبصيرة عند كبار الشرطيين.

ـ لكنك لست شرطية، كيرا.

ـ تصرف كما يحلو لك، أدريان، إن كنت خائفاً فسأنطلق وحدي. وإذا توصّلنا حقاً إلى إثبات أن لقلادتي من العمر أربعمائة مليون سنة، فهل تلاحظ مدى أهمية هذا الاكتشاف؟ هل تعي كل ما يستلزمه ذلك؟ والاضطرابات التي ستثيرها؟ سأكون مستعدة لنبش كل أكوام القش على الأرض كي أصل إليه، إذا ما أتاحوا لي فرصة تحقيق ذلك. تذكر أنك أنت الذي اقترحت علي أن أكسب ثلاثمائة وخمسة وثمانين مليون سنة في البحث عن أصولنا، وتود مني الآن أن أخفض ذراعيّ؟ هل ترفض رواية اللحظة الأولى لخلق الكون، لسبب وحيد هو أن المرصاد الذي يتيحِ لك هذه الأعجوبة، يصعب عليك الوصول إليه؟ لقد كدتَ تموت على علو خمسة آلاف متر حين كانِ يحدوك الأمل في النظر إلى نجومك من مسافة أقرب. إبقَ أنت في حياتك الصغيرة الماطرة والخالية من المخاطر، إنه لحقك، أما الشيء الوحيد الذي أطلبه منك فهو أن تمد لي يد المساعدة، إذ لا إمكانات لدي لتمويل هذه الرحلة. لكني أعدك بأني سأسدد لك يوماً كل شيء.

لم أنبس بحرف لأنني كنت حانقاً، حانقاً على جرها إلى هذه المشكلة، وحانقاً أيضاً على شعوري بالذنب لتضييع عملها، وعاجزاً عن إبعادها عن المخاطر التي كنت أحس بقرب وقوعها. وطالما أنعمتُ النظر في ذلك الجدل الرهيب، وعاودت التفكير في تلك اللحظة التي خفت أن أضيّعها إذا ما خيبت أملها. ما زلت اليوم أشد حنقاً من البارحة لأنني استسلمت لهذا الجبن.

قصدتُ والتر، كما يقصد المرء صديقاً له يسأله العون والنجدة. إن لم أوفّق في إقناع كيرا بالعدول عن هذا السفر، فربما يجد الكلمات التي تجعلها تذعن للصواب. لكنه رفض، هذه المرة، مساعدتي، لا بل كان مسروراً لأن نبرح لندن، فقد قال لي أنْلا أحد سيفكر في البحث عنا في الصين. ثم أضاف أن وجهة نظر كيرا مبررة، واستفزّني بسؤاله إذا ما كنت فقدت كل لذة في خوض المغامرة. ألم أكن قد جازفت بنفسي بقلة التبصّر على هضبة أطاكاما؟ لو أنه هو أيضاً يبذل جهده!

ــ نعم، لكني أنا كنت أتعرض لهذه المخاطر، وليست هي!

ــ كفَّ عن لعب دور المنقذ، أدريان، كيرا فتاة بالغة، كانت قبل التعرف إليك تعيش وحيدة وسط إفريقيا. تحيق

بها أسود ونمور وفهود ولا أدري أي جيران غيرها. لم يفترسها، حتى الآن، أي منها! إن وجهة النظر القائلة «بأني قلق على كل شيء» أمر محبب لدى أمك، ولكن بالنسبة إلى رجل في مثل سنك هي، إذا جاز القول، شيء سابق لأوانه!

أخذتُ البطاقتين. وكانت الوكالة التي أوصاني بها والتر، تلك التي أحسنت الاهتمام بسفره إلى اليونان، قد اخطرتنا أنه لا بد من عَشرة أيام للحصول على تأشيرتينا. كنت آمل أن هذا الأرجاء سيوفر لي الوقت لجعل كيرا تغير رأيها، لكنهم اتصلوا بنا غداة اليوم التالي. لقد واتانا الحظ كثيراً، فالسفارة الصينية سبق أن عالجت ملفينا، وكان جواز السفر بانتظارنا. وأنت تتحدث عن حظ!

لندن

كانت وجبة الطعام تشرف على نهايتها، وفاكيرز أمضى وقتاً ممتعاً برفقة زميله، إلا أنه كان يتساءل إذا ما ارتكب خطأ يمت بصلة إلى الذوق داعياً إياه إلى العشاء في مطعم صيني، ولكن المائدة كانت، في كل حال، من أشهر الموائد اللندنية، وبدا أن بكين تلذذ بها.

أكد له: سوف نمارس رقابة متقاربة ورصينة، فليطمئن الآخرون بالاً، نحن لنا تأثير فعال.

لم يكن فاكيرز ليشك في ذلك لحظة واحدة، فقد عمل بضع سنوات إبان شبابه على الحدود البرمانية، وعرف أن الرصانة الصينية أبعد ما تكون خرافة، حينما كان مغاويرهم يقومون بغارة في منطقة غريبة، لم يكن أحد يسمعهم يصلون ويرجعون، وحدها جثث ضحاياهم كانت تشهد على أنهم قدموا لزيارة جيرانهم.

قال بكين: أغرب ما في الأمر أني سأكون في الطائرة نفسها التي يسافر على متنها عالمانا. عندما يجتازان الجمارك، ستخضع أمتعتهما للتفتيش، وهو مجرد عملية شكلية ولطيفة تماماً، لكنها ستسمح لنا بتركيب أجهزة

مراقبة على بعض أمتعتهما. لقد فخخنا منظومة تحديد الموقع في سيارة الأجرة التي ستتسلم إليهما عند وصولهما. هل أنجزتَ ما كان يتوجب عليك إنجازه؟

شرح فاكيرز: كان السيد آشتون في غاية السعادة لتقديم هذه الخدمة. إنه يتخوف من هذه العملية لدرجة لم يكن يخطر في بالي، وقد يكون على استعداد لسرقة حلي الملكة لو أنهم أثبتوا له أن تلك هي الوسيلة الأضمن لعدم تضييع آثار عالمينا. ستجري الأمور على النحو التالي: عندما يحين دورهما، فإن أبواب الأمان في مطار هيثرو سيتم ضبطها بأعلى مستوى من الحساسية. ولن يتوافر لعالم الفيزياء الفلكية خيار آخر لاجتيازها من دون قرع الجرس، سوى أن يضع كل أمتعته الشخصية على سجادة آلة الأشعة السينية. وبينما يخضع لتفتيش موظف في الجمارك شديد التدقيق، سيفخخ رجال السيد آشتون ساعته.

ــ وعالمة الآثار؟ ألا يُحتمل أن تلاحظ ما يحدث؟

ــ هي كذلك ستكون منشغلة جداً خلال هذه الفترة. حالما يتم تجهيز أجهزة الإرسال، يزوّدك السيد آشتون بترددها. أما ما يقلقني بعض الشيء فيجب أن أبوح به لك، إذ أنه، نتيجة لذلك، سيمتلكها هو أيضاً.

ـ إطمئن، أمستردام، هذا النوع من الأجهزة قصير المدى. ولعل السيد آشتون لديه الوسائل لشراء كل الأفراد الذين يتمنى شراءهم في إنكترا لتحقيق غرض دنيء، لكن ما أن يصل عالمانا إلى بلادي، أشك أنه سيتمكن من معرفة أي شيء. باستطاعتك الاعتماد علينا، فالتقارير المتعلقة بنشاطهما ستبلغ المؤسسة بمجملها من غير أن يكون السيد آشتون أول من اطلع على الخبر.

أصدر هاتف فاكيرز إشارتين صغيرتين حادتين. قرأ الرسالة الموجهة إليه واعتذر لدى مضيفه، لأن عنده موعداً آخر.

وثب فاكيرز في سيارة وطلب من السائق أن يوصله إلى ساوث كنسنغتن. أنزلته السيارة في «بيوت ستريت» أمام واجهة مكتبة فرنسية صغيرة. كانت، على الرصيف المقابل، امرأة شابة، كما أبلغتْه الرسالة، تقرأ صحيفة «لوموند»، وهي تحتسي القهوة على شرفة حانوت سمان.

جلس فاكيرز إلى الطاولة المجاورة، طلب فنجان شاي وبسط جريدة. بقي هناك لحظات، دفع الحساب ونهض متناسياً ما يقرأ فوق الطاولة.

لاحظت كيرا ذلك، فالتقطت الجريدة، ونادت الرجل الذي راح يبتعد، كان الآن قد عطف زاوية الشارع. وفى فاكيرز

بالوعد الذي قطعه لإيفوري، إنه سيعود هذا المساء إلى أمستردام.

شاهدت كيرا، وهي تضع الجريدة فوق الطاولة، رسالة تتجاوز طرفها. فسحبتها ببطء وانتفضت حين اكتشفت اسمها على المغلف.

عزيزتي كيرا،

أعذريني أني لا أقدر أن اسلمك باليد هذه الكلمات القليلة، ولكن لأسباب قد يكون من الممل شرحها لك، يُستحسن ألا يشاهدني أحد برفقتك. لا أكتب لك لأشغل بالك، بل على العكس تماماً، لأهنئك وأزوّدك بأخبار سترضيك. أنا مغتبط أن تشدّ انتباهك أسطورة «تيكون أولامو» الجذابة، التي حدثّتك عنها في مكتبي. أعرف أنه اتفق لك أن فكرت، حين كنا نتناقش في باريس، أنني تقدمت في السن كَثيراً للاحتفاظ بكامل قوتي العقلية. لئن كنتُ آسفاً للأحداث التي ألمّت بك خلال هذه الأسابيع الأخيرة، فربما كان لها الفضل في جعلك تعيدين النظر في حكمك علي.

كنتُ وعدتك بأخبار سعيدة، ها هي ذي. أظن أنني على علم بأن نصاًَ قديماً جداً اعترض سبيلك. تصوري أنني كنت أعرف وجوده، ولكن استطعتُ أخيراً بفضلك أنت

وبفضل قلادتك أن أتقدم في فهم هذه الكتابة التي عقلت الدهشة لساني لفترة طويلة. على أني، مع ذلك، أستمر دائماً في نسخها. وفي هذا الصدد، أشير إلى أن المستند الذي في حوزتك ناقص، ينقصه سطر محي من المخطوطة. عثرت على أثر له في مكتبة قديمة جداً من مكتبات مصر، وأنا أتصفح ترجمة سأوفّر عليك عناء قراءتها لأنها لا تتسم بجودة النوعية. وإن لم يسعني أن أكون إلى جانبك كما كنت أود، فلن أتمكن مع ذلك من مقاومة رغبتي في مساعدتك، كلما سنحت لي الفرصة في تحقيق ذلك.

الجملة الناقصة تقول الآتي: «يرقد الأسد على حجر المعرفة».

كل هذه الأمور يكتنفها الغموض، أليس كذلك؟ وهكذا بالنسبة إلي أيضاً. لكن غريزتي توحي إلي بأن هذه المعلومة قد تكون ذات يوم ثمينة لديك. أسود كثيرة ترقد عند أقدام الأهرام، ولا تنس أن بعضها أكثر توحشاً من بعضها الآخر، وأكثر شغفاً بالحرية. والأسود الأميل إلى العزلة تعيش بعيدة من سرب كلاب الصيد؛ أتصور أني لا أفيدك شيئاً جديداً، فأنت معتادة على الأسود، أنت التي تعرفين إفريقيا حق المعرفة. كوني حذرة، صديقتي

العزيزة، فأنت لست وحدك مولعة بأسطورة تيكون أولامو، مع أنها ليست إلا أسطورة... أعرف أن بعض الأحلام، وغالباً أكثرها جنوناً، تقود الإنسان إلى الاكتشافات الأشد إثارة للدهشة. أتمنى لك سفراً سعيداً، واغتبط لإقدامك عليه.

صديقك المخلص إيفوري

ملاحظة: لا تكلمي أحداً في شأن هذه الرسالة، حتى أقرباءك. أعيدي قراءتها كيلا تنسي شيئاً منها، ثم أتلفيها.

نفذت كيرا ما طلب إيفوري منها. فقرأت الرسالة مرتين ولم تتحدث عنها لأحد، حتى إلي أنا، أقله ليس قبل مضي وقت طويل. لكنها بدلاً من إتلافها، طوتها وأودعتْها في جيبها.

ودّعْنا والتر وركبنا يوم الجمعة ذلك، أذكر كما لو كان البارحة، على متن طائرة للمسافات الطويلة أقلعت في الساعة الثامنة والنصف إلى بكين.

إن المرور عبر الأمن العام كان بمثابة جحيم لنا. عاهدتُ نفسي بأن أتحاشى من الآن فصاعداً، وكلما سنحت لي الفرصة، السفر انطلاقاً من هيثرو. وكانت كيرا هائجة جراء المعاملة التي جابهنا بها موظفون غيورون جداً، قد

انتهى الأمر بها إلى أن تستشيط غضباً، إلا أني استطعت في نهاية المطاف أن اهدئ روعها تماماً قبل أن يهدّدونا بتعريتنا بالكامل لإجراء تفتيش أعمق أيضاً.

أقلعت الطائرة في الموعد المحدد، وما أن بلغنا الإرتفاع المنشود، حتى استراحت كيرا أخيراً. اغتنمتُ ساعات الطيران العشر لأُحاول تعلم بعض المفردات التي قد تساعدني على قول صباح الخير، إلى اللقاء، من فضلك أو شكراً. ولكن صباح الخير لمن، وشكراً على ماذا... لم أكن أعلم شيئاً.

عدلتُ سريعاً عن دروسي في اللغة الصينية المتسارعة وغصت ثانية في قراءاتي المنسجمة مع ميولي الأدبية.

سألتني كيرا ونحن في منتصف الرحلة: ماذا تقرأ؟

أريتها الغلاف وذكرت عنوان الكتاب: «بحث في انبعاثات جزئيات في محيط المجرات».

همهمت نوعاً من «همم»، غاب عني مغزاه.

ـــ ماذا؟

قالت: يبدو أن كتابك مثير للاهتمام حقاً، أعتقد أن الفيلم كان أفضل، إنهم يريدون حتى إنتاج تتمة له...

استدارت وأطفأت المصباح الصغير الذي يعلو مقعدها.

بكين

وصلنا عند بداية العصر، منهوكي القوى سواء نتيجة السفر أو تغيّر نظام التوقيت. وجرت المعاملات الجمركية دون عائق كثير، بل مراقبة روتينية قصيرة أجراها أناس أشد لطفاً مما عاهدناهم عند لحظة الانطلاق. كنتُ قد حجزت لي بواسطة وكالة السفريات سيارة رباعية الدفع من صنع محلي. كان العقد مهيأ سلفاً باسمينا في مكتب التأجير القائم داخل قاعة المطار، وعربة جديدة لامعة تنتظرنا في الموقف.

لحسن الحظ، كانت سيارتنا مجهزة بمنظومة لتحديد الموقع عبر الأقمار الصناعية، إذ ليس سهلاً التوجه في الصين، فاسماء الجادات تتعذر على الغربيين قراءتها. دخلتُ في إحداثيات الفندق حيث حجزت غرفة لي. ولم يبق لي إلا أن أتبع الذي سيوجهني نحو قلب المدينة.

كانت حركة السير كثيفة. فجأة ظهر إلى يميننا سور المدينة المحرمة، وانتصب إلى يسارنا نصب قائد الشعب التذكاري، وفي مكان أبعد، كانت ساحة «تيانن من» تستعيد ذكريات كئيبة. كنا قد اجتزنا قبة المسرح الوطني الذي يتميز في المشهد المديني بحداثته المعمارية.

سألتني كيرا: هل أنتَ متعب؟

ـ ليس أكثر مما أنا عليه.

ـ لو تابعنا إذاً مسيرتنا مباشرة باتجاه كسي آن؟

كنتُ أشاطرها قلة صبرها، لكن ألف كيلومتر تفصلنا عن مكاننا المقصود. وقضاء ليلة في بكين قد يعود علينا بالنفع العميم.

من المحال أن يكون المرء قريباً إلى هذه الدرجة من المدينة المحرمة ويمتنع عن زيارتها. توقفنا قليلاً في فندقنا لتغيير ملابسنا. سمعت، من الغرفة، الماء يسيل في الحمام. كانت كيرا «تتدوّش»، وخرير جريان الماء جعلني سعيداً على حين غرة، وغيّب عني مشاعر القلق التي كادت تدفعني إلى التخلي عن هذا السفر بصحبتها.

ـ سألتني عبر الباب: هل أنت هنا؟

ـ أجل، لماذا؟

ـ لا لشيء...

كنتُ أخشى أن نظلّ في متاهة الطرق التي تتشابه كلها. أوصلتنا سيارة تكسي إلى حديقة جنكشان العامة.

ما كنتُ رأيت حديقة ورود في مثل هذا الجمال. كان أمامنا جسر من حجر يعلو حوض ماء. وعلى غرار مئات السياح الوافدين أثناء النهار استخدمناه وتنزهنا مثلهم في ممرات الحديقة. ضمتني كيرا بين ذراعيها.

قالت لي: أنا سعيدة لوجودي هنا.

لو كان في وسعنا أن نوقف الزمن، لأوقفته في هذه اللحظة بالذات. ولو كان الإمكان الرجوع إلى الوراء، لرجعت هنا أمام شجيرة ورد أبيض في أحد ممرات حديقة جنكشان.

دخلنا المدينة من بابها الشمالي. وقد أُضطر أن أسوّد مائة صفحة من صفحات هذا الدفتر لأصف كل مظاهر الجمال التي كانت تتراءى لأعيننا: السرداقات القديمة حيث تعاقبت سلالات عدة، حديقة الامبراطور التي كانت محظياته تتنزه فيها، المعبد الأحمر ذو الملامح الربيعية المتعددة، سطوح المنازل ذات التموجات الغريبة الشكل، التي يخيل أن بعض التنانين الذهبية ما زالت تبحث عليها عن فريسة لها، طيور مالك الحزين البرونزية الشاخصة ببصرها إلى السماء وكأنها جمدت منذ الأزل، سلالم المرمر المنحوتة كما الدنتيلا. إلى ذلك، كان زوجان صينيان هرمان جالسين على مقعد قرب شجرة ضخمة،

انتابتهما نوبة ضحك متواصل لم ندرِ سببها، ولم نكن نفهم أي كلمة من الكلمات التي كانا يتَبادلانها، وبالحري ما يجعلهما يغربان في الضحك، وحدها كانت أنظارهما تتيح لنا كشف التواطؤ الذي يجمع بينهما.

أريد أن أتصور اليوم أيضاً عودتهما إلى هذا المقعد وسط المدينة المحرمة، ومشاركتهما في الضحك معاً.

على أن التعب غلبنا هذه المرة، فلم تعد كيرا تقف على قدميها ولم أعد أنا أتسم بالإقدام إلا قليلاً. فعدنا أدراجنا إلى الفندق.

لقد نمنا دون أخذ الوقت في الاعتبار. ثم تناولنا فطورنا على عجل وغادرنا بكين. طريق طويلة كانت في انتظارنا، وكنت أشك أن نهاراً واحداً يكفي لإتمام هذه الرحلة دفعة واحدة.

حلّ الريف محل المدينة، وبدا السهل لا نهاية له والجبال التي نلمحها في الأفق لا تقترب البتة. ثلاثمائة كيلومتر تمدّدت خلفنا، بينما كنا تجتاز من حين لآخر مدناً صناعية نبتت في أي مكان، وأخذت تغير رتابة التضاريس. توقفنا في شيجيازهوانغ لملء الخزان بالوقود. وقررت كيرا أن تبتاع شطيرة في المحطة يكاد مظهرها يوحي بالـ «هوت دوغ»، عدا ذلك كان يستحيل تحديد نوع

المقانق الذي بداخلها. أما أنا فرفضت تذوقها، فيما كانت كيرا تبتلع كل لقمة بلذة ارتاب أنها مبالغ فيها. بعد خمسين كيلومتراً، عندما شرعت راكبتي يتبدل لونها، توقفت حالاً على حافة الطريق. فهرعت كيرا وراء منحدر، ثم صعدت بعد عشر دقائق في السيارة حائلة بيني وبين إبدائي أي تعليق.

لتكافح كيرا الغثيان ــ الذي وعدتُ بالسكوت عن سببه ــ استلمتْ المقود. كنا، لدى وصولنا إلى يانغ كوان، قد بلغنا الأربعمائة كيلومتر، واكتشفت كيرا قرية حجرية صغيرة على قمة تلة، تبين لها أنها مهجورة. توسلت إلي بأن تخرج عن الطريق وتسلك الدرب الترابي المؤدي إليها. لقد ضقت ذرعاً بالاسفلت وحان الوقت كي تَصلح العجلات الأربع المحركة لسيارتنا لشيء ما.

أوصلنا درب محدب حتى مدخل الضيعة الصغيرة. كانت كيرا على حق، لم يعد أحد يعيش هنا، وكانت معظم البيوت متداعية، حتى لو أن بعضاً منها ما زال محتفظاً بسقفه. لم يكن الجو المرعب ليدعو المرء إلى زيارتها، لكن كيرا تسللت عبر الأزقة القديمة، ولم يبقَ لي خيار آخر سوى اقتفاء أثرها في هذه القرية الشبح. كان، في وسط ما عُرف في الماضي بالساحة الرئيسية، حوض ماء ومبنى

خشبي يبدو أنهما قاوما على نحو أفضل تقلبات الزمان. جلست كيرا على الدرج.

سألتها: ما هذا؟

ــ إنه معبد كونفوشيوسي. كان تلاميذ كونفوشيوس كثراً في الصين القديمة، وحكمة المعلم أرشدت العديد من الأجيال.

فاقترحت عليها: هل ندخل؟

نهضت كيرا واقتربت من الباب. كان كافياً أن تدفعه دفعة خفيفة لينفتح.

أجابتني: لندخل!

كان داخل المبنى خالياً، بضعة حجارة قائمة بين أعشاب ضارة.

ــ ماذا جرى بالفعل حتى هجر الناس هذه القرية؟

ــ قد يكون نبع الماء جف، أو حصد السكان وباء، لا أدري. لا بد أن يكون عمر هذا الموقع أقله ألف عام، يا لها من خسارة أن تكون قد تُركت في هذه الحال!

مربّع صغير من الأرض في أقصى المعبد استرعى

انتباه كيرا. فجثت وشرعت تحفر بيديها برقة تامة. كانت يدها اليمنى تستخرج الحصى ببالغ الدقة، وتنحّيها جانباً بيدها اليسرى. كان باستطاعتي أن أتلو جميع وصايا كونفوشيوس وفق الترتيب الذي ذكره، لكنها ما كانت لتعيرني أي انتباه.

ــ هل لي أن أعرف ماذا تعملين؟

ــ لعلك ستكتشفه في غضون لحظات.

فجأة ظهر، من قلب التراب الذي قلبته، الانحناءة اللطيفة لكأس برونزية. غيرت كيرا وضعيتها وأمضت قرابة ساعة، وهي جالسة على الأرض ثانيةً ركبتيها، تحرّر الإناء من الطمي الجاف الذي كان يحتجزه أسيراً. ثم رفعت، كمثل السحر، الكأس وقدمتها إلي.

قالت تشع فرحاً وذهولاً: ها هي ذي!

تملكتني الدهشة، ليس فقط لجمال هذا الإناء البادي الآن بالرغم من تلوثه بالتراب، وإنما للسحر الذي أسهم في انتشاله من النسيان.

ــ كيف فعلتِ هذا، كيف أمكنك أن تعرفي أنه موجود هنا؟

قالت لي منتصبة: لدي موهبة فريدة للغاية في العثور على إبر وسط أكوام التبن، حتى لو كانت هذه الأكوام في الصين، إن هذا لكفيل بأن يطمئنك، أليس كذلك؟

لقد توسلتُ إليها طويلاً قبل أن تبوح لي بكشف سرها. كانت الحشائش، في الموقع الذي بدأت تحفر فيه، أقصر قامة، والنباتات أقل ندرة وأقل اخضراراً أيضاً مما هي في الأماكن الأخرى كافة.

أسرّت إلي: هذه هي الحال عموماً عندما تكون أداة دفينة في الأرض.

نفضت كيرا الغبار عن الكأس.

قالت لي وهي تضعها برفق فوق حجرة: لا يعود تاريخها إلى البارحة.

ـ أتتركينها هنا؟

ـ ليست ملكاً لنا، إنها قصة سكان هذه القرية التي كتبت هنا. سيجدها أحدهم ويفعل بها ما يحلو له. هيا تعال، لدينا أكوام أخرى من التبن ننبشها!

تبدّل المشهد في لنفن، إذ كانت المدينة إحدى أكثر عشر مدن في العالم تلوثاً، واتخذت السماء لون العنبر

بغتة وراحت سحابة مقزّزة تظلم السماء. عندها فكرتُ في صفاء الليالي فوق هضبة أطاكاما، أمن الممكن أن ينتمي هذان الموقعان إلى كوكب واحد؟ أي جنون استحوذ على الإنسان حتى يشوه بيئته إلى هذه الدرجة؟ أي من هذين المناخين، مناخ أطاكاما أو لنفن، ستكون له الغلبة يوماً؟ كنا قد أغلقنا النوافذ، وكيرا تسعل كل خمس دقائق، وتبدو الطريق أمامي غير واضحة ما دامت عيناي تخزاني.

شكت كيرا وقد انتابتها نوبة جديدة من السعال: إنها رائحة جهنمية.

استدارت نحو المقعد تفتش في أمتعتها بحثاً عن لباس قطني تجعل لنا منه قناعين مؤقتين. ندّت عنها صرخة خافتة.

فسألتها: ما بالكِ؟

ــ لا شيء، لقد وخزت نفسي بشيء ما في بطانة حقيبتي. إنها بكل تأكيد إبرة أو مشبك.

ــ هل يسيل الدم؟

قالت وهي منحنية فوق حقيبتها: قليلاً.

كنت أقود السيارة والرؤية رديئة للغاية حتى لأحتفظ

بيديّ الاثنتين على المقود.

ــ أنظري في علبة السيارة، فيها محفظة للحالات الطارئة، ستجدين بداخلها ضمادات. فتحت كيرا العلبة، تناولت محفظة الإسعافات الأولية وأخرجت منها مقصاً صغيراً.

ــ هل أنت جريحة؟

ــ كلا، لا أشكو شيئاً على الإطلاق، ولكن أريد أن أعرف ما هذا الشيء القذر الذي وخزني. لقد دفعتُ ثمن هذه الحقيبة ثروة لا يستهان بها!

ها هي الآن منصرفة إلى رياضة بدنية كاملة لنبش أمتعتها.

وسألتها حين تلقيتُ منها ركلة بركبتها في أضلاعي: هل لي أن أعرف ماذا تفعلين؟

ــ إني أفتّق.

ــ ماذا تفتقين؟

ــ هذه البطانة القذرة، أسكتْ وقُد السيارة.

ثم سمعتُ كيرا تهمهم: ولكن ما هذا الشيء؟

واضطرّت أن تشبّر في كل اتجاه لتعاود الجلوس في مكانها. عندما تمكنت من ذلك أخيراً، كانت تمسك بين أصابعها بدبوس زينة معدني أرتني إياه بزهو وانتصار.

قالت لي: إنها إبرة لعينة.

كان الشيء يشبه، مع إمكان الوقوع في الغلط، دبوس زينة للدعاية، نوع دبوس إلا أن هذا كان رمادياً داكناً ولا يتضمن أي كتابة.

تفحصته كيرا عن كثب فرأيتها يمتقع لونها.

ــ ما بكِ؟

أجابتني، لا شيء، بينما كانت ملامح وجهها تثبت العكس. إنه على الأرجح أداة خياطة منسية في بطانة الحقيبة.

أومأت إلي كيرا بالصمت، وبركْن السيارة عند حافة الطريق حالما تسنح الفرصة.

كنا نبتعد عن ضاحية لنفن، والطريق بدأت تتعرج كلما نصعد الجبل. تركنا وراءنا، على علو ثلاثمائة متر، سحابة التلوث، وفجأة، كما لو كنا اخترقنا غمامة، وجدنا مجدداً ما يشبه السماء الزرقاء.

عند خروجنا من منعطف، أتاحت ساحة محطة صغيرة أن أركن السيارة. تركت كيرا دبوس الزينة فوق لوحة القيادة، ترجّلت من السيارة وأشارت علي بمتابعتها.

قلت لها وقد لحقت بها: يبدو مظهرك غريباً.

ــ الغريب هو ما وجدت من جهاز مراقبة لعين داخل حقيبتي.

ــ ماذا وجدتِ؟

ــ ليس صنارة حياكة، أعرف ما أكلمك عنه، إنه جهاز تنصّت صغير.

لم تكن لي خبرة واسعة في موضوع التجسس، فوجدت صعوبة في تصديق ما قالته لي.

ــ سنعود ثانية إلى السيارة، وتنظر إليه عن قرب وستتحقق من ذلك بنفسك.

هذا ما فعلتُ. كيرا على حق. كان الأمر يتعلق فعلاً بجهاز إرسال صغير. فخرجنا من السيارة من جديد كي نتحادث في منأى عن الآذان المتطفلة.

سألت كيرا: هل لديك فكرة عن السبب الذي أخفوا من أجله جهاز تنصت في حقيبتي؟

فألمحتُ قائلاً: إن السلطات الصينية تواقة إلى جمع معلومات تتعلق بالأجانب الذين يجوبون مناطقها. وقد يكون هذا إجراء عادياً حيال جميع السياح.

ــ ينبغي أن يكون هناك عشرون مليون زائر يقصدون الصين كل عام، هل تفكر أنهم يتلهون في وضع العدد نفسه من أجهزة التنصت في أمتعتهم؟

ــ لست أدري، لعلهم يفعلون ذلك بطريقة اعتباطية.

ــ أو لا يفعلون! لو كان الوضع هكذا، لما كنا نحن أول من يكتشف ذلك، ولكانت الصحافة الغربية ردّدت الكلام على هذه الإجراءات.

ــ لعلها حديثة العهد؟

قلت هذا لأطمئنها، لكني كنت أجد هذا الوضع في قرارة نفسي غريباً ومزعجاً أيضاً. حاولت أن أتذكر الأحاديث التي تبادلناها داخل السيارة، فلم أتذكر شيئاً قد يجعلنا في وضع حرج، عدا ما أبدته كيرا من ملاحظات حول القذارة والرائحة الكريهة المتفشيتين في المدن الصناعية التي عبرناها، وحول الطعام المريب الذي تم تناوله ظهراً.

عندئذ اقترحتُ: الآن وقد عثرنا على هذا الشيء، سنتركه هنا ونواصل طريقنا بهدوء.

ـ لا، لنحتفظ به معنا، إذ يكفي أن نقول نقيض ما نفكر، ونكذب بصدد الوجهة التي نتخذها، وهكذا سنتحكّم نحن في الذين يتجسسون علينا.

ـ وماذا عن خصوصياتنا في ذلك؟

ـ أدريان، ليس الوقت ملائماً للتصرف على طريقتك الإنكليزية، سنفتش هذا المساء حقيبتك أيضاً، فإذا ختموا بالرصاص حقيبتي، لا أجد مبرراً لماذا سيعفونك من ذلك.

عدتُ بخطى متسارعة إلى السيارة، وأفرغت محتويات امتعتي الضئيلة في الصندوق مباشرة، ثم رميتها بعيداً، إنها ستسعد بطبيعة الحال أول عابر سبيل. واستعدت لاحقاً مكاني وراء المقود وقذفت بجهاز المراقبة من النافذة.

ـ لو رغبت لي أن أقول لك إنني أحب نهديك، فلا يهمني أن يستغل ذلك موظف شهواني في شعبة المخابرات!

أدرتُ المحرك ثانية قبل أن يتسع الوقت لكيرا للإجابة بشيء ما.

ـ هل كنت تنوي أن تقول لي إنك تحب نهديّ؟

ـ حتماً!

وقطعنا مسافة الخمسين كيلومتراً التالية في صمت مطبق.

ــ وإن اضطررتُ ذات يوم إلى بتر أحدهما أو كليهما معاً؟

ــ سأتخيل إذاً سرّتك، لم أقل إني لا أحب إلا نهديك!

وتوالت الخمسون كيلومتراً الأخرى في صمت مماثل.

أردفت كيرا: أباستطاعتك أن تعد لي قائمة بما تحبه في؟

ــ أجل، ولكن ليس الآن.

ــ متى؟

ــ في الوقت المناسب.

ــ ومتى سيحين هذا الوقت المناسب؟

ــ عندما أعدّ القائمة التي أبين فيها ما أحبه فيك!

كان الليل بدأ يخيم على الطبيعة وكنت أحس بالعياء يتمكلني. وجهاز المسافات يشير إلى أنه يجب أن نقطع اكثر بقليل من مائة وخمسين كيلومتراً قبل الوصول إلى كسي آن. كان النعاس أثقل أجفاني حتى نال مني التعب

لإبقاء عيني مفتوحتين. ولم تكن كيرا أحسن حالاً مني، وقد استغرقتْ في نوم عميق مسندة رأسها إلى زجاج النافذة. انحرفت السيارة انحرافاً طفيفاً عند منعطف. كانت ثانية واحدة من عدم المبالاة كافية لضياع حياتنا، في حين كنتُ حريصاً على حياة مرافقتي، فلم أكن لأجازف بنفسي، أياً يكن الشيء الذي انطلقنا نبحث عنه، فبوسعه أن ينتظر ليلة إضافية. لذا ركنتُ سيارتي عند زاوية طريق صغيرة تتقاطع مع طريقنا، أطفأت المحرك ونمت في الحال.

لندن

إجتازت سيارة الجاكوار الزرقاء جسر واست منستر، استدارت حول ساحة البرلمان، جرت بمحاذاة مبنى الخزينة العامة متجهة إلى حديقة سانت جيمس. اصطف السائق على امتداد ممر للخيالة، ترجّل راكبه وسار نحو الحديقة العامة.

جلس السيد آشتون على مقعد بجوار بحيرة بجع يرتوي منها اتجه صوبه شاب وجاء يجلس إلى جانبه.

ــ لقد أمضيا الليلة الأولى في بكين وهما الآن على بعد مائة وخمسين كيلومتراً من كسي آن، حيث يبدو أنهما متوجهان. عندما غادرت المكتب للحاق بك، كان يجب أن يناما، والسيارة لم تتحرك من أكثر من ساعتين.

ــ الساعة عندنا 17، في حين أنها 22 لديهما، وهذا غالب الظن. هل علمتم ما سيقومان به في كسي آن؟

ــ حتى الآن لا نعرف شيئاً، لقد تكلما مرة أو اثنتين على هرم أبيض.

ــ هذا يفسر سبب وجودهما في هذه المقاطعة، لكني أشك أن يكتشفاه.

ـ ما المقصود؟

إن الأمر يتعلق بتخيّل ابتدعه طيار أميركي، لكن أقمارنا الصناعية لم تعثر قط على الهرم موضوع البحث. هل لديك أشياء أخرى تقولها لي؟

ـ فقد الصينيون جهازي إرسال.

ـ كيف فقدوهما؟

ـ توقفا عن العمل.

ـ أوتظن أنهما اكتشفا؟

ـ هذا ممكن، سيدي، لكن اتصالنا الميداني يعزو ذلك، على الأرجح، إلى عطل مادي. آمل الحصول على معلومات أخرى غداً.

ـ هل تعود إلى مكتبك؟

ـ هذا ما أنويه، سيدي.

ـ إبعثوا برسالة إلى بكين من قبلي، واشكروه قائلين له إن الصمت واجب على الدوام. إنه سيفهم. أخيراً، عجلوا في تحرير مراسم سفر قريب إلى الصين، إذا ما ارتأيتُ أن ذلك بات ضرورياً، الأفضل أن نكون على أهبة

الاستعداد.

ـ هل ينبغي أن ألغي التزاماتك خلال هذا الأسبوع؟

ـ لا، على الأرجح.

حيّا الشاب السيد آشتون وابتعد في الممر.

نادى السيد آشتون كبير خدمه وطلب منه أن يهيئ له حقيبة. ولتحو الأمتعة التي قد يحتاج إليها لسفر يدوم يومين أو ثلاثةَ.

مقاطعة شآنسكي

سمعتُ قرعاً على الزجاج، فانتفضت وأنا اكتشف في الليل وجه عجوز يحمل على كتفه بقجة ويبتسم لي. خفضتُ الزجاج، فوضع الرجل خده على يديه المضمومتين وأفهمني أنه يريد أن اتركه يصعد إلى سيارتنا. كان الطقس بارداً، وهذا الرجل يرتجف، فعادت بي الذاكرة إلى ذلك الأثيوبي الذي استقبلني ذات يوم. فتحتُ الباب ودفعت حقيبتينا فوق السقفية. شكرني الرجل وجلس على المقعد الخلفي. ثم حلّ بقجته واقترح علي أن أشاطره بضع قطع من البسكويت هي كل عشائه. تناولتُ قطعة منها، لأن هذا العمل بدا حقاً يرضيه. ولم يكن في استطاعتنا أن نتبادل أي كلمة، لكن نظراتنا كانت تفي بالغرض. ناولني قطعة أخرى لكيرا، غير أنها كانت تنام ملء جفونها، فوضعتها فوق لوحة القيادة أمامها. بدا الرجل سعيداً، وبعد أن تقاسم هذه الوجبة المتواضعة، تمدد مطبقاً عينيه، فحذوت حذوه.

أيقظني شحوب النهار قبل غيري. تمطّت كيرا فأشرتُ إليها ألا تسبب ضجيجاً، لأن لدينا ضيفاً يرتاح على المقعد الخلفي.

همستْ قائلة: من يكون؟

ـــ ليس لدي أي فكرة عنه. لعله متسوّل كان يمشي وحده في الطريق، والليل بارد قارس.

ـــ إنك أحسنتَ صنعاً بالتخلي له عن غرفة الاصدقاء. أين نحن؟

وسط مكان ما، على بعد مائة كيلومتراً من كسي آن.

قالت لي: إني جائعة.

فأشرت إلى البسكويت. فأخذتْه وشمته، ثم ترددت لحظة وابتلعته بلقمة واحدة.

قالت: إني أشعر دوماً بجوع شديد، تساورني رغبة في «التدوّش» وفي فطور حقيقي.

ـــ ما زال الوقت باكراً، لكننا سنجد بالفعل مكاناً في الطريق حيث سنتمكن من أكل شيء ما.

استيقظ الرجل، رتب هندامه قليلاً وحيا كيرا ضاماً يديه الاثنتين. فردّت عليه التحية بالطريقة ذاتها.

قالت لي: يا لك من أبله، إنه راهب بوذي! لا بد أنه عازم على القيام بحج.

حاولت كيرا التواصل مع راكبنا، فتبادلا العديد من

الإشارات. واستدارت كيرا نحوي راضية، لكني كنت أجهل سبب رضاها.

انطلقْ بالسيارة، سوف ننزله.

ـ أتريدين أن تقولي لي إنه أعطاك عنوان المكان الذي يقصده وأنك فهمت على الفور؟

ـ إصعدْ في هذه الطريق وثق بي تماماً.

كانت سيارة الدفع الرباعي تتمايل في كل الاتجاهات، فنتسلق قمة تلة. كان الريف جميلاً، ويبدو أن كيرا ترصد شيئاً ما. تشعبّت الطريق عند قمة الممر الجبلي منحدرة مرة أخرى باتجاه أسفل غابة صنوبر وأرزية. لدى خروجنا من الغابة، تلاشت الطريق أمامنا. فأشار علي الرجل الجالس خلفي بالتوقف وإطفاء المحرك. كان علينا الآن أن نمشي. وعند نهاية درب، اكتشفنا ساقية، فطلب منا الرجل أن نحاذيها لنجتاز معبراً على بعد مائة متر تقريباً. تسلّقنا منحدر تلة جديدة وظهر أمامنا فجأة سقف دير.

أقبل للقائنا ستة رهبان، انحنوا أمام مرشدنا ورجونا أن نتبعهم.

ثم توجهوا بنا إلى قاعة كبيرة جدارنها بيضاء، خالية من كل أنواع الأثاث، ما عدا بعض الطنافس تغطي الأرض.

وحملوا إلينا شاياً وأرزاً وخبز شطيرة مكوّناً من طحين قمح.

بعد أن وضعوا هذه المأكولات، تراجع الرهبان وتركونا وحدنا أنا وكيرا.

سألت كيرا: أبوسعك أن تقولي لي ماذا نفعل ها هنا؟

ـ كنا نرغب في فطور، أليس كذلك؟

همست: كنتُ أفكر في مطعم لا في دير.

دخل مرشدنا الغرفة، وقد تخلى عن أسماله البالية وارتدى الآن حلة طويلة حمراء يزنّرها وشاح حريري مطرز تطريزاً رشيقاً. كان الرهبان الستة الذين استقبلونا يتبعونه. لقد جلسوا خلفه جلسة متربعة.

قال لنا منحنياً: أشكر لكما مرافقتكما لي.

دهشت كيرا: لم تقل لنا إنك تتقن الفرنسية بمثل هذا الاتقان.

قال لكيرا: لا أذكر أني تفوهت بكلمة ما ليلة البارحة، ولا أثناء هذا الصباح. لقد جبتُ العالم وتعلمت لغتكما. ثم سأل الرجل: عمّ تبحثان هنا؟

أجبتُ: نحن سائحان نزور المنطقة.

ــ حقاً؟ ينبغي القول إن مقاطعة شآنكسي تزخر بالعجائب التي لا بد من اكتشافها. ثمة أكثر من ألف معبد في هذه المنطقة، والفصل مؤات للسياحة. فيما مواسم الشتاء هنا قارسة البرد بشكل خَاصٍ. الثلجِ جميل، لكنه يجعل كل شيء أشد صعوبة. أهلاً وسهلاً بكما؛ هناك حوض ماء تحت تصرفكما، تستطيعان أن تغتسلا وتتجملا، وقد فرش تلاميذي حُصُراً في الغرفة المجاورة، ارتاحا واستفيدا من هذا النهار. سنقدم لكما وجبة في الظهيرة، أما أنا فسأجدكما مرة ثانية في ما بعد. عليّ أن أفارقكما، إذ ينبغي أن أقدم تقريراً عن سفري وأعكف على التأمل.

انصرف الرجل: فنهض الرهبان الستة وخرجوا معه.

سألتُ كيرا: أ تعتقدين أنه قائدهم.

ــ لا أظن أنها الكلمة الصائبة، فالتراتبية عند البوذيين روحية أكثر مما هي شكلية.

ــ كانت هيئته تدل على أنه مجرد متسول في الطريق.

التجرد من كل شيء، هذه هي سمة هؤلاة الرهبان، وعدم امتلاك أي شيء سوى الفكر.

بعدما دب الانتعاش في أوصالنا، خرجنا نمشي في الريف من حولنا. وعند أسفل شجرة صفصاف، استسلمنا لعذوبة المناخ السائدة في هذه الأمكنة. كأننا خارج الزمان، بعيداً عن الحضارة.

انقضى النهار، وحلّ الليل، فأريتُ كيرا النجوم البادية في السماء. لحق بنا الراهب وجلس بالقرب منا.

قال لي: أنت مولع إذاً بعلم الفلك.

ــ كيف تعرف ذلك؟

ــ إنها مجرد مسألة ملاحظة. عند حلول الشفق، ينظر الرجال عادة إلى الشمس تغيب وراء خط الأفق، أما أنتما فكنتما ترصدان السماء. إن الفلك مادة تستهويني كذلك. من الصعب المضي قدماً نحو الحكمة من غير التفكير في عظمة الكون والتساؤل حول اللامتناهي.

ــ لستُ ما يمكن للناس أن يسموه حكيماً، لكني أطرح على نفسي هذه الأسئلة منذ نعومة أظفاري.

قال الراهب: لم تكن، وأنت طفل، إلا حكيماً، وحتى وأنت بالغ، ما انفك صوت الطفل فيك يقودك، وأنا سعيد لأنك ما زلت تسمعه.

سألتْ كيرا: أين نحن؟

ــ في دير للنساك. مكان خاص ويعنى بحمايتكما.

أجابت كيرا: لم نكن معرضين للخطر.

ردّ الراهب: ليس هذا ما قلته، ولكن في حالة العكس، ستنعمان هنا بالأمان، بشرط أن تحترما مع ذلك قوانيننا.

ــ أيها؟

ــ ليس لدينا إلا القليل منها، أوكد لك ذلك: من بينها الاستيقاظ قبل طلوع النهار، العمل في الأرض كي نستحق الغذاء الذي تهبنا إياه، عدم محاولة الاعتداء على أي شكل من أشكال الحياة، بشرياً كان أو حيوانياً، غير أني متيقن من أنكما خلوان من نيات كهذه النيات، آه كدت أنسى عدم اللجوء إلى الكذب.

التفت الراهب إلى كيرا.

ــ هكذا إذاً صديقك عالم فلك، وأنتِ كيف تنفقين وقتك؟

ــ أنا عالمة آثار.

ــ عالمة آثار وعالم فلك، يا للقاء الجميل!

كنتُ أرمق كيرا، فبدا لي أن كلمات الراهب تشغلها

كاملة.

ــ وهل أتاح لكما هذا السفر السياحي اكتشاف أشياء جديدة؟

اعترفت كيرا: نحن لسنا سائحين.

فرمقتها بنظرة مستهجنة.

قالت قبل أن تتابع حديثها: قيل لا مجال هنا للكذب! نحن بالاحرى... سأل الراهب: مستكشفان؟

ــ نوعاً ما، نعم.

ــ عمَّ تفتشان؟

ــ عن هرم أبيض.

تفجر الراهب ضحكاً.

فسألت كيرا: ما الغريب في الأمر؟

استفسر الراهب، وعيناه مضيئتان دائماً بهذا المزاج المرح الذي لا يبرح يسيطر عليه: وهل وجدتما هرمكما الأبيض؟

ــ كلا، يجب أن نذهب حتى كسي آن. نعتقد أنه موجود أمامنا، وعلى طريقتنا.

استغرق الراهب في الضحك أكثر من ذي قبل.

ــ ولكن ماذا قلتُ أخيراً من كلام غريب؟

أضاف الراهب بمزيد من المرح أيضاً: يساورني الشك في أن تجدا هذا الهرم في كسي آن، لكنكما لستما تماماً على خطأ، إنه مع ذلك على طريقكما وأمامكما.

قالت لي كيرا وقد أخذت تتضايق من هذا الوضع: أعتقد أنه يسخر منا.

قال الراهب: لا، إطلاقاً، أعدكما بذلك.

ــ إشرح لي إذاً لما تضحك كلما فتحتُ فمي.

ــ أرجوكما، لا تقولا لتلاميذي إنني لهوتُ كثيراً في صحبتكما، أما بالنسبة إلى الباقي، فأقسم لكما بأن أشرح كل شيء غداً. لقد حان وقت انسحابي لانصرف إلى التأمل. سأراكما ثانية عند الفجر. لا تتخلّفا.

نهض الراهب وحيانا. كان في وسعنا أن نحزر، ونحن نراه يبتعد أنه ما زال يضحك في الطريق المؤدية إلى الدير.

لقد استغرقنا في نوم عميق، لكن كيرا أيقظتني من حلم.

قالت لي: تعال، حان الوقت، وإني لأسمع الرهبان مجتمعين في الباحة، لن يتأخر النهار عن البزوغ.

كانوا قد وضعوا، عند مدخل المكان الذي نستعمله كغرفة، ما يساعدنا على استرداد قوانا. أحد التلاميذ قادنا نحو حجرة الماء، مشيراً علينا ببعض الحركات، أن نغسل أيدينا ووجهينا قبل تناول الطعام المقدم إلينا. ثم اقترح علينا، ما أن انتهينا من تحسين مظهرنا، بالجلوس والاستفادة من الوجبة في جو من الخشوع.

غادرنا سور الدير وتقدمنا عبر الحقول، نحو ذلك الصفصاف حيث كان لنا موعد، وكان الراهب بانتظارنا الآن.

ـ آمل أن تكونا قضيتما ليلة سعيدة.

أجابت كيرا: لقد نمت كما ينام طفل.

ـ إذاً، أنتما تبحثان عن هرم أبيض؟ ماذا تعرفان عنه؟

قالت كيرا: وفقاً لمعلوماتي، إنه يرتفع إلى أكثر من ثلاثمائة متر، وهذا ما يجعل منه أضخم هرم في العالم.

قال الراهب: إنه لأعلى من ذلك بكثير.

فسألت كيرا: هل هو موجود حقاً؟

ابتسم الراهب.

ــ نعم، إنه موجود، بطريقة ما.

ــ أين مكانه؟

ــ كما قلتِ البارحة أنتِ بنفسك، إنه أمامكما بالضبط.

ــ أعذرني، لكن لستُ موهوبة لفك الألغاز، إن كان لديك، علاوة على ذلك، دليل صغير، فسأكون ممتنة لك كل الامتنان.

ــ ماذا تشاهدان في الأفق؟

ــ جبالاً.

ــ إنها سلسلة جبال كنلنغ. أتعلمان ما اسم هذه الجبال، ذلك الذي نراه هنالك قبالتنا؟

أجابت كيرا: أجهل اسمه.

ــ «هوا شان»، إنه جميل، أليس كذلك؟ هو أحد جبالنا الخمسة المقدسة. وتاريخه حافل بالعبر. لنحو ألفي سنة خلت، شيد معبد طاوي عند أسفل المنحدر الغربي. كان هذا المعبد يسكنه حكماء، يعتقدون أن إله العوالم الخفية يقيم في القمم. أسس «كوكيا نزهي»، وهو راهب من القرن

الخامس، رهبانية الشمال السماوية، وأقسم أنه أجرى فيه اكتشافاً كبيراً، لا بل وحياً، على ما كان يقول. يضم جبل هوا خمسة رؤوس، الشرق، الغرب، الشمال، الجنوب ورأس الوسط، ولكن كيف لكما أن تصفا شكله العام؟

أجابت كيرا: مروّس.

ــ أدعوكما أن تفتحا أعينكما، أنظرا جيداً إلى هوا شان واستمرا في التفكير.

قلتُ للراهب: إنه مثلث.

ــ في الواقع، إنه لكذلك. في مطلع شهر كانون الأول، تزدان أعلى قممه بحلة من الثلج قشيبة ورائعة. في قديم الزمان، كانت هذه الثلوج دائمة، لكنها في أيامنا هذه تذوب أواخر الربيع لكي لا تظهر إلا في الشتاء. آسف لأنكما لا تستيطعان البقاء زمناً أطول لاكتشاف جبل هوا خلال هذا الفصل، فالمشهد الذي يقدمه لنا ذو جمال لا نظير له. والآن سؤال أخير: ما هو لون الثلج؟

ــ أبيض... تمتمت كيرا وقد بدأت تفهم ما كان الراهب يصر إلى حد كبير أن يجعلنا نكتشفه بأنفسنا.

ــ هرمكم الأبيض قائم أمامكما، والآن تدركان بشكل أفضل لماذا ضحكتُ كثيراً عندما سمعتكما البارحة.

قالت كيرا: لا بد أن نذهب إلى هناك!

أردف الراهب: هذا الجبل خطر على وجه الخصوص. هناك بالفعل طريق أخرى منحوتَة في الصخر على امتداد كل منحدر، إنها الطريق المقدسة، تقود إلى أعلى قمة ليس فقط في جبل هوا، وإنما في جبال الصين الخمسة المقدسة أيضاً، وتدعى دعامة الغيوم.

سألت كيرا: هل قلتَ دعامة؟

ـ أجل، هكذا كانوا يسمون هذه القمة في العصور الخالية. هل أنتما واثقان حقاً من أنكما ترغبان في التوجه إلى هنالك؟ إن سلوك الطريق المقدسة أمر لا يخلو من الخطر.

كان يكفي أن أرمق كيرا لأفهم أننا سنتسلق قمم جبل هوا، أياً تكن المخاطر المحدقة بنا. إنها مصممة على ذلك أكثر من أي وقت مضى. وصف لنا الراهب بتفاصيل كثيرة ما ينتظرنا. خمسة عشر سلماً منحوتة في الجبل تفضي إلى أول حرف صخرة. ومن هناك تسمح جسور صغيرة مغروزة في الجدار الصخري باجتياز المهاوي والالتفاف حول مختلف المنحدرات. كانت الطريق المقدسة تتيح لأكثر الناس جرأة، ولأشدهم تصميماً، للذين كانوا يسلكونها، يحدوهم إيمان لا يتزعزع، أن يبلغوا معبد الله المشيد على

علو ألفين وستمائة متر، فوق قمة الرأس الشمالي.

ـ أي خطوة خاطئة، أي انحراف يؤدي إلى الهلاك. وانتبها للثلج الذي يغطي غالباً، حتى في هذا الفصل، الدرجات الحجرية العليا. إسهرا على ألا تزلق أرجلكما، فنادرة هي الأماكن التي تجدان فيها ما تتشبثان به. لئن سقط أحدكما، فلا يخاطرنَّ الآخر في محاولة إنقاذه، وإلا ستتعرضان أنتما كلاكما للسقوط في الهاوية.

لقد أبلغنا الراهب كل شيء، لكنه لم يحاول تثبيط عزيمتنا. دعانا إلى تغيير ملابسنا، ففي وسعنا أن نترك أمتعتنا هنا. ولم تكن السيارة تخشى أي شيء حيث بقيت عند طرف الغابة. في وسط النهار، ركبنا عربة نقل يجرها حمار. أوصلنا التلميذ الذي كان ممسكاً بالعنان حتى الطريق. ثم أوقف شاحنة صغيرة كانت تمر من هناك، تحادث مع السائق وأجلسنا في المقعد الخلفي. بعد ذلك بساعة، توقفت الشاحنة الصغيرة عند منتصف ارتفاع منحدر الجبل. وأشار السائق إلى ممر وسط غابة صنوبر.

لقد خاطرنا عبر غابات. لمحت كيرا في البعيد الدرجات التي حدثنا عنها الراهب. كانت الساعات الثلاث التالية أشد إرهاقاً مما كنت أفكر. كلما كنا نتسلق، كانت الدرجات تبدو أكثر علواً، ولم يمكن ذلك سوى انطباع، فيما كان المنحدر

يزداد تصلباً. كما لم يكن ذلك من الآن فصاعداً سلماً نصعد عليه، بل كان بالأحرى سلماً من حجر يرتفع بشكل عمودي تقريباً. وكان النظر إلى أسفل محض جنون، أما الطريقة الوحيدة للتقدم فكانت في التحديق إلى القمم.

أوصلتنا المرحلة الأولى من الصعود نحو «درجات الفردوس». وكانت قد اتخذت، على امتداد قمة، وضعاً شبه أفقي، وفهمت لماذا سموها بهذا الاسم: «لأن كل من تزلق رجله يتوجه إلى الفردوس مباشرة».

واستمر الصعود مجدداً على بعد مسافة قليلة.

قالت كيرا متشبثة بالجدار: ما كان ينبغي لي.

ــ ماذا لم يكن ينبغي لك؟

ــ أن أجرك إلى هنا. كان من الأفضل الاستماع إلى هذا الراهب. لقد أبلغنا سلفاً أن الامر محفوف بالخطر.

ــ وأنا أيضاً لم استمع إليه أكثر منك، على ما أعلم، ثم ليس هذا أوان المناقشة. تذكري ما قاله لنا، إن أي شرود ذهن مصيره الهلاك، لذا ركزي جيداً.

كنا نقترب الآن من هضبة كانغ لونغ، حيث كانت بضعة أشجار صنوبر تتناثر في الجبل، لكنها ما لبثت أن توارت

عن انظارنا حين اجتزنا ممر جنسود.

سألتُ كيرا: هل لديك على الأقل فكرة عما نبحث عنه؟

ـ ليس لدي أدنى فكرة، لكني سأجد عندما يحين الأوان.

كانت عضلاتنا متوجعة، ولم أكن أحس بساقيّ: كدنا ثلاث مرات نبذل أقصى جهودنا، واسترجعنا بعد الكد ثلاث مرات توازننا. كانت الشمس في سمت الرأس، وإذا بطريقين في نهاية الممر تظهران أمامنا، واحدة تفضي إلى الرأس الغربي، والثانية نحو الشمال. كانت ألواح خشبية ممدودة فوق رزات مغروزة في الجدار تسمح بمواصلة الصعود. وكما قال لنا الراهب، لا شيء غير أيدينا للتشبث بها.

توسلتْ إلي كيرا: المشهد رائع، ولكن لا تنظر إلى اسفل.

ـ ما كنتُ أنوي ذلك.

أحسست، في هذا المكان من التسلق، بالخطر أشد حضوراً من أي وقت مضى. بدأت الريح تعصف مرغمة إيانا على الانكماش على أنفسنا، كي لا ندع ذواتنا تنجرّ إلى الفراغ. كم من الوقت سيتوجب علينا أن نبقى على

هذه الحال؟ ما كنت على علم بذلك، ولكن إذا ساءت الأحوال الجوية، فلن تسنح لنا أي فرصة للخروج من هذا المأزق، فور هبوط الظلام.

سألتني كيرا: أوتريد العودة على عقبيك؟

ــ لا، ليس الآن، ثم أنا أعرفك، ستبدئين غداً من جديد، ولن أعاود اجتياز المسافة التي قطعناها، أياً يكن الثمن.

ــ لننتظر إذاً أن تهدأ الحال.

كنا أنا وكيرا لابدين واحدنا في مواجهة الآخر. وكان تجوّف في الصخر يؤمّن لنا ملاذاً مؤقتاً، وإذا بالريح تعصف عصفاً شديداً، ونحن نستطيع رؤية ذؤابات أشجار الصنوبر في البعيد تنحني كلما صفعت عصفة من الريح الجبل.

قالت لي كيرا: أنا متأكدة من أن هذه الريح اللعينة ستهدأ في نهاية المطاف.

ما كنتُ أقدر أن أتصور أن نهايتنا ستكون هنا، وأن جريدة في لندن كما في باريس ستنقل في بضعة أسطر خبر وفاة سائحين متهورين توجها في رحلة طويلة إلى جبل هوا. كنت لا أزال أسمع صوت والتر عندما كان يقول

لي إلى أي حد أنا أخرق. وما كنت لأحقد عليه لو أنه كرر توجيه هذا الانتقاد في هذه اللحظة المحددة. كانت كيرا تعاني تشنجات في ساقيها، والألم يتعذر احتماله.

قالت: ما عدتُ أحتمل بعد، ينبغي أن أصلح وضعي. وما أن تبينت ما كان على وشك الحدوث، حتى زلقت رجلها. ندّت عنها صرخة وجيزة وأرخت قبضتها باتجاه الهاوية. فقفزت، لا أعرف إلى اليوم بأي أعجوبة لم أفقد توازني، ممسكاً بها من ياقة سترتها، وقبضت بالكاد على ذراعها. كانت تتأرجح في الفراغ، فيما الريح تشتد عصفاً صافعة إيانا بعنف. وإني ما زلت اسمعها تزعق.

ــ أدريان، لا تتركني.

عبثاً حاولتُ رفعها بكل قواي، كانت الريح تجرها، وهي تتشبث بالجدار. تمددتُ على الحافة وسحبت من ثيابها.

ثم صرختُ في وجهها: عليك أن تساعديني قليلاً. إدفعي برجليك، تباً لك!

كانت العملية محفوفة بالخطر. وكان عليها ليواتيها الحظ في الخروج من المأزق أن تجد في نفسها الشجاعة لترك إحدى يديها والتشبث بي.

لو أن إله العوالم الخفية موجود لكان سمع صلاة كيرا.

وهدأت الريح.

أرخت أصابع يدها اليمنى، تأرجحت في الفراغ متمكنة من التشبث بي. استطعتُ هذه المرة أن أرفعها فوق الجسر الصغير.

إحتجنا إلى ساعة كاملة لاستعادة ما بدا من هدوئنا. لم يكن الخوف قد تلاشى، لكن النزول مجدداً الآن، كان لا يقل هولاً عن متابعة التسلق. انتصبت كيرا ببطء، وأعانتني على التشبه بها. عندما اكتشفنا المنحدر الصخري الذي كان في انتظارنا، عاودنا الخوف وبصورة أقوى أيضاً. كيف كنت شديد البله فلم أقل لكيرا نعم قبل قليل، لما اقترحتْ علي النكوص على عقبي؟ هل كان ينبغي أن أكون في غاية الغفلة لكي تجرنا إلى مغامرة جنونية كمثل هذه المغامرة؟ لا بد أن كيرا كانت تفكر مثلي، فرفعتْ رأسها وقدّرت المسافة التي تفصلنا عن القمة. كان المعبد الرابض على رأس قمة الجبل بعيداً جداً، وسلم معدني يتسلق عمودياً. لو لم تكن قضبانه زلقة إلى هذه الدرجة، ولو لم يكن الوادي يمتد تحت أرجلنا حتى ألفي متر، لما كان إلا سلماً بسيطاً، مؤلفاً مع ذلك من خمسمائة قضيب. كان خلاصنا معلقاً بمائة وخمسين متراً فوق رأسينا. كان المهم الحفاظ على برودة أعصابنا. سألتني كيرا إذا ما كنتُ

قادراً الآن على ذكر قائمة الأشياء المحبّبة فيها.

قالت لي: إنه حقاً الأوان المناسب، وأنا لن أعارض حقيقة تغيير أفكاري.

وددت لو كانت لي القدرة على ذلك، لكن القائمة كانت طويلة جداً كي نضعها في حالة تنبه حتى بلوغ ذلك المعبد اللعين، وكان النظر إلى المكان الذي تشبثت به يداي هو الشيء الوحيد الذي يمكنني القيام به. فتابعنا تسلّقنا في صمت مطبق. لم نكن بعد قد وصلنا إلى خاتمة اشجاننا، بقي علينا أن نتخطى جسراً طويلاً لا يتجاوز عرضه القدم إطلاقاً.

كانت الساعة قرابة السادسة، والمساء يقترب، فأشرتُ على كيرا أن الدير إذا لم يلُح لناظرينا خلال نصف ساعة من الآن، فعلينا البحث جدّياً عن ملاذ آمن لقضاء الليل. ما أتيتُ على قوله كان غير معقول، إذ كنا نحاذي منحدراً صخرياً، ولم يتوافر هناك أي ملاذ، لا من الأمام ولا من الخلف.

كانت كيرا قد بدأت تتحكّم بشكل أفضل في دوارها، فغدت حركاتها أشدّ ليونة وازدادت هي خفة ورشاقة. ألعلها تنجح أكثر مني في إسكات خوفها؟

أخيراً، ظهرت وراء المنحدر الذي كنا نتسلقه، الذروة الطويلة الممتدة حتى الطرف البعيد للجبل. وثمة هضبة تشرف على الوادي، حيث تراءى، كما في الحلم، دير سقفه أحمر.

جئت كيرا، وقد تولاها الإرهاق، على المنحدر اللطيف في ظلال الصنوبرات الكبيرة. كان الهواء نقياً جداً بحيث يحرق حنجرتنا.

كان المعبد مهيباً؛ قاعدته منحوتة في الصخر، وواجهته ترتفع على طابقين، وتشمل ست نوافذ كبيرة وسلماً يفضي إلى المدخل. وكانت «باكودة» (معبد برجي الشكل) مبنية أمام باحة ضيقة تسكب قليلاً من الظل جراء جبهة السقف. عاودتُ التفكير في صعوبات الطريق التي سمحت لنا بالوصول إلى هناك، وتساءلت بأي أعجوبة استطاع الإنسان أن يشيد بناء مماثلاً. هل كانت الأخشاب التي تزنّر الفتحات نُحتت في الموضع نفسه قبل العمل على تجميعها؟

قالت كيرا وعيناها تطفحان بالدموع: لقد وصلنا.

ــ أجل، لقد وصلنا.

ثم قالت لي: أنظر خلفك.

فاستدرت وشاهدت منحوتة حجرية، عبارة عن تنين

غريب ذي عفرة كثيفة.

قالت: إنه أسد، أسد متوحد، وتحت قائمته... هذه الكرة!

كانت كيرا تبكي، فاحتضنتها بين ذراعي.

ـ لكن عمَّ تتحدثين؟

أخرجتْ من جيبها رسالة بسطتْها وقرأت لي: «يرقد الأسد على حجر المعرفة».

تقدّمنا من التمثال. فانحنت كيرا لتحسن دراسته. تفحّصت الاسطوانة التي يضع الأسد قائمته عليها، كأنه حارس فخور بنفسه.

ـ هل ترى شيئاً؟

ـ أرى حزوزاً دقيقة حول الكرة، لا شيء آخر، لكن علي أن أجانب الشيء الأساسي، فالتآكل نخر الحجر.

نظرت إلى الشمس تنحدر في الأفق، كان الوقت قد تأخر جداً للتفكير في العودة الآن. لا بد أن نمضي الليلة هنا. فالمعبد يقينا البرد، غير أنه كان مشرّعاً للريح وأنا أخشى أن نتجمد أثناء اليل. تركتُ كيرا منحنية على الكرة الأرضية التي استرعت كل انتباهها، وجازفتُ متوجهاً

صوب الصنوبرات المنتصبة على القمة. وجمعتُ في أسفلها كل الأغصان الميتة التي استطعت حملها وبعض الأكواز التي ينبعث منها عطر الراتنج. وشرعت لدى عودتي إلى الباحة بالاستعداد لإضرام النار.

قالت لي كيرا وقد لحقت بي: إني لشديدة التعب. ثم أضافت وهي تفرك يديها أمام ألسنة النيران الأولى، أحس بالبرد. وإن قلت لي إن لديك شيئاً يؤكل لتزوجتك!

كنت احتفظت بعناية قصوى ببعض البسكويت الجاف، دسّه الراهب في جيبي قبل أن نفترق. انتظرت قليلاً قبل تقديم قطعة لها.

لقد وجدنا ملاذاً لنا في غرفة أحسن حماية من الريح. كنا مرهقين جراء رحلتنا، فما احتجنا إلى وقت طويل لننام ملء أعيننا.

أيقظنا زعيق نسر في الساعات الأولى من النهار. كانت فرائصنا ترتعد من البرد، وجيوبي فارغة كمعدتينا، والعطش أخذ يؤثر فينا، والطريق خطرة للغاية في الإياب كما في الذهاب، حتى لو أن الجاذبية الأرضية كانت تجنح هذه المرة لمصلحتنا. ودّت كيرا لو ترفع قائمة الأسد وتصادر كرته هذه كي تتمكن من دراستها على مهل. لكن الوحش، الجامد، كان يحافظ عليها كأنها كنز ثمين.

لم يكن بقي الشيء الكثير من نار البارحة، إذ كان ينقصنا الحطب لإعادة تأجيجها، ومع ذلك كان انسجام الأمكنة تاماً جداً، بحيث رفضتُ لمس أي غصن مهما كان صغيراً. نظرت كيرا إلى الرماد، فهرعت وجثت لمباعدة الجمرات التي ما زالت متوهجة.

ـ ساعدني كي أستعيد قطع فحم خشبي ليست حارقة، فأنا بحاجة إلى قطعتين أو ثلاث منها.

أمسكت بواحدة كبيرة كقلم رسم من فحم، وعادت راكضة نحو الأسد. ثم شرعت تسوّد الحجر المستدير الذي كان الأسد يدافع عنه بضراوة. رمقتها مرتابا، إذ لم يكن تسويد التراث من عاداتها، بل بالأحرى نقيض ذلك، فما الذي لسعها حتى مضت تلطخ بهذا الشكل الحجر القديم جداً؟

قالت لي شاخصة ببصرها نحوي: ألم تهيئ يوماً أوراقاً مساعدة لتستفيد منها في امتحانات المدرسة؟

ما كنت لأنتقل إلى الاعتراف بأسراري قبلها، سيعدّ ذلك تجاوزاً للحد، نظراً إلى الظروف التي رافقت لقاءنا الأول.

فسألتها وقد اتخذتُ مجدداً هيئة ناظر: هل ينبغي أن أفهم من ذلك أنك تعترفين بخطاياك أخيراً؟

ـ كلا، إطلاقاً، لم أكن اكلمك عن نفسي.

ـ لا أذكر أني عمدت إلى الغش، لا. وحتى لو لجأت إليه، وإن كنت تظن أني سأقوله لك، فباستطاعتك أن تحلم على الدوام.

ـ حسناً، سأبادلك يوماً هذا الاعتراف مقابل قائمة الأشياء الشهيرة التي تحظى بإعجابك في. ولكن الآن خذ قطعة فحم وتعال ساعدني في تسويد هذا الحجر.

ـ أي دور تلعبينه؟

بينما كانت كيرا تطلي بالشحار وبدقة مفرطة الحجر، فإذا بي أرى بروز مجموعة من الخطوط أشبه بذلك اللعب الذي كنا نمارسه في المدرسة. كان ينبغي طبعِ أحرف على ورقة بالاستعانة بإبرة فرجار، ثم تمرير سنّ قلم ثخينة فوقها لنرى ظهور الكلمات المنزّلة على الورقة.

قالت لي كيرا وهي منفعلة أكثر من أي وقت مضى: أنظر.

شاهدنا على هذه الخلفية السوداء بروز مجموعة من الأرقام تقطعها خطوط ونقاط. هذا الحجر الذي يحرص عليه الأسد أشد الحرص كان نوعاً من اسطوانة ذات حلقات متداخلة، تشهد على المعلومات الفلكية غير

المعقولة للذين أنجزوها قبل الميلاد بقرون عدة.

سألتْ كيرا: ما هو؟

ـ إنه نوع من خريطة للعالم. لكنه بدلاً من أن يمثل الأرض، يتعلق الأمر بالكرة السماوية، وبتعبير آخر، بتمثيل نصفي السماء فوق رأسينا، السماء البادية من نصف الكرة الأرضية الشمالية، وتلك البادية من نصف الكرة الجنوبية.

كان الاكتشاف الذي حقّقته كيرا لتوها رائعاً، وتعيّن علي أن أشرح لها كل تفصيل.

ـ حول هذا الخط المستقيم المتوسط، الذي ترينه، هذه الدائرة الكبيرة هي تقاطع السطح الاستوائي مع الكرة السماوية، ويعرف بخط الاستواء السماوي، ويقسم الكرة قسمين: شمالي وجنوبي. من الممكن إسقاط أي نقطة من الأرض على الكرة السماوية، كما يمكن أن تُمثّل فيها جميع النجوم، بما فيها الشمس.

أريتُها هنا الدائرتين القطبيتين، المدارين، فلك البروج والطريق التي تجتازها الشمس محفوفة بالكوكبات البروجية؛ وأشرت هناك إلى دائرة السمت بالنسبة للانقلابين الشتوي والصيفي والاعتدال الربيعي والخريفي.

ـ عندما تلاقي الشمس السطح الاستوائي، أي خلال الاعتدالين، تصبح مدة النهار مساوية لمدة الليل. أما الدائرة الأخرى التي ترينها هنالك فهي إسقاط مدار الشمس على الكرة. هنا الدب الأصغر، النجم ألفا المعروف باسم النجم القطبي، وهو قريب جداً من القطب الشمالي السماوي حتى إنه ليبدو ثابتاً في السماء. وهذه الدائرة الكبيرة الأخرى هي الخط المتوسط السماوي.

هذا التمثيل كان كاملاً لدرجة أني بحت لها بأني لم أر مثله في حياتي. إن الأسطوانات الأولى ذات الحلقات المتداخلة تم ضبطها على أيدي اليونانيين منذ القرن الثالث ق. م. لكن هذه التطعيمات المحفورة على هذا الحجر أقدم عهداً بكثير.

قلبت كيرا الرسالة التي احتفظت بها في جيبها واستعملت ظهر الصفحة لتنسخ الكتابات الظاهرة على الكرة، وكانت بارعة في الرسم.

قالت لي رافعة رأسها من على رسمها: ماذا تفعل؟

أريتها آلة تصوير صغيرة كنت قد أخفيتها في جيبي منذ وصولنا إلى الصين، ولست أدري لماذا لم أجرؤ على البوح لها في وقت مبكر بأني كنت أحلم بتخليد بعض لحظات رحلتنا.

سألتني بالرغم من معرفتها تماماً: ما هو؟

ــ فكرة مستوحاة من أمي... آلة تصوير قابلة للرمي بعد الاستعمال.

ــ ما علاقة أمك بذلك؟ هل الآلة في حوزتك منذ وقت طويل؟

ــ اشتريتها في لندن قبل الرحيل. اعتبريها قطعة تمويه إضافية.

ــ هل رأيت يوماً سياحاً من دون آلة تصوير؟

ــ وهل سبق أن استعملتها؟

إني أكذب بشكل رهيب، لذا فالأجدر الانتقال إلى الإقرار بالوقائع فوراً.

ــ التقطتُ لك صورتين أو ثلاثاً بينما كنت نائمة، ثم عندما مرضت على حافة الطريق، وفي كل مرَة لم تكوني تعيريني انتباهك. لا تحردي، كنت أريد أن أحضر معي بعض الذكريات.

ــ كم صورة ما زالت في الآلة؟

ــ الواقع إنها الثانية من نوعها، لقد انتهيت للتو من

واحدة، أما بالنسبة إلى هذه فلما أستعمل الفيلم.

ــ كم فيلماً اشتريت من هذا النوع من الأفلام؟

ــ أربعة... أو خمسة ربما.

كنت في غاية الارتباك فرغبت سريعاً في وضع حد لهذا النقاش. فدنوتُ من الأسد وشرعت أصور الحجر المستدير مفرطاً في التقاط صور مكبرة لكل تفصيل.

كنا قد جمعنا العديد من المواد كي نتمكن من إعادة تكوين مجمل المعلومات المنقوشة على الحجر. وكنتُ قست أبعادها بواسطة حزام بنطالي، وذلك بغية الحصول على نسبة مقياس لدى عودتنا. وهكذا سيتوافر عندنا، بجمع الصور التي التقطتها وبرسومات كيرا، نسخة أمينة لتعذّر توافر الأصل. كانت لحظة مغادرة الجبل المقدس قد أزفت. فقدّرت، وأنا أنظر إلى موقع الشمس أن الساعة هي الآن قرابة العاشرة صباحاً، وإذا أكملنا نزولنا دون عائق، فسنبلغ الدير قبل نهاية النهار.

وصلنا منهوكي القوى. كان المريدون أعدوا لنا كل ما نحتاج إليه: الماء الساخن لنغتسل، وجبة طعام مكونة من مرقة لحم لنتموّه [نسترجع الماء] ثانية، وأرزاً بكمية وافرة لنستعيد قوانا. لم يحضر الراهب هذا المساء. وشرح

لنا المريدون أنه مستغرق في التأمل، ولا يمكن بالتالي إزعاجه.

وجدناه صبيحة اليوم التالي. كانت هيئتنا، باستثناء بعض الخدوش والبثر في الأيدي والأرجل، أكثر من مشرّفة.

سأل الراهب مقترباً منا: هل أنتما راضيان عن رحلتكما إلى الهرم الأبيض؟ هل وجدتما ما كنتما تبحثان عنه؟

سألتني كيرا عبر نظراتها، أينبغي أن نطلع هذا الرجل على السر؟ عشية رحيلنا، أعرب لي عن الاهتمام الذي يوليه لعلم الفلك. كيف نعمل على تنحيته عن هذا الاكتشاف المثير؟ لعل في مقدوره أن يزيدنا توضيحاً. قلت له إننا وجدنا شيئاً ادعى لعدم التصديق مما كنا نتصوره. لقد أثرت فضوله، ولكن لشرح الأمر له، كنت بحاجة إلى تظهير صوري، فقد يكون ما تكشفه له هذه الصور أشد بلاغة من كل شروحي.

قال لنا: إنكما تشغلان بالي، إلا أني سأصبر وأنتظر تظهير هذه الصور التي تريدان اطلاعي عليها. سيقتادكما تلاميذي إلى سيارتكما. توجّها شرقاً تصلا إلى لنغ باو على بعد ستين كيلومتراً؛ إنها واحدة من المدن التي نبتت ونمت كالأعشاب الضارة في غضون السنوات الأخيرة، وستجدان

هنالك ما تحتاجان إليه.

أوصلتنا العربة إلى سيارة الدفع الرباعي. بعد افتراقنا عن الراهب بساعتين، بلغنا قلب مدينة لنغ باو. كانت حوانيت الالكترونيات المخصصة للصينيين وللسياح على السواء تتوالى على امتداد الجادة التجارية الكبرى. اخترنا احدها بطريق الصدفة. فأودعتُ موظف القسم الذي يهمه أمرنا الجهاز القابل للرمي بعد الاستعمال، فأعاد إلينا هذا الأخير، بعد ربع ساعة، ومقابل مائة يوان، مجموعة من أربع وعشرين صورة ملتقطة على جبل هوا، وبطاقة إلكترونية صغيرة كانت الصور مسجلة عليها بحسب النظام الرقمي.

ـ كان في وسعك أن تغتنم الفرصة فتظّهر تلك التي التقطتها أثناء نومي أو تقيئي على حافة الطريق... لتضيفها إلى «ألبومك».

أجبتها بنبرة ساخرة: تصوري أنه لم يخطر ببالي.

آلة غريبة لفتت انتباهي. كانت مؤلفة من شاشة وملامس ومجهزة بثقوب ذات أحجام مختلفة، حيث كان ممكناً إيداع نوع البطاقة التي أعطانيها الموظف. وبإدخال بعض القطع النقدية، يمكن إرسال هذه الصور بواسطة الإنترنت إلى أي مكان في العالم. حقاً، إن آسيا لتزخر

بالعبقرية في المجال التكنولوجي.

دعوت كيرا إلى متابعة أثري، وبعثت في دقائق قليلة برسالة إلكترونية إلى صديقيّ، أروان في أطاكاما ومارتن في إنكلترا. وطلبت من كل منهما دراسة هذه الصور بمنتهى الانتباه واطلاعي على ما توحيه إليهما وعلى استنتاجاتهما المحتملة. وما كانت لدى كيرا صور ترسلها إلى جان فاكتفت بكلمة صغيرة، زعمت فيها أنها مقيمة في وادي أومو، مؤكدة لها أن كل شيء على ما يرام وأنها مشتاقة إليها.

اغتنمنا مناسبة مرورنا بالمدينة لابتياع بعض الحاجيات الأساسية. كانت كيرا تريد حتماً «شامبوان»، أمضينا نحو نصف ساعة نبحث عن العلامة التجارية التي تناسبها، ولفتُّ نظرها إلى أن ساعة، قد تعتبر فترة طويلة للعثور تماماً على شامبوان، لكنها ردّت علي أنها لو لم تسحبني من ذراعي، لكنا حتى الآن داخل حانوت الالكترونيات!

حصلنا على حصتنا من الأرز ومرق اللحم وفطيرة الرقاق، ومع ذلك لم نتمكن لا أنا ولا كيرا من تمالك أنفسنا ونحن أمام واجهة وجبات سريعة، حيث كانوا يقدمون الهمبرغر الحقيقي مع البطاطا المقلية والجبن الذائب. قالت لي: خمسمائة حريرة كل واحدة، وأضافت على الفور:

خمسمائة حريرة من اللذة الخالصة.

عقب الغداء، ذهبنا مباشرة إلى الدير. لم يكن الراهب هذه المرة في جلسة تأمل، بل كان يبدو أنه يترقب عودتنا بنفاد الصبر.

قال لنا: أين هي إذاً تلك الصور؟

عرضتُ عليه الكليشيهات وشرحت له كيف عملنا لإظهار الكرة السماوية المنزلة في الحجر.

ــ إنه، في الواقع، اكتشاف رائع ما قمتما به للتو. هل فكرتما في إعادة الحجر إلى حالته الأصلية؟

قالت كيرا: نعم، لقد نظفناه بأوراق مبللة بندى الصباح.

سأل الراهب: قرار حكيم. كيف وصلتما حتى ذلك الأسد؟

ــ إنها قصة طويلة طول هذه الرحلة.

ــ وأين ستكون المرحلة القادمة منها؟

قالت كيرا عارضة قلادتها على الراهب: هناك حيث القطعة التوأم لهذه القلادة. ونفكر أن الكرة السماوية المكتشفة على جبل هوا ستساعدنا على تحديد مكانها. كيف ذلك؟ ما زلنا نجهله، ولكن بقليل من الوقت قد نتوصل

أخيراً إلى تبيّنه بمزيد من الوضوح.

سأل الراهب وهو يتفحص عن كثب قلادة كيرا: ما هي المهمة الحقيقية لهذه الأداة البارعة الجمال؟

ـ إنها جزء من خارطة السماء المنشأة قبل الكرة السماوية التي وجدناها تحت قائمة الأسد بوقت طويل.

حدّق الراهب في أعيننا مباشرة. ثم قال لنا وهو يجرنا بعيداً عن الدير: اتبعاني. اقتادنا حتى شجرة الصفصاف حيث كنا تناقشنا تحت ظلالها وطلب منا الجلوس. هل نرضى مقابل ضيافته أن نروي له هذه القصة التي تستهويه؟ شعرنا بأننا أسيرا أفضاله، وأذعنا لطلبه بطيب خاطر.

خلص إلى القول: إن أحسنتُ الفهم، فإن الأداة التي تحملينها حول عنقك هي خارطة للسماء كما كانت تتراءى لأربعمائة مليون سنة خلت، وهو أمر، كما ستوافقين، يبدو مستحيلاً. تقولين إن هنالك أجزاء أخرى لهذه الخارطة غير المكتملة في الوقت الراهن، وبتوحيدها تبرهنين على أصالتها؟

ـ إنه لكذلك بالضبط.

ـ هل أنتما متيقنان من أن ذلك هو الشيء الوحيد

الذي يبرهن عليه؟ هل تبصّرتما في تبعات اكتشافكما، وفي جميع الحقائق المقررة في هذا العالم والتي لا تلبث أن توضع موضع الشك والاتهام؟

أقررتُ له بأنه لم يتسع لنا الوقت للقيام بالجردة، أما في حال سمح لنا توحيد الأجزاء بمعرفة المزيد حول أصل البشرية، وربما من يدري، حتى حول نشوء الكون، فسيكون هذا الاكتشاف حينئذ لا يقدر بثمن.

سألنا الراهب: هل أنتما واثقان إلى هذه الدرجة؟ هل تساءلتما لماذا عمدت الطبيعة إلى محو كل ذكريات الطفولة الأولى من ذاكرتنا؟ لماذا نجهل كل شيء عن اللحظات الأولى على الأرض؟

كنا أنا وكيرا عاجزين عن الإجابة عن السؤال الذي طرحه علينا الراهب.

ــ هل لديكما أي فكرة عن الصعوبات التي لا بد أن تواجهها نفس لتتحد بجسد وتولّد الحياة بالشكل الذي نعهده؟ أنت، عالم الفلك، أتصور مدى ولعك بمسألة خلق الكون، باللحظات الأولى، بذلك الانفجار الكبير، الانفجار الظاهري الذي أدى إلى ولادة المادة. أوتعتقد أن لحظات الحياة الأولى تختلف عن ذلك اختلافاً كبيراً؟ ألن يكون مسألة نسبة قياس؟ الكون المتناهي الصغر؟ وماذا لو كانت

هاتان الولادتان متماثلتين في مكان ما؟ لماذا يمضي الإنسان دائماً إلى البعيد للبحث عما هو قريب منه؟

«لعل الطبيعة ارتأت أن تزبل ذكرى لحظاتنا الأولى وأن تحمينا بمنعنا من تذكّر الآلام المحتملة لامتلاك الحياة. ومن يدري، لكي لا نتمكن من خيانة سر تلك اللحظات الأولى؟ وطالما أتساءل ما الذي سيحل بالبشرية لو أدركنا حقاً مسيرة هذا التطور؟ هل سيظن الإنسان نفسه حينئذ إلهاً؟ ما الذي سيحول بينه وبين تدمير كل شيء فيما لو عرف أن يخلق الحياة كما يحلو له؟ وأي احترام سنخص به الحياة لو كشفنا سر خلقها؟».

«ليس من شأني أن أقول لكما بالكف عن هذا السفر، ولا بالحكم على مسعاكما. لعل لقاءنا لم يكن لقاء عرضياً. هذا الكون الذي يوحي إليكما بالكثير يمتاز بخصائص لا يمكن الشك فيها، ونحن أبعد ما نكون عن امتلاك أي فكرة عما هو حقاً الصدفة. أطلب منكما فقط أنٍ تتبصرا على مدى مسيرتكما، في ما تقدمون عليه فعلاً. إذا كان هذا السفر قد أتاح لكما في الواقع أن تتلاقيا، فربما كان ذلك مقصده الأول، وربما كان من الحكمة الاكتفاء بذلك».

أعاد الراهب إلينا الصور. نهض، سلم علينا وتوجه إلى الدير ثانية.

عدنا في اليوم التالي إلى لنغ باو. كنا قد اكتشفنا مقهى للتوجيه والتحكم الاوتوماتيكي، حيث استطعنا الاتصال بالانترنت وقراءة بريدنا الخاص بكل منا. كيرا وردتها أخبار من اختها، وأنا من صديقيّ الفيزيائيين الفلكيين، وقد طلبا كلاهما مني الإتصال في أسرع وقت ممكن. اتصلت أولاً بأروان.

قال لي: لا أعرف الوضع الذي أنت فيه، لكنك بدأت تشغل بالي. كما لا أعرف لماذا أقضي كل هذه الساعات اشتغل لك خلالها، في حين أنك لا تقول لي شيئاً، غير أني أتصور أن ذلك لأنني صديقك. ولما كانت الأمور على هذه الحال، فأنا أنتظرك هنا بقدم ثابتة لتزوّدني بشروح، وتدعوني كذلك إلى وجبة طعام طيبة لقاء ليلة الأرق الثانية على التوالي التي فرضتها علي.

ــ ماذا اكتفشتَ، أروان؟

ــ إن كرتك السماوية مضبوطة وفق محور محدد. لقد قمتُ برسم تثليث، شبكت الأحداثيات الاستوائية وخط الاستواء وخط زوال محلقتك لكي أحدّد الطالع المستقيم والميل. أمضيت ليال عدة وأنا أحاول معرفة أي نجم هو المحدَّد موقعه، لكني لم أجد شيئاً، يا صديقي. وعلمتُ أنك طلبت من صديقك مارتن أيضاً أن يعكف على المسألة،

أنظرْ معه إن اكتشف شيئاً ما، أما في ما يعنيني فأنا متضايق من الإجابة.

بعد أن علقتُ الهاتف معِ أروان، اتصلت بـ مارتن الذي استيقظ لتوه، فاعتذرتُ لإزعاجه في النهوض من الفراش.

ـ إنها لأحجية لعينة تلك التي أرسلتَها إلي، يا صديقي. إن كنت تعتقد أنك ستفوز بي بهذه الطريقة، فأنا أحبطتُ خطتك.

تركتُه يتكلم، وقد شعرت بأن قلبي يخفق بوتيرة أقوى في كل لحظة.

أردف مارتن قائلاً: بما أنه لا أملك بالطبع الأحداثيات السويعية لقياس الزوايا، تساءلت ما هي نيتك. إنه نموذج رائع لمحلقة، أكثر كمالاً من كل ما رأيته في حياتي، وهي صحيحة ودقيقة كذلك بصورة لا تصدق. حسناً، لندخل في صلب الموضوع. سألتُ نفسي إلى أي نجم مصوّبة، إلى أن أفهم ما المقصود بالأمر. لا تشير هذه المحلقة إلى نقطة في السماء، بل بالعكس، إنها تشير من السماء إلى نقطة على الأرض. هنا فقط دخلت الاحداثيات السويعية الحالية، ووفقاً لحساباتي هذه النقطة موجودة وسط أي مكان، في قلب بحر اندامان، جنوب برمانيا.

ــ هل تتوافر لديك الإمكانيات لإعادة حساباتك، معدلاً الاحداثيات السويعية بحيث يكون لها من العمر ثلاثة آلاف وخمسمائة سنة؟

ــ سأل مارتن: لماذا هذا التاريخ بوجه خاص؟

ــ لأنه العصر الحجري الذي وُجدت فيه هذه الاحداثيات.

ــ لا بد أن أعاود حساب الكثير من المعالم (البارامترات)، وسأسعى إلى تحرير حاسوب، لكني لا أعدك بشيء، أمهلني حتى غد.

شكرتُ لصديقي كل الجهود التي بذلها واتصلت على الفور بــ أروان كي أضعه في الجو وأخضعه للتمرين نفسه الذي فرضته على مارتن. تذمر أروان قليلاً، وكان من طبعه بعض التذمر دوماً، ووعدني هو الآخر بأن يوافيني بأخباره غداً.

أبلغتُ كيرا بالتقدم الذي تحقق في وقت قصير جداً. وأذكر كم كنا سعيدين، كم كنا متحمسين، وكلانا منتشيان من الوعد الذي ينتظرنا. لم نكن استمعنا إلى التحذيرات التي أغدقها علينا الراهب. للعلم وحده أهميته، وكانت الحاجة إلى تغذية شهيتنا للاكتشاف أقوى من كل شيء.

قالت لي كيرا: ليست لدي الرغبة في العودة إلى سريرنا وفطورنا في الدير. هذا لا يعني أن مضيفنا بغيض، بل بالعكس، إلا أن امثولاته الأخلاقية تغدو في النهاية قاسية، وبما أنّ علينا انتظار الغد، لماذا لا نقوم أنا وأنت بدور سائحين؟ النهر الأصفر على مقربة من هنا، لنذهب لمشاهدته، يمكنك أن تلتقط صورك، حتى عندما أعيرك انتباهي، لأنك إذا وجدتَ لنا ركناً صغيراً هادئاً للاستحمام، أنوي أن اعيرك المزيد من الانتباه أكثر مما تتصوره.

هذا العصر، استحممنا عاريين في النهر. كانت كيرا سعيدة وأنا في مثل سعادتها تماماً. لقد نسيتُ هضبة أطاكاما، لندن وعذوبة حيّي عندما يسيل المطر على سطوح بريم روز هيل، ونسيت هيدرا، أمي، الخالة إيلينا وكاليبانوس وحميره ذات السرعتين. نسيت أنني فقدت على الأرجح كل احتمال للتدريس في الأكاديمية خلال العام القادم، لكن كل هذا عندي سيان. كانت كيرا بين ذراعي، ونحن نمارس الحب في مياه النهر الأصفر الصافية، لا يهمنا شيء آخر.

لم نعد إلى الدير، إنما قرّرنا إيجاد غرفة في فندق في لنغ باو. كانت كيرا تحلم باستحمام مريح فيما أحلم أنا بعشاء لذيذ.

أمسية عاشقين في لنغ باو؛ ما زالت الكتابة عنها تدفعني إلى الابتسام. كنا نسير في شوارع هذه المدينة المستبعدة وكيرا مشغوفة بلعبة الصور. كنا، عند ضفة النهر، قد انتهينا تقريباً من فيلم جهاز التصوير، فاشترت كيرا فيلماً آخر لنتصور هذه المرة في شوارع المدينة. قالت لي إنها تفضل عدم تظهيرها هنا، لأن ذلك سيفسد كل لذة في استرجاع هذه اللحظات مرة جديدة لدى عودتنا إلى لندن.

سألتني كيرا، ونحن على شرفة مطعم، إذ ما كنت سأتلو عليها أخيراً قائمة ما أحبه فيها. وسألتها بدوري إذا ما هي مستعدة أن تقول لي هل كانت تغش نعم أو لا في قاعة الامتحان، حيث تلاقينا للمرة الأولى. فرفضتْ، أجبتها حينذاك أن القائمة الشهيرة ستظل، في هذه الحال، طي الكتمان أيضاً.

إن رفاهية السرير في غرفة الفندق هذه أنستنا خشونة الحُصُر في الدير، لكننا ما نمنا طويلاً هذه الليلة.

إثنتا عشرة ساعة كانت تفصلنا عن التشيلي. كانت الساعة العاشرة صباحاً في لنغ باو، أي العاشرة مساء في أطاكاما، فاتصلت بـ أروان.

كان ثمة عطل في مرصاد، وأدركت أني أسبّب له

إزعاجاً أثناء عملية صيانة. بالرغم من ذلك تلقى اتصالي وشرح لي أنه ممدد على دعامة معدنية، على وشك التعارك مع حزقة تقاومه، في حين كنت أنا أعيش عيشة هانئة في الصين. سمعته يطلق صرخة وينهال بوابل من الشتائم، فقد جرح للتو أصبعه واستحوذ عليه الهياج.

قال لي: أنجزتُ حساباتك، ولا أدري لماذا ينتابني الضجر إلى هذا الحد، إني احذّرك هذه هي المرة الأخيرة! ما زالت احداثياتك في بحر أندامان، ولكن بفضل التصحيحات التي أجريتها، ستكون هذه المرة فوق اليابسة. هل لديك ما تدوّن به؟

تناولتُ قلم حبر وورقة وتأكدت، مضطرباً، أن الريشة صالحة للاستعمال.

ـ 502613 من خط العرض شمالاً، و 521594 شرقاً، قبل أن أكشف لها أن توقفنا القادم سيكون جنوب برمانيا، فوق جزيرة تدعى بئر الجحيم.

تقع جزيرة نركوندام على مسافة عشر ساعات ملاحة من الطرف الجنوبي لبرمانيا. وقد درسنا على خارطة مختلف الوسائل للتوجه إليها، لكن كل الطرق لا تؤدي إلى رانغون. دخلنا وكالة سفريات نستشير الموظف الذي يتكلم الإنكليزية بطلاقة نسبية.

كان بإمكاننا، خلال ساعات من السفر، الوصول إلى كسي آن، وذلك بالتوجه بالطائرة إلى هانوي وانتظار الرحلة المنتظمة غداة اليوم التالي، التي تربط رانغون مرتين في الاسبوع، وما أن نبلغ جنوب برمانيا حتى يتوجب علينا إيجاد باخرة. وفي أحسن الأحوال، سيستغرق وصولنا إلى الجزيرة ثلاثة أو أربعة أيام.

ــ لا بد أن هنالك وسيلة أبسط وأسرع. ماذا لو عدنا أدراجنا حتى بكين؟

لم يكن وكيل السفريات تفوته أي كلمة من حديثنا، فانحنى فوق مكتبه وسألنا إن كنا نملك عملات أجنبية. وكنت قد تعلمت منذ زمن بعيد أن أسافر دوماً والدولارات في جيبي. كثيرة هي بلدان العالم التي تحلّ فيها الأوراق الخضراء عليها صورة بنيامين فرانكلين، الكثير من المشكلات. حدثنا الموظف عن أحد أصدقائه، وهو قائد قديم لطائرة مطاردة في السلاح الجوي الصيني، وكان قد اشترى من مخدومه طائرة ليسونوف قديمة.

كان يعرض خدماته على السياح الذين يعانون أوضاعاً حرجة. وكان القيام بأول رحلة يقترحها على متن طائرته يتخذها في الواقع غطاء لتهريب سلع مختلفة الأنواع.

كان في آسيا الجنوبية العديد من الشركات السرية التي

تستخدم قدامى الطيارين المتقاعدين من الجيش، الذين كان راتبهم التقاعدي يبدو لهم هزيلاً بعض الشيء. لذا كانت المخدرات والكحول والأسلحة والعملات الأجنبية تنتقل على مرأى ومسمع من السلطات الجمركية، بين تايلاندا والصين وماليزيا وبرمانيا. وكانت الطائرات التي تؤمن هذه الرحلات لا تخضع لأي معيار من معايير الرقابة السارية المفعول، ولكن من كان يكترث لها؟

أكد لنا وكيل السفريات أنه في وسعه أن يدبر لنا الأمر، والأفضل من الهبوط في رانغون حيث سيتعين علينا كذلك ركوب البحر لعشر ساعات في السفينة ذهاباً وإياباً، كان بإمكان صديقه الطيار أن يحط بنا في بورت بلير عاصمة جزيرتي أندامان ونيكوبار. ومن بورت بلير لم تكنِ الجزيرة التي نريد التوجه إليها تبعد أكثر من سبعين ميلاً بحرياً. دخل زبون إلى الوكالة، فأتاح لنا بضع دقائق للتفكير.

سألتُ كيرا: كدنا نُحتجز في الجبل، فهل تريدين أن نجرب حظنا في طائرة قديمة مهترئة؟

ــ يمكننا أن نكون متفائلين ونرى الجانب الحسن من الأحداث. فإذا لم تدقّ عنقانا حين كنا معلقين كقطعتي سجق على ارتفاع ألفين وخمسمائة متر فوق الفراغ، فما الذي

نخاطر به على متن طائرة مخلعة إلى هذه الدرجة؟

كانت وجهة نظر كيرا تنم في الواقع عن ضرب من التفاؤل، ولم تكن عارية تماماً من المعنى. السفر بهذه الطريقة ما كان ليخلو من الخطر ـ إذ لم تتوافر لنا أي فكرة عن طبيعة الحمولة التي ستواكبنا، ولا حتى عن المخاطر التي سنتعرض لها فيما لو اعترض سبيلها خفراء السواحل الهنود ـ على أننا، بافتراض أن كل شيء سيجري على ما يرام، سنحط منذ مساء الغد في جزيرة ناركوندام.

غادر الزبون الوكالة، فبقينا وحدنا من جديد مع رجلنا. سلّمته مائتي دولار كرعبون؛ وكان لا ينفك ينظر بلا انقطاع إلى ساعة يدي، استنتجت إذاً أنها تفي بالغرض بمثابة عمولة تدفع له؛ فنزعتها من معصمي، فوضعها في الحال في معصمه وكاد يطير فرحاً. ووعدتُ أن أعطي صديقه الطيار كل ما يحويه جيبي إن هو أوصلنا إلى شاطئ الأمان. يتم دفع نصف المبلغ عند الذهاب، والنصف الآخر عند الإياب.

كانت الصفقة قد أبرمت، فأغلق باب وكالته وأخرجنا معه من مؤخرة الحانوت. كانت هنالك دراجة نارية مركونة في الباحة، فتسلّقها وأجلس كيرا في الوسط، بينما لم يبق

لي إلا القليل من طرف المقعد وحاملة الأمتعة لأسند يديّ. فرقعت الدراجة النارية في الباحة الصغيرة وغادرنا المدينة لنلفي أنفسنا بعد ربع ساعة منطلقين بأقصى سرعة على طريق ريفية. لم تكن قطعة الأرض الصغيرة المخصصة للطيران، التي سنقلع منها، إلا مدرجاً ترابياً مخططاً وسط حقل فضلاً عن حظيرته العتيقة الصدئة، حيث تضطجع طائرتان قديمتان كبراهما طائرتنا.

كان للطيار رأس قرصان. ولعلي كنت أرى من المناسب لو قام بتمثيل دور ما في فيلم «زورق يانغ ـ تسي المسلح». كانت هيئته تدل حقاً على قرصان بحار الجنوب، بوجهه المتغضّن، وندبة كبيرة فوق خده. تحادث وكيل سفرياتنا، وهو ذو نمط خاص، معه. أنصت إليه الرجل دون أن ينبس بكلمة، وتقدم باتجاهي ماداً يده كيف أسدّد ما يتوجب علي. ثم أراني، مطمئناً، حوالي عشرة صناديق في مؤخرة الحظيرة، وافهمني أنني، إن كنت أريد أن نقلع، فمن مصلحتي أن أمد إليه يد المساعدة. وكلما كنت أناوله طرداً وأرى الحمولة تختفي وراء بدن الطائرة، أحاول عدم التفكير في نوع السلع التي ستسافر معنا.

كانت كيرا جالسة في مكان الطيار المساعد وأنا في مقعد عضو فريق القيادة. كان طيارنا القرصان لطيفاً على

العموم، وقد التفت نحو كيرا قائلاً لها، بلغة إنكليزية بدائية، إن الطائرة التي نحلق فيها يعود تاريخها إلى ما بعد الحرب، ولكن لا أنا ولا كيرا لم نجرؤ على سؤاله عن أي حرب يتكلم.

طلب منا أن نشد حزامينا، فاعتذرتُ له بعدم احترام تعليمات الأمان، لأن الحزام الذي ينبغي أن يجهز مقعدي كان قد اختفى. أضيئت لوحة القيادة، أو بالأحرى بعض المراقم، بينما بقيت الإبر على بعضها الآخر بلا حراك. دفع الطيار مقبضين وردّ مجموعة من الأزرار ـ كان يبدو أنه يتقن عمله ـ والمحركان برات وويتني ـ كانت العلامة مكتوبة على الغطاءين الواقيين ـ نفثا دخاناً كثيفاً. انبثقت حزمة شرر وبدأت المراوح تدور، ودار الذيل على محوره، فاصطفت الطائرة على المدرج بعدما زلقت كما لو كنا فوق الجليد. وبات الضجيج داخل حجرة الطيار مصماً للآذان، وكل شيء يرتعش. نظرتُ عبر إحدى الكوى إلى وكيل سفرياتنا يلوّح لنا بإشارات واسعة، لم أمقت قط شخصاً مثل مقتي هذا النمط من الأشخاص. أخذت الطائرة تزداد سرعتها، فيما نحن نهتز أشبه بأشجار الخوخ. كانت نهاية المدرج تقترب منا بشكل مقلق جداً، وإذا بي أشعر أن ذيل الطائرة يرتفع، وأننا نرتفع أخيراً في الأجواء. كنتُ على يقين من أننا تجاوزنا ببضعة سنتيمترات ذؤابات الأشجار

التي خلفناها وراءنا، لكننا كنا، بين دقيقة وأخرى، نزداد علواً.

شرح لنا الطيار أننا لن نطير عالياً جداً، كي لا نلج ضمن نطاق تغطية الرادارات. قال هذا وهو يبتسم. فاستخلصتُ أنه لا ينبغي أن نقلق أكثر من ذلك.

حلّقنا، أثناء ساعة الطيران الأولى، فوق سهل، فارتفع الطيار قليلاً في حين كانت ترتسم أمامنا بعض التضاريس الخفيفة؛ وكنا بعد ساعتين إلى شمال شرق منطقة «يونّان»، فغير اتجاهه وانعطف أكثر صوب الجنوب. قد تكون الطريق أطول، ولكن الوسيلة الأنجع للخروج من الصين هي الطيران بمحاذاة حدود لاوس، حيث الرقابة الجوية شبه معدومة. لا يسعني القول إن الرحلة كانت، حتى ذلك الحين، مريحة حقاً، بيد أنها لم تكن شيئاً مقارنة بما حدث حين توغلنا في منطقة مضطربة بينما كنا نحلق فوق الـ «ميكونغ». عند اقتراب الطيار من النهر، انقضّ بمقدمة طائرته كيما يحلق على وجه الماء. وجدت كيرا ذلك رائعاً. ربما كان المشهد كذلك، لم أكن أعلم شيئاً، لأن عينيّ مثبتتان على مقياس الارتفاع. أتساءل فعلاً لماذا كانت الإبرة تهتز بشدة وتهبط حالاً، كلما كان طيارنا يضرب برفق عليها. حلّقنا فوق لاوس خلال خمس عشرة

دقيقة قبل التوغل في الأراضي البرمانية. مرقمان آخران لفتا انتباهي، ومقياس الوقود أيضاً. بحسب ما كنت أراه، لم تكن الخزانات تحتوي إلا على ربعها، فسألت طيارنا خلال كم من الوقت يقدّر وصولنا. رفع باعتزاز إصبعين وثنى الثالثة إلى النصف. إذا أخذنا في الحسبان الوقود المستهلك منذ انطلاقنا، كان يبقى لنا في الحقيقة ساعتان ونصف الساعة من الطيران، لذلك كانت طائرتنا ستتعطل منطقياً جراء نفاد الوقود قبل بلوغ المكان المقصود. شاطرت كيرا استنتاجاتي الحسابية واكتفت بهز كتفيها. ما كنت أرى حولي إلا جبالاً، وليس هناك من مكان واحد نستطيع الهبوط فيه لتزوّد محتمل بالوقود. كنت نسيت أن وكيل السفريات أوضح أن صديقه كان طياراً مطارداً. بينما كنا نجتاز بين ممرين جبليين، جنحت الطائرة قبل إجراء خفض مفاجئ لقوة الرفع على الجناح، كان سبباً لإثارة غثياننا. كان المحركان يزعقان وبدن الطائرة يرتجف تماماً، ثم اتخذت الطائرة وضعاً شبه طبيعي، ورأينا يبرز أمام مقعد الطيار ما يشبه الطريق على امتداد حقل أرز. أغمضت كيرا عينيها، لامست الطائرة الأرض كأنها زهرة واستقرت جامدة في مكانها. أطفأ الطيار مفتاح الاشعال، حل حزامه وطلب مني أن أتبعه. جرني إلى مؤخرة الطائرة، فك الأحزمة التي كانت تحتجز برميلين ضخمين

وأفهمني أن علي الآن أن اساعده على دحرجتهما حتى الجناحين. لا اعتراض على شيء، والخدمة على متن الطائرة تطفح ابداعاً! دفعتُ برميلي نحو الجناح الأيمن وإذا بي ألمح سحابة من الغبار ترتفع في نهاية الطريق. كانت سيارتا جيب تجريان باتجاهنا. عندما وصلتا بمحاذاتنا ترجَّل منها أربعة رجال. تبادلوا بعض الكلام مع طيارنا ورزمة أوراق نقدية لم يتسع لي الوقت لتحديد نوع العملة، وأفرغوا في بضع دقائق الصناديق التي استغرقت منا وقتاً أطول من ذلك لشحنها. وعادوا من حيث أتوا من دون إلقاء السلام علينا، ومن دون مساعدتنا على ملء خزاناتنا بالوقود.

إن عملية ملء الخزانات تمت بواسطة مضخة كهربائية صغيرة واستغرقت بالفعل نصف ساعة اغتنمت كيرا الفرصة لتنشيط ساقيها. ثم حُمّل البرميلان الفارغان في مؤخرة الطائرة، إذ إننا سنحتاج إليهما لدى رجوعنا، وأخذ كل منا مكانه على متن الطائرة. سحابة الدخان نفسها، قذْف الشرر نفسه، بدأت المراوح تدور من جديد، وارتفعت الطائرة في الفضاء، مجتازة بالكاد بين الممرين الجبليين، حيث كنا انقضضنا قبل ذلك بقليل.

أما التحليق فوق برمانيا فتم دون عائق، على ارتفاع

اخفض أيضاً تجنباً لاكتشاف أمرنا. وأشار علينا الطيار أننا سنبلغ الشاطئ عما قليل، واكتشفنا حالاً الامتداد الازرق لبحر أندامان. اتجهت الطائرة أكثر نحو الجنوب. كنا نطير على سطح الامواج، وكان خفراء السواحل الهنود أشد يقظة من جيرانهم البرمانيين. أرتني كيرا نقطة في الأفق. نظر الطيار إلى الـ جي. بي. أس. المحمول المعلق بحزام على لوحة القيادة، إنه نموذج أصلب وأدق من تلك النماذج التي يمكن شراؤها لتزويد السيارات بها.

صاح الطيار داخل حجرته: اليابسة.

غيرنا من جديد اتجاهنا واستدرنا حول الساحل الشرقي للجزيرة، وبعد أن قمنا بأول طيران قريب من سطح الأرض، حطت الطائرة بطواعية وسط حقل.

كانت بورت بلير على مسيرة عشر دقائق عبر الريف. استعاد الطيار حوائجه ورافقنا، وكان يعرف نزلاً صغيراً يؤجر غرفاً. اغتنمنا بقية النهار للقيام برحلة بحرية، أما رحلة العودة فحُدّدت صباح الغد، لأن الطيار كان يريد بشكل إلزامي أن نعبر الحدود الصينية عند الظهيرة إذ حينما يتناول موظفو الرادار غداءهم، لا يراقبون شاشات راداراتهم.

بورت بلير

كنا نستريح من وعثاء السفر، جالسين على شرفة بائع مثلجات، حيث دعونا طيارنا.

في مطلع القرن التاسع عشر، أصبحت بورت بلير مركزاً لرسو السفن العائدة لصاحب جلالة ملك بريطانيا، التي كانت تواكب جنوده إلى الجبهة في الحرب الأولى بين إنكلترا وبرمانيا. لقد تعرض بحارة السفن المقتربة من الشاطئ لهجوم أبناء الجزيرة الذين أعلنوا الثورة على الغزاة. وحين اخذت أعمال التمرد في الهند تزود حكومة صاحب الجلالة بسجناء أكثر عدداً مما تستطيع سجونه احتواءهم، فبنيت إصلاحية فوق المرفأ الذي كنا نتواجد فيه. كم من المتاعب وأعمال التنغيص كبّد مواطنيّ أنا سكان هذه الجزيرة، وكم من سوء المعاملة أنزلوا بأولئك الذين كانوا يعتقلونهم؟! عذابات ومعاملات وحشية وأحكام بالشنق كانت الحصة اليومية لسجناء الإصلاحية، سجناء اعتقل معظمهم لأسباب سياسية بحتة، وقد وضع استقلال الهند حداً لتلك الفظائع. وباتت بورت بلير في قلب بحر أندامان مصيفاً للسياح الهنود. كان صبيّان يتلذذان بقرن من البوظة فيما كانت أمّاهما تصران على البحث عن قبعة

أو منشفة استحمام. تساءلتُ، وأنا ألقي نظرة على هذه الإصلاحية القائمة دائماً فوق المرفأ، من لا يزال يتذكر أولئك الذين ماتوا هنا باسم الحرية؟

ساعدنا طيارنا، عند الانتهاء من الوجبة، في إيجاد مركب يتوجه بنا إلى ناركندام. وافق أحد مؤجري السفن على أن يسلمني واحداً من زوارقه السريعة. ولحسن الحظ، قبل كذلك بطاقات الائتمان. لفتت كيرا انتباهي إلى أننا إذا استمررنا على هذا المنوال سيؤول الأمر بنا إلى الدمار، وكانت على حق.

سألتُ طيارنا قبل الاتجاه إلى عرض البحر، إن كان يرضى أن يسملني جهاز قيادته، متذرعاً بأني أجهل المنطقة وأخشى بالتالي ألا تكفيني بوصلة الملاحة.

لم تكن فكرة إعادتي الـ «جي. بي. أس» لتغبطه، وشرح لي أنني إذا فقدته، فلن نتمكن من الوصول إلى الصين. وعدتُه بأن أضاعف اهتمامي به.

كانت الحالة الجوية مثالية، والبحر راكداً. سوف نرسو، بفضل محركين بقوة ثلاثمائة حصان يزودان زورقنا بالطاقة، في جزيرة بئر الشيطان خلال ساعتين على أبعد تقدير.

جلست كيرا في مقدم الزورق، وكل واحدة من ساقيها في جانب من درابزينه، تستفيد من الشمس ومن رخاء الريح. على بعد بضعة أميال من الشاطئ تغير جو البحر وأرغمها على اللحاق بي داخل مقر القيادة. كان الزورق يجري واثباً على غارب الأمواج، والساعة تشير إلى السادسة مساء عندما لمحنا ساحل ناركندام. استدرتُ حول الجزيرة الصغيرة ووجدت شطاً في أقصى خليج صغير، حيث استطعتُ تجنيح الزورق على الرمل.

شرعت كيرا في السير عند أسفل البركان. كان علينا أن نتسلق أيضاً سبعمائة متر عبر أدغال قبل بلوغ القمة. لم تكن مهمة سهلة. أدرت الـ جي. بي. أس. وأدخلتُ الاحداثيات التي قدّمها لي أروان ومارتن.

لندن

502613 شمالاً، و 521594 شرقاً.

طوى السيد آشتون الورقة التي أعطاه إياها معاونه.

ــ ما معنى هذا؟

ــ لست أدري، سيدي، ولا بد أن أعترف لك أن هذا أمر لا سبيل إلى فهمه. سيارتهما مركونة في أحد شوارع لنغ باو في شمال الصين ولم تتحرك منذ صباح البارحة. إنهما أدخلا فقط هذه الإحداثيات في «جي. بي. أس» القيادة، وأشك بقوة أن يصلا إلى غايتهما المقصودة من طريق البر.

ــ ولماذا إذاً؟

ــ لأن ذلك سيقودهما إلى جزيرة صغيرة وسط بحر أندامان، حتى بسيارة رباعية الدفع ليس سهلاً الوصول إليها بالسيارة.

ــ ما السمة الفريدة التي تتميز بها هذه الجزيرة؟

ــ في الحقيقة، لا شيء، سيدي. إنها ليست أكثر من جزيرة صغيرة بركانية. باستثناء بعض العصافير، إنها غير

مأهولة كلياً.

ـ وهل هذا البركان ناشط.

ـ لا، سيدي، لم يتفجر منذ أكثر من أربعة آلاف سنة.

ـ هل غادرا الصين متوجهين إلى جزيرة السوء هذه؟

ـ لا، ليس بعد، سيدي. لقد حققنا لدى جميع شركات الطيران، ولم نعثر على أثر لهما؛ إضافة إلى ذلك، فإنهما لا يزالان في قلب مدينة لنغ باو، وفقاً لجهاز المراقبة الذي وضعناه في ساعة عالم الفيزياء الفكلية.

دفع السيد آشتون متكأه ونهض.

ـ لقد طال المزاح كثيراً! أحجزْ لي مكاناً في أول رحلة متوجهة إلى بكين. ولتكن في انتظاري سيارة ورجلان، فقد حان الوقت لوضع حد لكل ذلك قبل فوات الأوان.

تناول السيد آشتون دفتر شكاته من درج مكتبه وأخرج قلم حبر من جيب سترته.

ـ ستسدّد سندي ببطاقة ائتمانك الخاصة، واترك لك أن تدوّن على هذا الشك المبلغ الضروري للوفاء بما يتوجب لك. أفضل ألا يعرف أحد أين أذهب. وإذا حاولوا الاتصال بي، فسجّل الرسالة، وقل لهم إني موجوع، أستريح عند

أصدقاء لي في الريف.

كنتُ قد احتسبت أن الليل سيخيم في غضون أربع ساعات. وكنت أفضل ألا أركب البحر ثانية وسط الظلام، الأمر الذي لم يترك لنا وقتاً طويلاً أمامنا. كانت كيرا أول من بلغت القمة.

قالت لي: أسرع، إنه لمشهد رائع.

أسرعتُ الخطى لألحق بها. لم تكن قد بالغت، كان نبات ماتع يغطي فوهة البركان. طائر طوقان قمنا بإزعاجه ارتفع في الجو. تحققتُ من جهاز القيادة، كانت دقته في حدود خمسة أمتار. والنقطة التي ترف تقترب من مركز الشاشة. ما عدنا بعيدين جداً عن الهدف.

نظرتُ إلى المشهد في الأسفل، فاكتشفت أن في وسعي الاستغناء عن الـ «جي. بي، إس» الذي استعرتُه من طيارنا. كنت أميز، في وسط البركان تماماً، قطعة أرض لم تكن الحشائش تنبت عليها.

هرعت كيرا إليها، وما كان لي الحق في الاقتراب. شرعت، وهي جاثية تكشط التراب. تناولت حجراً مروساً، خطّت مربعاً ومضت تحفر، قلبت أصابعها التراب، أيضاً

وأيضاً.

انقضت ساعة من دون أن تكف كيرا عن الحفر. تشكلت تلة صغيرة إلى جوارها. لقد أصابها الإرهاق، وسال العرق من جبينها، فأردتُ أن أحلّ مكانها، لكنها أمرتني بالبقاء بعيداً، ثم صرخت فجأة اسمي بكل ما أوتيت من قوة.

كانت قطعة مادة ملساء وقاسية كالأبنوس تلمع بين يديها، وكان شكلها الشبيه بالمثلث يستمد منها لونها. خلعت كيرا العقد الذي كانت تحمله حول عنقها، قرّبت قلادتها فتجاذبت القطعتان قبل أن تتحدا وتكوّنا قطعة واحدة.

ما أن انضما حتى تبدل لونهما من الأسود الشبيه بالأبنوس إلى أزرق الليل. وفجأة بدأت تتلألأ على سطح الأجزاء المتحدة ملايين النقاط، ومن ملايين النجوم، على نحو ما كانت تتراءى في السماء قبل أربعمائة مليون سنة.

كنتُ أشعر بحرارة المادة تحت أصابعي. كانت النقاط تلمع أكثر فأكثر، ومن بينها نقطة تلمع أشد من غيرها. أهي نجمة اليوم الأول، النجمة التي كنت أرصدها منذ طفولتي، تلك التي رحت أبحث عنها متعزياً في الهضاب التشيلية العالية؟

وضعت كيرا المادة برقة على الأرض. ضمتني بين ذراعيها وقبلتني. كان الوقت لا يزال في وضح النهار، وكانت، مع ذلك، تلمع تحت أقدامنا، أجمل ليلة أتيحت لنا رؤيتها أبداً.

لم يكن من السهل فصل القطعتين عن بعضهما. عبثاً حاولنا أن نشد بكل قوانا، كل منا على إحدى القطعتين، ولكن بلا جدوى.

ثم خف البريق كثافة وزال. كان كافياً، هذه المرة، القيام بجهد طفيف للفصل بينهما. أعادت كيرا عقدها حول عنقها. فيما وضعت أنا القطعة الأخرى في عمق جيبي.

رمق أحدنا الآخر، وتساءل كل منا ما عساه أن يحدث إن نجحنا يوماً في توحيد الأجزاء الخمسة.

حطت طائرة الـ ليزونوف على المدرج وجرت حتى حظيرتها. ساعد الطيار كيرا على النزول منها. سلّمته دولاراتي الأخيرة وشكرته على إعادتنا بالصحة والسلامة. كان وكيل سفرياتنا ينتظرنا بدراجته النارية، فأوصلنا إلى سيارتنا وسأل إن رجعنا مسرورين من رحلتنا. وعدته بألا أنسى توصية وكالته. سرّ كثيراً، وانحنى بلطف ليحيينا وقفل عائداً إلى حانوته.

سألتني كيرا متثائبة: أما زالت لديك القدرة على القيادة؟

لم أجرؤ على البوح لها بأني غفوت حين كنا نحلق فوق لاوس.

أدرتُ مفتاح الإشعال، فاشتغل محرك سيارة الدفع الرباعي.

كان لا بد أن نذهب للبحث عن امتعتنا التي تركناها في الدير. سنغتنم المناسبة لنشكر للراهب حسن صيافته، وسنمضي هنالك ليلة أخيرة وننطلق منذ الغد باتجاه بكين. كنا نودّ العودة إلى لندن في أسرع وقت ممكن، ننتظر بتلهف رؤية الصورة التي سيلقيها الجزء الجديد ما أن يتم

عرضه على نور ليزر. أي كوكبات من النجوم سوف تكتشفها.

بينما كنا نجري على امتداد النهر الأصفر، كنت أفكر في كل الحقائق التي ستكشفها لها هذه الأداة الغريبة. كانت تراودني فعلاً بعض الأفكار، لكنني كنت أفضل، قبل اطلاع كيرا عليها، أن انتظر الوصول إلى لندن واتحقق من الظاهرة بأم عيني.

قلت لكيرا: سأتصل، منذ الغد، بوالتر. إنه سيشاطرنا الهياج.

أجابتني: لا بد أن افكر في الاتصال بجان.

ـ ما هي أطول فترة بقيت فيها من غير اطلاعها على أخبارك؟

صرّحت قائلة: ثلاثة أشهر.

كانت عربة مغلقة ضخمة تلصقنا بالقطار. عبثاً حاول سائقها أن يبعث إلي بإشارات ضوئية كي أدعه يتجاوزني، والطريق المتعرجة ضيقة جداً. من ناحية، جدار الجبل، ومن ناحية أخرى مجرى النهر الأصفر، فأومأتُ إليه بيدي وأعلمته أني سانحرف بسيارتي لأفسح له مجال المرور ما أن يتسنى لي ذلك.

أردفت كيرا: إننا إذا لم نتصل بشخص ما، لا يعني مع ذلك أننا لا نفكر فيه.

فسألتها: لماذ لم تتصلي بها إذاً؟

ـ أحياناً، تحول المسافة دون العثور على الكلمات المناسبة.

باريس

كان إيفوري يحب هذه الفترة من الأسبوع، التي يذهب خلالها للتسوق في ساحة اليغر. كان يعرف كلاً من التجار: آني الفرانة، مارسيل بائع الأجبان، إتيان القصاب والسيد جيرار بائع الخرضوات، الذي كان دوماً فوق بسطته، ومنذ عشرين سنة، شيء جديد مثير للدهشة. كان إيفوري يحب باريس، الجزيرة التي يعيش فيها وسط نهر السين، والسوق في ساحة اليغر، بتركيبتها الشبيهة بهيكل سفينة معكوس.

عندما عاد إلى منزله، وضع الكيس فوق طاولة المطبخ، رتّب بتدقيق مفرط مشترياته الهزيلة والتحق بغرفة الاستقبال يقضم جزرة. رن الهاتف.

قال فاكيرز: كنتُ أريد أن أقاسمك معلومة تغيظني.

وضع إيفوري الجزرة على الطاولة الواطئة واستمع إلى شريكه في لعب الشطرنج.

ـ لقد اجتمعنا هذا الصباح، إن عالمينا يشغلان كثيراً بال الجماعة. هما الآن في لنغ باو، مدينة صغيرة في الصين، لم يتحركا منذ عدة أيام. لا أحد يدرك ما الذي

يفعلانه بالتوجه إلى هناك، إلا أنهما أدخلا في الـ جي. بي. أس. إحداثيات تبدو على الأقل غريبة.

سأل إيفوري: أين هذه الإحداثيات؟

ــ جزيرة صغيرة ليست ذات شأن يذكر، وسط بحر أندامان.

سأل إيفوري: هل من بركان في هذه الجزيرة؟

ــ نعم، في الحقيقة، كيف عرفت ذلك؟

لم يحر إيفوري جواباً.

ــ ما الذي يغيظك، فاكيرز؟

ــ تمارض السيد آشتون وغاب عن الاجتماع. لستُ أنا الشخص الوحيد الذي يزعجه ذلك، لا أحد مغفل في صدد عدائه للاقتراح الذي صوّت عليه مجلسنا.

ــ هل لديك أسباب تدفعك إلى التفكير بأنه أوسع اطلاعاً منا؟

أجاب فاكيرز: للسيد آشتون أصدقاء كثر في الصين.

ــ هل قلت «لـــنغ باو»؟

شكر إيفوري فاكيرز على اتصاله، وعاد يتكئ على

الشرفة ولبث هناك لحظات غارقاً في التفكير. توجه إلى غرفته وجلس وراء شاشة حاسوبه. حجز له مكاناً في الرحلة التي تنطلق الساعة 19 إلى بكين، ورسالة إلى كسي آن، ثم أعدّ حقيبة سفر ونادى سيارة تكسي.

طريق كسي آن

ــ كان ينبغي أن تدعه يتجاوزنا.

شاطرتُ كيرا رأيها، إلا أن السيارة التي كانت تتعقبنا تجري بسرعة هائلة كي أفرمل أنا، والطريق ضيقة للغاية حتى تتمكنٍ من المرور. على السائق النافد الصبر أن ينتظر قليلاً، فقررتُ أن أتجاهل أصوات بوقه. اقترب بصورة خطرة، لدى الخروج من منعطف، بينما كانت الطريق آخذة في التصعيد، ورأيت واقية راديوتار العربة المغلقة تتضخم في مرآتي العاكسة.

قلت لكيرا: شدي حزامك، لأن هذا الغبي سينتهي به الأمر إلى قذفنا في الوهدة.

ــ خفف السير، أدريان، أتوسل إليك.

ــ لا أستطيع تخفيف السرعة، إنه يلصقنا بالقطار!

التفتت كيرا إلى الوراء ونظرت من خلال زجاج السيارة الخلفي.

ــ إنهم مختلّو الشعور ليقودوا السيارة على هذا المنوال.

أزّت العجلات وانحرفت السيارة الرباعية الدفع بصورة مفاجئة، أفلحتُ في التحكم بالمقود وضغطت على المسرّع لأتملص من أمثال هؤلاء.

قالت كيرا: مستحيل، إنهم حاقدون علينا، والشخص الذي يقود السيارة بادرني بحركة بذيئة.

ــ كفي عن النظر إليه وتعلقي جيداً. هل أنت مشدودة الحزام؟

ــ أجل.

لم يكن حزامي مبكلاً، ولكن كان من المحال أن أرخي المقود.

شعرنا بصدمة قوية دفعتنا إلى الأمام. كان مطاردونا يلعبون معنا لعبة السيارات الصدّامة، فانزلقت عجلتا السيارة الخلفيتان جانباً وخدش جدار الجبل باب كيرا. كانت تشدّ العلاقة بقوة حتى صارت أصابعها بيضاء. كانت الرباعية الدفع تتشبث بشكل مقبول بالطريق، لكننا كنا نهتز عند كل منعطف. وإذا بصدمة قوية دفعتنا بالورب، فابتعدت أخيراً السيارة التي كانت تطاردنا في المرآة العاكسة، غير أني ما كدت أوفق بأعجوبة في استئناف السير داخل محور الطريق حتى دنت العربة المغلقة

الضخمة منا. كان الوغد يحرز تقدماً، فيما إبرة عدادي تقارب السبعين ميلاً، وهي سرعة لا يمكن الاحتفاظ بها في طريق جبلية متعرجة إلى هذا الحد. لم نكن قادرين على اجتياز المنعطف القادم.

ــ فرمل، أدريان، أرجوك.

كانت الصدمة الثالثة أشد عنفاً أيضاً. إذ عضّ الجناح الأيمن الصخر، وانفجر مصباح السيارة تحت تأثير الصدام. انغرزت كيرا في مقعدها. توقفت السيارة الرباعية الدفع بالعرض واستدارت. رأيت سترة السيارة الأمامية تنفجر عندما صدمناها؛ وتخيلتُ لحظة أننا نرتفع فوق الأرض، مجمدين وعالقين في الفضاء، ثم غاصت العجلتان الأماميتان في الهاوية. وانقلبت سيارتنا على سطحها أولاً، ومضت تنزلق على امتداد المنحدر باتجاه النهر. عندها صدمْنا صخرة، وجعَلَنا تقلّب جديد نرتكز على العجلات، وكان السطح قد انهار واستمرت الزحلقه نحو الهاوية دون أن أتمكن من عمل شيء. وكان جذع صنوبرة يقترب منا بأقصى سرعة، فانطلقت سيارة الدفع الرباعي بالورب، متجنبة بالكاد الشجرة. لا شيء بدا قادراً على إيقافنا. كنا نجري باتجاه منحدر، لقد ارتفع غطاء المحرك في الفضاء، وحلقت السيارة في الجو، ثم سمعت ضجة صماء هائلة،

تلتها هزة عنيفه. كانت السيارة الرباعية الدفع تغوص الآن في مياه النهر الأصفر.

في الحال، حانت مني التفاتة إلى كيرا، كانت مصابة بجرح بليغ في جبينها. إنها نتزف لكنها ما زالت واعية. أما السيارة فكانت طافية، إلا أن ذلك لن يدوم طويلاً لأن الماء كان قد غمر غطاء المحرك.

صرختُ في كيرا: يجب الخروج من هنا.

ــ أنا محتجزة، أدريان.

تحت تأثير الصدمة، خرج المقعد عن خطه، وباتت قبضة حزامه صعبة المنال. ضغطت عليها بكل قواي ولكن بلا جدوى. لا بد أن أضلاعي تحطمت. كنت كلما أتنفس ينتشر في صدري وجع شديد، يسبّب لي آلاماً مبرّحة. أما الماء فكان يصعد ومن الضروري تحرير كيرا من وضعها الخطر.

كان الماء لا ينفك يرتفع، نحس به عند أقدامنا، وبدأت واجهة السيارة تختفي.

ــ هيا، إرحلْ، أدريان، إرحلْ ما دام الوقت متاحاً لك.

درتُ إلى الخلف علّني أجد ما أمزق به هذا الحزام

اللعين. كان الألم وخازاً ونفَسي ضيقاً، لكني لن أتخلى عن ذلك. انحنيتُ على ركبتي كيرا، أحاول فتح علبة القفازات، فوضعتْ يدها على مؤخرة عنقي وداعبت شعري.

ثم تمتمتْ: لم أعد أحس بساقيّ، وأنت لن تستطيع إخراجي من هنا، عليك أن تذهب الآن.

أمسكتُ برأسها بين يديّ وتعانقنا. لن أنسى أبداً طعم هذه القبلة.

رمقت كيرا قلادتها وقد علت ثغرها ابتسامة.

قالت لي: خذها. لم نتحمل كل هذه الآلام في غير طائل.

رفضتُ أن تنزعها من عنقها، فأنا لن أرحل بل سأبقى معها هنا.

قالت: وددتُ لو أرى هاري للمرة الأخيرة.

كان الماء يواصل غزو داخل السيارة، والتيار يجرنا ببطء.

قالت لي: ما كنتُ أغش في قاعة الامتحان، كنت أريد لفت انتباهك وحسب، لأنك كنت تعجبني منذ ذلك الحين. وفي لندن، نكصتُ على عقبيّ عند نهاية شارعك؛ ولو لم تمر سيارة تكسي من هناك لعدتُ أدراجي لأرقد بقربك،

لكني خفتُ أن أغرم بك حتى العشق، لأنني كنت حينذئذ مولّهة بك.

التصق كل منا بذراعي الآخر، فيما كانت السيارة تواصل غوصها في الماء. وراح نور النهار يتلاشى أخيراً. كانت المياه تغمرنا الآن حتى كتفينا. وكيرا ترتعش بينما حلّ الخوف محل الحزن والأسى.

ــ كنتَ قد وعدتني بقائمة، لا بد أن تسارع في تلاوتها علي الآن.

ــ إني أحبك.

ــ إنها إذاً قائمة جميلة، ما كان يسعك أن تجد أجمل منها.

سأبقى معك يا حبي، لقد بقيتُ معك حتى النهاية، وحتى بعد ذلك. لم أفارقك قط. قبّلتك حين كانت مياه النهر الأصفر تغمرنا، ووهبتك رمقي الأخير. هذا الهواء في رئتيّ كان هواءك. لقد أغمضت عينيك عندما غطى الماء وجهينا، أما أنا فأبقيتهما مفتوحَتين حتى اللحظة الأخيرة. كنت قد رحلت بحثاً عن أجوبة لأسئلتي الصبيانية في عمق أعماق الكون، باتجاه النجوم الأكثر بعداً، وأنت كذلك هنالك بجواري تماماً. ابتمستِ، تشبثت ذراعاك بكتَفي، ولم أعد

أشعر بأي ألم، يا حبي. لقد انحلّ عناقك، وكانت تلك لحظاتي الأخيرة معك، وذكرياتي الأخيرة، يا حبي، وفقدتُ وعيي بفقدك.

الدفتر الثاني

هيدرا

أقلب صفحات هذا الدفتر، وأنا في هيدرا جالس في هذه الشرفة، التي غالباً ما أنظر منها إلى البحر.

لقد استعدتُ وعيي في أحد مستشفيات كسي آن، بعد خمسة أيام على وقوع الحادث. قيل إن صيادين انقذوا حياتي بإخراجي في اللحظة الأخيرة من سيارة الدفع الرباعي التي رأوها تغوص في النهر. حادت السيارة عن الطريق، ولم يتم العثور على جثة كيرا. كان ذلك لثلاثة أشهر خلت. لا يمضي يوم من غير أن أفكر فيها. ولا تغمض عيناي ليلة من دون أن ترقد بجانبي. ما عرفتُ البتة ألماً شبيهاً بألم غيابها. لم تعد أمي يساورها القلق على شيء. كما لو أنها أدركت أنه لا ينبغي إضافة أي شيء للغم الذي اجتاح بيتنا. في المساء نتناول العشاء معاً على هذه الشرفة، حيث أكتب. أكتب لأنها الوسيلة الوحيدة الباقية لي لبعث الحياة في كيرا. أكتب لأنني كل مرة أتحدث عنها، أجدها هنا كظل أمين لي. لن أتحسس رائحة بشرتها عندما كانت تنام ملتصقة بي، لن أسمع قهقهاتها حين كانت تضحك من تصرفاتي الخرقاء، لن أراها أبداً تنقب في الأرض بحثاً عن كنز، ولن آكل تلك الأطايب التي كانت

تلتهمها، كما لو أن أحدهم مقدم على مصادرتها منها، لكن عندي آلاف الذكريات عنها وآلاف الذكريات عنا. حسبي أن أغمض جفوني كي تتراءى مجدداً.

من حين لآخر، تقدم الخالة إيلينا لزيارتنا. أصبح البيت بالأحرى خالياً وبات الجيران كتومين. أحياناً، يمر كاليبانوس في الطريق التي تحاذي ملكه لرؤية حماره، على ما يدّعي، لكني أعلم أن هذا غير صحيح. نجلس على مقاعد ونتأمل معاً البحر. هو الآخر أحب، كان ذلك منذ زمن بعيد. لم يكن نهر في الصين جرف امرأته، بل مرض بالضبط، إلا أن الألم الذي نتقاسمه هو عينه، وأسمع في لحظات صمته أنه لا يزال يحبها.

غداً سيصل والتر من لندن، إنه يتصل بي كل أسبوع منذ وجودي هنا. ما استطعت العودة إلى لندن. إن السير في زقاقي حيث ما انفكت خطوات كيرا تتجاوب أصداؤها، ودفْع باب البيت، باب الغرفة التي نمنا فيها، إنهما فوق طاقتي. كانت كيرا على حق، فأصغر تفصيل يبعث على الألم.

كانت كيرا امرأة فاتنة، مصممة، وأحياناً عنيدة، تفترس الحياة بشهية لا نظير لها. كانت تحب مهنتها وتحترم الذين يعملون معها. لديها غريزة لا تخطئ وتواضع عظيم. كانت

صديقتي، حبيتي والمرأة التي أحببتها. لقد عددتُ الأيام التي قضيناها سوياً، حتى ولو كانت قليلة، أعرف أنها كافية لملء حياتي الباقية، وأود الآن لو يمضي الزمن سريعاً جداً.

عندما يحلّ الليل، أنظر إلى السماء فأراها بصورة مختلفة، لعل نجمة جديدة وُلدت في كوكبة بعيدة. سأنطلق يوماً إلى أطاكاما من جديد، وسأجدها في عدسة ذلك المرصد الكبير، سأجدها أينما كانت في امتداد السماء اللامتناهي وسأدعوها باسمها.

سوف أكتب لك هذه القائمة، يا حبي، ولكن في ما بعد، لأنني أحتاج إلى حَياة كاملة لإنجاز هذا العمل.

وصل والتر على متن سفينة الظهيرة، فذهبت أبحث عنه في المرفأ. ارتمى كل منا بين ذراعي الآخر وبكينا كأننا طفلان. كانت الخالة إيلينا على عتبة باب مخزنها، وحين سألها جارها صاحب المقهى ما كان بيننا، أجابته بأن ينصرف إلى الاهتمام بزبائنه، حتى ولو كانت سطيحة المقهى مقفرة من الناس.

لم يكن والتر نسي شيئاً من طريقة الركوب على حمار. فما سقط في الطريق سوى مرتين، والمرة الأولى ما كانت حقاً جراء خطأ ارتكبه. عندما وصلنا استقبلته أمي كما لو

أن ابناً ثانياً يدخل بيتها. فوشوشته في أذنه، ظناً منها أنني لا أسمع، بأنه كان في وسعه أن يخبرها بذلك قبل الأوان. فسألها والتر عما تتحدث. هزت كتفيها وتمتمت اسم كيرا.

والتر رجل غريب الأطوار. والخالة إيلينا انضمت إلينا أثناء العشاء. إنه بالغ في إضحاكها لدرجة أني اضطررت أخيراً إلى الابتسام. هذه البسمة انعشت ألوان الحياة على وجه أمي، فنهضت متذرعة برفع المائدة، ولدى مرورها بمحاذاتي. داعبتْ خدي.

في صباح الغد، حدثتني عن همومها، وذلك للمرة الأولى منذ وفاة والدي. هي بدورها لم تفرغ من كتابة قائمتها. ثم قالت لي هذه العبارة التي لن أنساها أبد الدهر: فقدان أحد أعزائنا أمر رهيب، لكن الأسوأ هو ألا نكون التقيناه.

خيم الليل على هيدرا. نامت الخالة إيلينا في حجرة الضيوف، واعتكفت أمي في غرفتها. فيما أعددتُ أنا أريكة غرفة الاستقبال لوالتر، ورحنا نحتسي كأس أوزو على السطيحة.

سألني كيف حالي، فأجبته على خير ما أستطيع أن أكون. إني ما زلت أنعم بالحياة. أعرب لي والتر عن مدى سروره لرؤيتي. قال لي أيضاً إن لديه شيئاً لي، طرداً

مرسلاً على عنواني في الأكاديمية، قادماً من الصين.

إنها علبة كرتون كبيرة، مودعة بريد لنغ باو، تحتوي على الأمتعة التي كنا تركناها في الدير: كنزة صوف كانت ترتديها كيرا، فرشاة شعر، بعض الحوائج وظرفي صور.

قال لي والتر بصوت متردد: كان هنالك جهازا تصوير قابلان للرمي بعد الاستعمال. أذنتُ لنفسي بتظهيرها لك، ولم أكن أعلم إن كان ينبغي تسليمك كل هذا الآن، لعل الوقت ما زال مبكراً.

فتحتُ الظرف الأول. كانت كيرا حذرتني أن أصغر تفصيل يؤجج الألم. وكان والتر لطيفاً معي، فتركني وحدي وأوى إلى فراشه. لقد قضيت شطراً كبيراً من الليل أنظر إلى هذه الذكريات التي كنا أنا وكيرا سنكتشفها لدى عودتنا إلى لندن. كانت بين هذه الصور، تلك التي التقطت في ذلك اليوم ونحن نستحم عاريين في النهر الأصفر.

في الغد، ذهبت ووالتر إلى المرفأ حاملاً معي الصور. فأريتُه إياها ونحن على شرفة المقهى، كان لا بد أن أروي له قصة كل منها. القصة التي عشناها أنا وكيرا، من بكين إلى ناركوندام.

ـــ هكذا تمكنتَ أخيراً من العثور على هذه القطعة

الثانية.

أجبته: الثالثة. أما أولئك الذين اغتالوا كيرا ففي حوزتهم قطعة أيضاً.

ـ ربما ليسوا هم الذين تسببوا في وقوع هذا الحادث؟

تناولتُ الأداة من جيبي وقدمتها له.

تمتم قائلاً: يا له من شيء غير قابل للتصديق! عندما تجد في نفسك الجرأة على العودة إلى لندن، لا بد من القيام بدراستها.

ـ لا، لا جدوى من ذلك إطلاقاً، فثمة دائماً قطعة ناقصة ترقد في قعر النهر.

تناول والتر ظرف الصور مجدداً ونظر إليها واحدة واحدة مولياً إياها كل انتباهه. وضع اثنتين منها جنباً إلى جنب موجهاً إلي سؤالاً غريباً.

كانت كيرا في المسودتين تستحم، وأنا أعرف المكان. في إحدى الصورتين، لفت نظري إلى أن ظل الأشجار التي تحدق بالنهر يمتد يميناً، وفي الصورة الأخرى يمتد ناحية اليسار. في الأولى، كان وجه كيرا سليماً، بينما في الثانية كان في وجهها ندبة كبيرة. لقد توقف قلبي.

ـ قلتَ لي إن السيارة جرفها النهر ولم يتم العثور على جثتها، أليس كذلك؟ لا أريد، والحالة هذه، أن أوقظ فيك آمالاً ستتبّين أنها مريرة، لكني أعتقد مع ذلك أن عليك العودة في أقرب وقت إلى الصين، هذا ما همسه فيّ والتر.

هيأت حقيبتي في الصباح نفسه. كانت سفينة خط آثينا تبحر عند الظهيرة، ووفّقنا في إدراكها في الوقت المناسب بالضبط. وكنت قد وجدت رحلة تصل ببكين مساء. كنت أذهب إلى الصين، فيما يعود والتر إلى لندن، وكان موعد انطلاقنا في الساعة ذاتها تقريباً.

في المطار، حملني على التعهد له بالاتصال به ما أن أعرف مزيداً من الأخبار.

وبينما كنا نتبادل تحيات الوداع في الممر الجانبي، بحث عن بطاقة طيرانه. كان يفتش في جيوبه وراح يرمقني بنظرة مستغربة.

قال لي: آه، كدت أنسى، مستخدم جوال سلّم هذا للأكاديمية باسمك. وبالطبع، كان باستطاعتي أن أقوم دائماً بدور ساعي البريد. هذا سيتيح لك القراءة أثناء الطيران.

سلمني غلافاً ممهوراً يظهر عليه اسمي ونصح لي بإلحاح أن أركض إن كنت لا أرغب في تفويت طائرتي.

كان قائد الطائرة قد أذن لنا بحلّ أحزمة أماننا، بينما كانت المضيفة تدفع عربتها الصغيرة في الممر، مقدمة المرطبات لركاب الصفوف الأولى.

تناولتُ من جيبي الرسالة التي سلمنيها والتر وفضضتها.

عزيزي أدريان،

لم تتوافر لنا فرصة التعارف حقاً وإني لآسف لذلك، كما آسف للاحداث المأسوية التي عشتماها في الصين. لقد حالفني الحظ في أن أعاشر كيرا. كانت امرأة رائعة، وأتصوّر كم كان غمك كبيراً. ليس الصيادون هم الذين أنقذوكما بل رهبان كانوا يستحمون في النهر، في الوقت الذي تدهورت فيه سيارتكما. ولعلك تتساءل كيف أعرف هذا؟

ليس في وسعك أن تتذكر ما حدث، لأنك كنت لا تزال فاقد الوعي، أما أنا فعدتُك في المستشفى. أنا من قام بالإجراءات الضرورية لتأمين إعادتك من الصين إلى وطنك، ما أن سمحتْ بذلك حالتك الصحية. لماذا؟

لأني أشعر بأني مسؤول بعض الشيء عما جرى لك. إني رجل مسن، أُولع، شأنه شأنك، وفي أوقات أخرى،

بالأبحاث التي قمتما بها كلاكما. وقد اتفق لي أن قدّمت العون لكيرا ما استطعت إلى ذلك سبيلاً، وأن أقنعها بعدم التخلي عن محاولتها، وإني لمدرك بأنك تود من دونها وقف كل نشاط. على أني أعرف أنها كانت ستتمنى لو واصلت عملك. ينبغي مواصلته، وإلا سيكون من غير المنصف أن تضحي بحياتها من أجل لا شيء. ما ستكشفه يتجاوز ربما كثيراً إطار وجودك وحده، وإني على يقين من أنه سيؤدي بك في نهاية الأمر إلى الإجابة عن الأسئلة التي تطرحها على نفسك منذ البداية.

خلال أعوام الأبحاث العديدة هذه، اكتشفتُ نصاً آخر قد لا يكون بمنأى عن البحث الذي تواظب عليه. يتعلق الأمر بكتابة تمكّن قلة من الناس من الاطلاع عليها.

في حال أخفقت في حملك على تغيير رأيك، لا تقرأ إذاً هذه الورقة المرفقة برسالتي، أرجوك، إنها لا تخلو من الخطر إن أخذتَ علماً بمضمونها. إني أعتمد على إحساسك بالشرف الذي أعرف أنه لا يزول. أما في حال العكس، فاقرأها وأنا على يقين من أنك ستفهم يوماً ما.

إن للحياة من الخيال أكثر مما لنا جميعاً متحدين، وهي قد تجلب معها أحياناً أعاجيب صغيرة، فكل شيء ممكن حصوله، حسبنا أن نؤمن به بكل قوانا.

سفراً سعيداً، أدريان

صديقك المخلص إيفوري

فتحتُ ثانية ظرف الصور لأنظر مرة أخرى إلى الصورة التي كانت تنعش فيَّ الأمل غير المعقول بأن كيرا ما زالت على قيد الحياة.

بسطتُ ورقة الرسالة الثانية لأيفوري...

«ثمة أسطورة تروي أن الطفل في أحشاء أمه يعرف كل شيء عن سرّ الخلق، منذ نشوء العالم حتى نهاية الأزمنة. يوم مولده، يمرّ رسول فوق مهده ويضع إصبعاً على شفتيه كي لا يكشف أبداً السر الذي ائتمن عليه، أي سر الحياة. هذه الأصبع الموضوعة التي تمحو إلى الأبد ذاكرة الطفل تترك علامة. هذه العلامة نملكها جميعاً فوق الشفة العليا، ما عداي أنا.

ففي اليوم الذي ولدتُ فيه، نسي الرسول زيارتي، لهذا فأنا أذكر كل شيء».

لدى طي رسالة إيفوري، تذكرتُ هذا الحديث الذي أجريته مع كيرا في غضون سهرة أمضيناها في العراء، حين كنا نتابع طريقنا باتجاه كورنواي.

ـ أدريان، ألم تسأل نفسك يوماً من أين أتينا؟ ألم تحلم قط أن تكتشف إن كانت الحياة ثمرة مصادفة أو منبثقة من يد الله؟ أي معنى تعطي تطورنا؟ هل نحن حقاً مرحلة ما باتجاه حضارة أخرى؟

ـ وأنتِ كيرا، هل حلمت يوماً بمعرفة أين يبدأ الفجر؟

كانت الرحلة التي أقلعت من آثينا إلى لندن تشكو من تأخر ساعة كاملة. أخيراً رُفِع الخرطوم. رنّ هاتف. أنّبت المضيفة الراكب الجالس في الدرجة الأولى الذي تسلّم المكالمة، ووعد هذا الأخير أن يكون مقتضباً في حديثه.

ـ ما كانت ردة فعله حينما شاهد الصور؟

ـ كيف كنت تصرفت أنت لو كنت مكانه؟

ـ هل سلمته الرسالة؟

ـ نعم، وفي الوقت الذي نحن فيه، لا بد أنه على وشك قراءتها.

ـ أستخلصُ من ذلك إذاً أنه عاود الرحيل. أشكرك والتر، لقد قمتَ بعمل جيد.

ـ أرجوك، إيفوري، إنه لشرف لي أن أعمل معك.

كان بحر إيجه يتلاشى تحت جناحي طائرتي، في غضون عشر ساعات سأصل إلى الصين...

---

[1] البقايا المتحجرة للكائنات الحية ــ المترجم.

[2] تم اكتشاف لوسي في 30 تشرين الثاني 1974 في حضر، على ضفاف نهر أواش، في نطاق مشروع ضم حوالي ثلاثين باحثاً أثيوبياً، أميركياً وفرنسياً، يقودهم دونالد جوهانسن، موريس طيب وإيف كوبنس. ودعي الهيكل العظمي لوسي لأن مكتشفيه كانوا يدندنون طوال النهار أغنية البيتلز Lucy in the sky with Diamonds

[3] الدولمن: حجارة ضخمة تعود أصولها إلى عصور ما قبل التاريخ ــ المترجم.

[4] المر مادة صمغية كثيرة الاستعمال في الطب واستخدمها المصريون القدماء في التحنيط. ــ المترجم ــ